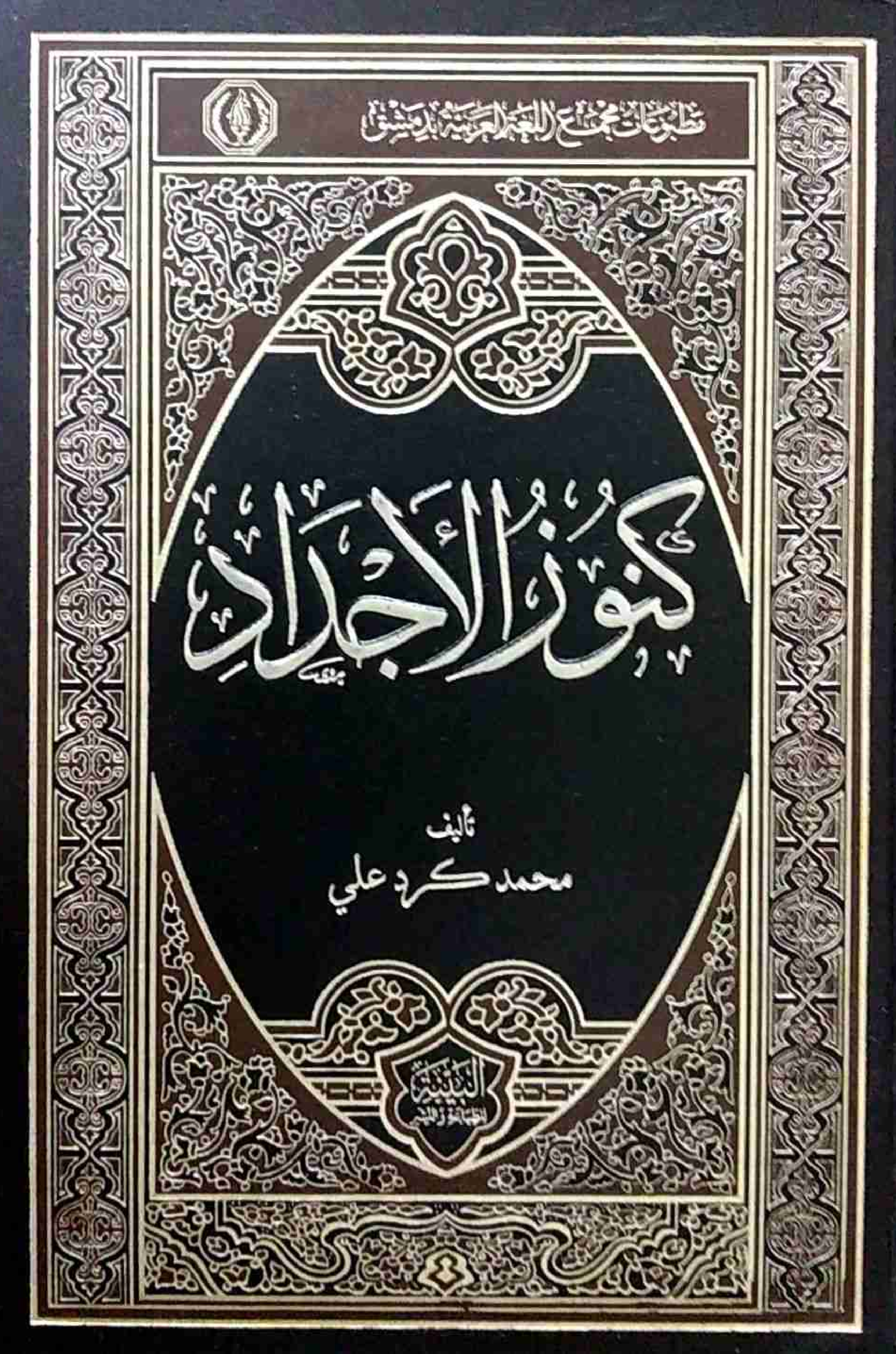

مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق
كنوز الأجداد
تأليف
محمد كرد علي

# كنوز الأجداد

الطَّبْعَةُ الأُولَى
١٣٧٠ هـ - ١٩٥٠ م

الطَّبْعَةُ الثَّانِيَةُ
١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م



بتصريح من
مجمع اللغة العربية بدمشق
لدار البينة للطباعة والنشر




للطباعة والنشر
دمشق - ص.ب ٣٥٠٢٣
هاتف: ٢٢٥٤٤٩٦ - فاكس: ٢٢٥٧٣٤٢



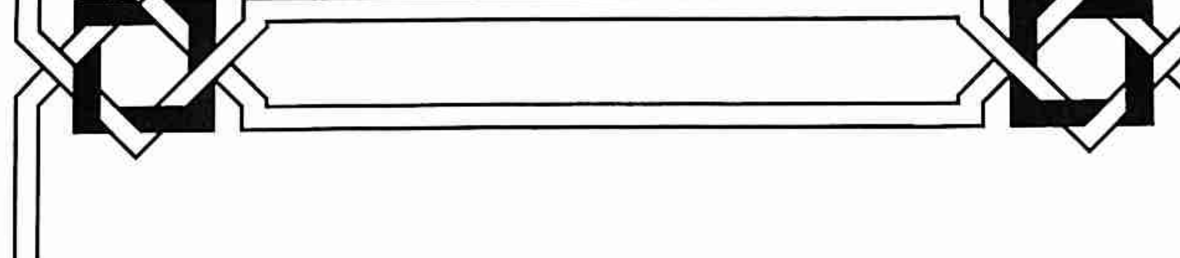

تأليف

محمد كرد علي

راجع هذه الطبعة

الأستاذ مروان البواب

عضو المَجْمَع



# الإهداء

إلى روح من أَشرب قلبي حبَّ العرب، وهداني إلى البحث في كتبهم، صدر الحكماء سيدي وأستاذي العلامة الشيخ طاهر الجزائري

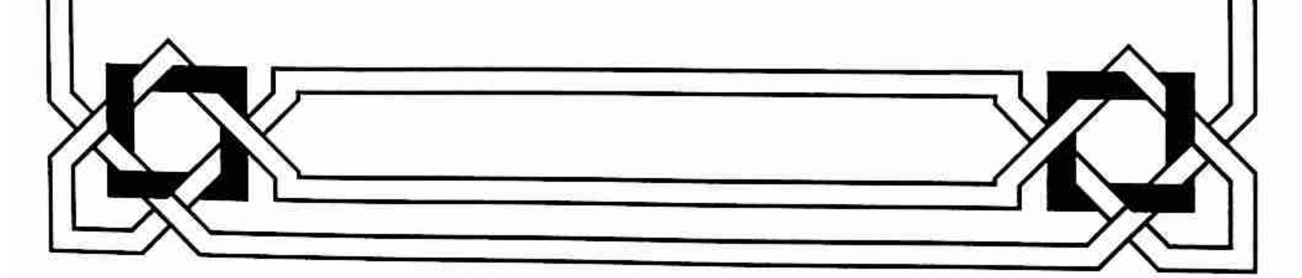
أهدي كتابي كنوز الأجداد

محمد كرد علي

جسرين (غوطة دمشق)

٤ شوال ١٣٦٩

١٨ تموز ١٩٥٠



# الفهرس العام

## أبواب الكتاب وفهارسه



# المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

يحمل هذا التصنيف سيرةَ بعض مَن طالت عشرتي لهم، واغترافي من معين أَسفارهم من رجال الإسلام. وكان كثيرٌ غيرهم أحرياء أَن يضموا إليهم، فمنعني منه كوني لم أُطالع ما كتبوا مطالعة متدبر متبحر، أَو كان ما غلب عليهم من فروع العلم لم يكتب لي حظ الاشتغال به. ولو حاولت أن أُترجم لكل عظيم من مؤلفي العرب لاقتضى أن أكتب تراجم خمسين مؤلِّفًا على الأقل من كل قرن من قرون الإسلام، وهذا مما يعجز الفرد عن الاضطلاع به.

والقصد من تَذَكُّر المؤلِّفين وما أَلَّفوا ـ وحصرتُ الكلام في المطبوع منها ـ أن نظل على اتصال بهم، وفي ذلك شيءٌ من الوفاء لهم، ومعنى من معاني التقديس لمن أَبقوا لنا هذا المجد العظيم الذي فاخر به عظماء العلماء على الدهر.

وإني لمعترفٌ بقصوري عن الإحاطة بكل ما تجب الإشادة به من صنيع هؤلاء الأعلام، وإذا بدا اقتضابٌ في وصف جوانب من حالاتهم فالسبب فيه قلة المصادر التي يعتمد عليها. وقد أَطَلْتُ في مسائل، رجوت منها أن تكون عونًا على تجلية الرجل الموصوف، وقد تنطوي على أفكوهة طريفة.

والمسؤول تعالى أَن تحقِّق هذه الصفحات شيئًا من الغرض الذي أُحاول بلوغه، وأَن يتفضل من يجيء بعدي فيستدرك ما فاتني ويجبر ما قصرت فيه، والكمال لله وحده.

# حياة الشيخ طاهر الجزائري

**أصله ونشأته:**

هو طاهر بن صالح بن أحمد بن موهوب السمعوني الجزائري، هاجر والده الشيخ صالح من الجزائر إلى دمشق في سنة ١٢٦٣هـ، وكان من بيت علم وشرف معروف في بلاده، ولما جاء دمشق تولى قضاء المالكية، وولد له ولدٌ في شهر ربيع الثاني سنة ١٢٦٨هـ دعاه شيخ والده الشيخ المهدي (الطاهر). قال والده في حاشية المجموع الفقهي للعلامة الأمير المالكي «طهره الله من رجس دنياه ودينه، وبارك في عمره، ورزقه العلم والعمل به». واستُجيب دعاء والده فنشأ ابنه طاهر على حب الفضائل والتناغي بالعلم والعمل.

دخل الشيخ طاهر المدرسة الجقمقية الاستعدادية فتخرج بأستاذه الشيخ عبد الرحمن البوشناقي، وكان مربِّيًا شديد الشكيمة، أخذ عنه العربية والفارسية والتركية ومبادئ العلوم، ثم اتصل بعالم عصره الشيخ عبد الغني الميداني الغنيمي الفقيه الأصولي ا لنظار. وكان واسع المادة في العلوم الإسلامية، بعيد النظر، وهو الذي حال بإرشاده في حادثة سنة ١٨٦٠م بدمشق دون تعدي فتيان المسلمين على جيرانهم المسيحيين في محلته، فأنقذ بجميل وعظه وحسن تأثيره بضعة ألوف من القتل، في تلك المذابح المشؤومة. وكان الشيخ الميداني على جانب عظيم من التقوى والورع يمثل صورة من صور السلف الصالح، فطَبَع الشيخ طاهرًا بطابعه، وأنشأه على أصح الأصول العلمية الدينية. وكانت دروسه دروسًا صافية المشارب، يرمي فيها إلى الرجوع بالشريعة إلى أصولها، والأخذ من آدابها بلبابها، ومحاربة الخرافات التي

استمرأتها طبقات المتأخرين، وإنقاذ الدين من المبتدعين والوضَّاعين. وإذ جمع الشيخ طاهر إلى سلامة الفطرة وسلامة البيئة، جودة النظر وبُعْدَ الهمة، جاء منه بالدرس والبحث عالِمٌ مصلح وفيلسوف إلهي، أشبه الأوائل بهديه، وتَمثَّل بالأواخر في نظره ووفرة مادته.

ولم يغفل الأستاذ خلال سِنِيّ الدراسة عن درس العلوم الطبيعية والرياضية والفلكية والتاريخية والأثرية، أخذها عن علماء من الترك وغيرهم، فكان إذا رأى أعلم منه بفنٍّ أخذ عنه فنه، وأفاده فيما لا يحسنه من فنون العلم. ومن مَثَّل لعينيه كيف كانت بيئته منحطة أوائل النصف الأخير من القرن الماضي، أيام كان يتهم بالمروق كلُّ من تعاطى علمًا لا يعرفه المتفقهة، يدرك ما عاناه الأستاذ لتلقُّف علوم القدماء. ولم يبلغ الثلاثين من عمره حتى أتقن العربية والفارسية والتركية، ونَظَمَ بالفارسية كالعربية. وكان نظمه بالعربية أرقى من شعر الفقهاء ودون شعر الشعراء، وأَلِف السجع لأول أمره ثم تخلى عنه، وأصبح يكتب المرسل بلا كلفة ولا تَعَمُّل، وتعلم الفرنسية والسريانية والعبرانية والحبشية والقبائلية البربرية لغة أهله الأصلية.

ومما ساعده على فتح صدره الرحب لجماع المعارف البشرية غرامُهُ منذ نشأته بجمع الكتب وهو لما يزل في المدرسة الابتدائية. فقد أخذ يبتاع الدشوت والرسائل المخطوطة من دريهمات كان يرضخ بها له والده لخرجه. وكانت الكتب والرسائل تباع في الكلاسة شمالي الجامع الأموي على مقربة من ضريح صلاح الدين. وكلما أحرز الشيخ شيئًا من الأوراق والأسفار طالعه بإمعان وخبأه وحرص عليه، فاستنار عقله وكثرت معلوماته، واجتمعت له بطول الزمن خزانة مهمة من الأسفار بلغت بضعة آلاف مجلد فيها كثير من النوادر المخطوطة.

تولى التعليم لأول أمره في المدرسة الظاهرية الابتدائية، ولما أُسست الجمعية الخيرية من علماء دمشق وأعيانها سنة ١٢٩٤هـ دخل في عداد

أعضائها، وكان من أكبر العاملين فيها، ثم استحالت هذه الجمعية «ديوان معارف»، فعيِّن مفتشًا عامًّا على المدارس الابتدائية التي أُنشئت على عهد المصلح الكبير مدحت باشا والي سورية سنة ١٢٩٥هـ. وكان للشيخ الأثر العظيم في تأسيس المدارس الابتدائية بمعاونة صديقه بهاء الدين بك أمين سر الولاية، وهو أديب تركي، كان يحب نهضة العرب كما يحب العلم والأدب. وفي هذه الحقبة ظهر نبوغ شيخنا وعبقريته في تأسيس المدارس واستخلاص القديمة من غاصبيها، وحَمْل الآباء على تعليم أولادهم، ووَضْع البرامج وتأليف الكتب اللازمة. كان يقوم بهذه الأعمال المهمة ولا يفتأ يزداد كل يوم علمًا وتجربة وتفانيًا في نهضة البلد، وتحسين الملكات وصقل الأخلاق والعادات.

وأنشأ على ذاك العهد أيضًا بمعاونة بضعة من أصدقائه «دار الكتب الظاهرية» بدمشق، وجَمَعَ فيها سنة ١٢٩٦هـ ما تفرَّق من المخطوطات العظيمة في عشر مدارس تحت قبة الملك الظاهر بِيبَرْس البُنْدُقداري، ولَقِيَ ممَّن استحلوا أكل الكتب والأوقاف مقاومةً شديدة وهدَّدوه بالقتل إن لم يرجع عن قصده، فما زادوه إلا مضاءً وإقدامًا. ولا تزال هذه الدار أثرًا من آثاره في دمشق. وقد أنشأ مثلَها في القدس باسم الشيخ راغب الخالدي وسماها (المكتبة الخالدية) وأضاف إليها بعد ذلك آلُ الخالدي خزائنَهم الخاصة.

**علمه وعمله:**

رأينا منهاج الدروس الواسع الذي أخذ الشيخ نفسه بدراسته منذ حداثته، وأنه ليندر في المتأخرين من علماء دور الانحطاط الفكري نبوغ رجل مثله، وعى صدره من ضروب المعارف ما وعى، وطبق مفاصل الشريعة مع علوم المدنية. فقد كان متضلعًا من علوم الشريعة وتاريخ الملل والنحل، منقطع القرين في تاريخ العرب والإسلام وتراجم رجاله ومناقشات علمائه ومناظراتهم وتآليفهم ومناقشات علمائه ومناظراتهم وتآليفهم ومراميهم. ساعده

على التبريز في هذا المضمار قوة حافظته التي لا تكاد تَنْسى ما يمر بها مهما طال العهد. وكان إمامًا في علوم الأدب واللغة، إذا سألتَه حلَّ مسألة تظن الشيخ لا يعرف غير هذا العلم، وإذا استرشدته في الوقوف على مظان موضوع تريده أطلعك من ذلك في الحال على ما لا يتيسر لغيره الظفر به بعد الكشف عنه أيامًا. وهكذا هو في علوم الشريعة ولا سيما التفسير والحديث والأصول. وكان يعرف السياسة وما ينبغي لها، وحالة الغرب واجتماعه، والشرق وأُممه وأمراضه معرفة أخصائي لا معرفة نُتَفَة. ولا يكاد جليسه يصدق إذا انكفأ الشيخ يتكلم في هذه الموضوعات، خصوصًا إذا كان غريبًا، أن محدِّثَه شيخٌ من شيوخ المسلمين يعيش في أمة قد لا تقيم وزنًا لهذه المعارف.

اتسع صدر الشيخ لجماع علوم المدنية الحديثة إلا الموسيقا والتمثيل، فلم يكن له حظ فيهما، وربما قاوم سرًّا المشتغلين بهما، مخافة أن تكونا سُلَّمًا إلى التبذل وخلع ثوب الحياء، وكان يراهما مدرجة إلى اللهو والصبوة، وهذا مما لم يدخله الشيخ في جريدة أعماله، ولذلك لا يفتي بالتسامح مع القائمين عليهما، مهما أوردوا له من الحجج على نفعهما. وصعب أن يتخلى المرء عن جميع ما أورثه إياه دمه وأهله وأساتذته. وصعب على من حلف أن يعيش عيش جدٍّ وتبتل أن يتساهل في الصغائر لئلا تؤدي إلى الكبائر. أما الرسم والتصوير والنقش، فكانت مما يتسامح فيه لكنه يغمزه عرضًا. وكثيرًا ما يقول: إن أجيال الفرنجة في هذا العصر أفرطوا في الغرام بالتصوير، والتعويل عليه في كل أمر، فأضعفوا بذلك قوة التفكير والتصوير.

وسياسة الشيخ في التعليم محصورة في تلقف المسلمين أصول دينهم والاحتفاظ بمقدساتهم وعاداتهم الطيبة وأخلاقهم القديمة القويمة، وأن يفتحوا قلوبهم لعامة علوم الأوائل والأواخر من فلسفة وطبيعي واجتماعي على اختلاف ضروبها، ويقاوم المتعصبين على هذه العلوم المنكرين غناءها

مقاومةَ حكيمٍ عاقل، وذلك بتكثير سواد الدارسين لها، وإرشادهم إلى طرقها العملية المنتجة، لا الوقوف بها عند حد الأنظار. فعمَّ المسلمين في الشام درس علوم نرى اليوم الأخذ بحظٍّ منها من البديهيات، اللهم إلا عند بعض الجامدين ممن جهلوها، ومَنْ جهل شيئًا عاداه.

وكانت للشيخ طرقٌ مبتكرة في بث الأفكار التي تخالف معتقد الجمهور، يبثها في العقول بدون جعجعة، ويقرِّب منالَها من المستعدين للأخذ بها، وذلك بتلقينهم أمهات مسائلها أثناء الحديث، على صورة لا ينفرون منها، ولا يخطر لهم أنها من البدع المنكرة. مثال ذلك أنه أُولع في صباه بكتب شيخ الإسلام ابن تيمية، وكان جمهرة الفقهاء في عصره تكفِّر ابن تيمية تعصبًا أو تقليدًا لمشايخهم، فلم ير الشيخ لتحبيب ابن تيمية إليهم إلا نشر كتبه بينهم من حيث لا يدرون. فكان يستنسخ رسائله وكتبه ويرسلها مع من يبيعها إليهم في سوق الوراقين بأثمان معتدلة، لتسقط في أيدي بعضهم فيطالعونها، وبذلك وصل إلى غرضه من نشر آراء شيخ الإسلام التي هي لباب الشريعة.

هذا وليس الشيخ في مذهبه على الحقيقة حنبليًا ولا مالكيًا ولا حنفيًا، بل هو مسلم يأخذ من أصل الشريعة باجتهاده الخاص، ويُحْسِن ظنَّه بأئمة المذاهب المعروفة، ويتجهم لمن يجرُؤُ على النيل من أحد العلماء عامة. يعمل بما صَحَّ له من الدليل في الكتاب والسنة، ولطالما أعطى الحق لعلماء الشيعة أو الإباضية أو المعتزلة في مسائل تفرَّدوا بها وضيَّق فيها أهل السنة. أما الفلسفة أو الحكمة القديمة والفلسفة الحديثة، فكان يعطف عليها وعلى المشتغلين بها، وينحي باللائمة على المتأخرين الذين أوصدوا بابها فأظلمت العقول وضعف مستواها.

كان الشيخ ينكر على الظالمين سيرتهم، ويقبِّح الظلم وإن نال عدوَّه، وينصف الناس من نفسه بعض الشيء. وكان الحكام معه في بلية يعرفون أنه ينزع إلى القضاء على سلطتهم الغاشمة، ولا يستطيعون أن يظهروا العداء له.

وكذلك كان المشايخ معه يبغضون أفكاره، ولا يجرؤون على مقاومته بسلاحه: سلاح العلم والبرهان. وكان كثيرًا ما يقول: ما لنا ولأناس ليس لهم من السلطان علينا غير سلاطة ألسنهم، وكلمات يُنَفِّسون عنهم بها، وهي لا تخرج إلى أبعد من سقوف حُجَرهم. وحدث لبعض أغمارهم أن استعانوا غير مرة بالسلطة الزمنية على توقيف تيار أفكاره وأفكار أنصاره، فكان الشيخ يصدهم بما له من التأثير في أهل الحل والعقد، ممن كانوا يتمثل لهم عقل الرجل وضعف المبغضين له، وكان يُحْسِن مخاطبتهم بلسانهم، والقائمون عليه لا يحسنون محاورتهم حتى ولا بلغتهم الأصلية. وسلاحهم دسائس يحوكونها، وتعصبات ينفثونها. ولم يزل جهال الناس، كما قال ابن المقفع، يحسدون علماءَهم، وجبناؤهم شجعانَهم، ولئامُهم كرماءَهم، وفجارُهم أبرارَهم، وشِرارُهم خيارَهم.

من أجل هذا كان الأستاذ يتفنَّن في بث أفكاره بين الخاصة والعامة على صور شتى، ويتفانى في نشر العلم والتهذيب والأخذ من القديم والحديث. وكم من عاميٍّ أَصبح بتعاليمه وتلقينه بالعمل مسائل بسيطة من العلم معدودًا من المتعلمين في جلسات قليلة جلسها معه وسمع مذاكراته، ومن هذه الطبقة أُناسٌ ما فتئ على تنشيطهم حتى أَلفوا وطبعوا ولم يكونوا قبله في العير ولا في النفير.

وكم من جريدةٍ أو مجلة أو كتاب أو رسالة نُشرت في مصر والشام بإرشاده. وكان له أسلوب جرى عليه خصوصًا في تفتيش المدارس وهو أن يُعلِّم المعلم، ولا يشعره بأنه يعلِّمه، بل يوهمه أنه يذاكره في مسائل التربية والتعليم، أو أنه يحاول أن يتعلم هو منه. وكم من أديبٍ أو عالم أرشده إلى السبيل السويِّ في أدبه وعلمه، وعلَّمه المظانَّ وأساليب المراجعة. وكثيرٌ عددُ مَن اشتغلوا بالآداب أو تعلموا التعليم الثانوي أو العالي في الديار الشامية إن لم يكونوا استفادوا منه مباشرةً فالبواسطة. وتلاميذُه ومريدوه من المسلمين

يُعَدُّون بالعشرات وأكثرهم اليوم يَشغلون مقاماتٍ ساميةً في دور العلم والحكم، وفي التجارة والزراعة.

لم يَحِدِ المترجَم له عن الخطة التي اختطَّها لنفسه منذ نعومة أظفاره، ودعا الناسَ إلى انتهاجها حتى آخر أيامه. وخطته الإخلاص والعمل على النهوض بالأمة من طريق العلم وبث الملكات الصحيحة في أهل الإسلام. وثورتُهُ ثورةٌ فكرية لا مادية، ويقول: إن هذه الطرق يَطول أمرها، ولكن يُؤْمَنُ فيها العثار، والسلامةُ محقَّقة ثابتة.

بِحَقٍّ ما قيل في الشيخ أنه مَعْلمةٌ (انسيكلوبيديا) سيارة، أو خزانة علم متنقلة. وكيف لا يكون كذلك من آتاه خالقُهُ حافظةً قوية وذهنًا وقَّادًا وعقلًا يستعمله. فقد قرأ جميع ما طالت يده إليه من الكتب العربية التي طبعت في الشرق والغرب. أما المخطوطات التي طالعها ولخصها في كنانيشه وجزازاته فتُعَدُّ بالمئات. وقَلَّ أن يُدانيه أحدٌ في علم الكتب ووصفها ومؤلفيها وأماكن وجودها وما عَرَضَ لها. ولطالما رَحَلَ من بلدٍ إلى بلد بعيد ليطلع على مخطوطٍ حُفِظ في بعض الخزائن الخاصة. وبالنظر لإحاطته بالمظان وتدوينه في الحال كلَّ ما يقع استحسانه عليه من الفوائد، كان يسهل عليه التأليف فيما ترتاح إليه نفسه من الموضوعات. وقد يؤلِّف الكتابَ في بضعة أسابيع على شرط أن يوقن أنه سيطبع. وإذ كان عصبيَّ المزاج يسارع إلى النشر متى افترص الفرصة المناسبة لإخراج التأليف، ويقول: إن الإتقان لا حدَّ له، والأغلاط تُصحَّح مع الزمن.

هو واسع الرواية واسع الدراية، أو كما قال صديقه العلامة أحمد زكي باشا في برقية أبرقها إلى الشام بالتعزية به: «كنت أرى فيه الأثر الباقي، والمثال الحي، والصورة الناطقة لما كان عليه سلفنا الصالح، من حيث الجمع بين الرواية والدراية في كل المعارف الإسلامية، وبين الدأب على نشرها بعد التدقيق والتمحيص، واستثارة خباياها وإبراز مفاخرها، هذا إلى

التفاني في توسيع نطاقها، بقبول ما تجدَّد عند الأمم التي تلقت تراث العرب باليمين، والدعوة إلى الإقبال عليه مضمومًا إلى آثار الأبناء ومآثر الأجداد. وهكذا قضى الشيخ عمرًا أولًا وثانيًا وثالثًا في خدمة العلم والدعوة إليه بالقلم واللسان وبالقدوة الحسنة، حتى تم له شيءٌ كثير مما أراد بن الأنداد والتلاميذ والمحبين والمريدين، فهم مناط الأمل وفيهم خير خلف، لذلك يغتبط قاسيون بضم رفاته والحنوّ عليها».

**أخلاقه وعاداته:**

قلنا إن سرية الشيخ طاهر كانت نمطًا واحدًا طول حياته، هكذا كان متعلمًا ومعلمًا وعالمًا، يحب العمل ويدعو إليه قبل النظر، جدٌّ في حركته لا يبالي بالعوائق مهما عظمت، وكلما حاول أعداؤه أن يقفوا دون بث دعوته يزداد قوة وعرامة، شأن كل الدعوات، كلما حاربتَها زِدْتَها انتشارًا.

ألغت الحكومةُ وظيفةَ التفتيش بالمدارس تخوفًا من شدته في بث أفكاره بين الأساتيذ والتلاميذ فزاد نشاط الشيخ، وكان يكنِّي ويورِّي فغدا يعمل علنًا بخلاصه من أسر الخدمة. وكان مدرسًا في المدرسة الإعدادية بدمشق وهو من جملة مؤسسيها فاستقال، ثم عرضت عليه وظائف كبرى في غير السلك العلمي فأبى، لأنه كان يعرف أنه لا بد له في هذه المناصب من مشايعة الظَّلَمة والجهال. وجعل جلَّ اعتماده في عيشه آخر أيامه على الكتب التي اقتناها طول حياته وأخذ يبيع منها بالتدريج، وتسمح نفسه ببيعها إذا تأكد أنها تحفظ في معاهد عامة كدار الكتب المصرية والخزانتين التيمورية والزكية في القاهرة، فإن معظم نفائس خزانته نقلت إليها، وتمزَّز الشيخُ أثمانَها نحو أربع عشرة سنة. وكان اشتراها في صباه بأثمان بخسة فارتفعت أسعارها عشرة أضعاف أو أكثر.

كان الشيخ على ضيق ذات يده يتصدق أحيانًا على الفقراء في السر، وربما كزَّت يده عن لباسه وطعامه، وأطعم جائعًا وعال معوزًا. يصلي

الصلوات لأوقاتها، ويقيم شعائر الإسلام أنّى كان. فقد زار مرة أحد معارض باريز فكان إذا أدركته الصلاة صلّى في الحديقة العامة، لا يبالي بانتقاد الناس هناك، ولا استغرابهم حركاته وسكناته، وحجَّ مرةً وطبَّق مناسك الحج على ما يفعل العلماء العاملون. وكان مفطورًا على الرحمة، يأرق لجاره أو صاحبه إذا علم أنه أُصيب ببائقة في ماله أو أهله أو جاهه، خصوصًا إذا كان الرجل ممن ترضيه سيرته في الجملة.

كان الشيخ عفَّ النفس يستنكف أن يأخذ شيئًا من أحدٍ بلا مقابل مهما كان الواهب. فقد عَرَضَ عليه صديقُه الأستاذ أحمد زكي باشا رحمه الله أن يوقع على طلب وهو يتعهد له براتب جيد من الأوقاف المصرية على عهد الخديوي عباس الثاني فتنصل واعتذر، ولما اشتد صديقه في تقاضيه ذلك انتهره. حتى قال الأستاذ زكي باشا: لو كنت أعتقد أن رجلًا يعيش من تحت السجادة لاعتقدت ذلك في الشيخ طاهر، لأنه يقيم في بلد كمصر يشكو فيه الأغنياء من الغلاء، ولا يحب أن يأخذ من أحد شيئًا يستعين به في حياته، وكان كثيرًا ما يُنشد قصيدةَ القاضي علي بن عبد العزيز في عزة نفس العالم التي منها:

يقولون لي فيك انقباضٌ وإنما رأوا رجلًا عن موقف الذل أحجما

أرى الناسَ مَن داناهم هان عندهم ومن أَكْرَمَتْه عزةُ النفس أُكرِما

ولم أَقْضِ حقَّ العلم إن كان كلما بدا طمع صيرته لي سُلَّما

ولو أَن أهل العلم صانوه صانَهم ولو عَظَّموه في النفوس لعُظِّما

ولكنْ أهانوه فهان ودنَّسوا محيَّاه بالأطماع حتى تَجَهَّما

لا أكون إلى المبالغة إذا قلت: إن عزة النفس، وهو الخلق الذي ندر في علماء المسلمين لعهدنا، كان مما تفرد به، ففيه إباء الملوك الصالحين وزهد الزاهدين العابدين. لم يظاهر ظالمًا لغُنْم يصيبه، ولا صَحِب غنيًّا للانتفاع بغناه. وكان يؤثر الخمول وعدم الظهور، لا تهمه الشهرة استفاضت أم لم

تستفض، لأنه يهزأُ في باطنه بمظاهر الأُبهة والرفعة، ويزهد في اعتبارات كثيرة يتفانى الناس في تحصيلها، يزهد حتى في نسبته إلى الشرف، ولم يذكر ذلك إلا مرة واحدة، ذكَّره فيه أحد صلحاء الجزائريين أمامي، وسألته بعد ذلك عن نسبة بيتهم إلى الشرف فقال: «هكذا يقولون»: ولا عجب فشرف العلم أعظم نسبة.

هاجر الشيخ من دمشق لما كثر إرهاق العلماء في العصر الحميدي، فنزل القاهرة من سنة ١٣٢٥ (١٩٠٧) إلى سنة ١٣٣٨ (١٩٢٠) وظَلّ فيها طول هذه المدة على تقشفه والحرص على عاداته. وما تعلَّم لفظةً من اللغة الدارجة المصرية. ولما نشر القانون الأساسي في المملكة العثمانية (١٩٠٨) رأى الشيخ بنظره الثاقب أن عهد الحرية الحقيقية بعيد، وكان لا يغتر بقوانين الترك ولا بثرثرة السياسيين، فانزوى في مصر حتى استحكم منه مرض الرَّبو وقفل راجعًا إلى مسقط رأسه قبيل وفاته بأشهر قليلة، فعين مديرًا لدار الكتب التي كان أنشأها في صباه وعضوًا في المجمع العلمي العربي، وناداه ربه إلى جواره يوم ١٤ ربيع الثاني سنة ١٣٣٨ (٥ كانون الثاني سنة ١٩٢٠) فدفن حسب وصيته في سفح قاسيون جبل دمشق. وقبيل وفاته برَّح به الألم فاقترح على الطبيب أن يعطيه دواء يميته حالًا قائلًا: إن في الشرع ما يبيح ذلك، وهذا من أغرب ما سُمِع من عاقل. فركن الطبيب إلى الفرار وحلف أن لا يعود إلى تمريض الشيخ.

كان الشيخ فيلسوفًا بكل ما في الفلسفة من معنى شريف، لا تلتوي أخلاقه، ولا ينزل بحال عن عاداته، متشددًا في دينه، زاهدًا في دنياه، لم تبْهره زخارف الحياة، ولم يتزوج حتى لا يَشْغَل ذهنه بزوج وأولاد، وليكون أبدًا مطلق العنان يسيح في الأرض متى أراد، أو يقبع في كسر داره وسط كتبه ودفاتره. ولئن خلا من همّ نفسه فما خلا ساعة من الاهتمام بأمر المسلمين

وتحبيب العلم والعمل إليهم، ولا سيما الناشئة منهم، وفي تربية النشء كان يصرف شطرًا صالحًا من أوقاته.

عقد الشيخ صلاتٍ مستديمةً مع علماء عصره على اختلاف أديانهم وأجناسهم، صحب صديقه الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده كما صحب صديقه العالم المجري غولدصهير اليهودي. وكثيرًا ما كانت صلاته بعلماء المشرقيات باعثة على تخفيف حملاتهم على الإسلام ولو قليلًا. وهذا مما كان يهتم له، ثم يهمه من أمر المستعربين من المستشرقين توفرهم على خدمة آدابنا بنشرهم كتبنا النفيسة، وكان يعاونهم فيما هم بسبيله إذا استرشدوه، ويفتيهم راضيًا مختارًا إذا استفتوه فيما يتعذر وقوفهم عليه.

ومن عادة الشيخ أن يصحب الفِرَقَ المختلفةَ مهما كان لون طريقتهم ونحلتهم حتى الملاحدة وأرباب الطرق. رأى ذات مرة جماعة يتألفون على طريقة لهم يحيونها، وأذكار مأثورة يقيمونها، وشهد في بعض أفرادهم استعدادًا للعلم، فما زال بشيخهم، وكان من أصحابه وتلاميذه، حتى حمل الجماعة على أن يشغلوا الوقت في مطالعة كتاب من كتب القوم في التصوف، وكان هذا الكتاب في الأدب العالي والأخلاق الفاضلة. ورأيت الشيخ يحتمل كثيرًا من تَجَهُّم بعض أولئك المتألفين، فيدخل في مجلسهم مُظْهرًا أنه طالب استفادة، حريص على استماع درس أستاذهم، وهو يحمل إليهم النسخ المخطوطة من الكتاب لمعارضتها بالمطبوع، يحاول أن يعلم بعضهم صورة المراجعة في كتب اللغة، حتى تسلم العبارة من الخطأ، ويخدم الكتاب الخدمة اللائقة، وبذلك تيسر له أن ينقل بعض أرباب الاستعداد منهم من كتب التصوف إلى كتب العلم والأدب. وسمعتُ بعضَهم يتبرَّمون بقراءة تفسير ابن جرير الطبري وتبسُّطه في شرح الكتاب العزيز، فجاء من هذه الزمرة أدباء نافعون بعد أن كانت نفوسهم مشبعة بالكشف والخيالات والمنامات. وأَدْخل النورَ على كثير من أذكياء العلماء من أصحابه، وكان منهم الذين ذرَّفوا على

الستين، فما استطاعوا أن يؤثِّروا الأثر المطلوب في مريديهم، ومنهم من ساعدهم الطالع أن كانوا في سن الشباب، فعالجوا التأليف والوعظ والتعليم فانتفع بهم الناس، ومنهم من لم يتمرَّنوا على الكتابة والإلقاء فبقيت أفكارهم في دائرة القوة، لم يتعد أثرها المحتفين بهم من الأصحاب والمريدين.

ولقد كانت له صداقة أكيدة بالعالم المطران يوسف داوود السرياني يتسامران ويتحدثان ويتهامسان ويتناقشان. وما أدري إن كان المطران أثَّر في الشيخ أو أثَّر الشيخ في المطران. سمعتُ الشيخَ يثني الثناء المستطاب على صديقه المطران وقد طالت به صحبته وعشرته، وهكذا كان له اتصال بالأرمن واليهود واليسوعيين الكاثوليك والأميركان البروتستانت. وكان يغضي عن كثير من النقد على رجال الدين من غير المسلمين ويقول: هم أقرب الناس إلينا يعتقدون بالله واليوم الآخر وخلود النفس. وكانت جميع الطوائف تستلطفه وتحب عشرته، على ما بينها وبينه من التخالف الظاهر في الزي والعادة والخُلُق والمذهب، ويطلعونه من سرائرهم على ما لا يبوحون به لأقرب الناس إليهم. وسمعته غير مرة يقول: «الحمد لله لقد سالمنا كل الفرق».

صَحِبَ بعضَ الزنادقة، وما زال يصبر على ما ينبو عنه سمعه من تصريحه وتعريضه، وما فتئ يلقنه أفكاره بالتؤدة مدةً حتى عاد به إلى حظيرة الدين، وهو لم يشعر فيما أحسب بما دخل على عقله من التبدُّل، وصَحِبَ كثيرًا من غلاة الشيعة والطوائف الباطنية، فما برح يتلطف بهم حتى أَضْعَفَ من غلوائهم، وأبدلهم بعد الجفوة أُنسًا، وغيَّر من انقباضهم وانقباض الناس عنهم، ليعيشوا في هناءٍ وسط المجتمع الإنساني الأكبر.

وكان يتفنَّن في بثِّ الأفكار الصحيحة، وإخراج قومه من الأمية المميتة، ويَحْمِل خاصته ومن يصل صوته إليهم على تعليم أولادهم الممكنَ من ضروب العلم الذي يتناسب وحالتهم. وقال لي مرارًا: إذا أردتَ إدخال الإصلاح إلى بيوت الأعيان، وفيهم الجاه والمال، فاجهد لأن يتعلم ولو فرد واحد من كل

أسرة تقلب به كيانها. وكثيرًا ما قال: لنُخْرِجَنَّ من بيوت الأغنياء أولادًا يحاربونهم بسلاح التربية الصحيحة، وقد وُفق إلى ذلك بعض الشيء. وكان يقول: لو طلب مني اليهود أن أعلِّمهم ما تأخَّرتُ ساعةً عن إجابة طلبهم؛ لأن في تعليمهم تقريبًا لهم منا، مهما كانت المباينة والفوارق بيننا وبينهم.

ما رأيت الشيخَ يبغض إنسانًا بغضه لشقيقين دمشقيين (الشيخ صالح المنير وشقيقه الشيخ عارف المنير)، وكان إذا ذكر أحدهما أو كلاهما في مجلسه يقول: «دعونا»، وتنقبض نفسه انقباضًا دونه كل انقباض، ولو علمتَ أن بُغْضَه لهما كان ناشئًا من كونهما أَعطيا عهدًا على أنفسهما أن يَصُدَّا الناسَ عن طلب العلم لَبَطل عَجَبُك. وأكَّد الأستاذُ أن الأخوَيْن قد وُفِّقا إلى أن قَطَعَا عن الدرس نحو أربعين طالبًا، كان يرجى أن يكون منهم متعلمون وعلماء.

وكان من عادة بعض أدعياء العلم من الشيوخ أن يرغبوا الناس عن الدرس، ليَخْلُوَ لهم الجوّ ويَستمتعوا وحدهم بالمناصب الدينية والأوقاف والمدارس والجوامع، لا ينازعهم أحدٌ في شؤونهم، ما خلا أبناء بيوت محدودة معروفة ممن هم على شاكلتهم في غش الأمة والاستئثار بمرافقها، فكان شأن هؤلاء في الاستئثار الممقوت شأن كهنة قدماء المصريين لا يسمحون لغير فئة خاصة بالتعلُّم، أو شأن أصحاب الطبقات من الهنود أو اللاويين عند اليهود، لا يدخل أهل طبقة في طبقة غيرها مهما تبدل من حالتها.

من أجل هذا كان من رأي الشيخ أن يتعلَّم كلُّ طالب علم (العلم الإسلامي) صناعةً أو تجارةً أو نحو ذلك من أسباب المعاش ليستغني عن الناس وعن تكفف العظماء، وتَعْزف نفسه عن التناول من الأوقاف، والتمرغ في حمأة القضاء وينشأ على الاستقلال، لأن هذا العلم يطلب لذاته وفائدته في الدارين، لا للتكسب به عند السلاطين والحكومات. وفي سيرة بعض

علمائنا الأقدمين ممن كانوا يحترفون ويتَّجرون عبرةٌ لأهل هذا الشأن طالما ردَّدها الشيخ وأراد أصحابه على الاقتداء بالسلف.

ولطالما تفرَّس الشيخُ في أحدهم الشر، وأَعْرَضَ عنه وحذَّر أصحابه من الدنو منه، وناله من نقد غير العارفين ما ناله، ويقول بعضهم: إن الشيخ صاحب أطوار وغرائب، والشيخ ساكت ولا يزيد على قوله: «هم أحرار، ونحن لا نكمُّ أفواه الناس عن التحدث بما يروقهم»، وما لبثت الأيام بعد حين أن كشفت نفس ذاك الشرير على صورة مستغربة.

وكثيرًا ما كنت أسأله عن بعض الأشخاص من حيث علمهم أو أخلاقهم فيجيب: «الأمر مجهول»، فأفهم بالتعريض أن في معلوماتهم أو سلوكهم نظرًا، فيظهرون بعد لأيٍ بمظهر الجهل أو الخيانة، وقد خدعوا السذَّج من أصحاب الصدور السليمة ومن قَلَّت تجاربهم أعوامًا غير قليلة. ومن فراساته الغريبة يوم حدث الاعتداء على ولي عهد النمسا في مدينة سراجيفو سنة ١٩١٤ أن حربًا أوربية طاحنة ستنشب لا محالة، فأبعد في تصوره خطورة الموقف إلى ما لا يتعداه غير أعاظم المفكرين العارفين بنتائج الحوادث.

كان يصدع بالحق ولا يماري، إذا دخل مجلسًا ورأى فيه بعض الظالمين أو المخرفين غلب عليه الجلال فلا ينطق بكلمة، وإذا رأى من أحد الحاضرين تمويهًا في أمر وخروجًا عن الصدد جبهه وخرج عن مألوف الناس في الملاينة والملاطفة، وهذا سر من أسرار ازورار بعض الناس عنه. واتفق أن أحد أترابه ارتقى في الدولة العثمانية حتى أصبح الحاكم المتحكم في العهد الحميدي، فقاطعه الشيخ بلا سبب ظاهر، فتوسط صاحبه أحد أقاربه ليعود الشيخ إلى مراسلته، ووعد الشيخ ومنّاه، فأغضى الشيخ عن إجابته، ثم ألحّ الوسيط بعد مدة ليعرف الداعي إلى إعراض الشيخ عن صاحبه فقال: «اكتبوا له أننا لا نتعرف إليه ما دام لا يعرف أمته، ومتى فكر في إسعادها وتخفيف البلاء عنها عدنا إخوانه وأخدانه». وحدث أن صديقه الأستاذ أحمد

زكي باشا نال بواسطة أحمد حشمت باشا وزير معارف مصر اعتمادًا بعشرة آلاف جنيه لطبع مجموعة من الكتب العربية القديمة النادرة تبلغ فيما أذكر سبعة وعشرين كتابًا ومنها ما يدخل في بضعة مجلدات، فتباطأ زكي باشا في الطبع، ومضت السنة فقُيِّد المبلغ في نظارة المعارف على حساب السنة المقبلة، ولم يخرج الباشا شيئًا، وهكذا حتى ألغي الاعتماد باستقالة حشمت باشا، فغضب الشيخ غضبة مضرية من عمل زكي باشا وصارحه بقوله: «لقد أسأت إلى الأمة العربية بإبطائك في إخراج الكتب للناس، وإذا ادعيت أنك تقصد نشرها سالمة من الخطأ مشفوعة كلها باختلاف النسخ والتعاليق، فالتأنق لا حدَّ له ويكفي أن ينتفع الناس بالموجود». وظل الشيخ أشهرًا لا يكلِّم صديقه الزكي إلا متكلفًا كأنه عبث به، وحمل الضرر إلى مصلحته مباشرة! وأي مصلحة أعلق بقلبه من نشر آثار السلف.

يحب الشيخ إتمام كل عمل لساعته، وكان يستشيط غضبًا من رجلٍ يقول له إن لك عندي كتابًا ولكني أنسيته في داري أو حانوتي أو مدرستي. وكثيرًا ما كان يحمل من يشغله بكتاب جاءه على أن يفتح محله مهما كان بعيدًا أو مهما كان الحديث في ساعة متأخرة من الليل. ويؤنِّب هذا المتساهلَ بشؤون إخوانه تأنيبًا يرجو أن ينجع فيه فلا يعود إلى هذه العادة القبيحة. ومقصد الشيخ من ذلك أن يعلِّم الناس العنايةَ بمصالح غيرهم. وكان يقول في مثل هذه الأحوال ولعل في الكتاب أمرًا مستعجلًا يستدعي أن يجاب عليه، وكان من عادته أن يجيب عن الكتب التي يتناولها في الحال.

**غريب عاداته:**

كان سَمْتُ الشيخ وهندامه سَمْتَ العوام وهندامهم في عصره ومصره، عمامته من الأغباني، في جبة بسيطة، وقفطان قطن، وزنار مزدوج يخبأ فيه بعض الدراهم، وألبِسته من صنع الوطن إلا النظارتين والطربوش، ويختار من القمصان والسراويل ما خفَّ ثمنه ليطرحه إذا اتسخ ولا يشغل ذهنه بغسله،

وكثيرًا ما يلبس قميصين وزوجين من السراويلات وقفطانين وصدرتين وجبتين، ليكون على أتم الاستعداد لما يطرأ على أحد الزوجين فينبذه حالًا ويستعيض عنه بأخيه دون انتظار شيءٍ آخر. وقد لا يستعمل المناديل المتعارفة المعمولة من القطن، فيعمد إلى اتخاذ مناديل من الورق الغليظ، يضم بعض أجزائه إلى بعض فيكون دفترًا، يلقيه بعد أن يتسخ كله. وكان يطهِّر جسمه ولا ينظف ثيابه كثيرًا، أصيب بهذه الخلة خصوصًا بعد أن فقد والدته في صباه ولم يبق له من رحمه امرأة تتعهده أبدًا بنظافة ثيابه والعناية بظواهره. وأنى له هو أن يسد مسد أُمه في ذلك، وفكره مشغول بمطالب عالية أُخرى، قد لا يتسع لمثل هذه الجزئيات في رأيه.

ورأيت في بعض تعليقاته في ترجمة عبد الله بن الخشاب وكأنه بنقله لها ترجم نفسَه فقال بلسان الحال: وهذا رجل مثلي كان إلى الخمول، قال: «كان وسخ الثياب، ما تأهَّل ولا تسرَّى، له معرفة بالحديث والمنطق والفلسفة والهندسة، بل بكل فن، وكان يترك عمامته أشهرًا ولا يغسلها، ويلبسها كيف اتفق، فإذا قيل له في ذلك يقول ما استوت العمة على رأس عاقل قط». وشيخنا رحمه الله كان من هذا الطراز. والعبقرية على ما يظهر تكمل من صاحبها ناحية واحدة وتنقص منه من الناحية الأخرى بقدرها.

أراد الشيخ أحد أصحابه في القاهرة خلال الحرب العامة على أن يغيِّر جبته لأنها بليت بعض أطرافها فسكت الشيخ عن إجابته. فلما ألحّ عليه مرتين وثلاثًا أجابه: «يا فلان تريدني على اقتناء جبة جديدة وأهل الشام يموتون من الجوع». وأضافه أحد أصدقائه في بيروت وأخذ ذات يوم ثيابه بدون استئذانه ليغسلها، وعوضه عنها ثيابًا جديدة، فحنق الشيخ وما زال بمضيفه حتى أعاد إليه ثيابه الوسخة، وذلك لئلا يشغل فكره في ثيابه ريثما تغسل وتنشف، ولئلا يلبس ثيابًا غير ثيابه. وغضب مرةً على أحد أصحابه ومساكنيه في القاهرة لأنه افترص غيابه فنزع من غرفته جميع الكتب والفراش المملوء بالبق، وكنس

الغرفة ونفض الغبار عن الكتب والأواني وغسلها، ووضع سُمًّا لقتل البق في السرير، حتى لا يصل إلى الشيخ فيقرصه، وأعاد كل شيءٍ إلى مكانه، فلما رأى الشيخ ذلك عرف ما دُبّر له، ولم تطب نفسه بهذه التعزيلة، وأنحى على صاحبه باللوم والتقريع! ورايته مرارًا وقد نتأ مسمار أو مسامير من حذائه، فكان يخصف من ورق الشجر يجعله في الحذاء، ليتقي ضغط المسمار على رجليه، ولا تحدثه نفسه أن يذهب إلى الحذّاء يصلح له حذاءه، وإذا قلت له في ذلك أجابك أن الوقت لا يساعدني. وكان مداسه متسعًا في الشتاء يجرف من الأرض طينًا كثيرًا يعلق بجبته، فيصبح وجهها شكلًا وقفاها شكلًا آخر. ولطالما تبرم بزيارته أيام المطر بعض ربات البيوت لأن طين جبته يعلق في المقعد الذي يقعد عليه. وكان إذا اشتد الحر استثقل الجوربين فنزعهما من رجليه وعوضهما أوراقًا هشة ملونة يجعلها حِفَافِيَ نعله لتمتص العرق بزعمه. وأنت لا تملك نفسك من الضحك إذا رأيت رجليه، وتستغرب من عظيم كهذا يَسْخر بعادات مجتمعه على هذا الحد، ولا يبالي النقد ولا الملام. ولطالما قال أنا شاذّ ولا أحب أن يَقتديَ بي أحد.

ومن عادة الشيخ أن يحمل في جيوبه وعبابه بعض الدفاتر والرسائل، بل أقلامًا ودواةً ومقراضًا وسكينًا وإبرًا وخيوطًا، وشيئًا مما يحمل من النواشف والخبز والجبن والزبد والتين والزبيب، وفي بعضها مادة دهنية دسمة يخشى أن تسيخ كالشواء، وما دخله سمن أو زيت من المآكل، يضع ذلك في مُقَوًّى أو ورق غليظ، ويستعمله عندما يريد، ويطعم منه أصحابه إن أَحبوا. أما الدخان والسكر والمربب فيحمل منه مؤونة أيام أحيانًا، وقد يطبخ من القهوة في داره مقدارًا وافرًا ويجهز منها ما يكفيه أسبوعًا حتى لا يضيع وقته بطبخها، كلما أراد تناول فنجان منها، وهكذا يشربها باردة بائتة أيامًا لئلا يشتغل بها كل ساعة عن مطالعته. وقال لي مرة إنه ابتاع أرطالًا من البرتقال وضعها في داره، ومن الغد بدا له أن يسافر، وتذكر وهو على أذرع قليلة من

البيت أنه يجب أن يستصحب في حقيبته شيئًا من البرتقال، وتذكر ما اشتراه منه بالأمس فآثر أن يبتاع برتقالًا من الطريق لئلا يضيع وقته بالرجوع على الدار بعد إزماعه الخروج منها، ولم يَعُدِ الشيخ إلى داره إلا بعد ستة أشهر، وفرح أن رأى برتقالاته تضمر وتنشف!

وكان مغرمًا بالتدخين، مَنَعَهُ الطبيب منه وأراده على إبطاله، فتعذَّر عليه ذلك، فقال الطبيب إن كان لا بد من التدخين فلفَّ بنفسك لفائفك، حتى يمضي جانب من الوقت في اللف. وكان الشيخ لا يحسن صنع لفائفه فتجيء واحدة دقيقة وأخرى غليظة وثالثة متوسطة، وعندئذٍ يبدأ الشيخ بتجاربه ليضع اللفافة في البز (الفم) الذي يلائمها، وكان في جيب الشيخ بضعة من هذه الأبزاز يتخيرها من القصب أو غيره من أنواع الخشب، وهكذا كان يتلهى عن الإكثار من التدخين ولو بضع دقائق. وإذا قلتَ له بإبطال التدخين ينهرك ويعرض عن حديثك، هذا وهو صاحب إرادة قُدَّت من حديد أو صخر.

ومن عادة الشيخ خلال الأربعين السنة الأخيرة من حياته أن لا ينام إلا إذا صلى الصبح، يساهر بعض أصحابه هزيعًا من الليل ثم يغشى حجرته يطالع ويؤلف. وقد لا يراعي أوقات بعض أحبابه، فيوقظهم أحيانًا بعد الهزيع الثاني من منامهم ليسمر عندهم، أما من كان لهم مواعيد ويعرفون التوقيت لساعات الليل والنهار، فكان يصونهم عن غشيان منازلهم مَوْهِنًا، ولا يَطرق أبوابهم بعد الأوقات المعينة للسمر والسهر.

كان يحب السباحة والعوم، وله مسبح اختاره في بيروت وآخر في صيدا، ومسابح في بعض أنهار دمشق، وربما لبس سراويله مبللة بعد الخروج من سباحته، ويهوى السير على الأقدام للتريض. ولطالما قطع عشرات الأميال بين المدن والقرى والجبال والأودية سائرًا على قدميه. وقد يراه في الطريق بعض أصحابه أو من لا يعرفه ويدعونه إلى الركوب في مركباتهم أو على متون دوابهم فيأبى، لأنه لا يحب أن ينقض أمرًا أبرمه، ونفسه تتوق إلى السير

ماشيًا فأي معنى للركوب! ومن أغرب أطواره أنه إذا استعدت نفسه للقيلولة قال، وهو وسط إخوانه يتذاكرون ويتدارسون. يَقيل وهو قاعد ويضع على وجهه منديلًا. وربما أتم إغفاءته عند إنجاز الدرس والمذاكرة، وشارك فيما انقطعت عليه سلسلته من الحديث، وقد يظن أنه أحاط بما دار في المجلس في غضون قيلولته. ولم يكن يحب أن يطول الدرس أكثر من نصف ساعة، لأنه يتبرم بالجد في هذه المجالس، وهو يقضي الساعات في مطالعاته الخاصة.

كان الشيخ لا يعرف الهُجْر، ولا يشتم شتمًا ينبو عن حد الأدب، مع حدة فيه ظاهرة، وألم من أكثر الأحوال الحاضرة. وكان إذا صفا ذهنه تَفْصُح عبارته في محاضرته، وإلا فيعتريها شيءٌ من اللكنة المغربية ممزوجة بالعامية الدمشقية، وله تعبيرات خاصة وأساليب في مصطلحاته ونبراته لطيفة تحلو من فمه. يمزح إحْماضًا من الجد، وما أُحصي عليه أن نطق يومًا بفحش أو هُراءٍ، أو استعمل ما ينافي الأدب والمروءة، وكان يميل إلى بعض من فيهم البلاهة ممزوجة بالذكاء، وتصدر عنهم غرائب الأفكار والتصورات، وربما قصدهم كل سنة من بلد إلى بلد، ليقطع بينهم أيامًا يخرج فيها من الجد، ويدخل معهم في حديث قد يروقه للتسلية والتندر.

حدثني أحد لِدَاته قال: كنا في دمر، إحدى قرى دمشق، نقضي فيها يومًا للنزهة، وكنا في نحو الثلاثين من العمر، فاعتزل الشيخ طاهر في ناحية من الحديقة يطالع ويكتب في ظِلِّ شجرة، وكنا حراصًا على أن يكون معنا طول النهار، وكانت في البستان فتاة إسرائيلية جميلة الطلعة، فاقترحنا عليها أن تذهب إلى الشيخ المستظل بالشجرة، وتأتينا به، ونحن نكرمها بالمال، فصدعت بالأمر، ولما رفع رأسه من كتابه أخرج لها في الحال قطعة من القمر الدين (معجون المشمش) وقال لها: «إيهِ بارك الله، أتأكلين قمر الدين يا قمر الدنيا؟» وصرف الفتاة بهذا التقريظ، وهذا كل ما أُثِر عن الشيخ في باب

التصابي. وسأله أحد الطلبة عن حكم التقبيل وما إليه، فأجابه هذا موضوع لا أعرفه سَلْ غيري. وتكلَّم أحد أصحابه بكلام بعيد عن الحشمة في حضرته، فأشاح بوجهه وتصامَّ كأنه ما سمع ولا دهش لهذا الغريب من الحديث، على حين كان مغرمًا بالغرائب، ولكن لا من هذا البحر والقافية.

سأله أَحد الفقهاء ممن ألَّفوا كتبًا دينية حشوها بما لا يقره الشرع الصحيح ولا العقل الصريح «كيف تجد كتبي يا شيخ طاهر» فأجابه في الحال متخلصًا أجمل تخلص «اشتغلوا ونحن نشتغل لنرى لمن تكون النتيجة». وكان يكره المتشدقين من المؤلفين والكاتبين خصوصًا في الدين والسياسة، بل يكره كل من يقول بغير علم، ويحاسب الذين يرمون الكلام على عواهنه حسابًا غير يسير ويسميهم الحشوية كما يكره الجلجلوتيين، والقبوريين والجامدين والمماحكين. وسمعتُهُ يقول: إن فلانًا بِرَدّهِ على الماديين ـ وهو لا يحسن العلوم المادية ـ فتح علينا أبوابًا يصعب سدها، وفلانًا بمقالاته السياسية المطولة يفتح بقلمه كل حين مشاكل صعبة الحل. فقلت له ولا تنسَ يا سيدي الشيخ الفلاني وما حشا به كتبه من ترهات وخرافات ومنامات وخيالات، يعدها من الدين والإسلام بريء منها، ويزيد على قِحَتِهِ قِحَةً ثانيةً أنه يُكفِّر كل من لا يقول بها.

وكان ينهر من يُورِدون أحاديث تفت في عضد السامعين وتلقي في قلوبهم الرعبَ والوهم، ومذهبه تقوية القلوب وإزالة غشاء الأوهام عن الأحلام، وأن يصمد المرء لمكافحة الحوادث، ولا يحب الاستنتاج إذا كان في غير محله حتى لا يؤدي التزيد والتفلسف إلى تزييف الوقائع، وإلباس الحقائق غير صورها، ولذلك كان يستلطف من الإنكليز السكسونيين إيجازهم في أحاديثهم وكتبهم، ويوحشه من اللاتينيين تبسطهم في أقوالهم ومكتوباتهم. ويحتاط أبدًا فينسب كل قول لقائله في أحاديثه وكتبه، وغايته نشر الفكر والخلاص بسلامٍ من تَبِعَتِهِ.

كان يرفق بالضعفاءِ ويرفع من قدر الصعاليك، ويَحْمِل على العظماء ويترفَّع عن ملابستهم، وكثيرًا ما كان يحدِّث العامةَ برفق وتؤدة، ويخاطبهم خطاب إخوانهم لهم. ولطالما قال: إن من الحكمة ألَّا تجعلوا بينكم وبين العامة حجابًا كثيفًا، إذا أحببتم هدايتهم والانتفاع بهم، وعليكم أن توهموهم أن ليس بينكم وبينهم من الدرجات إلا قليل، يوشكون هم إذا اشتغلوا قليلًا أن يُسَامُوكم أو يَفُوقُوكم، فهو بهذا كالطبيب الحاذق يعطي المريض الجرعة التي تناسبه، ويتدرج به في المقويات درجة درجة. وهكذا كان مع كل طالب ومستفيد.

تحقَّق لدى الشيخ أن ابن أخيه، وكان من نوابغ الشبان، ابتلي بأَخَرَة بالشراب يتعاطاه، فقطع مكاتبته مع شدة حبه له، وظل لا يكلمه ولا يبحث عنه مدة اثنتي عشرة سنة، وهو يكتم السبب في إعراضه عن نجل شقيقه. حتى أشار مرة إليَّ بما يرتكبه المغضوب عليه من أخذ المسكر، وعدَّ عليه في جملة هناته أنه أتعب نفسه في المدرسة زيادة عن المطلوب فضعف بصره حتى ينال رتبة عليّة، وكان عليه لو سمع نصائح عمه ألَّا يُرهق نفسه ويكتفي من المنافسة مع أقرانه بما توصله إليه الطبيعة، بدون إعنات ولا إنهاك بدن. وهذا من قوة نفسه وصدق حدسه.

كان يكره الاستعمار كرهًا شديدًا، ويحب المدنية ويحث على تعلُّم لغات الغرب، ويكره السياسة العثمانية، ويقول: إن استيلاء الترك على أرض العرب أضرَّ بها وأزال مدنيتها وغيّر أخلاقها، ولم يكن ينكر على الأتراك أدبهم في عشرتهم ونظامهم في بيوتهم وحسن معاملتهم لكبرائهم. وكان يحب من أهل المدنيات الحديثة كل أُمة ترفق بالمسلمين في الجملة، ويحب من الناس من يصرف في خدمة المسائل العامة شيئًا من وقته وماله. وكان يقول وهو على فراش الموت: عُدّوًا رجالَكم واغفروا لهم بعض زلاتهم، وعَضوا عليهم بالنواجذ، لتستفيذ الأمة منهم، ولا تنفِّروهم لئلا يزهدوا في خدمتكم. يقول

هذا رجل أخلص كل الإخلاص في خدمة أمته، وتفانى في حبها ومعالجة أدوائها، وكان جماع ما كافأتْه به في حياته عبوسًا وانقباضًا وتنغيصًا وغصصًا ثم عصيانًا على إصلاحه الناجع، كالطبيب النطاسي يريد الخير بمريضه المعربد، وكلما ناوله الدواء عضه وأدماه وشتمه وآذاه.

وكان الشيخ كثيرًا ما ينشد قول البهاء زهير:

يا أيها الباذلُ مجهودَه ... في خدمة أُف لها خدمة

إلى متى في تعبٍ ضائع ... بدون هذا تأكل اللُّقمة

تَشْقى ومَن تشقى له غافلٌ ... كأنك الراقِصُ في الظلمة

ويُشْبه الشيخ من كثير من الوجوه غاندي الفيلسوف الهندي المعاصر، وإن لم يكن له ما لهذا من الشجاعة، وذلك أن الشيخ لا يحب الأذى ولا العنف ويحاول إحياء كل ما هو آسيَوي من اللغات والتقاليد، وتعليم الناس الصنائع وعدم الغفلة عما هو عند الأمم الغربية من مقومات العلم. ولا عجب فالعقل واحد مهما اختلفت الأعصار وتباينت الأقطار، العقل السليم في هذا الشرق القريب وفي ذاك الشرق الأوسط وما وراءه من الشرق الأقصى لا يختلف في مظاهره الحقيقية عما هو عليه في أُوربا وأميركا وإفريقية.

نعم لم يكن الشيخ طاهر كالمهاتما غاندي في حملاته ولا حتى في تصريحاته. العملان متفقان إلا قليلًا، ولكن ابن الوثنية جسر على العمل بمبدئه أكثر من ابن الإسلام. شعار غاندي «هندوسًا كنّا أم باريسيين، نصارى أم يهودًا، أيًا كنا، يجب إذا تاقت نفوسنا إلى أن نعيش أمة واحدة أن تكون مصلحة الفرد مصلحة الجماعة، ولا عبرة إلا لعدل مطالبه». أما الشيخ الجزائري فكان يتوقع من القوم أن يقولوا هذا وهو لا يدعوهم إليه إلا بالإشارة والمثال البعيد. والحكيم الهندي قال ما اعتقده غير مجمجم فتخلص من قيود كثيرة، وأراد أمته علنًا أن تنهج سبيله فكانت شهرته شهرة عالمية، وانحصرت شهرة الشيخ في بعض أصقاع العرب.

كان بعضهم يقول: إن الشيخ ضنين بالإفادة حتى ادَّعى بعضهم «أن الشيخ طاهرًا بئرُ علمٍ ولكن لا ينتفع بها»، والحقيقة أنه يصعب على الشيخ مجاملة من يتشهى، ولا مأرب له إلا أن يقال عنه إنه باحث وطالب فوائد، فلا يرى أَن يتعب نفسه في إفهام فضولي يسأله في الفلسفة العليا، أو في مسائل تعلو عن دائرة عقله، على حين هو في حاجة إلى أن يتعلم القراءة والكتابة. فكان في ضنانته هذه حكيمًا أيضًا، لا يظلم الحكمة فيلقي دررها بين أرجل من لا يعرف قدرها، ولا يتأتى له أن يحسن الانتفاع بها. أما المستعدون للتلقي والترقي، فكان يجهد أن يختصر لهم طريق الوصول على ما يريدون، ويبعث كل حين عقليتهم، ويفيض من واسع علمه عليهم، وكلما رآهم يحرصون على التقاط فوائده، جاد عليهم بما يعلم إلا إذا كان ثمة شيئًا لا يعرفه فإنه يقول: (لا أدري) غير مبال بنقد من يذهبون إلى استقلال علمه وعدم إحاطته. فكان الآخذون عنه بالنظر لتحرِّيه الصدق على ثقةٍ من العلم الذي يسمعونه ويستملونه منه، لأن الشيخ إلى التصريح بعدم معرفته أقرب منه إلى إيهام الناس أنه يعلم كل شيء شأن المموِّهين والجامدين. ولذلك لم يُحْسَب عليه أَنْ بَدَتْ مَقَاتِلُهُ مرة؛ لأَنه يقول بعد التحقيق ويكره التلفيق.

**تآليفه ورسائله:**

ليست تآليف الشيخ مما يناسب علمه الواسع، لأن بعضها مما أَلَّفه في صباه لنفع المدارس، وهو مفيد جدًّا في بابه وفي حينه. ومن تآليفه المطبوعة: (الجواهر الكلامية في العقائد الإسلامية)، و(مُنْية الأذكياء في قصص الأنبياء)، و(مَدُّ الراحة إلى أخذ المساحة)، و(مدخل الطلاب إلى فن الحساب)، و(الفوائد الجسام في معرفة خواص الأجسام)، ورسالة في النحو، وأخرى في البديع، وثالثة في البيان، ورابعة في العَروض، وكتاب (تسهيل المجاز إلى فن المعمى والألغاز)، وشرح ديوان خطب ابن نباتة. ومن كتبه (إرشاد الألباء إلى تعليم ألف باء)، ورسالة وجداول جدارية في الخطوط

القديمة والحديثة، و(التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن) وهي المقدمة الصغرى من مقدمتَيْ تفسيره. ومقدمة سماها: الكافي في اللغة؛ وهي مقدمةُ معجم ضاع أكثره. و(التقريب إلى أصول التعريب)، و(توجيه النظر إلى علم الأثر)، ومختصر أدب الكاتب لابن قتيبة، ومختصر أمثال الميداني، ومختصر البيان والتبيين للجاحظ. هذا هو المطبوع. أما المخطوط: فتفسيره الكبير؛ ويدخل في أربعة مجلدات مخطوطة محفوظة في دار الكتب الظاهرية بدمشق مع جميع ما ظفرنا به من أوراقه. ومن المحفوظ أيضًا بعض كنانيشه وفيها خلاصة مما طالعه من الأسفار وعرض له من الأفكار. وله من المخطوطات: كتاب (الإلمام بأصول سيرة النبي عليه الصلاة والسلام)، و(مقاصد الشرع) وغير ذلك. وقد أحيا بالطبع عشرات من الكتب منها: إرشاد القاصد لابن ساعد الأنصاري، وروضة العقلاء لابن حِبّان البستي، والأدب والمروءة لصالح بن جناح، والأدب الصغير لابن المقفع، وأمنية الألمعي وتفصيل النشأتين للراغب الأصفهاني، والفوز الأصغر لمسكويه. إلى غير ذلك من مقالاته في المجلات العلمية وإملاءات جمة كتبت بتواقيع مستعارة. أَلَّف الشيخ معظم هذه الكتب بحسب الدواعي خصوصًا مبادئ العلوم، في زمن كانت فيه الكتب المدرسية في حكم المعدوم، وذلك لينهض بالتعليم الابتدائي ويخلص الناشئة من عَسْلَطَات[1] المتأخرين المعروفة وحواشيهم وشروحهم المُمِلَّة المضيعة لأوقات الطالب. ومعنى هذا: أَن الشيخ انتبه قبل غيره إلى فساد طريقة التعليم القديمة، وأَدرك أن الزمان يتقاضى أهل العلم أن يُخرِجوا الناسَ من ربقة القيود الثقيلة العائقة عن التحصيل، كما انتبه إلى كثرة سريان الحشو واللغو إلى كتب الدين التي خَلَّط فيها كثيرٌ من المتأخرين.

من أهم كتب الشيخ المطبوعة: شرح خطب ابن نباتة وإرشاد الألباء والتبيان والتقريب وتوجيه النظر ففيها لباب علمه وأثر من آثار قريحته، تجلّى

(١) العَسْلَطَة: الكلام بلا نظام. وكلامٌ مُعَسْلَطٌ: مُخَلَّطٌ. [القاموس المحيط] (المُراجع).

فيها روح بحثه وغوصه على مسائل دقيقة قلّ أن تَسَنَّى لغيره ممن عاصره الوصول إليها. وليس معنى هذا أن سائر ما طبعه الشيخ غير مفيد، بل المقصود أنه كُتِب لغرض خاص أُريد به تثقيف الناشئة، وهذه الكتب هي التي ظهرت فيها شخصية الشيخ وثقوب ذهنه وسعة مداركه، وتلطفه في إبلاغ المعاني إلى العقول، وحرصه على أن يحيل في الأكثر على عالم تقدمه، لأن الناس في العادة يقدِّسون الأموات أكثر من الأحياء.

والشيخ وإن كان في مذهبه الديني إلى الاجتهاد، لكنه في مذهبه التأليفي أقرب إلى التقليد، يمشي على مذاهب القدماء، ولكن بتنسيق وتقسيم بدون أن يشوش القارئ. ولو تيسر للأستاذ أن يسير على نظام أكمل من الذي سار عليه في معيشته، وساعده الزمان والمكان على تجويد مصنفاته، والصبر عليها قبل نشرها لخلّف كتبًا - وخصوصًا في العشرين سنة الأخيرة من عمره - تقرأُ فيها صورة عظيمة من جهوده ونبوغه. وبلغني أنه دَوَّن بعض الوقائع التي شهدها ولم نعثر عليها بين أوراقه التي سُرِق بعضها وقت انتقاله من مصر إلى الشام. ويقيني أن الرجل لو وفق إلى طابعين أغنياء فضلاء يحملونه على العمل على ما خُصَّ به من النشاط وشدة الحركة، لأنتجت قريحته أَكثر مما أنتجت في الفروع المختلفة التي طرقها ووزع قواه فيها، ولكن تفانيه في الإسراع بحمل النور إلى العقول، وفدح التبعة التي أَخذها على نفسه في المسارعة لإنهاض أمته، دَعَوَاهُ إلى أَن يكتفي بما تهيأ له وَضْعُهُ وتأليفه ناظرًا فيه إلى مصلحة الناس لا إلى مصلحته الخاصة، وشهرته في حياته وبعد مماته.

كانت بيئة الشيخ التي اضطرب فيها في الشباب والكهولة ضيقة المضطرب لا تتسع لبَثِّ هِمَّته. وكانت المطالب التي تتقاضاها منه من حرصه على بث الإصلاح والتعليم كثيرة لا يقوى الفرد على حملها كلها، ولو قُدِّر له أَن يعيش منذ نشأته في بيئة متسعة كمصر، وخلا من مُدافَعة المشاكسين والظالمين، ورأى شيئًا من الطمأنينة وسعة العيش لَتَضاعَف إنتاجه لا محالة، وعَمَّ نفعه

مصر وغير مصر. وربما كان ظهوره في الشام، والعهد عهد ظُلمةٍ وجَهْل أَبْرَكَ عليها وأنفع لها، لأن ما اضطلع به وحده لا يضطلع به عشرة علماء على شريطة أن يكونوا في درجته من الإخلاص وشدة الشكيمة، وعزوف النفس عن المطامع والدنايا.

وبعد: فهذه صورةٌ صحيحةٌ من صور الأستاذ الحكيم، عجيبةٌ في خطوطها وتقاطيعها، جميلةٌ بألوانها وأشكالها، عرضْتُها لغرابتها؛ لأنه ندر جدًّا في المعاصرين من الأحياء ظهور رجل يماثله في أطواره وحركته وسعة حيلته وبسطته في العلوم. والزمان على أيِّ حال بخيلٌ بمثل هؤلاء النوابغ في كل عصر، وقد لا ينبغ أضرابهم في قرون يفادون بكل ما يتفانى الناس في التهالك عليه من مال وجاه ورفاهية، وتنحصر لذائذهم في بث أفكارهم وآرائهم، ويسعدون السعادة كلها إذا نهضوا بإنارة عقول أهل جيلهم وقبيلهم.

**رسائله الخاصة:**

وإلى القارئ الآن جُمَلًا من كتبٍ دارتْ بين المؤلِّف وأستاذه، فيها شيء من مناحيه العلمية ونفسه العالية، وربما تَرْجَمَتْ عنه مثل ترجمتنا وزيادة، وكتابة المرء نَمَّامةٌ على علمه، وعقل الكاتب في قلمه، واختياره قطعة من عقله. وقد صَدَرَتْ هذه الرسائل من القاهرة المُعِزِّية، ومن أجمل ما فيها كونها كُتبت على البديهة لا كُلْفَةَ فيها، شأن الشيخ في كتبه ومفكراته. وربما كَتَبَ إلى أصحابه كتابًا وبعثه في البريد من دون أن يطالعه ثانية. ولذلك رأينا بعض كتبه غُفْلًا من التاريخ أيضًا.

سألتُهُ مرةً عن منشأِ الشعوبية فأجاب: «وأما الزمن الذي ظهرت فيه الشعوبية فلا يحضرني فيه شيء، والوقوف على أوائل الأشياء من أصعب المسائل وأدقها، إلا أن الذي ظهر لي أن ذلك حَدَثَ بُعَيْد عصر الخلفاء الراشدين لوجود الداعي إلى ذلك، وهو التفاخر بالجنس الذي هو من عادات الجاهلية التي أتى الدين بإبطالها، ومن نظر لمنزلة سلمان الفارسي وصهيب

الرومي وبلال الحبشي في أوائل الأمة زال عنه الشك في هذه المسألة. ولا يدخل في الأمر بحث المؤرخ عن خصائص الأجناس، مما يقصد به الوقوف على الحقائق، فإن هذا نوع آخر. إلا أن مَن بَحَثَ عن أحوال الأمم ووفَّى النظر حقه، تبيَّن له أن العرب في الجملة لا تساميهم أُمة البتة.

«وأظن أنه لا بد أن تؤلَّف بعد حين كتبٌ في خصائص الأمم، وكتبٌ في خصائص البلاد، كما أُلِّفت كتبٌ في خصائص اللغات، تجعل من الفنون التي يُعنى بها وتميَّز عن غيرها، ولا تُذْكَر بطريق العرض، إلا أن فن خصائص الأمم تتيسر المشاغبة فيه والمغالطة أكثر من غيره. وكل فنٍّ وُضِعت مقدماته ونُقِّحت مسائله يبدو بسرعة عوار المغالط فيه.

«هذا، وكما حَدَثَ بعد عصر الخلفاء أمر المفاضلة بين العرب والعجم، حَدَثَ أمرُ المفاضلة بين العدنانية والقحطانية، وهما الفريقان اللذان يجمعهما اسم العرب. ونشأ بسبب ذلك من الفتن ما يعرفه المولع بالأخبار. ولم يزل أثر ذلك باقيًا في بعض الجهات على ما قُبَيْل عصرنا هذا، وقد رأيت في بعض البلاد أُناسًا يقولون إلى الآن نحن قيسية وآخرين يقولون نحن يمانية.

«كتبت لك ما كتبت والقلم لا يكاد يجري لما حدث لي من الفترة من نحو ثلاثة أسابيع. وسبب ذلك أني اختبرتُ أحوالَ كثير من الولايات فوجدتها منقسمةً إلى حزبين كلٌّ منهما يباين الآخر في كل شيءٍ، ولم يظهر حزب ثالث يكون معتدلًا ومعدِّلًا لهما. وإذا دام الحال هكذا، تأخرت البلاد عما كانت عليه من قبل. وقد نصحتُ كثيرًا من المحدثين من الأحرار[1] بأن يعدِّلوا مشربهم، وحذَّرتُهم عواقبَ الأمر غَلبوا أم غُلبوا، فأبوا إلا الإصرار على فكرهم، وما قلتُ لهم رأيي إلا بعد أن ألحُّوا عليّ في بيانه، وحضر أُناسٌ منهم من مركز جمعيتهم وطلبوا مني التفصيل، بعد أن بيَّنت لهم ذلك إجمالًا،

(١) هو حزب الاتحاد والترقي الذي كان بتعنُّته وشدَّته سببًا في تدهور المملكة العثمانية وذهاب سلطانها (المؤلف).

فرأيت أنهم يوافقونني في البدء ويخالفونني في النهاية، فامتنعت عن إتمام البيان وتشاغلت عنهم. فإني رأيتهم يظنون أن حلَّهم لبعض مسائل الجبر والمقابلة يحل لهم مسائل إدارة البلاد. إن كثيرًا ممن كنا نزدري برأيهم في السياسة من تلاميذ المدارس في مصر هم أرقى منهم في ذلك. وقد اجتمع بنا في هذه الليلة أحد المرسَلين منهم وسمع منا هذه العبارة وهي ملقاة على صورة تحتمل الجد والهزل فدهش، وعرف أنها إلى الجد أقرب منها إلى الهزل، وكان يتكتم فاضطر إلى الانطلاق فيما يراه من الأخطار التي يصعب تداركها... إني متشوق لأخبار كثير من الولايات لعلَّنا نسمع بظهور الحزب الأوسط في واحدة منها فيسري ذلك في غيرها شيئًا فشيئًا، وهذا الحزب يلحقه في أول الأمر أشد اضطهاد لأن الحزبين المتطرفين يبغضانه أكثر مما يبغض أحدهما الآخر، لاعتقادهم بأنه أقرب إلى انضمام كثير من الحزبين إليه».

وقال من كتاب عن القاهرة في ١٩ صفر سنة ١٣٣٨:

«وبعد فقد وصلني كتابكم الكريم مُنْبِئًا بِعَوْدكم من بلاد أُوربا فسررت بذلك سرورًا شديدًا، كنتُ أتمنى لكم هذه الرحلة من قديم لما أتيقنه من الفائدة التامة العامة في ذلك. فإن الاقتباس من الأمم المترقية دليل على النباهة، لا كما يظن البُلْهُ من أن في الاقتباس غضاضة، ونريد بالاقتباس ما يشعر به هذا اللفظ من تلقي الأمور النافعة، لا كما يظنه المتكايسون[1] من أن الأمم الراقية ينبغي أن يؤخذ منها كل شيء حتى أدَّاهم الأمر إلى أن يقلدوهم في الأمور التي يودُّون هم أن يخلصوا منها.

«وأما ما يتعلق بخزائن الكتب في الأستانة فقد خطرٌ في بالي خاطر يرتفع به محذور الامتعاض في جمعها، وذلك بأن تبقى كل مكتبة في موضعها ينتفع

---

(١) تَكَايَسَ: تَفَاعَلَ؛ مِن الكَيْس. والكَيْسُ: العَقْلُ وخِلاف الحُمْق. (المراجع)

بها المجاورون لها، على أن تؤخذ منها الكتب النادرة ـ وهي في الغالب لا تلزمهم ولا يهمهم أمرها ـ وتوضع في موضع معدٍّ لها يكون في وسط البلدة، ومن اطَّلع على دفاتر مكاتبها وجد إمكان إجراء ذلك بدون اعتراض يعقل. ولما عملت برنامجًا لكتبها النادرة، رأيت أن بعض المكاتب قد يوجد فيها نسخ متعددة من كتاب نادر، فلو أُخذت إحدى النسخ المكرَّرة لم يكن في ذلك ما يقال. وقد كنتُ ذاكرت بهذا الأمر بعضَ أعضاء الجمعية فاستحسنه جدًّا، وذكر لي أنه سيسعى في إبرازه من القول إلى الفعل، ثم عَرَضَتْ شواغلُ عاقت عن ذلك.

«وأما مصر فقد دخلت في الدور المجهول، وسيكون إما لها وإما عليها. وهذا الدور لا بد منه لكل أمة تريد النهوض بعد العثرة، فإن ساعدها الزمان والمكان والإمكان نالت مناها، وإلا كان لها تعلُّل بسوء البخت بعد التشبث بالأسباب الظاهرة، جعل الله سبحانه العاقبة خيرًا».

وكتب ناصحًا وواضعًا خطة للإصلاح في غرة جمادى الأولى **١٣٣٧**:

«ومما يهم الأمر فيه إصلاح العادات، فإن في الشرق كثيرًا من العادات التي ينبغي إبطالها كما أن فيه كثيرًا من العادات التي ينبغي المحافظة عليها، غير أنه لا ينبغي أن يستعمل التَّنْكِيت[١] في ذلك، بل يستعمل مجرد البيان الدال على حسن الشيء أو قبحه. ولا يتيسر الإقدام على هذا الأمر إلا لمن لا يهمه أمر المدح والذم العاجلَيْن بل يهمه حسن الأثر.

«ومن العادات الرديئة جدًّا: أن الكاتب قد يمكنه أن يكتب في إصلاح عادة، لكنه يرى أن الكلام في ذلك يكفي فيه عشرة أسطر فيرى أن الناس يزدرون بذلك وينسبونه لقلة القدرة على الإنشاء فيترك الكتابة فيه، أو يسهب إسهابًا لا داعي له من سرد مقدمات معلومة مُسَلَّمة، لو تركها لكان أقرب إلى

(١) نَكَّتَ عليه: نَدَّدَ وعَاب قولَه أو عمله. (المراجع)

الفهم وأبعد من الوهم، وما ذلك إلا من تأثير الحَشَوِيَّة فيهم، وقولهم إن الناس نسبوك لعدم الاقتدار على الكتابة. فينبغي أن يكون في المجلة ولو مقدار صفحة تبحث في العادات على اختلاف أنواعها وتعليم ذلك للبنين والبنات. هذا ومن جهة رأي الناس في حقكم، فإن النبهاء المنصفين منهم يجعلونكم ممن ثَبَتَ في حين الشدة، ولا تَعْبؤوا بمن يلوم عن جهل وغباوة، فإن ذم هؤلاء أقرب إلى المدح من ثنائهم».

وكتب إليّ يقوِّي عزيمتي على العمل:

«وأرجو أن يكون ما حصل لكم من المروِّعات زائدًا في نشاطكم في إفادة الأمة، فإنها في احتياج شديد إلى من ينير لها الطريق الأقوم من أرباب الوقوف والإخلاص، وأعظم ما تحتاج إليه هو أمر الأخلاق وما يتعلق بها، ومعرفة الأمور العمرانية على وجه لا يكون فيه إخلال بمعالي الأمور، وتنبيههم على عدم التعويل على المدنية التي كان الغربيون قديمًا يفتخرون بها، ويزدرون بمن لا يتابعهم عليها، مما هو مبني على مجرد مراعاة الأمور المادية دون غيرها، وهي التي جلبت هذه المصائب الحاضرة، وقد أشرتم بطرف خفي إلى ذلك في محاضرتكم التي ألقيتموها في مصر حين فراركم من دمشق إليها، وقد صرَّحنا بذلك في قصيدتنا البائية المطبوعة في الجزء الرابع من منتخبات الجوائب. وقد كان أناس يقرؤونها ويَعُدُّونها من آراء حشوية الشرق، فما زالوا على هذا حتى صرح فلاسفة الغرب بذلك. ومما ينبغي أن تَحثُّوا عليه تَعَلُّم صنعةٍ ما أي صنعة كانت، ولا يكون أحد خاليًا عنها، ويجعل هذا مبدأ جديدًا لهذا العصر والتعويل على الرياضة الجسمانية».

وكتب في غرض الأعراض عن المثبطين من رسالة:

«وقد عجبت من أولئك الذين يسعون في تثبيط الهمم في هذا الوقت الذي تَنَبَّه فيه الغافل فضلًا عن غيره موهمين الشفقة. وكان الأجدر بهم أن يشفقوا على أنفسهم، ويشتغلوا بما يعود عليهم وعلى غيرهم بالنفع. ولم يُرَ أحدٌ من

المثبِّطين قديمًا أو حديثًا أَتى بأمر مهم. وينبغي للجرائد المهمة أن تكثر من التنبيه على ضرر هذه العادة والتحذير منها ليخلص منها مَن لم تستحكم فيه، وينتبه الناس لأربابها ليخلصوا من ضررهم.

وقد ذاكرني منذ ليلتين أحد نجباء الأبناء في هذه المسألة، وشكى كثيرًا منها، وعجب لعدم اكتراث المصلحين ببيانها بيانًا كافيًا شافيًا، فقلت له: المأمول أن يكون الأوان قد آن لإصلاح هذه العادة التي تهبط بالأمة إلى الدرك الأسفل، أصلح الله الأحوال».

وقال من كتاب في غرض التربية:

«وأؤكد في هذا الكتاب بأمور:

(١) إدخال مبادئ الصنائع في المدارس الابتدائية، ويمكن تجربة ذلك أولًا في مدرسة واحدة.

(٢) إدخال التربية العملية فيها، وذلك بتعويد التلميذ على الصدق وألّا يتكلم في شيءٍ إلا بعد أن يختبره، فإن الشرقي اعتاد أن يدَّعي كل شيء وألّا يقول في شيءٍ لا أعلم، وهذا جعله لا شيء عند الغربي.

(٣) السعي في مدرسة للقراءات السبع مثل ما كان من قبل. ولا ينبغي أن توضع هذه الأشياء في المذاكرة أو يخطب فيها، فإن مثل ذلك ينبغي أن يخطب فيها بعد أن تصير».

وقال في موضوع التعليم وقد رجوته إرشادي برأيه أعمل به في المدارس، ورأيه في البحث في المخطوطات: «ومما زاد فيه سروري شيئان: أحدهما الاعتناء بتربية الأنجال، فإن أكثر الآباء يرجِّحون من حيث يدرون ولا يدرون مصلحة أنفسهم، وما ذكرتم فهو موافق. والأَوْلى أن يُضَمَّ إلى ذلك صنعة كالخياطة والتفصيل ونحو ذلك، وعرِّفوني بعد حين البروغرام الذي يظهر لكم. وينبغي أن تتولوا بنفسكم بعض التعليم ولو مدة ربع ساعة على طريق

أحد المغاربة، فإنه كان يطلب من ولده أن يفيده بعض مسائل بعد أن يشعره من طرف خفي بمظانها، فيلقيها الابن على الأب كأنه يفيده.

«وأما الذين يريدون أن يخفضوا ما رفع الله شأنه ويرفعوا ما خفضه، فعما قليل ليُصبحنَّ نادمين، والزمان يضحك منهم، وكذلك الأئمة الغربيون الذين يمتون إليهم بوسيلة التقليد لهم، فلا يَكُنْ في صدرك حرجٌ منهم فهم أغرار، وينبغي أن تمحو من لوح الفكر لفظ اليأس فإنه أضر شيء: واثبتْ؛ ففي الثبات جُلُّ الحكمة إن لم نقل كلها.

«والثاني استفسارك عن وصف الكتب، فإنه دل على أنك قوي حسن الظن بنا حتى تكاد تعتقد أننا لا نقول جزافًا كما أن أُناسًا يعتقدون أننا لا نقول شيئًا إلا جزافًا. وهنا أذكر لك حكاية سمعتُها مرارًا ممن أثق بهم، وهي أن أحد من جمع له بين العلم وغيره من الصفات العالية، أرسل إليَّ أحد من يميل إليه من النبهاء وقال له: أُريد أن تنشر بين جماعتنا العِلْم الفلاني، فقال: لا أعرفه وإنما أعرف العلم الفلاني. فأعاد عليه العبارة، فأعاد المسؤول قوله لا أعرفه. فأعاد عليه السائل ما قال أولًا، فأراد المسؤول أن يجيبه فأشار إليه بعض الحاضرين إشارة خفية أن يظهر الامتثال، ثم قاموا من عنده فقال له المشير: إن فلانًا لم يقل لك ما قال إلا وهو يعلم أنه ممكن، وإذا تحقق الإمكان فما عليك إلا أن تسعى في إخراج الأمر من القول إلى الفعل فسعى وتم الأمر، وحصلت فائدة عظيمة من إحياء أَمر كان دارسًا.

ونرجع إلى أصل المسألة فنقول: من أراد وصف كتاب ينبغي له أن ينظر فيما قاله مؤلفه في مقدمته أو في خاتمته أو فيهما معًا، ويأخذ خلاصة ذلك. والوصف عندهم ليس عبارة عن النقد بل بيان موضوع الكتاب والداعي إلى تأليفه، وما في الكتاب من الخصائص، وعلى ذلك يتيسر وصف الكتب بأسرها حتى كتب الطب، فإذا زاد الواصف فصلًا من الفصول ليكون

كالنموذج كان أحسن، وكثيرًا ما يكون وصف الكتاب على هذه الطريقة سبب نشره.

وأكثر وصف المؤلفين لكتبهم إما مطابق للواقع أو قريب منه. أما المموِّهون فقليل في الطبقات القديمة. ومن العجيب أن هذا الأمر لا يشعر به كثير من نبهاء هذا القطر، ولفظ الكثير هنا مجاز، وجربوا نفسكم في غير التاريخ ونحوه؛ ففي الحديث يمكنكم أن تصفوا هذه الكتب.

«في دار الكتب الظاهرية بدمشق»

نمرة ٣٥٦ اللطائف في علوم المعارف للمديني.

نمرة ٣٦٢ أسماء الضعفاء للعقيلي.

نمرة ٣٨٧ معرفة الرجال لابن معين.

نمرة ٣٩٠ المشتبه للغساني.

نمرة ٣٩٣ الكفاية في علم الرواية.

وهذا أمر يفيد الناس أكثر من كثير من المقالات التي حررها أناس ليس لهم تتبع ولا معرفة بجعل نتيجة للمقالة، حتى صار المطالعون يضيق صدرهم من ذلك. وقد سألني منذ مدة بعض أرباب المجلات عن أحسن المجلات فقلت: أصغرها حجمًا.

(في ١٥ ذي القعدة ١٣٢٨)

وقال من رسالة:

«مما يهم جدًّا إدخال مبادئ الصنائع في جميع المكاتب الابتدائية، وقد جُرِّب ذلك في بعض المدن فتبيَّن أن ذلك مما يعين على التحصيل أيضًا والفائدة في ذلك مهمة.

«ومما يهم جدًّا إدخال التربية العملية في المدارس لا سيما المدارس الابتدائية. ومن ذلك أن يعوَّد التلميذ على ألّا يتكلم بما لا يعلم، وأن يتفكر قليلًا إذا سئل عن شيءٍ لم يسبق له به اختبار. وهذا أمر ممكن قريب المأخذ ـ

قد عمله أناس فنجحوا فيه ـ وأرجو ألَّا تقرأ أفكاري على أناس من الحَشَوية أو الفلاسفة الخياليين، فإني أربأ بها عنهم. نعم هؤلاء ينبغي أن يعرفوا ذلك بعد العمل به. ونصيحتي لكل محب ألَّا يشتغل بمثل هؤلاء فإنه أنفع. (في ١٢ ربيع الأول ١٣٣٧).

«هذا وقد سرَّني كثيرًا زوال المباينة بينكم وبين الذين نودُّ عدم مباينتهم. وهذا أيضًا من أَثر النشاط، فإن النشاط إذا زال لحق المرء الملل من كل شيء، وإذا حصل قويت الهمة ورأى البعيد قريبًا، وأقام للناس أعذارًا ونفعهم وانتفع بهم.

«قد جرى منذ أسبوعين مذاكرة سرية في طريقة ترجمة إحدى دوائر المعارف الفرنسوية، فإن الناس في احتياج لذلك. وقد تبيَّن من المذاكرة أن أمر المال سهل، فإن أحد الحاضرين تعهد بذلك، وقال إن له إخوانًا لا يتوقفون في الإمداد، ولكن المهم وجود مترجمين كافين يتعهدون بالقيام بذلك إلى النهاية. فقلت: إن هذه المسألة تحتاج إلى تفكر وبحث شديد. وقد استقر الرأي على أن تدرس في نحو ثلاثة أشهر، ووعدت بالكتابة لكم في ذلك، فابحثوا في المسألة فيما بينكم وبين نفسكم، ثم فيما بينكم وبين إخوانكم الذين يناسب البحث معهم في ذلك، على صفة خاطر قد خطر، وكان معنا في المذاكرة الفاضل المقدام السيد رشيد رضا صاحب مجلة المنار، وهو يأمل أن يوجد بإرشادك نحو سبعة مترجمين. وقد تشبث بهذا الأمر منذ سنين أناس ظنوا أن المال يأتي بكل شيء، فتبيَّن لهم غلطهم وأعرضوا عن الأمر، وهذا أمر بعيد جدًّا، ولكن هو في درجة الإمكان القريب من الوقوع، وإنما يحتاج إلى الهمة ومعرفة الطريق. وقد كان بعض الحاضرين يريد أن يجعل زمام الأمر في يد الحكومة، فطلبنا أن يكتم ذلك عنها، فإنه لا يؤمل أن تقدر عليه، فإن هذا الأمر محتاج إلى الحكمة أكثر من احتياجه إلى الحكومة».

وقال في رسالة وقد سألته عن التاريخ الهجري وانتقاد بعضهم استعمالنا له:

«عجبت لمن يسعون في أن نهجر التاريخ الهجري، ويفاتحوننا في ذلك كأنهم لا يعلمون أنّا نعلم ما يرمون إليه عن بعد. لكل أمة شعار إذا تركته طُمِعَ فيها، واستُضْعِف جانبها، وربما صارت بَعْدُ مُدْمَجة في غيرها. وقد سعى أناس منذ عهد بعيد في أن يُضْعِفوا ما يقوِّي أمر الإسلام عمومًا، والعرب خصوصًا، فنجحوا بعض النجاح، فطمعوا في أن يقضوا عليه فلم يجدوا أقرب إلى ذلك من إضعاف أمر اللغة العربية، والسعي في تبديل خطها، والتزهيد في الكتب التي كتبت بها، فجعلوا ذلك دأبهم وديدنهم. حتى أثَّروا في كثير من أبناء جلدتنا الذين يظنون أنهم على غاية من الذكاء والوقوف على أسرار الأمم، فكان ما كان مما هو معروف، ثم زاد الأمر فطمعوا في تبديل التاريخ الهجري، وساعدهم على ذلك «جبت» مصر ففرحوا فرحًا لا مزيد عليه. وقال بعضهم: الآن شفينا الغليل من هذه الأمة، غير أن كثيرًا ممن انتبه لهذا الأمر سعى في إعادته على قدر الإمكان، فامتعض أولئك القوم وصاروا يلمزون كل من يسعى في ذلك.

«وهذه المسألة نظرًا لتعلقها بتاريخ تأخر الشرق لا يتيسر أن يكتب فيها أقل من نحو ثلاثين صفحة في نحو ثلاثين يومًا. وليت شعري كيف يلام المسلم على أن يؤرخ كتابه بالتاريخ الهجري، فهل انقرض التاريخ الهجري، وهل يريدون أن ينقرض وأصحابه أحياء؟؟ فإن قالوا إن المقصود توحيد التاريخ في الأمم وأُوربا هي القوية الآن، قيل إن أوربا لها تاريخان أحدهما شرقي والآخر غربي، وكلٌّ يؤرخ به قوم منهم، فهل أَوْقَفَ ذلك التجارة أو أثر في المدنية شيئًا؟ ولِمَ لا يكلفون تغيير مكاييلهم وموازينهم وأذرعهم لتتحد المقاييس في الأمم. وتغيير ذلك ليس فيه غضاضة بخلاف التاريخ. وقد رأيتهم يعتذرون عنهم ويَعُدُّون ذلك متانة في الأخلاق فانظر ما وصلنا إليه».

وهذا الكتاب يدلنا على أشياء كثيرة من سيرة الشيخ ومرماه ونصاعة حجته، وجميل مناقشته لخصوم مشربه.

وكتب: «كان كثير من الحشوية يلومونني في تنبه المؤلِّفين والطابعين على ما يلزمهم، ويقولون إن هذا لا يفيد غير العداوة، وأنت تضرب في حديد بارد. وما دروا أني ممن يقول بأن العداوة في محلها أجدى عندي من أن أكسب المحبة من غير وجهها، وإن معاداة الغشاشين لي مما يسرني، كما أن محبتهم لي مما يسوءني، غير أن الزمان أبان أن كل نصيحة لا تخلو من تأثير ولو بعد حين، فإن كثيرًا ممن لحقتهم صدمة منا ومن إخواننا الذين أعطوا هنا عهدًا ألَّا يغشوا الأمة قد صاروا يراجعون بعض مراجعة، غير أن التأثير في المطابع كان أكثر.

«وأما أمر التصحيح فلم يهتد المصلحون إلى طريقة إصلاحه. بحيث أن بعض الناس طلب إلينا أن نبحث له عن مصحِّح لكتاب المحكم لابن سيده، وهو أكبر من لسان العرب، ليشرع في طبعه، فبعد بحث تبيَّن أنه لا يقوم بتصحيحه إلا فلان وهو أحد إخواننا الذين لا يساعدهم نظرهم في أملاكهم الجمة على التفرغ لمثل هذا الأمر(١). فأرجئ الآن طبع الكتاب لهذا الأمر. فانظر إلى الحال التي وصلت إليه مصر، فما قولك في غيرها؟ إلا أن الذي يسر في مصر انتباهها لنقصها بخلاف الأقطار الأخرى، والانتباه للنقص هو نوع من الكمال. أرانا الله سبحانه الكمال على حقيقته بمنه. عليكم بالرياضة الجسمانية والرياضة الروحانية. ويدخل في الرياضة الروحانية التباعد عن سماع الأخبار التي أولع بها المُرْجِفون، فإنه لا قيمة للزمان عندهم. وهو عند الحكيم أغلى من الجوهر (١٧ رمضان سنة ١٣٢٦هـ)».

وكتب من رسالة:

---

(١) هو العلامة أحمد تيمور باشا رحمه الله.

«قد سرني في مصر في هذه المدة أن العقلاء بدؤوا يجتمعون في الفكر والتعاون، على صفة يقتضيها الموقع، وهو عدم التظاهر من أول الأمر كما يفعله طالبو الشهرة، وهذا أمر لا يشعر به إلا من اطمأنوا إليه. وقد كانوا قبل ذلك يقول كل واحد منهم نفسي نفسي. وإذا استنجده أحد لأمرٍ نافعٍ قال ولو بلسان الحال: «عليك بخويصة نفسك».

قد اجتمعتُ في هذا النهار بعالم أورباوي قد حَلَّ الخطَّ الثمودي الموجود في مدائن صالح، وأخبرني أن كتابه قد تم طبعًا، وهو الآن يسعى لجمع لغة أهل نجد، فإنه وجد أن أكثر الكلمات العربية لم تزل باقية عندهم، وكان قد ساح في تلك الجهات، وهو ممن يتعصب للغة الكتاب العزيز أكثر مما يتعصب أهلها لها.

«كان قد أسس في أميركا مدرسة يقرأ بها الطالب وهو في بلده، وقد كنت رأيت في سورية أحد طلبتها وهو يدرس فيها فنًا دقيقًا، وأظن أنها تسمى المدرسة الكوتشوكية، وقد كان ترجم قديمًا إلى العربية بعض قوانينها، وطبعت ثم نفدت النسخ، بحيث أني بحثت عنها فلم أحد من يعرفها، فإن وجدتم كتابًا بالفرنسوية يتعلق بها فترجموا منه ما تيسر مما يوافق البلاد.

«وقد سعى بعض الواقفين على ذلك من نحو عشر سنين في بث هذا المقصد إلا أنه على وجه خفي حيث كان نشر العلم إذ ذاك يعد من أعظم الأجرام. والآن لم يبق مانع، ومجرد نشر أسلوبها وقوانينها يفيد فضلًا عن التشبث بشيءٍ من ذلك».

وقال في كتاب:

«وقد وقفت على كثيرٍ من الجرائد الجديدة، فوجدت جل مباحثها في بيان فوائد الحرية. ورأيت الناس قد ملّوا هذا البحث؛ لأن الحرية إن كانت على المعنى الذي يقول به الحكماء، فهي مما لا يختلف فيه اثنان من ذوي النباهة. وإن كانت على وجهٍ آخر فربما كان ضررها أكثر من نفعها. ولست أعني

بالحكماء هنا أمثال الحكيم الذي كان يقال لكم إنه تعلم الحكمة في سويسرة في ثلاثة أشهر؛ لأن مثل تلك الحكمة مما يزيد خبالًا. وما أرى أكثر الفتن التي وقعت في كثيرٍ من الولايات إلا من مثل هؤلاء لا سيما إن ضم إلى دعوى الحكمة دعوى الحرية وهو لا يملك نفسه. وقد كان أرباب الحدس يتصورون أنها تكون أشد إلا أن الألطاف الإلهية حَفَّتْ فخَفَّت ولله الحمد. (٢٢ شوال سنة ١٣٢٦).

وذكر في جملة كتاب حوى مسائل كثيرة في نسخ الكتب وأخذها بالتصوير الشمسي، والعناية بوضع فهرس لكتب رومية باللغة العربية ثم قال:

«من أغرب ما في القدس امتزاج المسلمين مع النصارى على وجه غريب بحيث لم تؤثر فيهم الطريقة التي اتخذها المستبدون في تمشية أمرهم، وإن هلك الحرث والنسل. وقد رأى بعض الباحثين أن هذا أمر دبَّره صلاح الدين الأيوبي برأيه الثاقب، منعًا لما حدث من قبل بسبب سوء سياسة العُبَيْديين الذين كانوا بمصر، تغمده الله برضوانه».

«خذوا على نفسكم عهدًا بألَّا تؤخروا جواب مكتوب لأحد، وخذوا العهد على من كان على شاكلتكم بذلك، فإن في ذلك فوائد جمة. والمكتوب يسوغ ألَّا يزيد على خمسة أسطر. (٤ شوال سنة ١٣٣٧)».

وقال أيضًا:

«وأرجو ألَّا تقصروا في كتابة نبذ تتعلق بالتربية وتدبير المنزل وإصلاح العادات وما أشبه ذلك. وأؤكد عليكم في ألَّا تشتغلوا بشيءٍ من الجدل فإن الجدل يبطئ عن العمل. وخذوا من عنان قلمكم لئلا يجري إلى غير مدى، والاعتدال أقرب لحصول ما يُبتغَى».

وذكر في رسالة: أن الكتب التي يجب أن توصف:

١ ـ أرجوزة ابن سيده في الأدب؛ وهي من قبيل الملح اللغوية في نمرة ١ من الأدبيات المنظومة مع ديوان أبي العتاهية تزاد فيها نثرًا في الآخر

الصاحب وما يميل إليه من دواوين الشعر والكتب وما يتقنه من العلوم والصنائع أو ما يتجر به وما يؤثره من الأخلاق ونحو ذلك ويتيسر عمل ذلك في جدول في صفحتين أو أربع.

٢ ـ المجمل في اللغة في الظاهرية نسخة منه ناقصة من الطرفين.

٣ ـ المغرب للمطرزي.

٤ ـ رد ابن السيد على رد ابن العربي على شرحه لديوان المعري.

٥ ـ إعتاب الكُتاب لابن الأبار.

٦ ـ عروض ابن معطي وبديعيته.

٧ ـ بغية المؤانس من بهجة المجالس والأصل لابن عبد البر.

٨ ـ قانون البلاغة لأبي طاهر محمد بن جبلة البغدادي في الظاهرية.

٩ ـ مختصر إصلاح المنطق.

١٠ ـ الأربعين السلفية؛ وهي مرتبة على البلدان. وممن سمعها على السلفي الملك الناصر صلاح الدين يوسف ووالده نجم الدين أيوب بن شادي بقراءة القاضي سناء الملك هبة الله بن جعفر بن سناء الملك محمد بن هبة الله بن محمد الأسدي.

ينقل صورة السماع فقط. اهـ

وأعطاني في آخر عمره مسودة كتاب طويل كتبه على صديقته المستشرقة الفاضلة المس بل أمينة سر حاكم العراق وهو:

حضرة الصديقة الجليلة الفاضلة الشهمة المحبوبة مس بل دام إقبالها:

أحييك بخير التحايا، وأثني على تلك السجايا. وأذكرك بالأيام المسعودة التي جمعتنا في دمشق الشام. ثم أَذكر لك الداعي إلى المكاتبة وهو أمران: أحدهما: تجديد العهد السابق، والشكر على حسن ظنك بهذا المحب المخلص، فقد ذكر لي بعض أصدقائي ترجمة ما كتبتيه في حقي في رحلتك إلى سورية مما يدل على حسن الطوية.

والأمر الثاني: اقتضاء الوقت لذلك، فإن هذا الزمان الذي هو أغرب الأزمنة مطلقًا يجب الانتباه فيه لما يلزم وعدم تضييع الفرص، فإنها تمرُّ مرَّ السحاب. هذا ولما كنت أعتقد أن أحسن من يخلص له العرب الودَّ هو دولة بريطانيا العظمى، لما خبرته من الأحوال ومقتضيات الأمزجة ونحو ذلك، والمودَّة لما كانت واجبة أن تكون من الطرفين، اقتضى الأمر أن يقع التفاهم بينهما ليستمر هذا الأمر، فرأيت أنه ينبغي لإنكلترا العظمى أن تعتني بأمور:

١ ـ الأمر الأول: أن تؤسِّس في كل بلدة كبيرة ديوانًا شبيهًا بالرسمي لتأخذ الأخبار المتعلقة بما يحب العرب لتساعد عليه بقدر الإمكان، والذين يعيَّنون ينبغي أن يكونوا من أعظم الناس معرفةً بأمزجة العرب ممن تلقوا ذلك عن مثل حضرتك الكريمة.

٢ ـ الأمر الثاني: أن تعتني بأمر اللغة العربية ويظهر منها السعي في نشرها كما يظهر منها ذلك في اللغة الإنكليزية.

٣ ـ الأمر الثالث: الاعتناء الزائد في المساعدة على نشر العلوم على وجه يساعد عليه الحال والزمان.

٤ ـ الأمر الرابع: مراعاة عوائدهم وعدم الحطِّ من كرامتهم لاختلاف العادات، فإنه قد بلغني أنه كان يقع في البصرة وبغداد وغيرهما من بعض المأمورين تساهل في ذلك، وهذا مضرٌّ جدًّا لا يشعر بمضرته إلا بعد أن يشتد الحال ويعسر زوال ما في النفس.

نعم إن هذا الأمر دقيق يصعب القيام به كما ينبغي، إلا أن الاعتناء به ممكن. والعربي أَهم شيء عنده عدم الهوان.

٥ ـ الأمر الخامس: تسهيل أمر تجارتهم. وتسهيل أَمر التجارة معهم بحيث يظهر ذلك، وتدريجهم في ذلك على كل ما ينفعهم ولا يضركم.

٦ ـ الأمر السادس: الاعتناء بعدم مَسِّ الشعائر الدينية على وجه أقوى من الحالة السابقة. ومما يؤكد ذلك منع أمر المسكرات ونحوها وتوابع ذلك.

٧ ـ الأمر السابع: تدريبهم على ما يحتاجون إليه من أمور اقتصادية أو غيرها أي شيء كان.

وإني أرى أن هذه الأمور إذا تمت هكذا تكون النتيجة حسنةً جدًّا ويشتد التلاؤم بين الفريقين، فإن العرب أقرب الناس إلى شكر النعمة، فإن وجد من لا يشكر فإن في ظهور النعمة ما يقمعه عن إبراز ما ينويه من مغالطة الناس، وما قلتُ ما قلتُ إلا بعد تجربة واختبار تام.

ولولا شدة انحراف مزاجي لألَّفتُ في ذلك كتابًا مفصلًا قيامًا يمثل هذا الأمر الجلل، إلا أن في هذا الأمر كفاية والله الموفق.

في يوم عيد الفطر سنة ١٣٣٧ — المخلص للأمة العربية

وهو يوم الأحد ١ شوال — والدولة البريطانية العظمى

في مصر في جهة عابدين — طاهر الجزائري

حاشية ـ الناس الذين على فكري من جهة توافق مصلحة الأمة العربية مع مصلحة الدولة البريطانية العظمى كثيرون، إلا أنهم لا يقدرون على إظهار فكرهم إلا بعد أن يروا باعثًا على إظهاره لئلا ينسب إليهم أنهم خائنون للأمة، فإن هذه الجملة راعت الناس كثيرًا، وهي جملة اتخذها الشرقي لإرهاب غيره سواء كان هو مخلصًا في نفسه أو غير مخلص، وكفى بما وقع لنا في طرابلس الشام حين كنا بها في المدة الأخيرة[1] وذلك قبل دخول الأنوريين في الحرب

---

(١) كتب إليّ الأستاذ في ٢٩ ج ١، ١٣٣٢ يقول: «... هذا وأما طرابلس فإني قصدتها على أن أقيم بها بضعة أيام، فلما حللتها رأيت من أهلها من الاحتفال بي والاحتفاء فوق ما رأيته من قبل، ثم رأيت منهم من الإصغاء لما أقول والاسترشاد أكثر مما رأيت في غيرها من المدن، ورأيتهم متشوقين إلى البقاء أكثر مما كنت نويت ليتلقوا الطريق الذي يكون أقرب لنجاحهم، فوعدتهم بالعود إليهم بعد حين. وبينما نحن في ذلك إذ حدث أمرٌ مستغرب وهو أن (ع. م) أتاني يومًا وأنا في المكتبة الرفاعية فناداني بشدة فظننت أنه قد حدث له أمر إمر فذهبت إليه فشرع يهددني ويوعدني بألفاظ مبهمة وموهمة ويقول: أنت

بنحو شهرين، فإن بعضهم أشاع عني أني حضرت لتمهيد الأمر لدولتكم العظمى. وكان مركز الاتحاديين هناك المركز الأول، ولو وقع ذلك لغيري لأُهلك حالًا. ولم يكن له مانع، ولكن أوصوهم في حقي بأن يغمضوا عينهم في المسألة رعايةً لاعتقاد الجمهور بأني لا أختار شيئًا فيه خيانة للأمة. وإذا وقع ما ذكرناه يقل الشغب ويضعف أمر المموهين الذين لا يهمهم إلا أمر أنفسهم، فبادروا لذلك غير مأمورين، فهذا أوانه ونسأل من بيده الأمر كله التوفيق لما هو الأَوْلى. وإذا كتبتِ لنا جوابًا فاكتبيه بعنوان الجريدة المشهورة الجزيلة الفائدة، وهي جريدة الكوكب التي يدير أمرها المستشرق المشهور صديقنا كودنبري يصلنا أين كنا.

حاشية ـ وإني أوصيكم ببعض البلاد[1] التي لا أسميها خيرًا فإن فيها كثيرًا من الرجال المهمين الذين يعرفون قدر النعمة ويشكرونها، ولكنهم غُلبوا على أمرهم لأنهم لم يُعْرَفوا في وقت الرخاء حتى يُنْتَفَع بهم وبرأيهم في وقت

= تذهب كل يوم إلى المحافل والمدارس وتبث أشياء وصار يكررها بلهجة توهم أن ثَمَّ أمرًا عظيمًا، فقلت له: إن المخبرين لك كَذَبة، فلم يرتدع. فقلت له: هذا اختراع منك ووقتي ثمين لا يجب أن أضيعه معك، فذهبت وذهب وهو يشير بيده أن سوف ترى. فرأيت بعض الأعيان فأخبرته بذلك فشاع الخبر في البلدة، فقامت وقعدت، وتَهدَّدوه وأوعدوه وكادوا يبطشون به، فارتاع واعتذر لهم غير أنه قال لبعضهم: إن الداعي له إلى ذلك أنه أتته رسالة من مصر تنبئه بأني مرسَلٌ من طرف الإنكليز لأسلمهم البلاد، فشاع قوله فاعتقدوا أن قد عرا عقله شيء لأن هذا أمر لا يعقل، وقد وصل الخبر على ساداته الذين يتقرب إليهم فوبخوه وقالوا له: أتريد أن تنفِّر منا من لم ينفر بَعْد؟ فاضطررت إلى إطالة المكث هنا لثلاثة أسباب: أحدها: ألَّا يظهر أني موهوم مما شاع. الثاني: ألَّا يظهر أعيان طرابلس أني واجد عليهم، فإنهم أكثروا من الاعتذار إليّ وقالوا: لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا. الثالث: أن أقوم بما وعدتهم به من بيان الطريق الذي ينبغي أن يسلك. وقد نفعتني هذه القضية لأنها نشطتني وزادت في همتي، وقد طلبت كتبًا مهمة من مصر ربما تحضر في هذا الأسبوع لينتقى لهم ما ينبغي أن يطلعوا عليه ويطالعوه اهـ».

(١) الغالب أنه يقصد الديار الشامية.

الشدة، والبحث يجلو كل شيءٍ فينبغي الانتباه لذلك في الحال والمستقبل، وقد آن الأوان لمعرفتهم وهذا لا يكون إلا تدريجًا فليبادر إلى ذلك فستحمدون عاقبة الأمر والله الموفق[١].



(١) رأينا أن نثبت صورة هذا الكتاب لشأنه في الصفحات التالية.

حضرة الصديقة الكليلة الفاضلة السيدة الصفار

صبحي دام اقبالها

احييك بخير التحايا واثني على افضالك السجايا

واذكرك بالايام السعيدة التي قضيتها في دمشق الشام

ثم اذكرك الذي لدي المكاتبة وهو ان احدهما

تجديد العهد السابق والشكر على حسن ظنك

بهذا المحب المخلص فقد ذكر بعض اصدقائي ترجمة

ما كتبته ناصحي في رحلتك الى سورية مما يلائم

حسن التطويل

الأحوال في أقصر الوقت لذلك فإن هذا
الزمان الذي هو أغرب الأزمنة مطلقا يجب الانتباه
فيه لما يلزم وعدم تضييع الفرص فإنه قريب انسحاب
هذا لكن اعتقادي أحسن من أن يخلص له العرب
مور وهو دولة بريطانيا العظمى لا خبرة في
الأحوال ومقتضيات الأزمنة ونحو ذلك -
والدولة لما كانت واجبة أن تكون من الطرفين
اقتضى الأمر أن يقع التفاهم بينهما لسير هذا الأمر
فرأيت أنه ينبغي لإنكلترا العظمى التي تعتني بأمور
الأحوال لأن في كل بلدة إنجليزية دائما شيئا بالرسمي لتأخذ
الأخبار المتعلقة بجانب العرب لتعتمد عليه بنفسها
الأشكال والمشتغلون ينبغي أن يكونوا من
أعظم الناس معرفة بأحوال العرب ممن تلقوا
[illegible] حضرات الكرام

الأمر الثاني أن تعتني بأمر اللغة العربية ويظهر منها ما يجب
في نشرها كما يظهر منها ذلك في مستعمري اللغة الإنكليزية

الأمر الثالث أن تعتني الدولة بالمعارف بنشر العلوم
على وجه يناسب ما عليه الحال والزمان

الأمر الرابع مراعاة عوائدهم وعدم التعرض لأمتهم
العادات فإنه قد بلغني أنه كان يقع
لهم خلاف من بعض الأعراب
في بعض الولايات وغيرها
وهذا مضر جداً لا يشعر بضرره إلا بعد أن يستفحل الحال
ويبعد زواله من النفوس نعم إن هذا الأمر
دقيق يصعب القيام به كما ينبغي إلا أن الاعتناء
به كثيراً ممكن مع [illegible] أهم شيء
[illegible] علم الحوادث

الكرويين من تسهيل امر كبارتهم وتسهيل امر التي
معهم بحيث ينظر ذلك وتدريبهم في ذلك على كل ما ينفعهم
ولا يضركم

الأمر الخامس الاعتناء بعدم مس الشعائر الدينية
على وجه أقوى من الحالة السابقة ومما يؤيد
ذلك منع أمثال المسكرات ونحوها وتوابع ذلك -
الأمر السابع تدريبهم على ما يحتاجون اليه من اقتصاد
أو غيرها - أي شيء كان
وإن أركان هذه الأمور أشياء هكذا -

فتكون النتيجة حسنة جدا ويشتد التلاؤم بين
الفريقين - لا بل فان الجمهور
فانهم اقرب الناس الى شكر النعمة
فان وجد حاملا بشكر فان في ظهور النعمة
ما يغنيه عن ابراز ما ينطوي عليه من عواطفه
وما قلت ما قلت الا بعد تجربة الناس
واختبار تام

[illegible]

المخلص للامة العربية
والدولة البريطانية
المعظمة
[illegible]

١٣٣٠
في يوم عيد الفطر
وهو يوم ١ شوال
في جامع الازهر
في مصر في جمعة غائبة

هيبه

الناس الذين على فكرتي من جهة توافق
مصلحة الأمة العربية مع مصلحة الدولة
العلية العظمى كثيرون إلا أنهم لا
يقدرون على إظهار فكرهم إلا بعد أن يروا
باعثا على إظهاره لئلا ينسب إليهم أنهم
خائنون للأمة فإن هذه الجملة راجت
الناس كثيرا وهي جملة اتخذها الشرقي
لإرهاب غيره سواء كان مخلصا في نفسه
أو غير مخلص وكفى بها وقوعها في طرابلس الشام
حين كنا بها في المدة الأخيرة وذلك قبل دخول

الا انه ربما ... بنحو تهريب فان بعضهم

اشاع عن ان حضرات عمدة الامر لدولتكم

العظمى وكان مركز الاعادي هناك المركز

الاول ولو وقع ذلك لغيري لاهلك حاله

ولم يكن له مانع ونكن اوصوهم في حقي

بان خضوعهم في الحالة رعاية

اعتقاد الحكام باني اختار شيئا

فيه خيانة للدولة

وان وقع ما ذكرناه حصل اسف وتضعيف امر المحوهير

الذين لا يهمهم الا امر انفسهم

فبادروا الى ذلك غير ما هو سبب لهذا

اذ انه

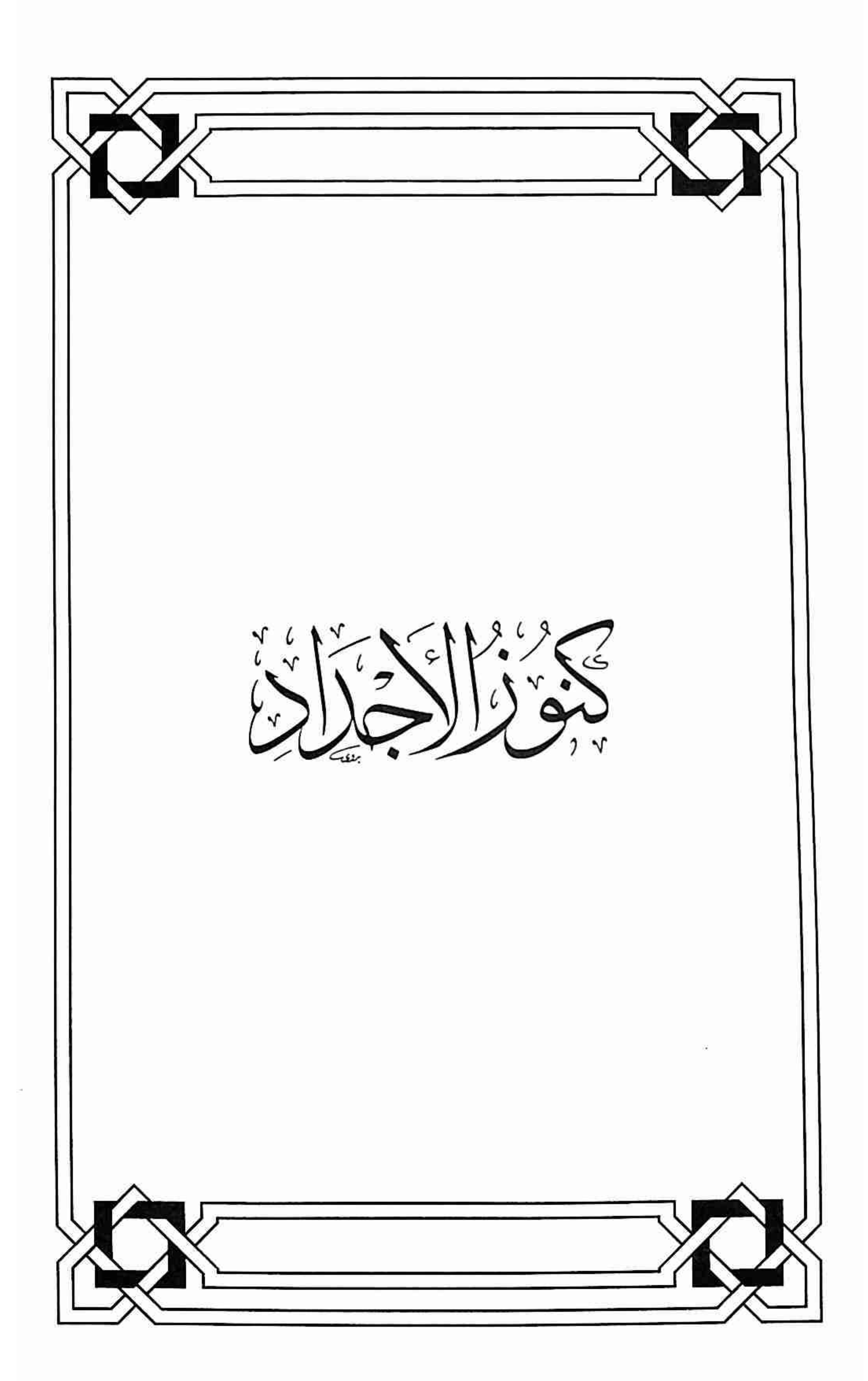
ولذا ارسلت بيان الامر كلمة التوقيع لما

هو الاولى

واذا كتبت لنا جوابا فاكتبه بعنوان الجريدة
المشهورة الجبلة الخالية - وهي جريدة
الكوكب التي يديرها المستشرق
المشهور صديقنا كودزي
ليصل الي كذا -

حاشية
واني أوصيكم ببعض البلاد التي له أسميها خيراً
فان فيها كثيراً من رجال المهيب الذين يعرفون
قدر النعمة ويشكرونها ولكنهم فعلوا [illegible] انهم
لأنهم لم يعرفوا في وقت الرخاء حتى ينتفع بهم
ويراهم في وقت الشدة - والبحي يعلم
كل شيء فينبغي الاعتناء لذلك في الحال والمستقبل
وقد آن الأوان ~~مثل ذلك~~ لمعرفتهم -
وقد مضى له الكولة الا تدريجا فليبادر
الي ذلك فستحمدون عاقبة ذلك

[illegible]


كنوز الأجداد

(١)

# ابن المقفع

**(ـ ١٤٢ أو ١٤٣ هـ)**

هو عبد الله بن المقفع. كان اسمه قبل الإسلام رُوْزْبَة، واسم والده المبارك ويكنى أبا عمرو، دعي أبوه بابن المقفع لأنه مدَّ يده فيما قيل إلى أموال السلطان، فضربه الحجاج بن يوسف ضربًا مبرّحًا حتى تقفَّعت يده أي تشنَّجت. وُلد عبد الله على الأغلب في مدينة جور على عشرين فرسخًا من شيراز. ولم تُعْلَم سنة ولادته، ويحتمل أنها كانت في عشر التسعين. وتثقَّف ثقافة فارسية مجوسية في بيته، ثم انتقل به أبوه إلى البصرة، وأخذ الفصاحة عن أبي جاموس ثور بن يزيد الأعرابي، وحرص المبارك على تأديب ولده، وكان يجمع له العلماء فأخذ عنهم، وبعد أن أحكم أصول الإسلام وقع في نفسه أن يدين به فأسلم وحسن إسلامه.

وتخرج بالكتابة في دواوين بعض الأمراء، وكانوا ضموه إلى جملتهم ليتولى كتابة أسرارهم، فجاء بذكائه فردًا في صناعته، وكذلك كان في أخلاقه، وصحة عهده وكبر نفسه، يذكرون له من ذلك صفات قلما اتفقت لأحد من معاصريه، وهذا مما دعا عظماء الملة إلى الإعجاب به. وكان إذا أراد الشعر صنعه. وقال عن نفسه «الذي أرضاه لا يجيئني، والذي يجيئني لا أرضاه».

ومما روي له:

دليلُك أن الفقرَ خيرٌ من الغنى ... وأن القليلَ المال خيرٌ من المُثْري

لقاؤك إنسانًا عصى الله للغنى ... ولم تَ إنسانًا عصى الله للفقر

وروى له أبو تمام في الحماسة ثلاثة أبيات يرثي بها يحيى بن زياد، وقيل ابن أبي العوجاء:

رُزِئنا أبا عمرو ولا حيّ مثله فلله رَيْب الحادثات بمَن وَقَع
فإن تكُ قد فارقتنا وتركتنا ذوي خلَّة ما في سدادٍ لها طَمَع
لقد جرَّ نفعًا فقدنا لك أننا أمِنَّا على كل الرَّزايا من الجَزَع

وهو في البيان والكتابة آية من الآيات؛ ترجم كثيرًا عن الفهلوية؛ ومما نقل كتاب «كليلة ودمنة» و«خداينامه» و«آيين نامه» و«مزدك» و«التاج» وكتاب «الكيكيين» في سير ملوك الفرس، لم ينته إلينا منها إلا كليلة ودمنة[1]، ومن تآليفه: «الأدب الصغير» و«الأدب الكبير» و«اليتيمة» وهذه من الرسائل المفردات اللواتي لا نظير لها ولا أشباه، وقد ظفرنا له برسائل صغيرة ومن أهمها: رسالة الصحابة ويتيمة ثانية نشرناها في «رسائل البلغاء»، وترجمنا له في كتابنا «أمراء البيان» ترجمة حافلة.

لم يُعْرَف لمتقدم ولا لمتأخر أن نَقَلَ إلى اللسان العربي شيئًا في الأدب والعلم لا تحسُّ فيه أثر اللغة المنقول عنها إلا ابن المقفع، بذَّ البلغاء في الترجمة والتأليف، وقيل إن كتاب كليلة مترجم، والمعقول أن أكثره تأليف وبعضه محتذى عن الفارسية القديمة. وسر تفرده ببلاغته ابتعاده عن الوحشي من الكلام وتعلقه بما سهل من الألفاظ مع التجنب لألفاظ السفلة. قال: البلاغة إذا سمعها الجاهل ظن أنه يحسن مثلها. وقد سئل ما البلاغة فقال: اسم لمعان تجري في وجوه كثيرة، فمنها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون في الإشارة، ومنها ما كاد يكون شعرًا، ومنها ما يكون سجعًا، ومنها ما يكون ابتداءً، ومنها ما يكون جوابًا، ومنها ما

---

(١) وفي كتاب رسل الملوك لابن الفراء الذي حققه الأستاذ صلاح الدين المنجد قطعة من كتاب «خداينامه».

يكون في الحديث، ومنها ما يكون في الاحتجاج، ومنها ما يكون خطبًا، ومنها ما يكون رسائل، فعامة هذه الأبواب الوحي فيها والإشارة إلى المعنى، والإيجاز هو البلاغة.

راجتْ كُتب ابن المقفع في الحكم والإصلاح أيَّ رواج. والسبب في رواج كليلة ودمنة أن الخاصة والعامة تشترك في تقديره قدره والانتفاع به، وقد وضع قواعد كان أكثرها من بنات أفكاره مباشرة مثل قوله: انظر في حال من تريده لإخائك، فإن كان من إخوان الدين فليكن فقيهًا ليس بمراءٍ ولا حريص، وإن كان من إخوان الدنيا فليكن حرًّا ليس بجاهل ولا كذاب ولا شرير ولا مشنوع، فإن الجاهل أهل لأن يهرب منه أبواه، والكذاب لا يكون أخًا صادقًا، لأن الكذب الذي يجري على لسانه إنما هو من فضل كذب قلبه، وإنما سُمي الصديق من الصدق، وقد يُتهم صدق القلب وإن صدق اللسان، فكيف إذا ظهر الكذب على اللسان، وإن الشرير يكسبك العدو ولا حاجة لك في صداقة تجلب العداوة، وإن المشنوع شانع نفسه.

وكان ولوعُه بالإسلام وحكمته عَدْلَ ولوعِهِ بالعرب وعظمتهم، وقد سئل عن الأمم المشهورة لعهده، فأعطاها قسطها من الوصف الحق، وقال في العرب: إن العرب جاهليتهم وإسلامهم حكمت على غير مثال مُثِّل لها وآثار أُثرت: أصحاب إبل وغنم، وسكان شعر وأدم، يجود أحدهم بقوته، ويتفضل بمجهوده، ويشارك في ميسوره ومعسوره، ويصف الشيء بعقله فيكون قدوة، ويفعله فيصير حجة، ويحسّن ما شاء فيَحْسُن، ويقبّح ما شاء فيَقْبُح، أدَّبتهم أنفسُهم، ورفعتهم هممهم، وأعْلَتْهم قلوبهم وألسنتهم، فلم يزل حباء الله فيهم، وحباؤهم في أنفسهم، حتى رفع لهم الفخر، وبلغ بهم أشرف الذكر، وختم لهم بملكهم الدنيا على الدهر، وافتتح دينه وخلافته بهم إلى الحشر، على الخير فيهم ولهم. فقال: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ فمن وضع حقهم خَسِر، ومن أنكر فضلهم خَصِم. اهـ.

ومن تأدَّب بأدب أُمةٍ أحبها، ومن اندمج في جنس ربما كان قومه الجُدُدِ أحبَّ إلى قلبه من أهل جيله آنفًا، شأنه في ذلك شأن من يفاضل بماله المكسوب أكثر من ماله الموهوب، لأن مكسوبه أتاه بكده وموهوبه أتاه بلا عناءٍ كبير.

وبحقٍّ ما قال محمد بن سلام في ابن المقفع: سمعتُ مشايخنا يقولون: لم يكن للعرب بعد الصحابة أذكى من الخليل بن أحمد ولا أجمع، ولا كان في العجم أذكى من ابن المقفع ولا أجمع. وقد قال فيه من ترجموا له أنه لم يَبْقَ في الإسلام من أَهل فارس شريفٌ يذكر إلا أن يكون عبد الله بن المقفع والفضل بن سهل. وله في باب الكرم حكايات بذَّ فيها أجواد العرب والعجم. وذكر أصحاب المحاضرات أنه كان من عشاق الطرب والجمال، يجتمع وبعض أصحابه على القينات ويَطرب ويُفْضِل عليهن ويتلطَّف، وكان يُجْري على جماعةٍ من وجوه أهل البصرة والكوفة ما بين خمسمئة درهم إلى ألفين في كل شهر، وله في باب المكارم أمورٌ عظيمة. قيل إنه قد أفاد مالًا لما كان يكتب لابن هبيرة على كَرْمَان، والمعقول أن يكون أبوه من المموّلين.

ومن حِكَمِه وهو مما عَمِلَ به: لا عقل لمن أغفله عن آخرته ما يَجِدُه من لذة دنياه، وليس من العقل أن يحرمه حظه من الدنيا بصَرَه بزوالها، وعلى العاقل ما لم يكن مغلوبًا على نفسه ألَّا يشغله شغل عن أربع ساعات: ساعة يرفع بها حاجته إلى ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يفضي فيها إلى إخوانه وثقاته الذين يصدقونه عن عيوبه وينصحونه في أمره، وساعة يخلِّي فيها بين نفسه وبين لذتها مما يَحلُّ ويَجْمُل. فإن هذه الساعات عون على الساعات الأخيرة، وإن استجمامَ القلوب وتوديعها زيادةُ قوةٍ لها وفضل بلغة. وعلى العاقل ألَّا يكون راغبًا إلا في ثلاث خصال: تزوُّدٍ لمعاد، أو مَرَمَّةٍ لمعاش، أو لذةٍ في غير مُحَرَّم.

ومن حكمه في رغبات الذواقين: «اعلم أن مِن أَوْقَعِ الأمور في الدين وأنهكِها للجسد وأتلفها للمال وأضرّها بالعقل وأسرعِها في ذهاب الجلالة

والوقارِ الغرامُ بالنساء. ومن البلاء على المغرم بهنَّ أنه لا ينفكُّ يَأْجِمُ[١] ما عنده وتَطمح عيناه إلى ما ليس عنده منهن، وإنما النساء أشباه، وما يرى في العيون والقلوب من فضل مجهولاتهنَّ على معروفاتهن باطلٌ وخدعة، بل ما يرغب عنه الراغب مما عنده أفضل مما تتوق إليه نفسه، وإنما المُرْتَغِب[٢] عما في رَحْلِهِ منهنَّ إلى ما في رحال الناس كالمرتغب عن طعام بيته إلى ما في بيوت الناس، بل النساء أشبه من الطعام بالطعام، وما في رحال الناس من الأطعمة أشد تفاضلًا وتفاوتًا مما في رحالهم من النساء.

«ومن العجيب أن الرجل الذي لا بأس في لُبِّه، يرى المرأةَ من بعيدٍ متلفِّفةً في ثيابها، فيصور لها في قلبه الحسن والجمال، حتى تعلق بها نفسه، من غير رؤيةٍ ولا خبر مُخْبِر، ثم لعله يهجم منها على أقبح القبح وأَدَمِّ الدمامة، فلا يعظه ذلك عن أمثالها، ولا يزال مشغوفًا بما لم يذق حتى لو لم يَبْقَ في الأرض غير امرأة واحدة لظن أن لها شأنا غير شأن ما ذاقه، وهذا هو الحمق والشقاء، ومَن لم يَحْمِ نفسَه ويَظْلِفْها[٣] ويُحَلِّئْها[٤] عن الطعام والشراب والنساء في بعض ساعات شهوته وقدرته كان أيسر ما يصيبه من وبال أمره انقطاع تلك اللذات عنه، بخمود نار شهوته، وضعف عوامل جسده. وقَلَّ مَن نجد إلا مخادعًا لنفسه في أمر جسده عند الطعام والشراب والحِمْيَة والداء، وفي أمر مروءته عند الأهواء والشهوات، وفي أمر دينه عند الريبة والشبهة والطمع».

وقال: «إياك ومشاورة النساء، فإن رأيهنَّ إلى أَفْن[٥]، وعزمهن إلى وَهْن،

---

(١) أجم الطعام وغيره: مَلَّه من المداومة عليه. (المُراجع)
(٢) ارْتَغَبَ: رَغِبَ. (المُراجع)
(٣) ظَلَفَ نفسَهُ عن الشيء: مَنَعَها من أن تفعله أو كَفَّها عنه. (المُراجع)
(٤) حَلَّأ: مَنَعَ. (المُراجع)
(٥) الأَفْن: النقص. (المُراجع)

واكفف عليهن من أبصارهن بحجابك إياهن، فإن شدة الحجاب خير لك من الارتياب، وليس خروجهن بأشد من دخول من لا تثق به عليهن، فإن استطعت ألَّا يَعْرِفْنَ غيرك فافعل، ولا تملكن امرأة من الأمر ما جاوز نفسها، فإن ذلك أنعم لحالها، وأرضى لبالها، وأدوم لجمالها، وإنما المرأة ريحانة، وليست بقَهْرَمانة، فلا تَعْدُ بكرامتها نفسها، ولا تُعطها أن تشفع عندك لغيرها، ولا تطل الخلوة مع النساء فيَمْلَلْنَكَ وتَمَلَّهنَّ، واستَبْقِ من نفسك بقية، فإن إمساكك عنهن وهن يُردنك باقتدار، خيرٌ من أن يهجمن عليك على انكسار، وإياك والتغاير في غير موضع غيرة، فإن ذلك يدعو الصحيحة منهن إلى السقم».

وقال: «إني مخبرك عن صاحبٍ كان أعظم الناس في عيني، وكان رأس ما أعظمه عندي صغر الدنيا في عينه، كان خارجًا من سلطان بطنه فلا يشتهي ما لا يجد، ولا يُكثر إذا وجد، وكان خارجًا من سلطان فرجه فلا تدعوه إليه مؤونة، ولا يستخف له رأيًا ولا بدنًا، وكان خارجًا من سلطان الجهالة فلا يقدم إلا على ثقة أو منفعة. وكان أكثر دهره صامتًا، فإذا قال بذَّ القائلين، وكان يُرى متضعِّفًا مستضعفًا، فإذا جدَّ الجد فهو الليث عاديًا، وكان لا يدخل في دعوى ولا يشترك في مِراء، ولا يُدلي بحجة، حتى يجد قاضيًا فَهِمًا وشهودًا عدولًا، وكان لا يلوم أحدًا على ما قد يكون العذر في مثله حتى يعلم ما اعتذاره، وكان لا يشكو وجعًا إلا على من يرجو عنده البرء، ولا يصحب إلا من يرجو عنده النصيحة، وكان لا يتبرَّم ولا يتسخَّط ولا يتشهَّى ولا يتشكَّى، ولا ينتقم من العدو، ولا يغفل عن الولي، ولا يخص نفسَه دون إخوانه بشيءٍ من اهتمامه وحيلته وقوته، فعليك بهذه الأخلاق إن أطقت ولن تطيق، ولكن أَخْذَ القليل خيرٌ من تَرْكِ الجميع وبالله التوفيق».

وقال وأبدع: «واعلم أن حُسْنَ الكلام لا يتم إلا بحسن العمل، وأن المريض الذي قد علم دواء مرضه إن لم يتداوَ به لم يُغْنِ علمُه به شيئًا، ولم

يجد لدائه راحة ولا خفة، فاستعمل رأيك ولا تحزن لقلة المال، فإن الرجل ذا المروءة قد يكرم على غير مال، كالأسد الذي يُهاب وإن كان رابضًا، والغني الذي لا مروءة له يُهان وإن كان كثير المال، كالكلب لا يُحفل به وإن طُوِّق وخُلْخِل بالذهب، فلا تكبرنَّ عليك غربتك فإن العاقل لا غربة له، كالأسد الذي لا ينقلب إلا معه قوته، فلتحسن تعهدك لنفسك، فإنك إذا فعلت ذلك جاء الخير بطلبك كما يطلب الماء انحداره، وإنما جُعِلَ الفضل للحازم البصير، وأما الكسلان المتردد فإن الفضل لا يصحبه، كما أن المرأة الشابة لا تطيب لها صحبة الشيخ الهرم. وقد قيل في أشياء ليس لها ثبات ولا بقاء: ظل الغمامة في الصيف، وخلة الأشرار، والبناء على غير أساس، والنبأ الكاذب، والمال الكثير، فالعاقل لا يحزن لقلته ولكن ماله وعقله ما قدم من صالح عمله، فهو واثق بأنه لا يسلب ما عمل، ولا يؤاخذ بشيء لم يعمله، وهو خليق ألَّا يغفل عن أمر آخرته، فإن الموت لا يأتي إلا بغتة، ليس له وقت معين» اهـ.

ومن رسالته في الصحابة صحابة أمير المؤمنين وهي أشبه بقانون حوى الأنظمة اللازمة لسلامة المُلْك: «ومما ينظر أمير المؤمنين فيه من أمر هذين المِصْرَيْن وغيرهما من الأمصار والنواحي اختلاف هذه الأحكام المتناقضة التي قد بلغ اختلافها أمرًا عظيمًا في الدماء والفروج والأموال، فيستحل الدم والفرج بالحيرة وهما يحرمان بالكوفة، ويكون مثل ذلك من الاختلاف في جوف الكوفة، فيستحل من ناحية منها ما يحرم في ناحية أخرى، غير أنه على كثرة ألوانه نافذ على المسلمين في دمائهم وحرمهم، يقضي به قضاة جائز أمرهم وحكمهم، مع أنه ليس ممن ينظر في ذلك من أهل العراق وأهل الحجاز فريق إلا قد لجَّ بهم العجب بما في أيديهم، والاستخفاف ممن سواهم، فأقحمهم ذلك في الأمور التي يَشْنع بها من سمعها من ذوي الألباب. أما من يدعي لزوم السنة منهم فيجعل ما ليس له سنةٌ سنةً، حتى يبلغ به ذلك

إلى أن يسفك الدم بغير بينة ولا حجة على الأمر الذي يزعم أنه سنة، وإذا سئل عن ذلك لم يستطع أَن يقول هُريق فيه دم على عهد رسول الله ﷺ أو أئمة الهدى من بعده. وإذا قيل له أي دم سفك على هذه السنة التي تزعمون؟ قالوا: فعل ذلك عبد الملك بن مروان أو أمير من بعض أولئك الأمراء، وأَما من يأخذ بالرأي فيبلغ به الاعتزام على رأيه أن يقول: في الرأي الجسيم من أمر المسلمين قولًا لا يوافقه عليه أحد من المسلمين، ثم لا يستوحش لانفراده بذلك وإمضائه الحكم عليه، وهو مقرٌّ أنه رأيٌ لا يحتج بكتاب ولا سنَّة. فلو رأى أمير المؤمنين أن يأمر بهذه الأقضية والسِّيَر المختلفة، فترفع إليه في كتاب ويرفع معها ما يحتج به كل قوم من سُنةٍ أو قياس، ثم نظر أمير المؤمنين في ذلك وأمضى في كل قضية رأيه الذي يلهمه الله ويَعْزُم له عليه وينهى عن القضاء بخلافه، وكتب بذلك كتابًا جامعًا رجونا أن يجعل الله هذه الأَحكام المختلطة الصواب بالخطأ حكمًا واحدًا صوابًا، ورجونا أن يكون اجتماع السير قربة لإجماع الأمر برأي أمير المؤمنين وعلى لسانه، ثم يكون ذلك من إمام آخر، آخر الدهر إن شاء الله».

وقال أيضًا في هذه الرسالة: «وإن أمر هذه الصحابة قد كان فيه أعاجيب دخلت فيها مظالم. أما العجب فقد سمعنا من الناس من يقول ما رأينا أعجوبة قط أَعجب من هذه الصحابة ممن لا ينتهي إلى أدب ذي نباهة ولا حسب معروف، ثم هو مسخوط الرأي مشهور بالفجور في أهل مصره، قد غَبَرَ[1] عامة دهره صانعًا بيده، ولا يعتد مع ذلك ببلاء ولا غَناء، إلا أنه مكنه من الأمر صاغٍ، فانتهى إلى حيث أحب، فصار يؤذن له على الخليفة قبل كثير من أبناء المهاجرين والأنصار، وقبل قرابة أمير المؤمنين وأهل بيوتات العرب، ويُجْرى عليه من الرزق الضعف مما يجري على كثير من بني هاشم وغيرهم

(١) غَبَرَ: مَكَثَ وبَقِيَ ومَضَى. (المُراجع)

من سَرَوَات[١] قريش، ويُخْرج له من المعونة على نحو ذلك، لم يضعه بهذا الموضع رعاية رحم، ولا فقه في دين، ولا بلاء في مجاهدة عدو معروفة ماضية شائعة قديمة ولا غناءٌ حديث ولا حاجة إليه في شيء من الأشياء، ولا عدة يستعد بها، وليس بفارس ولا خطيب ولا علّامة إلا أنه خدم كاتبًا أو حاجبًا، فأخبره أن الدين لا يقوم إلا به حتى كتب كيف شاء، ودخل حيث شاء».

لا جرم أن الباحث المدقق يدرك أن ابن المقفع فُطِرَ على حرية الرأي وعلى الصدق في القول والعمل وعلى التناهي في المروءة، وكان كل أولئك السبب في قتله، ذلك أن أمير المؤمنين المنصور لمّا خالف عليه عبد الله بن علي وادَّعى الخلافة لنفسه همَّ المنصور بقتله، فانهزم عبد الله وقصد أخويه سليمان وعيسى في البصرة، وكاتب سليمان وعيسى أبا جعفر أن يؤمنه، وكان ابن المقفع يكتب لعيسى بن علي فأمره عيسى بعمل نسخة الأمان فعملها ووكدها، واحترس من كل تأويل يقع عليه فيها، فأنكر المنصور هذه الصيغة الشديدة في الأمان، وعهد بقتله إلى سفيان بن معاوية وكان يضطغن[٢] على ابن المقفع أشياء منها أنه كان يعبث به فيما قيل، وقيل: إن المنصور كتب لعبد الله بن علي عمه سبعين أمانًا كلها يردها عبد الله بن المقفع ويقول له: هذا ينتقض عليك ويبطل من مكان كذا وكذا، فلما ضجر المنصور كتب إلى عامله على البصرة فطلب ابن المقفع فخنق نفسه. وقال بعضهم إنه شرب سمًّا، فكانت أمانة ابن المقفع لمخدومه وصدقه وحريته مما أورده حتفه، فمات ميتة شريفة كما عاش حياة شريفة.

وقد نَظَمَ أبو الغول الأسدي قصيدةً طويلة يعيِّر فيها عيسى بن علي لأنه لم يُجِرْ ابن المقفع قال:

---

(١) سَرَوَات القوم: سادتُهم ورؤساؤهم. (المُراجع)

(٢) اضْطَغَنَ فلانٌ على فلان: حَقَدَ عليه. (المُراجع)

لعمري لئن أَوْفَى بجار إجارةً ... لقد غرّ عيسى جارَهُ ابن المقفعِ

فلو بابن حربٍ عاذَ أو بابن عامرٍ ... لما اغْتِيل عبد الله في شرِّ مضجع

ولكنَّ عبد الله ألجأ ظهرَه ... إلى رخمات بالنَّبيط وأضبُعِ[1]

دعا دعوة عيسى وهم يسحبونه ... بلحيته جرَّ الحُوَار[2] المفزع

فما كنت عِدلًا للسموءل إذ بدا ... بواحدة أخلاف بيض وأدرع

ولا مثل جار ابن المهلب إذ نما ... به جاره في شاهقٍ متمنِّع

أولئك لم تقعد بهم أمهاتُهم ... ولم يُسلموا الأحرارَ أسوأ مَصْرع

تَسامَوْا به حتى إذا قيل قد علا ... مع النجم خَلُّوه وقالوا له قَعِ

إذا أنت لم تَغْضبْ لجارٍ أجَرْتَهُ ... فدونك ثوبي حيضةٍ فتقنع

وبعد فإن ابن المقفع في كل حالاته مجموعة من الكمال المطلق، إذا أنعمت النظر في حياته لا تدري من أي شيء تعجب فيه، أمن علمه أم من أدبه أم من أخلاقه. ولولا أنه الغاية فيها، ما كُتب لكتبه هذا الموقع من القلوب على الأيام. ومهما بلغ الكلام من الفصاحة والبلاغة فالقوالب وحدها لا تفيد كل الفائدة إن لم تحمل معاني جديدة وآراء نافعة ومذاهب في الكلام لا عهد للناس بها، ونحن لا نحيل من يود الانتفاع بأدب ابن المقفع إلا على الأدب الصغير والأدب الكبير واليتيمة والصحابة وهي من تآليفه التي لم يَنْقُل فيها عن غيره ليتجلى له أنه فرد الدهر ودرة الأيام. وكل ما خص به ابن المقفع من بيان ما كان مما يستغرب حقيقة لو لم يطبق على نفسه ما دعا إليه من الأخلاق فهو في علمه وعمله سواء وغاية، لا يخدع ولا يكذب ولا يموِّه ولا يبخل، ويعمل الصالحات من دون غرض يتوقعه، ويدعو إلى الإصلاح

---

(١) أَضْبُع: جمع ضَبع. (المُراجع)

(٢) الحُوَار: وَلَدُ الناقة. (المُراجع)

ولا غاية له إلا رفع شأن جماعة الإسلام. هو روح ندر جدًّا ظهور مثله في القرون الطويلة، وصاحب خطة رشيدة ما حاد عنها قيد أنملة، وما أُغْرِم إلا بنفع الناس.



(٢)

# القاسم بن سَلَّام
# أبو عبيد

**(١٥٤ ـ ٢٢٤هـ)**

أَدْخَل الإسلام في حظيرته أذكياءَ من أجيال الناس، وأهل الملل والأديان القديمة، تمثلوا تعاليمه وخدموه أجلّ خدمة. وكان للموالي أثر عظيم في نقل الشريعة وبثها، حتى جاء زمان وعدد الموالي القائمين على بث العلم أكثر ممن كانوا من أصول عربية لا تشوبها شائبة العجمة.

ومن هؤلاء الأعلام أبو عبيد القاسم بن سلام، كان والده مملوكًا روميًا لرجل من هَرَاة من عمل خراسان، ونشأ ابنه نشأة إسلامية عربية. وكأنَّ أباه شَعَرَ بذكاء ابنه فقال يومًا برطانته العجمية لمعلم الكُتاب الذي يتعلم فيه ابنه مع ابن مولاه: «علِّمي القاسم فإنها كيّسة». ونبغ قاسم وعُرف في خراسان فضله، فعَهد إليه بعضُ الخاصة بتأديب بنيهم، على عادة العِلْية من الناس في تلك الأيام، يدفعون إلى العلماء أولادهم ليثقفوهم ويهذبوهم. ونزل طاهر بن الحسين شيخ قواد المأمون بمَرْوَ حين مضى إلى خراسان، فطلب رجلًا يحدِّثه ليلة، فقيل له ما هاهنا إلا رجل مؤدِّب، فأُدخل عليه أبو عبيد القاسم بن سلَّام؛ فوجده أعلم الناس بأيام الناس والنحو واللغة والفقه، فقال له: من الظلم تَرْكُك أنت بهذا البلد. فدفع إليه أَلف دينار وقال له: أنا متوجه إلى خراسان إلى حرب، وليس أُحب استصحابك شفقةً عليك، فأنفق هذا إلى أن أَعود إليك. ولما عاد حمله معه إلى سُرَّ مَنْ رأى، ودخل بغداد.

وظلَّ أبو عبيد على ولائه لآل طاهر بن الحسين، وأَعْلى ابنُه عبد الله بن

طاهر منزلتَه، وهو من أعاظم قواد الخليفة المأمون أيضًا. وكان أبو عبيد إذا ألف كتابًا أهداه إلى عبد الله بن طاهر، فيحمل إليه مالًا خطيرًا استحسانًا لذلك، ولما أنجز كتابه «الغريب المصنف» وكان صرف في تأليفه ثلاثين سنة عرضه على عبد الله بن طاهر فاستحسنه، وقال: «إن عقلًا بعث صاحبه على عمل مثل هذا الكتاب لحقيق ألا يُحْوَج إلى طلبِ المعاش»، فأجرى له عشرة آلاف درهم في كل شهر؛ أي ألف دينار، وعمل كتابه «غريب الحديث» للمأمون، ولا ندري بما كافأه عليه، إن كان أحد عماله يجري عليه في كل شهر ألف دينار.

أدَّب أبو عبيد في بغداد غلامًا في شارع بشر وبشير، واتصل بعدُ بثابت بن نصر بن مالك الخزاعي يؤدب ولده، وأدَّب أيضًا أبناء هرثمة، ولعله هرثمة بن أَعين أعظم قواد المأمون، ولما ولي ثابت بن نصر الثغورَ، ودامت ولايته ثماني عشرة سنة، كان أبو عبيد يتولى قضاء طرسوس طول تلك المدة، وحسن أثره فيها كما حسن أثر صديقه واليها.

وذكروا أن أبا عبيد لما كان في أسباب عبد الله بن طاهر بعث أبو دُلَف القاسم بن عيسى العجلي أحد أئمة البلاغة من الأمراء، يستهديه أبا عبيد شهرين، فأنفذه إليه، فأقام شهرين في الكرج وهي مدينة بين همذان وأصفهان، مَصّرها أبو دُلف وجعلها وطنه. ولما أراد الانصراف وصله أبو دُلَف بثلاثين ألف درهم فلم يقبلها. وقال: أنا في جنبة رجل لم يحوجني إلى صلة غيره. فلما عاد على ابن طاهر وصله بثلاثين ألف دينار فقال: أيها الأمير قد قبلتها وقد أغنيتني بمعروفك وبرِّك، فرأيت أن أشتري بها سلاحًا وخيلًا وأوجِّه بها إلى الثغر ليكون الثواب متوفرًا على الأمير، ففعل.

وهكذا عاش أبو عبيد بين أشراف القادة والسادة، ويعرف لهم مقامهم ويعرفون له قدره، يتهادونه ويبرونه، ويرغبون في الأخذ عنه، ويعهدون إليه في تخريج أبنائهم. أما هو فلم تبطره الدنيا، ولم تخلب لبه المظاهر، واشتُهر

بورعه وعفته وكرم نفسه وجوده، حتى قيل فيه لو كان أبو عبيد في بني إسرائيل لكان عجبًا. قالوا إنه كان يقسم الليل أثلاثًا، فيصلي ثلثه، وينام ثلثه، ويصنِّف ثلثه. وكان فاضلًا في دينه وعلمه ربانيًا قانتًا مفننًا في أصناف علوم الإسلام، صحيح النقل لم يطعن عليه في شيء من أمره ودينه.

وكانت فيه عزة نفس العلماء ماثلة المثول كله، فقد امتنع من حضور مجلس بعض الأمراء ليأخذوا عنه فقال: العلم يُقصد. فغضب صاحب الدار من قوله فقطع عنه الرزق وكتب إلى صاحبه عبد الله بن طاهر بالخبر فكتب إليه عبد الله: قد صدق أبو عبيد في قوله، وقد أضعفتُ له الرزق من أجل فعله، فَأَعْطِهِ فائته وأَدِرَّ عليه بعد ذلك ما يستحقه.

شهد العلماء بعلم أبي عبيد، ومنهم إسحاق بن راهويه قال: يحب الله الحق، أبو عبيد أعْلَمُ مني ومن أحمد بن حنبل، ومن محمد بن إدريس الشافعي. وقال بعضهم: إنه لم يكن عنده ذاك البيان، إلا أنه كان إذا وضع وضع. وقال إبراهيم بن الحربي: رأيت ثلاثة تعجز النساء أن تلد مثلهم. رأيت أبا عبيد، ما أُمثِّله إلا بجبلٍ نُفخ فيه روح، ورأيت بشر بن الحرث، فما أُشبِّهه إلا برجلٍ عُجن من قرنه إلى قدمه عقلًا، ورأيت أحمد بن حنبل فرأيت كأن الله قد جَمَعَ له علوم الأولين من كل صنف، يقول ما يشاء ويمسك ما يشاء.

وسئل يحيى بن معين صاحب الجرح والتعديل ـ وهو الذي قال فيه أحمد بن حنبل كل حديث لا يعرفه يحيى بن معين فليس هو بحديث ـ عن الكتابة عن أبي عبيد والسماع عنه، فتبسم وقال: مثلي يُسأل عن أبي عبيد؟ أبو عبيد يَسأل عن الناس. لقد كنتُ عند الأصمعي يومًا إذ أقبل أبو عبيد. فنفذ إليه بصره حتى اقترب منه، فقال: أترون هذا المُقْبِل؟ قالوا: نعم. قال: لن تضيع الدنيا، أو لن يضيع الناس، ما حَيِيَ هذا المقبل. وقال عبد الله بن طاهر: كان الناس أربعة: ابن عباس في زمانه، والشعبي في زمانه، والقاسم بن مَعْن في زمانه، وأبو عبيد القاسم بن سلَّام في زمانه. وذكره

الجاحظ في المعلِّمين وقال: كان مؤدِّبًا، لم يكتب الناس أصحَّ من كتبه ولا أكثر فائدة.

غَلَبَ على أبي عبيد جَمْعُ المتفرِّق في الكتب وتفسيره، وذَكَرَ الأسانيد، وصنَّف المسند على حدته، وأحاديث كل رجل من الصحابة والتابعين على حدته، وأجاد تصنيفه ورغب فيه أهل الحديث والفقه واللغة، لاجتماع ما يحتاجون إليه فيه. قالوا: إن الناس رَوَوْا عن أبي عبيد بضعةً وعشرين كتابًا في القرآن والفقه وغريب الحديث والغريب المصنف والأمثال، وعانى الشعر، وكتابته كتابة أرقى المؤلِّفين في القرن الثاني والثالث. والغريب المصنف زعموا أنه أجلُّ كتبه، وقالوا إن كتابه «الأموال» هو أحسن ما صنف في الفقه وأجوده. وكتاب الأموال صورة ناطقة بعلمه وتحقيقة، يرجح من الآراء ما هو أولى بالترجيح، ويبين عن رأيه في أحكام الأموال وصنوفها، آخذًا بالأقوال الصحيحة المأثورة عن صاحب الشرع، ومشيرًا إلى عمل الصحابة والتابعين من بعده، وإلى ما استخرجه الحكام والملوك من هذه الأموال بعد ذلك، وقد أورد كثيرًا من الكتب والمعاهدات والعقود والأقطاع وذكر فصولًا في الصدقات والغنائم والزكوات وثمار الأرض وما يجبى منها وما لا يجبى والمعادن والركاز والمكاييل والمكوس والعشور ومخارج الصدقة وسبيلها التي توضع فيها والوقف، وفي كل أولئك يتجلى للقارئ نور العقل وبُعْد النظر ووفرة العلم.



(٣)

# علي بن رَبَن

**(ـ ٢٤٧)**

في المؤلِّفين مَن لم نعرفهم إلا بصفحاتٍ قليلة أَبْقَتْ عليها الأيام من أُلوفٍ كتبوها ومنهم علي بن رَبَن - والرَّبن والربين والراب أسماء لمقدَّمي شريعة اليهود، ومعنى رَبَن: المعلِّم العظيم - وربن اسم أبي علي، كان ربن اليهود.

ولد علي في طبرستان، وعُرف في صباه وكهولته باتساعه في الفلسفة والطب والطبيعيات، وعنه أخذ محمد بن زكريا الرازي في الريّ لما خرج من طبرستان واستفاد منه علمًا كثيرًا. وأخذ هو عن حنين بن إسحاق لمّا وافى العراق. وتصرَّف لولاة طبرستان، وكتب للمازيار بن قارن المتغلب على الجبال وغيرها. ولما وقعت الفتنة في بلاده خرج إلى الريّ ومنها إلى العراق، وكانت سبقته إليها شهرته، واتصل بالخليفة المعتصم وأسلم على يده فقرَّبه فأصبح من أطباء البيت العباسي، ثم أدخله المتوكل في جملة ندمائه.

أَلَّف ابن ربن كثيرًا في الطب والصحة، وله كتاب فردوس الحكمة؛ وهو مَعْلَمة طبِّية، بها سلكه أبو حيان التوحيدي في سلك نوابغ المؤلفين، وضَرَبَ به المثل بالإجادة. وله غيره في الأدب. وكان متمكنًا من الآداب العربية، وعرفناه بكتاب له صغير أسماه «الدين والدولة»؛ أثبت فيه النبوة إثبات العارف بالأديان الأخرى، ولا سيما اليهودية والنصرانية. قيل: إن الخليفة المتوكل

عاونه في تأليفه. وكتابُهُ هذا دليل ناصع على اضطلاعه بالحكمة، وأنه انتحل الإسلام عن بصيرة بعد أن نضج في العلوم وأَحْفَى[١] المشاكل بحثًا.

وقد جَوَّد الكلام في الدين والدولة على الصحابة، وعَرَضَ لجميل سيرتهم وعفتهم عن المال والرغبة عن الرفاهية كما جَوَّد في فضل أُمِّيةِ الرسول. ومن أجمل ما فيه نُقولٌ عن الكتاب المقدس والنبوات عليها مسحة من البلاغة أكثر من الترجمات المشهورة لعهدنا، ولعلها منقولة من الترجمات الضائعة من التوراة والأناجيل، أو أنها كانت من ترجمته هو. وكان يَعرف لغاتٍ أخرى مع العربية.

وينبئك كتابُ ابن ربن أنه من أعظم العلماء في الأديان ولو لم تبق عليه الأيام لنسي حتى اسمه، اللهم إلا عند أفراد دَأْبُهم البحث عن المفقود والموجود من هذا التراث العربي العظيم.

مثال من كلام ابن ربن. قال في الدلائل على تصحيح الأخبار: رأينا أممًا كثيرةَ العدد عظيمةَ القدر موصوفة بالأفهام والأحلام يشهدون لعدة من الخبثة الكذابين بجميع ما أدلوه من الزنادقة والمجوس إما تقليدًا وإلْفًا وإما غباوةً ومَحْكًا وإما إجبارًا أو كَرهًا، كما فعل زَرَادُشْتُ متنبِّئ المجوس؛ فإنه لم يزل يتأتى ليشتاسف الملك حتى وصل إليه، وزرع من وساوسه في صدره، ثم لم يزل يَخْتِله بذكر الله والدعاء إليه، ويفتل في الذروة والغارب حتى فتله عن دينه ولواه إلى رأيه، ثم أظهر له ما كان يضمره من الشرك، وزيَّن له نكاح الأمهات والبنات، وأكل القذر المذر من النجاسات، فكان الملك بعد ذلك هو الذي أكره أهل مملكته على دينه. وفعل ماني شبيهًا بذلك، فإنه ظهر في زمان كان الغالب فيه دينَيْن النصرانية والمجوسية، فاخْتَدَعَ النصارى بأن قال لهم إنه رسول المسيح عليه السلام، وخَلَبَ المجوس بأن وافقهم على

(١) أَحْفَى في المسألة: بالَغَ فيها. (المُراجع)

الأصلَيْن فلما وجدنا من الإجماع ما هو هكذا ووجدنا منه ما هو كالإسلام علمنا أن قبولَ كل إجماع فتنة ورَدَّ كل إجماع ضلالة.

ومما أُثِرَ له: الطبيب الجاهل مُسْتَحِث الموت. اجتنبْ ثلاثةً وعليك بأربعةٍ ولا حاجة لك إلى الطبيب: اجتنب الغبار والدخان والنتن وعليك بالدسم والحلوى والحمام والطيب مع الاقتصاد. ومما نقل عنه: التكلُّف يورث الخسارة، شَرُّ القول ما نَقَضَ بعضُه بعضًا.

لا تتألَّف مما وصل إلينا من أخبار ابن رَبَنَ فكرةٌ تامة للحكم عليه حُكمًا صحيحًا، والغالب أنه كان رجلًا أعظم مما صوَّره لنا مَن عرضوا للترجمة له وهم مع هذا قلائل.



(٤)

# الجاحظ[1]

(٢٥٥)

هو عمرو بن بحر بن محبوب الكناني الليثي، وقيل إنه كان مولى أبي القَلمس عمرو بن قِلْع الكناني ثم الفقيمي. فهو كنانيٌّ صليبةً خالص النسب. وكان جده فزارة أسمر اللون، وكان جمَّالًا لعمرو بن قلع. أُطلق على عمرو اسم الجاحظ لنتوء عينيه، ويقال له الحدقي. ولد من أبوين فقيرين في البصرة سنة ستين ومئة تقريبًا، وتعلَّم الخط والقراءة في كتّاب ببلده، وتلقى الفصاحة شفاهًا عن العرب في المربد، واتصل بالأصمعي وأبي زيد الأنصاري وأبي عبيدة مَعْمَر بن المثنّى والأخفش والنظام وصالح بن جناح. وحدَّث عن ثمامة بن أشرس النميري ويزيد بن هارون والسري بن عبدويه والقاضي أبي يوسف والحجاج بن محمد. وكان كل واحد من هؤلاء الأعلام فردًا في صناعته.

أَحْكَم الجاحظ فنون الأدب والأخبار واللغة والكلام والحكمة وهو في مَيْعة الشباب، واتسع عقله للاشتغال بمسائل مهمة من الدين؛ فكان صاحب مذهب، وسمِّيت فرقته الجاحظية، وهو من الطبقة السابعة من المعتزلة، والغالب أنه كان يعرف الفارسية، وكان مولعًا بالكتب؛ حدَّث أبو هفان قال: لم أرَ قطّ ولا سَمعتُ مَن أَحَبَّ الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ؛ فإنه لم يقع

(١) اتبعنا الطريقة التي وضعناها لهذا الكتاب في الترجمة للجاحظ، ومَن أراد التوسع في الكلام عليه وعلى ابن المقفع وأبي حيان التوحدي، فليرجعْ إلى كتابنا أمراء البيان، ففيه إفاضة حسنة في أخبارهم وآثارهم.

بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته كائنًا ما كان، حتى إنه كان يكتري دكاكين الوراقين ويبيت فيها للنظر.

ما أحب الجاحظ أن يفوته شيء من أنواع العلوم والآداب؛ فنظر في كل علمٍ، وأخذ عن كل مَن اعتقد أن عنده من المعارف ما ليس عند غيره، ودأب على هذا يسأل جميع الطبقات عما يهمه ويريد أن يتفهمه، فيسترشد بآراء الحراس، ويتحدث إلى الحواة والجزارين والعطارين والنجارين والصيادين والأكارين والقابلات، ويسأل الحشوة وأرباب البطالة، وقد يأخذ بآراء البحريين إذا رووا له غرائب قبلها عقله أو يردها إذا كانت حديث خرافة، ويتحدث إلى كل من عنده «طرائف من الكلام، وعجائب من الأقسام». روى أشياء كثيرة عن الأعراب في البادية وعن العامة في المدن، فالحكمة ضالته يلتقطها حيث وجدها. كَتَبَ في هذا يقول عن نفسه: ولم أزل أبقاك الله بالموضع الذي قد علمت، من جَمْع الكتب ودراستها والنظر فيها، ومعلوم أن طول دراستها إنما هو تصفح عقول العالِمين، والعلم بأخلاق النبيين وذوي الحكمة من الماضين والباقين من جميع الأمم.

مزية الجاحظ التي تفرَّد بها استعمالُه عقلَه في الرأي المعروض؛ يتناول كل ما يقع عليه الحس وتنظره العين وتتشوف إليه النفس، وليس نظره فيما عانى النظر المجرد بل نظر «الفلسفة والغرائب التي صححتْها التجربة وأبرزها الامتحان وكشف قناعها البرهان» فهو مجموعة تفكير، والتفكير «مَشْحذة للأذهان ومَنْبهة لذوي الغفلة، وتحليل لعقدة البلادة، وسبب لاعتياد الروية، وانفساح في الصدور، وعزاء في النفوس، وحلاوة تقتاتها الروح، وثمرة تغذو العقل». «وأكثر الناس سماعًا أكثرهم خواطر. وأكثرهم خواطر أكثرهم تفكرًا، وأكثرهم تفكرًا أكثرهم علمًا، وأكثرهم علمًا أرجحهم عملًا، كما أن أكثر البصراء رؤية للأعاجيب أكثرهم تجارب، ولذلك صار البصير أكثر خواطر من الأعمى، وصار البصير السميع أكثر خواطر من البصير الأصم» «فلا تذهب

على ما تريك العين، واذهب إلى ما يريك العقل، وللأمور حكمان: حكم ظاهر للحواس، وحكم باطن للعقول، والعقل هو الحجة» «ولعمري إن العيون لتخطئ، وإن الحواس لتكذب، وما الحكم القاطع إلا للذهن وما الاستنابة الصحيحة إلا للعقل؛ إذ كان زمامًا على الأعضاء، وعيارًا على الحواس».

دعا إلى المعاينة ودعا إلى الشك وقال: «اعرف مواضع الشك وحالاتها الموجبة لها تَعرفْ بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له، وتعلّم الشك في المشكوك فيه تعلُّمًا» وقال: «وكَرِهت الحكماءُ الرؤساءُ أصحابُ الاستنباط والتفكير جودةَ الحفظ لمكان الاتكال عليه، وإغفال العقل من التمييز حتى قالوا: الحفظ عَذْقُ الذهن، لأن مستعمل الحفظ لا يكون إلا مقلِّدًا، والاستنباط هو الذي يفضي بصاحبه إلى برد اليقين وعز الثقة. والقضية الصحيحة والحكم المحمود أنه متى أدام الحفظ أضرَّ ذلك بالاستنباط، ومتى أدام الاستنباط أضر ذلك بالحفظ».

ومن أجل هذا كتب له ردُّ كل خرافة قال بها المتكلمون، أي رجال الدين، وأصحاب علوم الدنيا، وزيف بعض أنظارهم فهو في كل ما خطته يراعته فوق العلماء. وطريقته في تأليفه «ألَّا يصل الصدق بالكذب، ولا يدخل الباطل في تضاعيف الحق، ولا يتكثر بقول الزور، ولا يلتمس تقوية ضعفه باللفظ الحسن، وستر قبح كلامه بالتأليف المونق، ولا يستعين على إيضاح الحق إلا بالحق، وعلى إيضاح الحجة إلا بالحجة، ولا يستميل إلى دراسة تآليفه واقتنائها، ويستدعي إلى تفضيلها والإشادة بذكرها، بالأشعار المولدة والأحاديث الموضوعة والأسانيد المدخولة، وبما لا شاهد عليه إلا دعوى قائله، ولا مصدق له إلا من يوثق بمعرفته».

قال ابن الخياط: ومن قرأ كتاب عمرو الجاحظ في الرد على المشبِّهة، وكتابه في الأخبار وإثبات النبوة، وكتابه في نظم القرآن عَلِمَ أن له في الإسلام غناءً عظيمًا، لم يكن الله ﷻ يضيعه له. ولا يُعرف كتاب في الاحتجاج لنظم

القرآن وعجيب تأليفه وأنه حجة لمحمد على نبوته غير كتاب الجاحظ. وهذه كتبه في إثبات الرسالة وكتبه في تصحيح مجيء الأخبار مشهورة اهـ.

من كان يظن أن الرجل الذي يؤلف في علوم الدين والجدل والرد على المخالفين وعلى المجوس والنصارى واليهود وعلى الفرق الإسلامية وهو في أصله إمام ديني وصاحب مذهب أنه يؤلف في الحيوان وفي الزرع وفي الشجر والنخل والأعناب وفي كل ما يعرض له من الموضوعات في السياسة والاجتماع والاقتصاد والأخلاق والجغرافية والتاريخ إلى ما عرف في عصره من أنواع العلوم. ومن جملة ما يتقن من الفنون الطب والكيمياء والظواهر الجوية والطبيعة وعلم النفس والأخلاق والمعادن والأصباغ والتجارة وحيل اللصوص وأخبار الخلعاء والمُجَّان، ورسائله كثيرة لا يخطر ببالك أنه يكتب فيها. سئل أبو العيناء الراوية الأخباري: ليت شعري أي شيء كان الجاحظ يحسن؟ فقال: ليت شعري أي شيء كان الجاحظ لا يحسن. وقال المسعودي: لا يعلم أحد من الرواة وأهل العلم أكثر كتبًا من الجاحظ... وكُتُب الجاحظ تجلو صدأ الأذهان وتكشف واضح البرهان لأنه نَظَمَها أَحسن نظم ورصفها أحسن رصف، وكساها من كلامه أَجزل لفظ. وكان إذا تخوف ملل القارئ وسآمة السامع خرج من جدٍّ إلى هزل ومن حكمة بليغة إلى نادرة طريفة، ولا يُعْلَم ممن سلف وخلف من المعتزلة أفصح منه. ووصَفه ثابت بن قُرَّة: «أنه خطيب المسلمين وشيخ المتكلمين ومِدْرَهُ[1] المتقدمين والمتأخرين، إن تكلم حكى سحبان وائل، وإن ناظر ضارع النظام في الجدل، وإن جد خرج من مَسك عامر بن عبد قيس، وإن هزل زاد على مُزَبِّد، حبيب القلوب، ومَراح الأرواح، وشيخ الأدب، ولسان العرب. كُتُبه رياضٌ زاهرة، ورسائله أفنان مثمرة، ما نازعه منازعٌ إلا رشاه آنفًا، ولا تعرَّض له إلا قدَّم له التواضع

(١) المِدْرَه: لسانُ القوم والمتكلِّم عنهم [اللسان]. (المُراجع)

استبقاء. الخلفاء تعرفه، والأمراء تصفه وتنادمه، والعلماء تأخذ منه، والخاصة تسلِّم له، والعامة تحبه، جمع بين اللسان والقلم، وبين الفطنة والعلم، وبين الرأي والأدب، وبن النثر والنظم، ووطئ الرجال عقبه، وتَهادَوْا أدبه، وافتخروا بالانتساب إليه، ونجحوا بالاقتداء به، لقد أوتي الحكمة وفصل الخطاب».

نعم «كان نَسِيجَ وَحْدِهِ في جميع العلوم»، وقال ابن سنان الخفاجي: «فكأنه في كل علم يخوض فيه لا يعرف سواه ولا يحسن غيره»، وقال ابن العميد: «كُتُب الجاحظ تعلِّم العقل أولًا والأدب ثانيًا».

ونَقَلَ عن جالينوس وإقليمون وحنين بن إسحاق وبُختيشوع وسالويه وماسرجويه وغيرهم من علماء عصره. أما أرسطو فقد أنحى عليه بما اخترعه من التخريف في الحيوان. وكان شعاره «إذا سمعت الرجل يقول ما ترك الأول للآخر شيئًا فاعلم أنه ما يريد أن يفلح»، وقال: «وكلام كثير قد جرى على ألسنة الناس وله مضرة شديدة وثمرة مرة، فمِن أضرِّ ذلك قولهم: لم يَدَعِ الأولُ للآخر شيئًا. قال: فلو أن علماء كل عصر مذ جرت هذه الكلمة في أسماعهم تركوا الاستنباط لما لم ينته إليهم عمن قبلهم لرأيت العلم مختلًا.

لم يضع أبو عثمان كتابًا خاصًا في الفلسفة، ولكن تآليفه تَنِمُّ عن طول باعه فيها، وهل الفلسفة إلا علم العقل؟ وعقل الجاحظ كان يحكِّمه في كل شيء. وما قام في الإسلام عالم جمع في صدره العلوم الدينية والدنيوية مثله، ولا من ألَّف هذا القدر من التآليف الممتعة، فقد ألَّف ثلاثمئة وخمسين كتابًا ورسالة، منها ما كَسَرَهُ على بضعة مجلدات، ومنها ما كان في رسالة صغيرة، ضاع أكثرها ولا سيما كتب الدين، لأن خصومه أثاروا عليه حربًا شعواء في عصره وبعد عصره، فكان من تَحَيُّلهم على طمس آثاره أن يبيدوا كتب عدوِّ مذهبهم، وأفلت من براثنهم بعض أسفاره، فكان منها كتاب الحيوان، والبيان والتبيين، وكتاب البخلاء إلى غير ذلك من الكتب والرسائل. قال في وصف

كتاب الحيوان (وهذا كتاب تستوي فيه رغبة الأمم، وتتشابه فيه العرب والعجم، لأنه وإن كان عربيًا أعرابيًا، وإسلاميًا جَماعيًا، فقد حذق طرف الفلسفة وجَمَعَ معرفة السماع وعلم التجربة، واشترك بين علم الكتاب والسنة وبين وجدان الحاسة وإحساس الغريزة). وقد أَلَّفه وهو مريض بالفالج، فأبان فيه عن سعة بحثه وتجاربه، ولم يؤلِّف في بابه مثلُه، حتى قال الحسن بن داود: فخر البصرة بأربعة كتب: كتاب البيان والتبيين للجاحظ، وكتاب الحيوان له، وكتاب سيبويه، وكتاب العين للخليل. أَما البيان والتبيين فهو أَول كتاب عَلَّم طلاب البلاغة بالعمل لا بالقواعد، وبالنصوص والشواهد لا بالتعريفات المملة كما كان ممن جاؤوا بعده.

كان الجاحظ من أعرف المؤلفين بأمزجة القراء، ويعرف أَن الجد مملول، ولا بد من المرح والدعابة لئلا يسمج، لذلك مزجه بهذه الإفاضة لئلا يكون مما كتب شيء لا تهضمه النفوس. يُرى ذلك ماثلًا في كتاب البخلاء، وفي كتاب التربيع والتدوير الذي كتبه في أَحمد بن عبد الوهاب يعبث به، وهو من أَهم ما أَلَّف في السخرية والتهكم، تجلى فيه فَنُّ الجاحظ تَجَلِّيه في كل موضوع خاض غماره وتجسَّمت فيه خفة روحه.

ومرح الجاحظ يتجلَّى في جده وهزله. سأله شخص كتابًا إلى بعض أصحابه فكتب له: «كتابي إليك مع من لا أَعرف ولا أوجب حقه فإن قضيت حقه، لم أُحمدك وإن رددته لم أذمك». وكتب إلى آخر: «كتابي إليك سألني فيه من أَخافه لمن لا أعرفه، فافعل في أمره ما تراه. والسلام». وفي نظر الجاحظ أَن الوَصَاة[١] شهادة وهو أَعقل من أَن يشهد الزور ويبيع دينه لدنيا غيره.

وبينا نرى الجاحظ ينقل إليك كلامَ العقلاء ومذاهب العلماء والحكماء

(١) الوَصَاة: الوَصِيَّة [الصحاح] (المُراجع)

يروي لك نوادر من كلام الصبيان والمجرمين من الأعراب ونوادر كثيرة من كلام المجانين وأهل المُرَّة من الموسوسين ومن كلام أَهل الغفلة والنّوْكى وأَصحاب التكلف من الحمقى. يجعل بعضها في باب الهزل والفكاهة، ويقول: ولكل جنسٍ من هذا موضعٌ يصلح له، ولا بد لمن استكده الجد من الاستراحة إلى بعض الهزل، وإن المزاح جدٌّ إذا اجتُلب ليكون علة للجد.

ومن أَعجب ما كان يأتيه في العبث بأعدائه وحسَّاده ما رواه قال: «إني ربما أَلَّفت الكتاب المُحْكم المتقن في الدين والفقه والرسائل والسيرة والخطب والخراج والأحكام وسائر فنون الحكمة وأَنسبه إلى نفسي، فيتواطأ على الطعن فيه جماعةٌ من أهل العلم، بالحسد المركَّب فيهم، وهم يعرفون براعته ونصاحته. وأَكثر ما يكون هذا منهم إذا كان الكتاب مؤلَّفًا لملك معه القدرة على التقديم والتأخير والحط والرفع والترهيب والترغيب، فإنهم يهتاجون عند ذلك اهتياج الإبل المغتلمة، فإن أَمْكَنَتْهُم الحيلةُ في إسقاط ذلك الكتاب عند السيد الذي أُلِّف له فهو الذي قصدوه وأرادوه. وإن كان السيد المؤلف فيه الكتاب نِحْرِيرًا نَقَّابًا ونِقْرِيسًا بليغًا وحاذقًا فَطِنًا، وأعجزتهم الحيلة سرقوا معاني ذلك الكتاب وأَلَّفوا من أعراضه وحواشيه كتابًا وأهدَوْه إلى ملكٍ آخر ومَتُّوا[1] إليه به، وهم قد ذمُّوه وثلبوه لمَّا رأوه منسوبًا إليَّ وموسومًا بي. وربما أَلَّفتُ الكتاب الذي هو دونه في معانيه وألفاظه فأترجمه باسم غيري وأحيله على من تقدَّمَني عصره مثل ابن المقفع والخليل وسلْم صاحب بيت الحكمة ويحيى بن خالد والعتابي ومن أشبه هؤلاء من مؤلِّفي الكتب فيأتيني أولئك القوم بأعيانهم، الطاعنون على الكتاب الذي كان أحكم من هذا الكتاب لاستنساخ هذا الكتاب وقراءته عليَّ، ويكتبونه بخطوطهم، ويصيِّرونه إمامًا يقتدون به ويتدارسونه بينهم ويتأدبون به، ويستعملون ألفاظه ومعانيه في

(١) مَتَّ إليه بقرابةٍ أو مودَّة: تَوَسَّل، وتوصَّل وانْتَمَى. (المُراجع)

كتبهم وخطاباتهم، ويروونه عني لغيرهم من طلاب ذلك الجنس، فتثبت له به رياسة يأتمُّ بهم قوم فيه لأنه لم يُتَرجم باسمي، ولا نُسِبَ إلى تأليفي».

وما كان إمتاع الجاحظ بما كتب هذا الإمتاع إلا لأنه لا يتكلف في اختيار ألفاظه، ويرسل النفس على سجيتها فيما يؤلف، فجاءت تآليفه كلها نمطًا واحدًا في البلاغة والفصاحة، يكتب كما يتكلم من دون تزيّد ولا تعمُّل. وربما نُسِب قسمٌ عظيم في جودة تأليفه إلى امتلاكه ناصية الكلام وإعطاء كل موضوع حقه من الألفاظ والمعاني. وكأنه كان يضع بعض ألفاظ أو يَستعمل ما لا عهد باستعماله قبله مثل قوله «القرويون والبلديون واللغويون والمعنويون»؛ أطلق هذا على سكان الضياع والدَّساكر[1] وسكان المدن والحواضر، وعلى من يشتغلون بالألفاظ ويشتغلون بالمعاني. وكثيرًا ما استَعمل بعضَ الألفاظ العامية عند نقله روايات المنادمة، لأن النكتة لا تَمْلُح إلا إذا رويت بألفاظها. وتمييز الجاحظ بين حَيِّ الألفاظ وميتها وسهلها وعويصها سببٌ أول في تفوقه ببلاغته.

وملاك الأمر عنده أبدًا أن يكون اللفظ سمحًا لا كزًّا، والابتعاد عن المعاني التافهة والقوالب المستكرهة. ولطالما أوصى طلابَ البلاغة ألّا يعمدوا إلى استعمال اللفظ الساقط السوقي ولا الوحشي الغريب، لأن «الاستعانة بالغريب عجز» «إلا أن يكون المتكلم بدويًا أعرابيًا فإن الوحشي من الكلام يفهمه الوحشي من الناس كما يفهم السوقي رطانة السوقي». والمعوَّل عليه في هذا الباب أن «لا يكلم العامة بكلام الخاصة ولا الخاصة بكلام العامة».

قال: «وأنا أقول في هذا قولًا وأرجو أن يكون مَرْضيًا، ولم أقل أرجو لأني أعلم فيه خللًا، ولكنني أخذت بآداب وجوه أهل دعوتي وملتي ولغتي

---

(١) الدَّسْكَرة: القَرْيَة. ج دَسَاكر [القاموس المحيط]. (المُراجع)

وجزيرتي وجيرتي وهم العرب. وذلك أنه قيل لصُحَارٍ العَبْديّ: ما يقول الرجل لصاحبه عند تذكيره أياديه وإحسانه؟ قال: أما نحن فإنا نرجو أن نكون قد بَلَغْنا من أداء ما يجب علينا مبلغًا مَرْضيًّا، وهو يعلم أنه قد وفَّاه حقه الواجب وتفضَّل بما لا يجب. قال صَحار: كانوا يستحبون أن يَدَعُوا للقول متنفّسًا وأن يتركوا فيه فضلًا، وأن يتجافوا عن حقٍّ إن أرادوه لم يُمنعوا منه فلذلك قلت أرجو، فافهم فهّمك الله». قال: فإن رأيي في هذا الضرب من اللفظ أن أكون ما دمت في المعاني التي هي عبارتها والعادة فيها أن ألفظ بالشيء العتيد الموجود وأدع التكلف لما عسى أن لا يسلس ولا يسهل إلا بعد الرياضة الطويلة.

وقال أيضًا: ومتى شاكل ـ أبقاك الله ـ اللفظ معناه وكان لذلك الحال وَفْقًا، ولذلك القدر لِفْقًا[1]، وخرج من سماجة الاستكراه، وسَلِم من فساد التكلف، كان قمينًا بحسن الموقع، وحقيقًا بانتفاع المستمع، وجديرًا أن يمنع جانبه من تأوّل الطاعنين، ويحمي عِرْضه من اعتراض العائبين، ولا تزال القلوب به معمورة، والصدور مأهولة، ومتى كان اللفظ أيضًا كريمًا في نفسه، متخيَّرًا من جنسه، وكان سليمًا من الفضول بريئًا من التعقيد، حُبِّب إلى النفوس، واتصل بالأذهان، والتحم بالعقول، وهشَّتْ له الأسماع، وارتاحت له القلوب، وخفّ على ألسن الرواة، وشاع في الآفاق ذكره، وعَظُم في الناس خطره، وصار ذلك مادة للعالم الرئيس، ورياضة للمتعلم الرَّيِّض، ومن أعاره من معرفته نصيبًا، وأفرغ عليه من محبته ذَنُوبًا، حبب إليه المعاني، وأسلس له نظام اللفظ، وكان قد أغنى المستمع عن كدِّ التكلُّف، وأراح قارئ الكتاب من علاج التفهُّم». وعنده أن «المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي، وإنما الشأن في إقامة الوزن وتمييز اللفظ وسهولته، وسهولة المخرج، وفي صحة الطبع، وجودة السبك».

(١) اللِّفق: شِقَّةٌ من شِقَّتَي المُلاءَة. (المُراجع)

قال في رسالة القيان يصف القينات في عصره: «وكيف تسلم القينة من الفتنة، أو يمكنها أن تكون عفيفة، وإنما تكتسب الأهواء وتتعلم الألسن والأخلاق بالمنشأ، وإنما هي تنشأ من لدن مولدها إلى أوان وفاتها بما يصد عن ذكر الله، من لهو الحديث وصنوف اللعب والأخابيث، وبين الخلعاء والمُجّان، ومن لا يُسمع منه كلمة جد، ولا يرجع إلى فقه ولا دين، ولا صيانة مروءة، وتروي الحاذقة منهن أربعة آلاف صوت فصاعدًا، يكون الصوت فيما بين البيتين إلى أربعة أبيات، عدد ما يدخل في ذلك من الشعر، إذا ضربت بعضه ببعض عشرة آلاف بيت، ليس فيها ذكر الله إلا عن غفلة، ولا ترهيب عن عقاب ولا ترغيب في ثواب، وإنما بنيت كلها على ذكر الزنا والقيادة والعشق والصبوة والشوق والغُلمة، ثم لا تنفك من الدراسة لصناعتها، منكبة عليها تأخذ من المطارحين الذين طرحهم كله تجميش وإنشادهم مراودة، وهي مضطرة إلى ذلك في صناعتها، لأنها إن جَفَتْها تفلّتت، وإن أهملتْها نقصت، وإن لم تستفد منها وقفت، وكلٌ واقفٍ فإلى نقصان أقرب، وإنما فرق ما بين أصحاب الصناعات وبين من لا يحسنها التزيد فيها والمواظبة عليها، فهي لو أرادت الهدى لم تعرفه، ولو بغت العفة لم تقدر عليها، وإنْ ثبتت حجة أبي الهُذَيْل فيما يجب على المتفكر زال عنها خاصة، لأن فكرها وقلبها ولسانها وبدنها مشاغيل بما هي فيه، وعلى حسب ما اجتمع عليها من ذلك في نفسها لمن بُلي بمجالستها عليه وعليها».

وقال في رسالة النساء: «ورأيت أكثر الناس من البصراء بجواهر النساء الذين هم جهابذة هذا الأمر يقدّمون المجدولة، والمجدولة من النساء تكون في منزلةٍ بين السمينة والممشوقة، ولا بد من جودة القدّ وحسن الخرط واعتدال المنكبين واستواء الظهر، ولا بدَّ من أن تكون كاسية العظام بين الممتلئة والقَضِيفة[1]، وإنما يريدون بقولهم مجدولة، جودة العصب وقلة

(١) القَضِيف: النَّحِيف [اللسان]. (المُراجع)

الاسترخاء، وكأنها جان، وكأنها جَدل عنان، وكأنها قضيب خيزران، والتثني في مشيها أحسن ما فيها، ولا يمكن ذلك للضخمة والسمينة، وذات الفضول والزوائد، على أن النحافة في المجدولة أعم، وهي بهذا تحبب على السمان الضخام، وعلى الممشوقات والقضاف، كما يحبب هذه الأصناف على المجدولات، ووصفوا المجدولة بالكلام المنثور فقالوا: أعلاها قضيب وأسفلها كثيب».

وقال في عدم تغليظ حجاب النساء: ثم لم يزل للملوك والأشراف إماءٌ تختلفن في الحوائج ويدخلن في الدواوين ونساء يجلسن للناس... ثم كن يبرزن للناس أحسن ما كنَّ وأشد ما يتزين به، فما أنكر ذلك مُنْكِر ولا عابَهُ عائب... والدليل على أن النظر إلى النساء كلهن ليس بحرام أن المرأة المغنية تبرز للرجال فلا تحتشم من ذلك، فلو كان حرامًا وهي شابة لم يحلَّ إذا غنت، ولكنه أمر أفرط فيه المعتدون حد الغيرة إلى سوء الخلق وضِيق العَطَن فصار عندهم كالحق الواجب». وقال في كتاب النساء: «ولسنا نقول ولا يقول أحد ممن يعقل أن النساء فوق الرجال أو دونهم بطبقة أو طبقتين أو بأكثر، ولكننا رأينا أناسًا يُزرون عليهن أشد الزراية ويحتقرونهن أشد الاحتقار ويبخسونهن أكثر حقوقهن، وإن من العجز أن يكون الرجل لا يستطيع توفير حقوق الآباء والأعمام إلا بأن ينكر حقوق الأمهات والأخوال، فلذلك ذكرنا جملة ما للنساء من المحاسن. ولولا أن أناسًا يفخرون بالجَلد وقوة المُنّة وانصراف النفس عن حب النساء حتى جعلوا شدة حب الرجل لأَمته وزوجته وولده دليلًا على الضعف وبابًا من الخَوَر لما تَكَلّفنا كثيرًا مما شرطناه في هذا الكتاب. قال: ونحن وإن رأينا أن فضل الرجل على المرأة في جملة القول في الرجال والنساء أكثر وأظهر، فليس ينبغي لمن عظَّم حقوق الآباء أن يصغِّر حقوق الأمهات، وكذلك الإخوة والأخوات والبنون والبنات، وأنا وإن كنت قلت: إن حقَّ هذا أعظم، فإن هذه أرحم.

ومن أجمل ما وَصَفَ به قاضي البصرة قولُه: كان لنا بالبصرة قاض يقال له: عبد الله بن سوار، لم يَرَ الناس حاكمًا زِمِّيتًا[١] رَكينًا[٢] ولا وقورًا حليمًا، ضبط من نفسه، وملك من حركته مثل الذي ضبط وملك. كان يصلي الغداة في منزله، وهو قريب الدار من مسجده، فيأتي مجلسه فيحتبي ولا يتكي، فلا يزال منتصبًا لا يتحرك له عضو ولا يلتفت ولا تحل حبوته، ولا يحل رِجلًا على أخرى، ولا يعتمد على أحد شقيه، حتى كأنه بناء مبني، أو صخرة منصوبة، فلا يزال كذلك حتى يقوم إلى صلاة الظهر، ثم يعود إلى مجلسه فلا يزال كذلك حتى يقوم إلى صلاة العصر، ثم يرجع لمجلسه فلا يزال كذلك حتى يقوم لصلاة المغرب، ثم ربما عاد على مجلسه، بل كثيرًا ما كان يكون ذلك إذا بقي عليه شيء من قراءة العهود والشروط والوثائق، ثم يصلي العشاء الآخرة وينصرف. فالحق يقال لم يقم في طول تلك المدة والولاية مرة واحدة إلى الوضوء، ولا احتاج إليه، ولا شرب ماء ولا غيره من الشراب، كذلك كان شأنه في طِوال الأيام وفي قِصارها، وفي صيفها وفي شتائها، وكان مع ذلك لا يحرك يدًا ولا عضوًا، ولا يشير برأسه، وليس إلا أن يتكلم ثم يوجز ويبلغ باليسير من الكلام إلى المعاني الكبيرة.

«فبينا هو كذلك ذات يوم وأصحابه حواليه، وفي السِّمَاطين[٣] بين يديه، إذ سقط على أنفه ذباب فأطال المكث، ثم تحوَّل إلى موق عينيه، فرام الصبر على سقوطه على الموق، وصبر على عضته ونفاذ خرطومه، كما رام الصبر على سقوطه على أنفه، من غير أن يحرك أرنبته، أو يغضِّن وجهه، أو يذبَّ بإصبعه، فلما طال ذلك عليه من الذباب، وشغله وأوجعه وأحرقه،

(١) الزِّمِّيت: الوَقُور [القاموس]. (المُراجع)

(٢) الرَّكِين: الرَّزِين [القاموس]. (المُراجع)

(٣) يقال: قام القوم حوله سِمَاطَيْن؛ أي: صَفَّيْن. وكلُّ صفٍّ من الرجال سِمَاط [اللسان]. (المُراجع)

وقصد إلى مكان لا يحتمل التغافل، أطبق جفنه الأعلى على جفنه الأسفل فلم ينهض، فدعاه ذلك إلى أن يوالي بين الأطباق والفتح، فتنحى ريثما سكن جفنه، ثم عاد إلى موقه بأشد من مرته الأولى، فغمس خرطومه في مكان كان قد آذاه فيه قبل ذلك. فكان احتماله أقلّ، وعجزه عن الصبر عليه في الثانية أقوى، فحرك أجفانه، وزاد في شدة الحركة، وألحَّ في فتح العين، وفي تتابع الفتح والإطباق، فتنحى عنه بقدر ما سكنت حركته، ثم عاد إلى موضعه، فما زال يلح عليه حتى استفرغ صبره وبلغ مجهوده، فلم يجد بدًّا من أن يذبَّ عن عينه بيده ففعل، وعيون القوم ترمقه، وكأنهم لا يرونه، فتنحى عنه بقدر ما رد يده وسكنت حركته، ثم عاد إلى موضعه، ثم ألجأه إلى أن ذبَّ عن وجهه بطرف كمه، ثم ألجأه إلى أن تابع ذلك، وعلم أن فعله كله بعين من حضره من أمنائه وجلسائه، فلما نظروا إليه قال: أشهد أن الذُّباب ألجُّ من الخنفساء، وأزهى من الغراب، قال: وأستغفر الله فما أكثر من أَعْجَبَتْه نفسُه فأراد الله ﷻ أن يُعرِّفه من ضعفه ما كان عنه مستورًا، وقد علمتم أني عند نفسي وعند الناس من أرزن الناس، فقد غَلَبَني وفضحني أضعفُ خَلْقه، ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ وكان بَيِّنَ اللسان، قليل فضول الكلام، وكان مهيبًا في أصحابه، وكان أحدَ مَن لم يَطْعَنْ عليه في نفسه، ولا في تعريض أصحابه للمَنَالة».

وبَعْدُ فقد عاش الجاحظ، إذا تدبَّرتَ كتبه، عَيْشَ المتفائل لا المتشائم، تطلبه الخلفاء والأمراء فيتحاماهم ويقنع منهم براتبٍ يعيش به وعطايا تدر عليه منهم إذا وشَّح تآليفه بأسمائهم. سأله أحدهم مرةً إذا كان له بالبصرة ضيعة فتبسم وقال: إنما أنا وجارية وجارية تخدمها وخادم وحمار، أهديت كتاب الحيوان إلى محمد بن عبد الملك فأعطاني خمسة آلاف دينار، وأهديت كتاب البيان والتبيين إلى ابن أبي دؤاد فأعطاني خمسة آلاف دينار، وأهديت كتاب

الزرع والنخل إلى إبراهيم بن العباس الصولي فأعطاني خمسة آلاف دينار، فانصرفت إلى البصرة ومعي ضيعة لا تحتاج إلى تجديد ولا إلى تسميد.

كان الجاحظ كريمًا لا يمسك مالًا فيعسر أحيانًا. وكان إلى الاعتدال أقرب في جدله ومناقشاته، ولذلك كانت تكتب له الغلبة على خصومه، نال منهم وما نالوا منه، وضحك من عقولهم وما استطاع قطُّ حساده أن يضحكوا منه، طال عمره ومرض مرضًا عضالًا في عشر الثمانين وما انقطع عن التأليف والإفادة. فعلى كل طالب علم يريد الجمع بين البلاغة والعلم أن يقرأ بتدبر كل ما أبقته الأيام من كتب الجاحظ يردِّدها كلَّ عام ليظل على صلة بالكمال المطلق من الآداب التي تصلح لكل عصر، وتحلو مهما تقادم العهد بواضعها.

ولا يتسع المقام لاقتباس شذرات من كتبه المطبوعة؛ ففي المطول منها والمختصر أشياء يجدر استظهارها والرجوع إليها، ومن هذه الرسائل والكتب: «الدلائل والاعتبار»، «المحاسن والأضداد»، «مناقب الترك وعامة جند الخلافة»، «تفضيل النطق على الصمت»، «فصل ما بين العداوة والحسد»، «الوكلاء»، «الرد على النصارى»، «طبقات المغنين»، «ذم صناعة القواد»، «النساء»، «الحجاب»، «المعاد والمعاش»، «كتمان السر وحفظ اللسان»، «رسالة في الجد والهزل»، «النابتة»، «ذم العلوم ومدحها»، «فصول مختارة منه لعبيد الله بن حسان» الخ.



(٥)

# ابن قُتَيْبَة

## أبو محمد عبد الله بن مُسْلِم

(٢٧٦)

قُتَيْبَة تصغير قِتْبَة واحدة الأقتاب أي الأمعاء. فارسيُّ الجنس عربيُّ المولد والمنشأ، قيل لأبيه: المروذي، لأنه من أهل مرو الروذ، أما ابنه فقيل إنه ولد في الكوفة وقيل في بغداد. وفي مدينة السلام - وهي في أرقى عصورها - أخذ عن علمائها فن الحديث واللغة والتفسير والنحو والأدب وأخبار الناس. ولم يؤثر له شعر، ونثره طبقة عالية كنثر أَقْعَدِ[1] المؤلفين في عصره وبعده.

يُذكَر ابن قتيبة مع المكثرين من التأليف والمجوِّدين فيه. وقد أقرأ تآليفه في بغداد طول حياته فألقاها محاضرات ودروسًا على المستفيدين فزادها التكرار تحقيقًا ونظرًا. وكانت كتبه مرغوبًا فيها في الجبال (العراق العجمي). وفي الجبال اشتُهر أيام كونه قاضيًا في دِينَوَر من عملها حتى قيل له الدِّينَوَرِيّ لطول مقامه في تلك المدينة. وكما كانت تآليفه معتمدةً في الشرق كانوا يُعجَبون بها في الغرب، ويدعي أهله أن كل بيت ليس فيه شيء من تصنيفه لا خير فيه. وكان يُطلَق عليه اسم الكاتب، والكاتب العالِم «لأن الغالب على من كان يعرف الكتابة أن عنده العلم والمعرفة»، ووصفوه بأنه خطيب أهل السنة، على ما كان الجاحظ خطيب المعتزلة وكانا متعاصرَيْن. ظهر ابن قتيبة وشهرة الجاحظ قد طبَّقت الآفاق، وربما حاول أن يسحب عليه ذيل النسيان، فما

---

(١) أَقْعَدُ القومِ في النسب: الأقربُ إلى الأب الأكبر. (مقاييس اللغة). وفي الأساس: وهو كِبْرُ قَوْمِهِ: أكبرهم في السن أو في الرياسة أو في النسب: أقعدهم فيه. (المُراجع)

أخذ كل من المتعاصرين أكثر من حقه. كان ابن قتيبة عالمًا كبيرًا إلا أن له أندادًا يماثلونه في علماء الملة، أما مرتبة الجاحظ في العلوم المختلفة فلا ينازعه فيها منازع.

كان ابن قتيبة يُحْسِن الفارسية، وكثيرًا ما يقول في بعض كتبه: وقرأتُ في كتب العجم، بيد أنه لم يكتب بغير العربية، ولم يكن له حظ من الفلسفة لأن أهل الحديث يمقتونها ويحاربونها وهو من أئمتهم. وثارت في أيامه مسألة الشعوبية؛ أي تفضيل العجم على العرب، وكتب أحباب العنصرَيْن كتبًا ورسائل، فما وَسِعَ ابن قتيبة إلا أن يكتب كتابًا في فضل العرب وعلومهم برَّأ فيه أشراف العجم من بغضة العرب وألقاها على أوباشهم وسفلتهم. وكتابه هذا كأكثر كتبه منقولٌ عن غيره، ليس له فيه غير سطور معدودة.

واشتد ابن قتيبة على مخالفيه ولا سيما المعتزلة منهم، وفي كتابه «مختلف تأويل الحديث» طعنٌ مبرِّح في الجاحظ قال فيه إنه أكذب الأمة وأوضعهم لحديث وأنصرهم لباطل، فتجلى حسده تجليًا ظاهرًا. وقديمًا كان في العلماء الحسد. وما آخذ به الجاحظ بسبب قول الشيء وضده يعد من حسنات الجاحظ، وكيف لعمري قضى ابن قتيبة على خصمه في مذهبه هذا القضاء وهو القائل في «عيون الأخبار» من تأليفه: «وليس الطريق إلى الله واحدًا، ولا كل الخير مجتمعًا في تهجد الليل وسرد الصيام وعلم الحلال والحرام، بل الطرق إليه كثيرة، وأبواب الخير واسعة، وصلاح الدين بصلاح الزمان، وصلاح الزمان بصلاح السلطان، وصلاح السلطان بعد توفيق الله بالإرشاد وحسن التبصير».

هَجَّن[1] ابنُ قتيبةَ الجاحظَ وكفَّره ورماه بأعظم كبيرة وهي الكذب، وسَجَّل عليه أنه أكذب واحد في الأمة، لأنه كتب أشياء تنفع في تربية العقول

---

(١) هَجَّنَ: قَبَّحَ [القاموس]. (المُراجع)

في الدنيا كما كتب كل ما ينفع الدين، وابتدع أدبًا يسلي ويعلِّم، فهل من العدل أن يُرْمَى بوضع الحديث، وتشدُّده وتشدد أهل مذهبه في تحرِّي السليم من السقيم في الأحاديث لا يحتاج إلى دليل؟ ورمى أيضًا أبا الهذيل العلاف بما ليس فيه، ووصفه بأنه كذاب أفَّاك، وطعن فيه أشنع طعن. وكذلك كان حظ ثمامة بن الأشرس منه، وهما من الأئمة، ورمى هذا برقة الدين وتنقص الإسلام والاستهزاء به، وطعن في النَّظام أيضًا وهو الذي رَدَّ على الملحدين والدهريين شطرًا كبيرًا من عمره. ولولا أن وقف هؤلاء المعتزلة وطبقتهم موقفهم المحمود في الحملة على أعداء الإسلام، ولولا المتكلمون عامة لاستضر الدين، وما نجا بجمود الفقهاء ورواة الحديث. ولذلك قال بعض من ترجموا لابن قتيبة أنه «كان خبيث اللسان يقع في كبار العلماء». وعلى شدة إعجاب ابن خلدون بأدب الكاتب لابن قتيبة ما حال إعجابه دون قول الحق فيه عند كلامه على التاريخ فقال: إن كتاب ابن جرير الطبري سالم من الأهواء الموجودة في كتب ابن قتيبة، وكتاب ابن جرير أبعد من المطاعن في كبار الأمة.

هذا وهو الثقة في علمه المدقق في روايته القائل «ونحن نستحب لمن قَبِل عنا وائْتَمَّ بكتبنا أن يؤدِّب نفسه قبل أن يؤدب لسانه، ويهذِّب أخلاقه قبل أن يهذب ألفاظه، ويصون مروءته عن دناءة الغيبة وصناعته عن شين الكذب». وهو الذي قال عند ذكر أسماء الأعضاء: «إنها لا تؤثِم وإنما الإثم في شتم الأعراض وقول الزور والكذب وأكل لحوم الناس بالغيب».

نَعَمْ جارَ ابنُ قتيبة في النَّيْل من خصومه، ولكثرة ما حمل على الفلاسفة والمتكلمين ودافع عن أهل الحديث اتُّهم هو بالانحلال، فاضطر إلى وضع كتاب في الرد على الجهمية والمشبِّهة ليدفع عن نفسه كما قال العلامة بروكلمان في الترجمة له في معلمة الإسلام. وفي كتابه تأويل مختلف الحديث ظهرت شخصية ابن قتيبة كل الظهور واستغرق ثلاثة أرباع الكتاب في تصحيح

الأحاديث التي ادعى عليها المتكلمون التناقض، والأحاديث التي تخالف عندهم كتاب الله تعالى، والأحاديث التي يدفعها النظر وحجة العقل. وقد قام كتابه هذا على الرد على أهل الكلام في ثَلْبهم أَهل الحديث وإسهابهم في الكتب بذمِّهم، ورَمْيِهم بحمل الكذب ورواية التناقض «حتى وقع الاختلاف وكَثُرت النحل وتقطَّعت العِصَم، وتعادى المسلمون وأَكْفَرَ بعضُهم بعضًا وتعلَّق كل فريق منهم لمذهبه بجنس من الحديث» زاعمًا أن أهل الكلام يقولون على الله ما لا يعلمون، ويفتنون الناس بما يأتون، ويبصرون القذى في عيون الناس وعيونهم تُطرَف على الأجذاع، ويتهمون غيرهم في النقل، ولا يتهمون آراءهم في التأويل.

طُبع من كُتُب ابن قتيبة: أَدب الكاتب، وتأويل مختلف الحديث، والشعر والشعراء، وعيون الأخبار، وفضل العرب والتنبيه على علومها، والقداح والميسر، وكتاب الأشربة، وبعض الرسائل اللغوية، وكتاب المعارف. وأدب الكاتب عمدةٌ في بابه، وقد شرحه الجواليقي (٥٤٠) وابن السيد البَطَلْيَوْسِيّ (٥٢١) فبيَّنا ما يرد عليه فيه، وما غلط في تصحيحه وغلَّط الناقلين عنه، وما منع منه وهو جائز. أما كتاب الإمامة والسياسة المنسوب إليه، فهو ما ألفه قط، بل نحله إياه الناحلون، وكثيرًا ما نُحل عظماء المؤلفين تآليف ما خطُّوا فيها قلمًا، ولا خَطَوْا إلى وضعها قدمًا. وهذا من فعل الورّاقين وأهل الأهواء على الأغلب؛ ونعني بالورّاقين الناسخين. فأما الورق وبيعه فكان يقال له الكاغدي.

وكما ينحل الورَّاقون مؤلفات لمؤلِّفين قد ينتحل بعض المؤلفين تآليف أو بعضًا من تآليفَ كَتَبَها غيرُهم. فقد قال المفضل بن سلمة الكوفي في الفاخر: إن أبا محمد بن قتيبة نقل كتابه في المعارف من كتاب المحبَّر لابن حبيب. وسواء صحت هذه التهمة أو لم تصح ـ ونحن أميل إلى نفيها لما عرف به ابن

قتيبة من الأمانة في العلم ـ فإن عادة الانتحال كَثُرت بعد عصر ابن قتيبة في المؤلِّفين والورَّاقين.

تدور معظم كتب ابن قتيبة على تربية الملكة العربية وتحبيب اللغة إلى الدارسين والشادين، وليس أدبُه الأدبَ الذي يعنيه العارفون بالأدب اليوم، يحمل الجمال والفن ويهذب النفس ويلهيها ويوسع خيالها. وكتبه كسائر كتب القدامى تخفى فيها شخصيته ولا تظهر غالبًا إلا إذا حاول الانحاء على مخالفيه، فإنه إذ ذاك يصاول ويطاول ويتعصب ويخلب ببيانه، فتبدو نفسيته ويثبت أنه يحسن الإيجاز كما يحسن التطويل، ويحسن الإنصاف كما يحسن المَحْك. وقد يعتذر عنه بأنه لم يظلم خصماء مذهبه كثيرًا، وأنه ما خرج في حوارهم عن عادة المؤلفين في الدين عامة، كل منهم يصحِّح مذهبه ويطلق على من يناقشه ضروب السباب والشتم، ويكابر في الحق ويتوعد بالنار يوم القيامة كل من لا يقول قوله. وعلى هذا يقول ابن قتيبة: إن الناس لا يتساوون جميعًا في المعرفة والفضل، وليس صنفٌ من الناس إلا وله حشوٌ وشَوْب[1]. وقال أيضًا: ولا أعلم أحدًا من أهل العلم والأدب إلا وقد أسقط في علمه؛ أي أخطأ، وقال: من ذا صفا فلم يكن له عيب، وخلص فلم يكن فيه شَوْب. وقال: من أراد أن يكون عالِمًا فليطلب فنًّا واحدًا، ومن أراد أن يكون أديبًا فليتسع في العلوم.

وظاهرة بارزة في تآليف ابن قتيبة وتوخيه فيها الإيجاز لتسهل روايتها ويَخِفَّ محملها ولا تثقل مؤونتها قال: فعلت لمُغْفِل التأديب كتبًا خفافًا في المعرفة وفي تقويم اللسان واليد، يشتمل كل كتاب منها على فن، وأعفيته من التطويل والتثقيل لأنشِّطه لتحفُّظِه ودراسته. واعتذر عن شدة إيجازه في كتابه المعارف بقوله: «وكان غرضي، في جميع ما اقتصصت الإيجاز والتخفيف

---

(١) الشَّوْب: الخَلْط. (المُراجع)

والقصد، المشهور من الأنباء دون المغمور، ولما يجري له سبب على ألسنة الناس دون ما لا يجري له سبب، ولو قصدت الاستقصاء لطال الكتاب حتى يعجز عن نسخه فضلًا عن حفظه، ولاختلط الخفيّ بالجليّ فمجَّتْه الآذان، وملَّتْه النفوس».

وقد يكون من التطويل في التأليف ما تبدو به مقاتل المؤلِّف، وهذا ما كان يتجنَّبه ابن قتيبة على ما ظهر من اقتضابه في عيون الأخبار وفي المعارف والشعر والشعراء. فقد قال في مقدمة الشعر والشعراء معتذرًا عن استقصائهم: «ولعلك تظن، رحمك الله، أنه يجب على من ألَّف مثل كتابنا هذا ألَّا يَدَعَ شاعرًا قديمًا ولا حديثًا إلا ذكره ودلَّك عليه، وتقدّر أن يكون الشعراء بمنزلة رواة الحديث والأخبار والملوك والأشراف الذين يبلغهم الإحصاء ويجمعهم العدد. والشعراء المعروفون بالشعر عند عشائرهم وقبائلهم في الجاهلية والإسلام أكثر من أن يحيط بهم محيط، أو يقف من وراء عددهم واقف، ولو أنفد عمره في التنقير عنهم، واستفرغ مجهوده في البحث والسؤال، ولا أحسب أحدًا من علمائنا استغرق شعر قبيلة حتى لم يفته من تلك القبيلة شاعر إلا عرفه ولا قصيدة إلا رواها.

قال: «ولم أسلك فيما ذكرته من شعر كل شاعر مختارًا له سبيل من قلَّد أو استحسن باستحسان غيره، ولا نظرت إلى المتقدِّم منهم بعين الجلالة لتقدُّمه، وإلى المتأخر بعين الاحتقار لتأخُره، بل نظرت بعين العدل إلى الفريقين، وأعطيت كلًّا حظه، ووفرت عليه حقَّه. فإني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدُّم قائله ويضعه في متخيَّره، ويرذِّل الشعرَ الرصين ولا عيبَ له عنده إلا أنه قيل في زمانه، أو أنه رأى قائله. ولم يقصُر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن، ولا خصَّ به قومًا دون قوم، بل جعل ذلك مشتركًا مقسومًا بين عباده في كل دهر، وجعل كل قديم حديثًا في

عصره، وكل شرف خارجية[١] في أوله. فقد كان جرير والفرزدق والأخطل وأمثالهم يُعَدُّون مُحْدَثين، وكان أبو عمرو بن العلاء يقول: لقد كثر هذا المُحْدَث وحسُن حتى لقد هممت بروايته. ثم صار هؤلاء قدماء عندنا ببعد العهد منهم، وكذلك يكون من بعدهم لمن بعدنا كالخريمي والعتّابي والحسن بن هانئ وأشباههم».

وهذا كلام جيد إن صدق على عصره فلا يصدق على العصور التالية، وقد أصبحت الإجادة في الشعر والنثر تبعًا للحالة الاجتماعية والسياسية، وتَدَنَّت الصناعتان كل التدني بفساد اللغة الناشئ من دخول الأعاجم في العرب. ولما ندر من يجيز على الشعر أصبح أداة من أدوات التسوّل والكُدْيَة[٢] فقط، ولم تبق له تلك الرَّوعة ولا هاتيك العبقة.

وأُعجب جهابذةُ الأدب بعيون الأخبار كما أُعجبوا بمعظم كتبه ولا سيما أدب الكاتب. قال السمعاني: سمعتُ الأمير أبا نصر الميكالي يقول: تذاكرنا المتنزهات يومًا وابن دُريْد حاضر فقال بعضهم: أنزه الأماكن غوطة دمشق. وقال آخرون: بل نهر الأُبلة. وقال آخرون: بل سُغد سمرقند. وقال بعضهم: نهروان بغداد. وقال بعضهم: شعب بوّان بأرض فارس. وقال بعضهم: نوبهار بلخ. فقال: هذه متنزهات العيون، فأين أنتم من متنزهات القلوب، قلنا: وما هي يا أبا بكر؟ قال عيون الأخبار للقتيبي والزهرة لابن داود الخ.

وكتاب الأشربة أو كتاب الشراب كما أطلقه عليه المؤلِّف في أحد كتبه، مزج فيه الأدب بالفقه على عادته. وكانت مسألة الأشربة قد شغلت أمناء الشرع والفقه في أيامه وفي الأيام السالفة والمشرّعون بين محلل ومحرم للأنبذة، كلٌّ يفتي بمبلغ علمه، وما وصل إلى رأيه من نصوص الكتاب

---

(١) الخارجي الذي يخرُج ويشرُف بنفسه من غير أن يكون له قديم. وقيل الخارجي كل ما فاق جنسه ونظائره.

(٢) الكُدْيَة: حِرْفَةُ السائل المُلِحّ. (المُراجع)

والسنة. فكتب ابن قتيبة رأيه مستندًا إلى أقوال الأئمة ذاكرًا ما تعاور هذه المسألة من المرادّات فجاءت فتواه مستوفاة، وحلّ المسألة المتنازع عليها بإخلاص مما لم يكد يسبق للفقهاء بلوغ مثله، ومعظم أرباب الفقه لم يُحكِموا الأدب كما أَحْكَمه ابن قتيبة فجاءت بعض كتاباتهم جافة لا تتذوقها النفوس.

والناظر في كتاب الأشربة يتراءى له أن يتصفَّح سِفْر أدبٍ طريفٍ يفهمه كل من يقرؤه، ويعجبُ من توسع المؤلف في حريته وروايته الأخبار والأشعار المستطرفة. ولجلالة المؤلف وجلالة ما كتب في الأشربة اعتمد من جاؤوا بعد عهده من رواة الأخبار على ما كتب وشحنوا بمروياته أسفارهم على ما فعل ابن عبد ربه في العقد الفريد وغيره، وكان لهم من تحقيقه خير عون على الخوض في مسالة يكاد لا ينجو الخائض فيها من ركوب مركب خشن جامح.

ومن مزايا ابن قتيبة أنه كان عارفًا بزمانه، وتقلُّده القضاء فتح له بابًا ولج منه على معرفة حال الراعي والرعية. كان عصره آخر عصور الترقّي في بني العباس وأول عصور التدني فوصفه وصفًا يدل على أن له قَدَمَ صِدْق في السياسة والاجتماع فقال فيه: «إنه خوى نجم الخير، وكسدت سوق البر، وبارت بضائع أهله، وصار العلم عارًا على صاحبه والفضل نقصًا، وأموال الملوك وقفًا على شهوات النفوس، والجاه الذي هو زكوة الشرف يباع بيع الخلق، وآضت المروءات في زخارف النَّجْد[1] وتشييد البنيان، ولذات النفوس في اصْطِفاق المَزَاهر ومُعاطاة الندمان، ونُبِذَت الصنائع، وجُهِلَ قدر المعروف، وماتت الخواطر، وسقطت هِمَمُ النفوس، وزُهِدَ في لسان الصدق». ووصف العمال بأنهم «العلماء بتحلذُب الفيء وقتل النفوس فيه، وإخراب البلاد، والتوفير العائد على السلطان بالخسران المبين».

لا جرم أن ابن قتيبة من جهابذة العلماء الذين هضموا علمهم. وقد وفق

(١) النجد ما ينضّد به البيت من البسط والوسائد والفرش. والجمع: نجود ونجاد، وقيل ما ينجّد به البيت من المتاع أي: يزين.

إلى اختيار أطايب أخبار القدماء، ورُزِق حظًّا من التنسيق والترتيب، فأبرز تآليفه منقَّحةً محرَّرة. ولنا أَن نقول أيضًا إن ابن قتيبة في ذاته لم يكن جامدًا على ما قرأ في الكتب، وكان يُحْسِن استخدام عقله ويجيد التخلص من المآزق، وإذا رأى الخطر يوشك أن يدهمه يخفُّ في الحال على درئه عنه بنعومة ولباقة كما فعل في الرد على الشعوبية وفي الرد على الجهمية والمشبِّهة. ولعله ما جسر على الضرب في المعتزلة إلا لما شاهد أن شمسهم آذنت بالمغيب، وأن مكانتهم في قصور خلفاء بني العباس أخذت تتزعزع، والأمة تحاربهم في كل أفق حربًا لا هوادة فيها، وما جوَّز الإنحاء عليهم إلا لما انقضى دون المأمون والمعتصم، وهما من أكبر حماتهم، وغالى في طعنه بما لا يناسب عظمة علمه وأخلاقه. جلَّ من لا عيب فيه.



(٦)

# طَيْفُور

## أحمد بن أَبي طاهر

## (٢٨٠)

كان أبوه طيفور من مَرْوِ الرُّوذ من أبناء خراسان ومن أولاد الدولة، وولد ابنه أحمد في بغداد سنة أربع ومئتين، وأخذ الأدب والحديث عن رجال عصره وروى عنه جماعة، وانصرف إلى الرواية والأخبار. وكان لأول نشأته مؤدِّب صبيان، ثم جلس في سوق الورّاقين، واشتُهر بالشعر والكتابة، قال فيه صاحب تاريخ بغداد: إنه أحد البلغاء الشعراء والرواة، من أهل الفضل المذكورين في العلم. ووصفه المسعودي بالشاعر، وأورد له قصيدة رثى بها يحيى بن عمرو كان ظهر بالكوفة سنة ثمان وأربعين ومئتين جاء فيها:

سلام على الإسلام فهو مودَّع ... إذا ما قضى آل النبي فودعوا

إلى أن يقول:

بني طاهر واللُّؤْم فيكم سَجِيةٌ ... وللغَدْر منكم حاسِرٌ ومُقَنَّعُ

قواضبكم في التُّرْك غير قواطعٍ ... ولكنَّها في آل أحمدَ تَقْطَعُ

لكم كلَّ يوم مَشْرَبٌ من دمائهم ... وغُلَّتُها من شُربها ليس تَنْقَعُ

رماحُكُم للطَّالِبِيِّين شُرَّعٌ ... وفيكم رماحُ الترك بالقتل شُرَّعُ

لكم مَرْتَعٌ في دارِ آلِ محمَّدٍ ... وداركم للتُّرك والجيش مَرْتَعُ

وأنشد بعضُ أهل الأدب قولَه في عبيد الله بن عبد الله بن طاهر الذي قاله:

إذا أبو أحمد جادت لنا يَدُهُ ... لم يُحْمَدِ الأَجْوَدان: البَحْرُ والمَطَرُ

ويختمها بقوله:

الجودُ منه عيانٌ لا ارتيابَ به ... إذْ جُود كلِّ جوادٍ عنده خَبَرُ

قالوا: لو استعمل الأنصاف لكان هذا أحسن مدحٍ قاله متقدم ومتأخر.

ومن شعره:

حَسْبُ الفتى أن يكون ذا حَسَبٍ ... من نفسه ليس حَسْبهُ حَسَبُهْ

ليس الذي يَبتدي به نَسَبٌ ... مثل الذي ينتهي به نَسَبُهْ

وليست مكانة ابن طيفور بشعره، ولا بما روى من حديث، فالشعر كان آلة من آلاته، والمحدثون كثار، ومنصرفون إليه في الليل والنهار. ولكن ابن طيفور كان عظيمًا بروايته، فإن ما تركه من كتبه يبلغ خزانة صغيرة. ولقد وصفه أبو بكر الصولي وقال فيه: إنه صَحفي، أي يروي الخطأ عن الصحف ولم يأخذ عن الشيوخ، وإنه حاطب ليل، وإنه يشترط في كتبه اختيار الشعر الجيد ويأتي بالرديء، ويزعم أنه يقلل فيكثر، وفي إكثاره يسيء، ثم يحكي الكذب ويخطئ في التاريخ، وفي نسب الشعر، هذا ما روي عنه أنه قال فيه. ومَن من المؤلفين يا تُرى خلا من نَقْد؟ وهل خلا الصولي نفسه منه فارتضى النقاد تدوينه؟ وهل كان ذوقه عاليًا كلما أراد اختيار شعر ونثر. والاجتهاد ما زال يختلف في الرجل الواحد، وفي العام الواحد، فما بالك في الرجال وفي العصور. وإن راوية مُكْثرًا مثل طيفور لا تكاد تجد كتابًا من الأمهات التي أُلِّفت بعد عصره إلا وينقل أو يكثر من النقل من كتبه، لا يقدح في مروياته ولا يسقطه بأنها من بضاعته.

ثم أي عالِم خلا من لحنٍ وتصحيف؟ ذكروا أن بعضهم قال فيه أنه كان بليدًا في علمه وأنه يلحن، وأنه قال ذلك للبحتري فأقره عليه. وعرفنا أنه كانت بين البحتري وطيفور أمور تراخت بها صِلاتهما، فألَّف طيفور كتابًا في سرقات البحتري من أبي تمام، فبالطبع يحمي أنف البحتري منه ويطعن في علمه وأدبه. أما هو فقد طَعَنَ البحتريَّ في أخلاقه طعنةً نجلاء حرامٌ رَأْبها على

وجه الدهر، قال فيه: ما رأيت أقل وفاءً من البحتري ولا أسقط: رأيته قائمًا ينشد أحمد بن الخصيب مدحًا له فيه، فحلف عليه ليجلسن، ثم وصله واسترضى له المنتصر، وكان غضبان عليه، ثم أوصل له مديحًا إليه وأخذ له منه مالًا فدفعه إليه. ثم نكب المستعين أحمد بن الخصيب بعد فعله هذا بشهور، فلعهدي به قائمًا ينشده:

لابن الخصيب الويلُ كيف انْبَرَى ... بـإفـكِـهِ الـمُـرْدِي وإبـطـالِـهِ
كـادَ أمـيـنَ الله فـي نـفـسـه ... وفـي مَـوَالـيـه وفـي مـالِـهِ
ورام فـي الـمـلـك الـذي رامـه ... بِـغِـشِّـهِ فـيـه وإدغـالِـهِ

إلى أن قال وكلها طعن في ابن الخصيب:

فـهـو حـلالُ الـدَّمِ والـمـال إن ... نـظـرتَ فـي ظـاهـر أحـوالِـهِ

قال ابن أبي طاهر: كان ابن العلجة فقيهًا، يفتي الخلفاء في قتل الناس تَرَّحَه الله، ثم ختم القصيدة بقوله:

والـرأيُ كـلُّ الـرأيِ فـي قَـتْـلِـهِ ... بـالـسَّـيْـف واسـتـصـفـاءِ أمـوالِـهِ

وهذا أعظم هجوٍ يُهجى به البحتري، وقد هجاه طيفور بقصيدة أيضًا، فلا غرو أن يُسقطه البحتري ويرذل أدبه.

وقال الذين صغَّروا شأن طيفور في الأدب أنه كان مع هذا جميل الأخلاق ظريف المعاشرة خلوًا من الكهوب أَي لا يتغير لونه ثابتًا في خلقه، وهو إلى هذا معروف بمرَحه، يبتدع النكات ويحسن التقاطها وإبرازها للناس، وكتابه بلاغات النساء نموذج من مَنْزَعِهِ وكثرة تتبعه (وهو جزء صغير من كتابه الكبير المنثور والمنظوم). وأَلَّف في المزاح والمعاتبات وفي أمور فيها دعابة وأدب واقعي.

وقصيدته ليلة بات في «دير السوسن» في عودته من «سر من رأى» وقد زار بعض كُتابها ومدحه فأحسن صلته، ووهب له غلامًا روميًا حسن الوجه،

واعترافه بأنه بات والغلام يسقيه، والراهب نديمه حتى مات سُكْرًا، وطلبه المغفرة عما أتى من ربه ـ كل هذه أُمور إذا صحت تصف جانبًا ظاهرًا من مَرَحه وتبذله. ومن هذه الأُمور ما اقترفه في صباه، ومنها ما أتاه في الكهولة، وشعره لا يخلو من نكتة، وربما قال بعض شعره من أجل نكتة فأعقبته نكبة، كما حدَّث عن نفسه قال: خرجت من منزل أبي الصقر نصف النهار في تموز فقلت: ليس بقربي منزل أقرب من منزل المبرِّد، إذ كنت لا أقدر أصل إلى منزلي بباب الشام، فجئته فأدخلني إلى حويشة له، وجاء بمائدة فأكلت معه لونين طيبين، وسقاني ماءً باردًا، وقال لي: أُحدثك إلى أن تنام، فجعل يحدثني أحسن حديث. فحضرني لشؤمي وقلة شكري بيتان فقلت: قد حضرني بيتان أنشدهما؟ فقال: ذاك إليك، وهو يظن أني قد مدحته فأنشدته.

ويوم كحر الشوق في صدر عاشق على أنه منه أحَرُّ وأرمد
ظللت به عند المبرد قائلًا فما زلت في ألفاظه أتبرد

فقال لي: قد كان يسعك إذا لم تحمد ألا تذم، وما لك عندي جزاء إلا إخراجك، والله لا جلست عندي بعد هذا. فأخرجني فمضيت إلى منزلي بباب الشام، فمرضت من الحر الذي نالني مدة، فعدت باللوم على نفسي. وقد روي أنه قال في المبرِّد، وحسبك من عالم محقق.

كملت في المبرِّد الآداب واستقلت في عقله الألباب
غير أن الفتى كما زعم النا س دعي مُصحفٌ كذاب

ربما زعم زاعم أنه ليس من الإنصاف أن يقرن هذا العيار من الرجال إلى عظماء العلماء المعروفين في علوم الدنيا والدين، فالجواب: أن في الحق أن يجعل هذا الرجل في الصف الأول بين الرجال؛ لأن أدبه أثمر ما لم يثمر غيره مثله، والعبرة بمن يسد ثلمة صغيرة من بناء الآداب كانت لولاه خالية، ومن يجوّد فنًا واحدًا من فنونه بإمتاع وإبداع.

(٧)

# المُبَرِّد

## محمد بن يزيد بن العباس الثُّمالي الأَزْدِي أبو العباس

(٢٨٥)

ولد بالبصرة، واختلف الباحثون في لقب المبرَّد فقيل: إنه لُقِّب بالمبرَّد لأنه لما صنف المازني كتاب الألف واللام سأله عن دقيقه وعويصه فأجابه بأحسن جواب، فقال له المازني: قم فأنت المبرِّد بكسر الراء أي المثبت للحق، فحرَّفه الكوفيون وفتحوا الراء. وقيل في سبب هذه التسمية إن صاحب الشرطة طلبه للمنادمة والمذاكرة فكره ذلك، فدخل إلى أبي حاتم السجستاني فجاء رسول الوالي يطلبه فقال له أبو حاتم: ادخل في هذا، يعني غلاف مزمّلة فارغًا فدخل فيه وغطى رأسه، ثم خرج إلى الرسول فقال له: ليس هو عندي، فقال: أُخبرت أنه دخل إليك. فقال: ادخلِ الدارَ وفتِّشها، فدخل وطاف في كل موضع في الدار، ولم يفطن لغلاف المزملة. ثم خرج فجعل أبو حاتم يصفق وينادي على المزملة «المبرَّد المبرّد» وتسامع الناس بذلك فلهجوا به. وهو يمتُّ بنسبه إلى الأزد.

أخذ عن الجرْمي والمازني والسجستاني وصار إمام العربية في بغداد، وإليه انتهى علمها بعد طبقة الجرمي والمازني، وغلب عليه النحو فعرفه أكثر القدماء «بمحمد بن يزيد النَّحْوي»، وكان فصيحًا بليغًا مفوَّهًا مليح الأخبار ثقة فيما يرويه، كثير النوادر فيه طرافة ولباقة، وكان الإمام إسماعيل القاضي يقول: ما رأى محمد بن يزيد مثل نفسه. وقيل إن الناس بالبصرة كانوا يقولون هذا. وقال هو عن نفسه وعجزه عن الكتابة مع كثرة علمه في الأدب: «لا

أحتاج إلى وصف نفسي لعلم الناس بي أنه ليس أحد من الخافقين تختلج في نفسه مشكلة إلا لقيني بها، وأعدّني لها، فأنا عالم ومتعلم وحافظ ودارس، لا يخفى عليَّ مشتبه من الشعر والنحو والكلام المنثور والخطب والرسائل. ولربما احتجت إلى اعتذار من فلتة أو التماس حاجة، فأجعل المعنى الذي أقصده نُصب عيني، ثم لا أجد سبيلًا إلى التعبير عنه بيد ولا لسان، ولقد بلغني أن عبيد الله بن سليمان ذكرني بخير، فحاولت أن أَكتب إليه رُقعة أشكره فيها، وأعرّض ببعض أموري، فأتعبت نفسي يومًا في ذلك فلم أقدر على ما أرتضيه منها، وكنت أحاول الإفصاح عما في ضميري فينصرف لساني إلى غيره، فزيادة المنطق على الأدب خدعة، وزيادة الأدب على المنطق هُجنة» أي إنه لم يكن بالكاتب الذي يرتضي كتابته، وإن كان في الأدب إمامَ الأئمة. قال الآمدي: وهذا محمد بن يزيد المبرّد ما علمناه دُوِّن له كبير شيء.

رجل أقرَّ على نفسه بضعف الكتابة كان حظه منها كحظ أكثر النحويين واللغويين في المتقدمين والمحدثين، ومع هذا ألف نحو خمسة وأربعين مصنفًا أجلُّ المطبوع منها وأشهرها «الكامل»؛ وهو كتاب ممتع يجيء مع البيان والتبيين والأمالي والأَغاني، حوى قواعد نحوية وصرفية وإشارات لغوية وأدبية وتاريخية قال هو فيه: هذا كتاب أَلَّفناه يجمع ضروبًا من الآداب ما بين كلام منثور وشعر مرصوف، ومَثَلٍ سائر وموعظة بالغة، واختيار من خطبة شريفة ورسالة بليغة. والنية فيه أن نفسر كل ما وقع في هذا الكتاب من كلام غريب أو معنى مُسْتَغْلَق، وأن نشرح ما يعرض من الإعراب شرحًا شافيًا، حتى يكون هذا الكتاب بنفسه مكتفيًا، وعن أن يُرجع إلى أحد في تفسيره مستغنيًا. وقال في خاتمة كتابه هذا: هذا كتاب قد وفيناه جميع حقوقه، ووفَيْنا بجميع شروطه إلا ما أذهل منه النسيان، فإنه قل ما يُخلى من ذلك. قال القاضي الفاضل إنه طالع الكامل سبعين مرة وكل مرة يزداد منه فوائد.

وكان جل اعتماد المبرد على الشعر الجاهلي، ولم يُخْلِ كتابَه من شعر

المُحْدَثين وخطبهم، وإن لم يكن بحجة، ولكنهم يجيدون فيذكر شعرهم لجودته لا للاحتجاج به قال: وليس لقدم العهد يُفضَّل القائل، ولا لحدثان عهد يهتضم المصيب، ولكن يُعطى كلٌّ ما يستحق. وحجته في الاختيار من أشعار المولَّدين المستحسنة الحكيمة أنه يحتاج إليها للتمثيل لأنها أشكل بالدهر ويستعار من ألفاظها في المخاطبات والخطب والكتب. أي إنه لم يستغن عن شعر المُحْدثين وخطبهم لأن خطب الجاهلية ومحاوراتها لا تكفي في تخريج الطالب في الأدب.

وأدرك المبرد أن كتابه قد يَثْقُل على الهضم، ولا يهتم عامة القراء لما فيه من قواعد التصريف ومشكلات النحو، وحل الألفاظ العويصة، فقال في بعض فصوله: نذكر في هذا الباب من كل شيءٍ شيئًا لتكون منه استراحة للقارئ، وانتقال ينفي الملل لحسن موقع الاستطراف، ونخلط ما فيه من الجد بشيءٍ يسيرٍ من الهزل ليستريح إليه القلب وتسكن إليه النفس. فمؤلِّفنا إذن كثير الأمالي، حسن النوادر، أملى أن المنصور أبا جعفر ولَّى رجلًا على العميان والأيتام والقواعد من النساء اللواتي لا أزواج لهن، فدخل على هذا المتولِّي بعضُ المتخلفين ومعه ولده فقال: إن رأيت أصلحك الله أن تثبت اسمي مع القواعد. فقال له المتولي: القواعد نساء، فكيف أثبتك فيهن؟ فقال: ففي العميان. فقال: أما هذا فنعم، فإن الله تعالى يقول: ﴿لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾. فقال: وثبِّت ولدي في الأيتام، فقال: هذا أفعله أيضًا، من يكن أنت أَباه فهو يتيم، فانصرف عنه وقد أثبته في العميان وولده في الأيتام.

ومن أهم ما حوى كتاب الكامل أخبار الخوارج وشعرهم المرقص المطرب، وسيرة بعض المشهورين من بلغائهم، وقد استغرق ذلك جزءًا عظيمًا من الكتاب. وختم باب الخوارج بقوله: وهذا الكتاب لم نبتدئه لتتصل فيه أخبار الخوارج، ولكن ربما اتصل شيءٌ بشيءٍ، والحديث ذو شجون،

ويقترح المقترح ما يفسخ به عزم صاحب الكتاب، ويصده عن سَنَنه ويزيله عن طريقه، ونحن راجعون إن شاء الله إلى ما ابتدأنا له هذا الكتاب، فإن مرّ من أخبار الخوارج شيء مرَّ كما يمرُّ غيره، ولو نَسَقْناه على ما جرى من ذكرهم لكان الذي يلي هذا خبر نَجدة وأبي فَديْك وعمارة الرجل الطويل وشبيب، ولكان يكون الكتاب للخوارج مُخْلصًا.

وأبان المؤلِّفُ في مواطن كثيرة من الكامل أنه في نقد الشعر واختيار جيِّده آية؛ ومما قال: وأحسن الشعر ما قارب فيه القائل إذا شبّه، وأحسن منه ما أصابه به الحقيقة، ونبّه فيه بفطنته على ما يخفى عن غيره، وساقه برصف قوي واختصار قريب، قال قيس بن معاذ:

وأخرج من بين الجلوس لعلني ... أُحدِّث عنك النفس في السرِّ خاليا
وإني لأستغشي وما لي نعسةٌ ... لعل خيالًا منك يلقى خياليا

وفي هذا الشعر:

أَشوقًا ولما تمضِ لي غير ليلة ... رويدَ الهوى حتى يغيب لياليا

قال: هذا من أجود الكلام وأوضحه معنى، ويَستحسن لذي الرمة قولَه في مثل هذا المعنى:

أحب المكان القفر من أجل أنني ... به أتغنَّى باسمها غير مُعْجَم

ومع هذا قال بعض المتقدمين إن ذوق المبرد في الشعر غير سليم، وقال أبو بكر بن مجاهد: ما رأيت أحسن جوابًا من المبرد في معاني القرآن فيما ليس فيه قولٌ لمتقدِّم. وزعم بعض من تَرجموا له أنه كان أبخل الناس بكل شيءٍ، وأنه قال: ما وضعت بحذاء الدرهم شيئًا قط إلَّا رَجَحَ الدرهم في نفسي عليه، هذا مع سعة كان فيها ووُجْد. وقالوا: كان ثعلب على مثل ما كان عليه المبرد في الإمساك وفوقه في السعة، غير أن المبرد كان يسأل سؤالًا صراحًا، وكان ثعلب يُعرِّض ولا يصرِّح. وقال بعضهم: ولولا إني أكره أن أكون عيَّابًا وللعلماء خاصة، لأخبرتك عنهما (ثعلب والمبرد) من الأخبار التي

تزيد على أخبار محمد بن الجهم والبرمكي والكندي وخالد بن صفوان والأصمعي في الإمتاع. ولأحمد بن عبد السلام الشاعر في مدح المبرد:

وأنت الذي لا يبلغ الوصف مدحه ... وإن أطنب المُدَّاح مع كل مطنب
رأيتك والفتح بن خاقان راكبًا ... وأنت عديل الفتح في كل موكب
وكان أمير المؤمنين إذا رنا ... إليك يطيل الفكر بعد التعجُّب
وأوتيت علمًا لا يحيط بكنهه ... علوم بني الدنيا ولا علم ثعلب
يروح إليك الناس حتى كأنهم ... ببابك في أعلى مُنى والمحصَّب

ومطلع هذه القصيدة:

يا ابن سراة الأزد أزد شنوءة ... وأزد العتيك الصدر رهط المهلب

وقال فيه أيضًا:

رأيت محمد بن يزيد يسمو ... إلى الخيرات في جاه وقدر
جليس خلائف وغَذيّ ملك ... واعلم من رأيت بكل أمر
وفتيانية الظرفاء فيه ... وأبهة الكبير بغير كبر
فينثر إن أجال الفكر درًّا ... وينثر لؤلؤًا من غير فكر
وكان الشعر قد أودى فأحيا ... أبو العباس داثر كل شعر

قوله: جليس خلائف وغَذي ملك أنه نبيل في أصله وفرعه، وإن فيه مرح الشباب وأبهة الكبراء بدون كبر، وأنه بليغ مفوّه، وأنه أحيا الشعر الذي كان نُسي.

كان بين المبرد وثعلب ما يكون بين المتعاصرين من المنافرة، واشتُهر ذلك حتى قال بعضهم:

كفى حزنًا إنا جميعًا ببلدة ... ويجمعنا في أرضها شر مشهد
وكل لكل مخلص الود وامق ... ولكنه في جانب عنه مفرد

نـروح ونـغـدو لا تـزاور بـيـنـنـا ... وليس بمضروب لنا يوم موعد
فـأبـدانـنـا فـي بـلـدة والـتـقـاؤنـا ... عسير كلقيا ثعلب والمبرد

وقال بعضهم في المبرد وثعلب:

أيـا طـالـب الـعـلـم لا تـجـهـلـن ... وعـذْ بـالـمـبـرد أو ثـعـلـب
تـجـد عـنـد هـذيـن عـلـم الـورى ... فـلا تـك كـالـجـمـل الأجـرب
عـلـوم الـخـلائـق مـقـرونـة ... بـهـذيـن فـي الـمـشـرق والـمـغـرب

وكان المبرِّد يحب الاجتماع بثعلب للمناظرة وثعلب يكره ذلك، لأن المبرد حسن العبارة، حسن الإشارة، فصيح اللسان، ظاهر البيان، وثعلب مذهبه مذهب المعلمين، فإذا اجتمعا في محفل حُكم للمبرد على الظاهر إلى أن يعرف الباطن. ولما مات المبرد قال فيه ثعلب هذه الأبيات وهي لأبي بكر بن العلاف:

ذهـب الـمـبـرد وانـقـضـت أيـامـه ... ولـيـذهـبـن أثـر الـمـبـرد ثـعـلـب
بيت من الآداب أضحى نصفه ... خربًا وباقي النصف منه سيخرب
فابكوا لما سلب الزمان ووطنوا ... للدهر أنفسكم على ما يسلب
وتزودوا من ثعلب فبكأس ما ... شرب المبرد عن قريب يشرب
أوصيكم أن تكتبوا أنفاسه ... إن كانت الأنفاس مما يكتب

ومن شعر المبرد وقد بلغه أن ثعلبًا نال منه:

رب مـن يـعـيـنـه حـالـي ... وهـو لا يـجـري بـبـالـي
قـلـبـه مـلآن مـنـي ... وفـؤادي مـنـه خـالـي

ومن شعر المبرد:

حـبـذا مـاء الـعـنـا ... قـيـد بـريـق الـغـانـيـات
بـهـمـا يـنـبـت لـحـمـي ... ودمـي أي نـبـات

أيـهـا الـطـالـب شـيـئًـا مـن لـذيـذ الـشـهـوات
كـلْ بـمـاء الـمـزن تـفـاح خـدود نـاعـمـات



(٨)

# ابن عبد ربه

## أبو عمر أحمد بن عبد الله بن حبيب بن حُدَيْر بن سالم

## مولى هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان

(٣٢٨)

أُموي أَصلًا وفرعًا وبيئةً ونشأة، تخرَّج في الدين واللغة بعلماء بلده وغلب عليه الأدب فاشتُهر به، وقويت ملكته في الشعر والنثر باتصاله بالمنادمة مع ملكين من ملوك الأمويين في الأندلس. ولا بد أن تكون الأيام التي قضاها في قصر الملك خرَّجته في السياسة، وعرف آداب الملوك وما تتوقف عليه منادمتهم من الأدوات، ومنها الموسيقا والولع بالجمال، وقد رزق إلى هذا حسًّا شفافًا فكان شاعرًا عظيمًا، وقد وصفوه بأنه كان فارس حلبة الشعر في القرن الرابع في الأندلس، ولم تكن براعته في الشعر أقل من براعته في النثر. وصفه الحميدي مؤرخ الأندلس أنه كانت له بالعلم جلالة، وبالأدب رياسة وشهرة، مع ديانة وصيانة، واتفقت له أيام وولايات للعلم بها نَفاق، فساد بعد الخمول، وأثرى بعد الفقر، وأشير بالتفضيل إليه، إلا أنه غلب عليه الشعر. وقال فيه ابن خلكان: إنه من العلماء المكثرين من المحفوظات والاطلاع على أخبار الناس، وصنَّف كتابه العقد وهو من الكتب الممتعة حوى من كل شيء.

نعم كان ابن عبد ربه مولعًا بالجمال والطرب وهو في الموسيقا من الأفذاذ العارفين بها. وذكروا أنه وقف تحت روشن لبعض الرؤساء فُرشَّ بماء وكان فيه غناء حسن ولم يعرف فقال:

يا من يضنّ بصوت الطائر الغرد ... ما كنت أحسب هذا البخل في أحد
لو أن أَسماع أهل الأرض قاطبة ... أصغت إلى الصوت لم ينقص ولم يزد
فلا تضن على سمعي تقلده ... صوتًا يجول مجال الروح في الجسد
لو كان «زُرْياب» حيًّا ثم أسمعه ... لذاب عن حسد أو مات من كمد
أما النبيذ فإني لست أشربه ... ولست آتيك إلا كِسرتي بيدي

وهو شاهد على تقواه وأن ليس له أرب في غير الطرب من دون ارتكاب محرم، واقتضته صناعة الشعر في صباه أن أوغل في غزله إلى التي ليس بعدها، فأقلع في آخر عمره عن صبوته، وأخلص لله في توبته، كما قالوا فيه، ولقد اعتبر أشعاره التي قالها في الغزل واللهو، وعمل على أعاريضها وقوافيها في الزهد، وسماها الممحصات، فمنها القطعة التي أولها «هلا ابتكرت لبين أنت مبتكر» فمحصها بقوله:

يا قادرًا ليس يعفو حين يقتدر ... ماذا الذي بعد شيب الرأس تنتظر
عاين بقلبك إن العين غافلة ... عن الحقيقة واعلم أنها سقر
سوداء تزفر من غيظ إذا سعرت ... للظالمين فما تبقي ولا تذر
لو لم يكن لك غير الموت موعظة ... لكان فيه عن اللذات مزدجر
أنت المقول له ما قلت مبتدئًا ... «هلا ابتكرت لبين أنت مبتكر»

وأصل الأبيات قالها أبو عمر في بعض من كان نال منه وقد أزمع على الرحيل في غداة عينها، فأتت السماء في تلك الغداة بمطر جود منعته من الرحيل، فكتب إليه ابن عبد ربه:

هلا ابتكرت لبين أنت مبتكر ... هيهات يأبى عليك الله والقدر
ما زلت أبكي حذار البين ملتهفًا ... حتى رثى لي فيك الريح والمطر
يا برده من حَيا مُزن على كبد ... نيرانها بقليل الشوق تستعر

آليت إلا أرى شمسًا ولا قمرًا ... حتى أراك فأنت الشمس والقمر

نعم نقض كل قطعة قالها في الصبا والغزل بقطعة في المواعظ والزهد من ذلك قوله:

ألا إنما الدنيا غضارة أيكة ... إذا اخضر منها جانب جف جانب

هي الدار ما الآمال إلا فجائع ... عليها ولا اللذات إلا مصائب

وكم سخنت بالأمس عينًا قريرة ... وقرت عيون دمعها الآن ساكب

فلا تكتحل عيناك منها بعبرة ... على ذاهب منها فإنك ذاهب

ومن شعره وهو آخر ما قاله فيما قيل:

بَليت وأبلتني الليالي بكرّها ... وصرْفان للأيام معتوران

وما لي لا أبكي لسبعين حجة ... وعشر أتت من بعدها سنتان

قال الحميدي وشعره كثير مجموع رأيت منه نيفًا وعشرين جزءًا، من جملة ما جمع للحكم الملقب بالناصر الأموي. ومن شعره السائر:

الجسم في بلد والروح في بلد ... يا وحشة الروح بل يا غربة الجسد

إن تبك عيناك لي يا من كلفت به ... من رحمة منهما سهمان في كبد

ومن شعره:

ودعتني بزفرة المشتاق ... ثم قالت متى يكون التلاقي

وبدت لي فأشرق الصبح منها ... بين تلك الجيوب والأطواق

يا سقيم الجفون من غير سقم ... بين عينيك مصرع العشاق

إن يوم الفراق أفظع يوم ... ليتني مت قبل يوم الفراق

ومن شعره أيضًا، والأصح أنها للأخطل:

إن الغواني إذا رأينك طاويًا ... برد الشباب طوين عنك وصالا

وإذا دعونك عمهن فإنه ... نسب يزيدك عندهن خبالا

وكتاب العقد الفريد الذي خلَّد ذكرَه كما خلَّد بالأغاني اسم أبي الفرج الأصفهاني قسمه على خمسة وعشرين كتابًا في كل باب منها جزءان، وكل كتاب باسم جوهرة من جواهر العقد، فأولها كتاب اللؤلؤة في السلطان، ثم كتاب الفريدة في الحروب، ثم كتاب الزبرجدة في الأجواد، ثم كتاب الجمانة في الوفود، ثم كتاب المرجانة في مخاطبة الملوك، ثم كتاب الياقوتة في العلم والأدب، ثم كتاب الجوهرة في الأمثال، ثم كتاب الزمردة في المواعظ، ثم كتاب الدرة في التعازي والمراثي، ثم اليتيمة في الأنساب، والعسجدة في كلام الأعراب إلى غير ذلك مما يدخل فيه الأجوبة والخطب والتوقيعات والفصول والصدور وأخبار الكتبة والخلفاء وأيامهم وأخبار زياد والحجاج والطالبيين والبرامكة وأيام العرب ووقائعهم وفضائل الشعر ومقاطعه ومخارجه وأعاريض الشعر وعلل القوافي والألحان والنساء وصفاتهن والمتنبئين والممرورين والطفيليين والتحف والهدايا والمُلَح والطعام والشراب وطبائع الإنسان والحيوان وتفاضل البلدان.

وُفِّق المؤلِّف إلى هذا التقسيم والتنسيق في تأليفه فحبب إلى عشاق الأدب تداوله، وراج في الشرق على مر العصور وإن كان أصله من أرضه، تسوّقه مؤلِّفه من بضائع المشرق وأسواقه. ندر من أجادوا جمع الأدب، والإجادة تتوقف على ذوق عالٍ، ومادة واسعة في الشعر والخطب، فأبان فيما نقل عن حسن اختياره، واختيار الكلام كما قال المؤلف أصعب من تأليفه، واختيار الرجل وافد عقله. رأينا مثالًا من ذلك في الأغاني ومحاضرات الراغب وعيون الأخبار لابن قتيبة. فكتاب العقد انتقاه إذن غربي من كلام مشارقة، فجاء زبدة من أدب العرب في زهو اللغة في الجاهلية والإسلام، بل معلمة من كلام أهل القرون الثلاثة الأولى منقحة مصححة. وقالوا إن الصاحب بن عباد حرص على كتاب العقد حتى حصل عنده، فلما تأمله قال: هذه بضاعتنا ردت إلينا، ظننت أن هذا الكتاب يشتمل على شيء من أخبار بلادهم، وإنما هو مشتمل

على أخبار بلادنا، ولا حاجة لنا فيه فرده. وإذا ثبت حُكْم الصاحب على كتاب العقد فلا يعقل أن يرده بهذه السماجة وهو الذي جمع خزانة فيها ألوف من الأجزاء وبعضها قد لا يكون من الممتع، فالعقد الفريد لا يزهد فيه الصاحب على هذا الوجه، وهو مهما كان مقداره قمين أن يجد له مكانًا في رفوف خزانته العظيمة.



(٩)

# المَسْعُودِيّ

## أبو الحسن علي بن الحسين بن علي الهُذَلِّي

(٣٤٦)

قيل إنه من ذرية عبد الله بن مسعود الصحابي، ولد في أرض بابل وسكن ببغداد ونزل البصرة. ودأب في ريعان العمر على البحث في أخلاق الشعوب وطبائع الأمم، ودرس المظاهر الطبيعية والجغرافية والفلكية، وكان أخباريًّا علَّامة صاحب غرائب وملح ونوادر، ومن المكثرين من التأليف والمجودين فيه.

نزل الشام ومصر مدة طويلة، وفي سنة ٣١٤ كان في طبرية، وفي سنة ٣٣٢ زار أنطاكية ومدن الحدود الشامية، وبعد رحلة قصيرة عاد إلى البصرة وتوطن دمشق سنة ٣٣٤، وفي مصر مات سنة ٣٤٥ أو ٣٤٦. ترجم له صاحب طبقات الشافعية على أنه شافعي، وقيل: إنه كان معتزلي العقيدة، وقال صاحب روضات الجنات: إنه من أصحابه الإمامية وإنه الشيخ المتقدم الكامل باعتراف العدو والولي. وعده النجاشي من رواة الشيعة، وقال: إن له كتبًا في إثبات الوصية لعلي بن أبي طالب. وقالوا إنه مأمون الحديث عند العامة والخاصة. يعنون بالعامة أهل السنة وبالخاصة الشيعة. وظاهر كلامه في كتابه «مروج الذهب» أنه عامي أو شيعي مُتَّقٍ، ولم يقبله بعض رجال الشيعة في جملتهم لأنه ذكر في مروج الذهب أيام خلافة الأول والثاني ثم خلافة علي ثم خلفاء بني أمية ثم بني العباس وذكر سيرهم وآثارهم وقصصهم وأخبارهم على طريقة العامة ونحو تواريخهم من دون تعرض لذكر مساوئهم وقبائحهم

كظلمهم أهل البيت وغير ذلك. ومعنى هذا أنهم لا يريدون السكوت عما وقع، وأن يطعن على كل من وَلِيَ الخلافة على غير شرطهم. والمسعودي ممن آمن على ما يظهر بالأمر الواقع، وما أحب أن يخرج عن طور المؤرخ في الجملة، ولو نظرنا بعض ما قاله في يزيد بن معاوية مما لا يؤيده التاريخ لشهدنا أنه خدم التشيُّع خدمة ناقض فيها ثقات أصحاب الأخبار.

وربما كان المسعودي ممن يهتم للتاريخ أكثر اهتمامه بأن يقال فيه إنه شيعي أو سُنِّي. ومما امتاز به بين مؤرخي القرون الأولى أنه كان من عشاق الرحلات؛ طاف كما قال بلاد السند والزنج والصنف (جنوبي الكوشنشين) والصين والزابج (جاوة) وتقحم الشرق والغرب، فتارة بأقصى خراسان وتارة بواسط وأرمينية وأذربيجان والران والبلقان، وطورًا بالعراق وطورًا بالشام. وقال: إنه فاوض أصناف الملوك على تغاير أخلاقهم، وتباين هممهم وتباعد ديارهم، ومع أن عصره خير عصور العلم في الإسلام شكا من كساده قائلًا: إن العلم قد بادت آثاره، وطمس مناره، وكثر فيه الغباء وقل الفهماء، فلا تعاين إلا مموهًا جاهلًا، ومتعاطيًا ناقصًا.

قد يذهب الظن إن صحت شيعية المسعودي إلى أنه تأثر بالدعوة الفاطمية، أو أنه من دعاة الفاطميين، وقد قاموا في أيامه بدعايات منظمة في وادي النيل وما إليه، قبل أن يفتحها قائدهم جوهر الصقلي بزمن. ولا يعقل ألا يطلع على دعوتهم ويطالبونه أو يطالب نفسه بخدمتهم، وهو الذي عرف من انحطاط بني العباس في أيامه ما تعالم أمره، وله من مذهبه ما يحمله على الدعوة لآل البيت، على أنه لم يتعرض لهم كثيرًا فيما وصلنا من كلامه، وقد ألف كتاب «التنبيه والإشراف» في سنة **٣٤٥** ودولة الفاطميين قامت في إفريقية سنة **٢٩٦** وما انفك العبيديون يغزون مصر منذ سنة **٣٠١** ويبثون في الأرجاء دعاتهم ويدعون سرًّا إلى مذهبهم. هذا رأي لنا والأيام كفيلة بكشف ما إذا كان شيعيًّا أو في حالة بين بين.

لم نعرف في الواقع نوع الدراسات التي تمحض لها المسعودي لأول أمره. وكان من أساتذته: نفطويه، والجمحي، والبادي من كتبه أنه عُني بالتاريخ والجغرافيا كل العناية، وكذلك الأدب والمقالات والنِّحَل وطبقات الأرض والمعادن والجواهر والفلك والسياسة والرجال. وما نقل من معلومات عن الشعوب والأمم والأجناس وتاريخها كان فيه إمامًا عظيمًا، عاونه على الإجادة ولوعه بالبحث. وهو ممن كتبوا عن مشاهدة، وما وصفه من الأمصار والأقطار دليل على سعة معارفه وشدة ملاحظته حتى ليكاد يحسب ما كتبه من هذا القبيل المرجع الوحيد في بعض الموضوعات. وقد يتفق ألا يتعمق في درس بعض المسائل ويذكرها كما رويت له، لذلك أورد أَساطير وخرافات أخذها كما رويت ولم يعلق عليها نقدًا من عنده، وليس لنا أن نطعن عليه في ذلك لأن ما نقله كان شائعًا وهو يرمي إلى تصوير الأفكار في عصره ويتفلسف ما وسعته بيئته.

أَلَّف المسعودي في ضروب المقالات وأنواع الديانات ككتاب «الإبانة عن أصول الديانة»، وكتاب «المقالات في أصول الديانات»، وكتاب «سر الحياة»، وكتاب «نظم الأدلة في أصول الملة» وما اشتمل عليه من أصول الفتوى وقوانين الأحكام، وكتاب «الاستبصار في الإمامة» ووصف أقاويل الناس في ذلك من أصحاب النص والاختيار، وكتاب «الصفوة في الإمامة». وكتب في السياسة المدنية وأجزاء المُدنية والإبانة عن المبادئ وكيفية تركيب العوالم والأجسام السماوية، وما هو محسوس وغير محسوس من الكثيف واللطيف. وبعض كتبه تثبت أنه كان صاحب منزع سياسي كما كان داعية علم ومدنية، ولذلك رأيناه يعاشر اليهود وغيرهم من أرباب النِّحَل، وقد نوَّه في التنبيه والأشراف بأحبار اليهود في عصره ممن عنوا بترجمة التوراة من العبرية.

وأهم كتبه المشتَهَرة «مروج الذهب» و«التنبيه والإشراف» وهو لا يفتأ

يحيل في كتابه هذين على كتاب «أخبار الزمان» وكتابه الأوسط وفنون المعارف وذخائر العلوم وتدابير الممالك والعساكر والاستذكار لما جرى في سالف الأعصار. وضمَّن كتابه مروج الذهب خلاصة ما تضمنته كتبه السالفة في التاريخ، جعله تحفة للأشراف من الملوك وأهل الدرايات، وقال: إنه لم يترك نوعًا من العلوم، ولا فنًّا من الأخبار، ولا طريقة من الآثار، إلا أورده في كتابه مفصلًا أو مجملًا أو أشار إليه. وأودع كتابه التنبيه والإشراف لُمَعًا من ذكر الأفلاك وهيئاتها والنجوم وتأثيراتها والعناصر وتراكيبها وكيفية أفعالها والبيان عن قسمة الأزمنة وفصول السنة والرياح ومهابها والأرض وشكلها وتأثيراتها في سكانها. وذكر الأقاليم السبعة وعروض البلدان وأطوالها، والأهوية وتأثيراتها، والبحار والأنهار، ثم تكلم على الدول القديمة كالفرس والسريان والروم وعلى دولة العرب من عصر الجاهلية إلى قبيل وفاته.

قال إنه ما دعاه إلى تأليف كتبه هذه في التاريخ وأخبار العالم محبة احتذاء الشاكلة التي قصدها العلماء، وأن يبقى له ذكرًا محمودًا، وعلمًا منظومًا عتيدًا، إلا لأنه وجد مصنفي الكتب بين مجيد ومقصر، ومسهب ومختصر، ولأنه وجد الأخبار زائدة، وربما غاب البارع منها على الفطن الذكي، ولكل واحد قسطه يخصه بمقدار عنايته، ولكل إقليم عجائب يقتصر على عملها أهله، وليس من لزم حجرات وطنه وقنع بما نُمي إليه من الأخبار عن إقليمه، كمن قسم عمره على قطع الأقطار، ووزع أيامه بين تقاذف الأسفار، واستخرج كل دقيق من معدنه، وأثار كل نفيس من مكمنه. قال: ولو كان لا يؤلف كتابًا إلا من حوى جميع العلوم، إذن ما ألَّف أحدٌ كتابًا ولا تأتى له تصنيف.

قال العلامة بروكلمان: إن الاضطراب المتواصل في حياة المسعودي قد عيَّن صورة إنتاجه الأدبي، وقد خلَّف معلومات ثمينة عما طافه من البلاد المتاخمة للأقطار الإسلامية. وكان عرضه لما جمعه من المواد يشبه بنقصه

بحثه، إذ لم يتبع نظامًا معينًا، وكان يحيد أبدًا عن موضوعه ويستطرد استطرادات يراها ضرورية، وتناولت أبحاثه ما كان يهم معاصريه من المعارف تقريبًا كالفلسفة الطبيعية والأدب والسياسة والملل والنحل.

أما العلامة كترمير فقد أحسن ظنه بالمسعودي أكثر من هذا وقال: إنه كان أجدر بالمؤرخين والجغرافيين العرب المتأخرين أن يتخذوا المسعودي إمامًا في تاريخ الأديان والعلوم دون هؤلاء المؤرخين الرواة الجهلة المقصرين في التمحيص والنقد، وقد حداه على درس أخلاق الشعوب وآرائهم ومذاهبهم حب الاستطلاع العلمي وبراءته من التعصب لرأي من الآراء ومذهب من المذاهب، وهذا ما جعله على اتصال بالعلماء من كل مذهب ونحلة. وقال العلامة مايرهوف: ولسنا نعرف شيئًا عن فلسفته، وغاية ما علمنا أنه كان على صلة مستديمة مع فلاسفة بغداد، ولم يبق من كتبه العشرين تقريبًا ويا للأسف إلا كتاب التنبيه والمروج وجزء من كتاب أخبار الزمان؛ وهي كتب غاصة بالأخبار التاريخية والجغرافية وبأخبار الملل والنِّحل، وضياع كتبه الأخرى خسارة لتاريخ العلوم في مبدئها عند العرب لا يمكن تعويضها.

كشفنا القناع بعض الشيء عن حياة المسعودي وذلك بالرجوع إلى كتابيه المروج والتنبيه وإلى ما قاله من نظروا في سيرته من العرب والإفرنج فثبت أنه من أفراد الدهر بعلمه وبحثه وبُعْد همته، وغرامه بالتنقل في الآفاق، بما لم يوفق إلى احتذاء مثاله من سبقوه ولحقوه. لا جرم أن المسعودي المؤرخ يعرف مضرة التحزُّب بسمعته، فلم يسعه وهو غير راضٍ عن بعض الخلفاء إلا أن يذكر تاريخهم ولو بلسان جمجم فيه وتعتع. وهذه الأخطاء التي ارتكبها عمدًا أو عن غير عمد، فعبث ببهاء الحق في بعض أحكامه، لم تَحُل دون الانتفاع بتآليفه. ولشيعية المسعودي مدخل كبير في آرائه لأن من جوَّزوا الكذب على مخالفيهم وغلوا في حب الطالبيين حتى جعلوهم فوق البشر، وزعموا لهم الكمال المطلق، وأن المعاصي حلال لهم حرام على غيرهم لا يؤتمنون على

التاريخ. والمتعصب لفئة يجب الاحتياط في الأخذ عنه بخلاف المتسامح الذي لا ضلع له مع أحد. وما خدم به المسعودي التشيُّع لم يرض به الشيعة فهو مخالف للإماميين والجماعيين، وكل فريق يريده أن يكون له وحده، وأن يقبل مذهبه بحذافيره، ويدافع عنه بالحق والباطل. والتشيع ما كان بادئ ذي بدء إلا بتفضيل علي بالإمامة على الشيخين؛ حتى إن الشريف المرتضى من أكبر أئمتهم كان يترضَّى عن الشيخين ويشمئز ممن ينالهما بسوء، ويقول إنهما وُلِّيَا وعَدَلا، وكذلك شأن جده الأعلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، كان يقول: إن أبا بكر وعمر ما ظلماني ذرة، وإن أبا بكر أسلم وأنا جذَعَة؛ أي فتًى، أقول فلا يسمع لقولي فكيف أكون أحق بمقام أبي بكر.

عفا الله عن قوم أعمتهم السياسة فأنشؤوا من حزب سياسي مذهبًا دينيًّا، وكَفَّروا كلَّ من لم يوافقهم على هواهم، وجاء متأخروهم فأدخلوا في معتقداتهم ما لم يقل به متقدموهم وفرَّقوا بين أجزاء القلوب. وأشد ما يرمض النفوس في هذا الباب أن يعبث بالتاريخ من أجل المذهب ويموه السخفاء ليصوروا الأحداث على ما يشاؤون لتأييد مذهبهم[١].



(١) ومن سفهائهم رجل اسمه شهراشوب من أهل القرن السادس، كتب كتابًا في مناقب آل أبي طالب حشاه كذبًا واختلاقًا ما نظن عاقلًا في الأرض يوافقه عليه. وكتابه من أسخف ما أُثِر من سلسلة تلك السخافات، شتم فيه الصحابة الكرام كلهم ما عدا بضعة منهم كانوا مع عليّ، واختلق كل قبيح ألصقه برجال لا يدين الإسلام لغيرهم في انتشاره، وأورد من الشعر لإثبات أباطيله ما هو سُبَّة على قائله وناقله على وجه الدهر.

(١٠)

# ابن جرير الطبري

## محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب أبو جعفر

(٣١٠)

هذا رجل اشتغل لخدمة القرآن والحديث والفقه والتاريخ، ولم يلتفت إلى غير ما أخذ من نفسه، وهيأته الفطرة له، وعاش ما عاش وما عُهِدَ عليه أن زُنَّ[1] بهناة، أو حاد قِيدَ أنملة عن الخطة التي اختطها في خدمة العلم. كان مثالًا باهرًا بألمعيته وحريته ودهائه ومضائه. تجسدت فيه الأمانة وهي الصفة الأولى للعالم فوقع الإجماع على قبول كلامه أو كاد. كان عارفًا كل المعرفة بسياسة العلم، فوصل بأناته إلى أن تم له ما أراده من صنوفه، وسعد بأن كتب البقاء لمصنفاته وستبقى من أهم المراجع ما بقيت اللغة العربية والشريعة المحمدية.

ولد بآمُل طبرستان سنة خمس وعشرين ومئتين وتوفي في بغداد. وكان أسمر أعين نحيف الجسم مديد القامة فصيح اللسان، نبغ في العلم صغيرًا فحفظ القرآن وهو ابن سبع سنين، وصلى بالناس وهو ابن ثماني سنين، وكتب الحديث وهو ابن تسع سنين، وأخذ الفقه عن داود كما أخذ فقه مالك وفقه الشافعي، وسمع الحديث في الريّ وبغداد والكوفة والبصرة والشام ومصر حتى «جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره» و«نظر في المنطق والحساب والجبر والمقابلة وكثير من فنون أبواب الحساب وفي الطب» «وكان كالقارئ الذي لا يعرف إلا القرآن، وكالمحدث الذي لا يعرف

---

(١) زَنَّ فلانًا بخيرٍ أو شرّ: ظَنَّه به. (المُراجع)

إلا الحديث، وكالفقيه الذي لا يعرف إلا الفقه، وكالنحوي الذي لا يعرف إلا النحو، وكالحاسب الذي لا يعرف إلا الحساب.. وإذا جمعت بين كتبه وكتب غيره وجدت لكتبه فضلًا عن غيرها».

ولما دخل مصر لم يبق أحد من أهل العلم إلا لقيه وامتحنه في العلم الذي يتحقق به. قال «فجاءني رجل فسألني عن شي من العروض، ولم أكن نشطت له قبل ذلك، فقلت: عليَّ قول ألّا أتكلم اليوم في شيءٍ من العروض، فإذا كان في غدٍ فصِرْ إليّ، وطلبتُ من صديق العروض للخليل بن أحمد، فجاء به فنظرت فيه ليلتي فأمسيت غير عروضي وأصبحت عروضيًّا»؛ أي إن الرجل العارف بالقرآن البصير بالمعاني الفقيه بأحكام القرآن العالم بالسنن وطرقها وصحيحها وسقيمها وناسخها ومنسوخها، والحافظ أقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم من المخالفين في الأحكام ومسائل الحلال والحرام والعارف بأيام الناس ـ لم يحبَّ لنفسه جهلها بالعروض فدرسه في ليلته وحذقه كما يحذقه من اشتغل به أشهرًا.

هذه أوجه درسه وبحثه، والأهم من هذا امتيازه بأخلاقه وعقله وبهما عُدَّ إمامًا من أئمة العلم «يُحْكَم بقوله ويُرْجَع إلى رأيه» «وتفرد بمسائل حُفِظت عنه» فله مذهب خاص انقطع أتباعه فيه بعد الأربعمئة، وكان أظهر مذهب الشافعي وأفتى به عشر سنين، قال الفرغاني: فلما اتسع علمه أدّاه اجتهاده وبحثه إلى ما اختاره في كل صنف من العلوم في كتبه، وهذه فُقِدت؛ أي كتب مذهبه.

قالوا لما دخل بغداد كانت معه بضاعة يتقوَّت منها فسُرقت، فقال له بعض أصدقائه: تنشَّط لتأديب ولد الوزير أبي الحسن عبيد الله بن يحيى بن خاقان فأجاب إلى ذلك، فأجرى عليه عشرة دنانير في الشهر، فلما كتب الصبي أخذ الخادم اللوح ودخلوا مستبشرين، فلم تبق جارية إلا أهدت إليه صينية فيها دراهم ودنانير فرد الجميع وقال: قد شورطت على شيء وما هذا لي بحق، وما

آخذ إلا ما شورطت عليه. ولما قال له الوزير: إن أُمهات الأولاد غُمِمْنَ من رَدِّه قال: هؤلاء عبيد، والعبيد لا يملكون شيئًا، فعَظُم في نفس الوزير. وكان ربما أَهدى إليه بعضُ أصدقائه الشيءَ من المأكول فيَقبله اتِّباعًا للسنة، ويكافئه لعظم مروءته أضعافًا، وربما يجحف به، فكان أصدقاؤه يجتنبون مهاداته.

ولما ورد مصر في سنة ٢٥٦ نزل على الربيع بن سليمان، فأمر من يأخذ له دارًا قريبة منه، قال: «وجاءني أصحابه فقالوا: تحتاج إلى قصرية وزير وحمارين وسدة، فقلت: أَما القصرية فأنا لا ولد لي وما حللت سراويلي على حرام ولا على حلال قط، وأما الزير فمن الملاهي وليس هذا من شأني، وأما الحماران فإن أبي وهب لي بضاعة أنا أستعين بها في طلب العلم، فإن صرفتها في ثمن حمارين فبأي شيء أطلب العلم. قال: فتبسموا. فقلت: إلى كم يحتاج هذا؟ فقالوا يحتاج إلى درهمين وثلثين فأخذوا ذلك مني، وعلمت أنها أشياء متفقة، وجاؤوني بأجانة وجب للماء وأربع خشبات قد شدوا وسطها بشريط وقالوا: الزير للماء والقصرية للخبز والحماران والسدة تنام عليها من البراغيث، فكنت إذا جئت نزعت ثيابي وعلقتها على حبل قد شددته واتزرت وصعدت إلى السدة».

بقي ابن جرير يعيش من مال أبيه وكان أبوه من أهل اليسار، وقد يضيق ولا يسفُّ إلى تناول شيء من أحد مهما عظمت منزلته، وظل قانعًا بما يرد عليه من قرية يسيرة خلَّفها له أَبوه بطبرستان، وأبطأت عليه نفقة والده مرةً فاضطر إلى أن يفتق كمي القميص ويبيعهما. أراد المكتفي الخليفة أن يقف وقفًا تجتمع أقاويل العلماء على صحته ويَسْلَم من الخلاف، فأحضروا ابن جرير فأملى عليهم كتابًا لذلك فأُخرجت له جائزة سَنِية فأبى أن يقبلها، فقيل له: لا بد من جائزة أو قضاء حاجة؛ فقال: نَعَم، الحاجة أَسأل أمير المؤمنين أَن يتقدم إلى الشّرط أن يمنعوا السُّؤَّال من دخول المقصورة يوم الجمعة، فتقدم بذلك، وعَظُم في نفوسهم.

أرسل العباس بن الحسن الوزير إلى ابن جرير: قد أحببتُ أن أنظر في الفقه، وسأله أن يعمل مختصرًا، فعمل له كتاب الخفيف وأنفذه، فوجَّه إليه ألف دينار فلم يقبلها، فقيل له: تصدَّقْ بها فلم يفعل. ولما تقلد الخاقاني الوزارة وجه إليه بمال كثير فأبى أن يقبله، فعرض عليه القضاء فامتنع فعاتبه أصحابه وقالوا له: لك في هذا ثواب وتحيي سنة قد دُرِست، وطمعوا في أن يقبل ولاية المظالم فانتهرهم وقال: قد كنت أظن أني لو رغبتُ في ذلك لنهيتموني عنه. ونحن نقول إن هذه العطايا لو مُنِحَها الإمامان أبو يوسف والفخر الرازي لاستحلا أَخْذَها وشَكَرا عليها وضمَّاها بلباقة إلى أموالهما العظيمة. وابن جرير بهذا الإباء يبقى اسمه مقدسًا بكل شفة ولسان على مر الزمان.

ومن شعر الطبري:

إذا أعسرت لم يعلم رفيقي ... وأستغني فيستغني صديقي
حيائي حافظٌ لي ماءَ وجهي ... ورِفْقي في مطالبتي رفيقي
ولو أني سمحت ببذل وجهي ... لكنت إلى الغنى سهل الطريق

وقال:

خلقان لا أرضى طريقهما ... بطر الغنى ومذلة الفقر
فإذا غنيتَ فلا تكن بَطرًا ... وإذا افتقرت فَتِهْ على الدهر

مثال من بُعْدِ نظره وسعة عقله وعلمه بزمانه: لما خُلِعَ المقتدر وبويع ابن المعتز دخلوا على ابن جرير الطبري فقال: ما الخبر؟ قيل بويع ابن المعتز، قال: ومن رشح لوزارته؟ قيل ابن الجراح. قال: فمن ذكر للقضاء؟ قيل: أبو المثنى. فأطرق ثم قال: هذا أمر لا يتم، قيل: وكيف؟ قال: كل واحد من هؤلاء متقدم في معناه، والزمان مدبر والدنيا مولية، فما أرى هذا إلا إلى الاضمحلال. وكان كما قال: جرت حرب بين غلمان المريدين للمقتدر وبين

المريدين لابن المعتز، فانهزم ابن المعتز وتفرق أصحابه، ثم أُمْسك وحُبِس ليلتين وقُتِل خنقًا، فكانت خلافته يومًا واحدًا.

وإذا عرضنا لذكر تآليف ابن جرير فإنا نرى أعظمها تفسيرَه وتاريخَه؛ أما تفسيره فقد جوَّده وبيَّن فيه أحكام القرآن وناسخه ومنسوخه ومشكله وغريبه ومعانيه واختلاف أهل التأويل والعلماء في أحكامه وتأويله والصحيح لديه من ذلك وإعراب حروفه والكلام على الملحدين فيه والقصص وأخبار الأمم والقيامة وغير ذلك مما حواه من الحكم والعجائب كلمة كلمة وآية آية، من الاستعاذة إلى أبي جاد، فلو ادعى عالم أن يُصنِّف منه عشرة كتب كل كتاب منها يحتوي على علم مفرد عجيب مستقصى لفعل. وقد ضرب التوحيدي المثل بتفسير ابن جرير واسمه «جامع البيان». وقال السيوطي من المتأخرين: إنه يوجِّه الأقوال ويرجِّح بعضها على بعض ويُعْرب ويستنبط فهو يفوق بذلك تفاسير الأقدمين.

أطال ابن جرير في تفسيره وفي تاريخه، وكانت النعمة على العلم في هذا التطويل. وكان من نيته أن يتوسع أكثر مما توسع؛ فقد ذكروا أنه قال لأصحابه قبل وضع هذين الكتابين العظيمين: أتنشطون لتفسير القرآن؟ قالوا: كم يكون قدره؟ فقال ثلاثون ألف ورقة، فقالوا: هذا مما تفنى الأعمار قبل تمامه فاختصره في نحو ثلاثة آلاف ورقة. ثم قال: هل تنشطون لتاريخ العالَم من آدم إلى وقتنا؟ قالوا: كم قدره؟ فذكر نحوًا مما ذكره في التفسير، فأجابوا بمثل ذلك فقال: إنا لله، ماتت الهمم، فاختصره في نحو ما اختصر التفسير.

أما تاريخه، فقد رتَّبه على السنين وضمَّنه ما خَلَتْ منه الكتب التي في الأيدي، واستفاد الناس من تطويله الذي ما ارتضاه وَعَدَّه مختصرًا. وصفه المسعودي المؤرخ فقال: إنه الزاهي على المؤلَّفات، والزائد على الكتب، فقد جمع الأخبار، وحوى فنون الآثار، واشتمل على ضروب العلم، وهو

كتاب تكثر فائدته وتنفع عائدته، وكيف لا يكون كذلك ومؤلِّفه فقيه عصره، وناسك دهره، وإليه انتهت علوم فقهاء الأمصار، وحَمَلة السير والآثار.

وأكثر اعتماد ابن خلدون المؤرخ في النقل على تاريخ ابن جرير هذا، قال: لأنه أوثق من رآه في ذلك، وأبعد عن المطاعن في كبار الأمة من خيارهم وعدولهم من الصحابة والتابعين. كلام حق. وفي كتابه تقرأ تؤدة العلماء ووقار الحكماء وتقتنع أنك تنفذ إلى حقائق التاريخ، لأن مؤلِّفه متصف بصفات الكمال لا مطعن عليه في شيء، حتى صار كتاب «الرسل والملوك» المصدر الأول في التاريخ الإسلامي أخذ عمن تقدمه، ومنهم من أهل الأهواء المخالفين لمذهبه كأبي مخنف[١] فاقتبس من كلامه ما راقه واعتقد صحته، أخذ النقاوة وترك النفاوة. وكتابه المصدر الوحيد لكل من جاء بعده، يجد فيه كل طالب بغيته، ويتجسم له الصدق يتدفق من خلال كلامه لا يجرح سليمًا، ولا يوثق كذوبًا، ولا يقذف في عظيم، ولا يتهم بريئًا.

قال صاحبه الفرغاني: كان محمد بن جرير ممن لا تأخذه في الله لومة لائم، ولا يعدل في علمه وتبيانه عن حق يلزمه لربه وللمسلمين إلى باطل لرغبة ولا رهبة، مع عظيم ما كان يلحقه من الأذى والشناعات من جاهل وحاسد وملحد، وأما أهل العلم والدين فغير منكرين علمه وفضله وزهده وتركه الدنيا مع إقبالها عليه، وقناعته بما كان يرد عليه من قرية خلفها له أبوه بطبرستان يسيرة.

تعصَّب عليه الحنابلة ووقعوا فيه فتبعهم غيرهم، ولذلك سبب: وهو أن الطبري جمع كتابًا ذكر فيه اختلاف الفقهاء لم يصنِّف مثله، ولم يذكر فيه أحمد بن حنبل، فقيل له في ذلك فقال: لم يكن فقيهًا وإنما كان محدثًا.

---

(١) كان أبو مخنف لوط بن يحيى المؤرخ شيعيًا (١٥٧) وكذلك الواقدي. وأبو مخنف ـ كما قال العلماء ـ يزيد على غيره بأمر العراق وأخبارها وفتوحها، والمدائني بأمر خراسان والهند وفارس، والواقدي بالحجاز والسيرة. وقد اشتركوا في فتوح الشام.

فاشتد ذلك على الحنابلة فشَغَبُوا عليه، وكانوا يَشْغَبُون لأقل من هذا، حتى اضطر أصحابه أن يدفنوه في بيته مخافة أن تطول إليه أيدي الحنابلة بالإيذاء بعد وفاته، قال المؤرخون: ادَّعوا عليه الرفض، ثم ادعو عليه الإلحاد!

هذه سيرةٌ من أطيب سير الرجال يَقِلُّ في وصف صاحبها ما اعتاد الناس أن يطلقوه من الألفاظ في وصف العلماء العاملين، وكفى أن يقال إنه كان مأمونًا على الإسلام وعلى تاريخه، وأنه ما حاد ذرةً عن هدي أرباب الأخلاق، وما عُدَّتْ له سقطة يسقط فيها أكثر المؤلفين، وما أُثر عنه أنه أضاع دقيقة من حياته في غير الإفادة والاستفادة. روى المعافا بن زكريا عن بعض الثقات أنه كان بحضرة أبي جعفر الطبري رحمه الله قبل موته، وتوفي بعد ساعة أو أقل منها، فذكر له هذا الدعاء عن جعفر بن محمد فاستدعى محبرة وصحيفة فكتبها فقيل له: أفي هذه الحال؟ فقال: ينبغي للإنسان ألا يدع اقتباس العلم حتى الممات.



(١١)

# ابن دريد

## أبو بكر محمد بن الحسن

(٣٢١)

يتصل نسبة بيعرب بن قحطان. ودُرَيْد تصغير أدْرَد الذي ليس فيه سن، وهو من الأَزْد. والأزد سكنوا مأرب، ولما تفرقوا نزل بعضهم لحمان، ومنهم بعض أجداده. ولد ابن دريد في البصرة سنة ثلاث وعشرين ومئتين، وعاش ثماني وتسعين سنة.

نشأ في عُمان والبصرة وفي هذه قرأ على أبي عثمان الأشناندانى، وكفله عمه وعليه قرأ مبادئ العلم. ومن أساتذته أبو حاتم السجستاني والرياشي والتوزي والزبادي وغيرهم من أجلة العصر. كان إمامًا في اللغة والنسب والشعر، آية في الحفظ، حفظ كثيرًا من دواوين العرب، وقيل إنه أملى كتاب الجمهرة من حفظه وهو ابن أربع وسبعين سنة. ورحل ابن دريد إلى الأهواز يؤدب إسماعيل بن ميكال، وكان أبوه عبد الله تولاها وبقي مع الأب والابن مدة ولاية الأب عليها، وقلده عبد الله ديوان فارس فكانت تصدر كتبها عن رأيه. وسكن بغداد كما سكن عمان، وطاف في أرجاء الجزيرة جزيرة ابن عمر، واتصل في بغداد بالخليفة المقتدر فأحله منه أجمل محل وأجرى عليه خمسين دينارًا، وما كان ابن دريد مقتَّرًا عليه طول حياته، وكان أهله في سعة من العيش فأفاد مالًا منهم وممن اتصل بهم من الأمراء والخلفاء. كان سخيًّا سريًّا جميل العشرة غير ضنين بعلمه. والغالب أنه كان شافعي المذهب، وإن كان سكان عمان وما إليها في أيامه على مذهب الخوارج؛ أي الشراة. وكان

يُرْجَع إليه في اللغة ويفتى بقوله، تصدّر في العلم ستين سنة. وقالوا إن العلم والشعر ما ازدحما في صدر أحد ازدحامهما في صدر خلف الأحمر وابن دريد. وقالوا إنه كان في شعره طورًا يجزل وطورًا يرق، وقد نظم في كثير من أغراض الشعر، وأجمل ما نظمه حكمه ومنها مقصورته وفيها مثال من تبحره في اللغة مدح بها الأمير أبا العباس إسماعيل بن ميكال رئيس نيسابور ومقدمها وقدم له كتاب الجمهرة. قال أبو العباس: إن ابن دريد أملى عليه كتاب الجمهرة من أوله إلى آخره حفظًا وما استعان عليه بالنظر في شيء من الكتب إلا في باب الهمزة والألف فإنه طالع له بعض الكتب. قال المسعودي: وكان ابن دريد ممن قد برع في زماننا هذا في الشعر وانتهى في اللغة وقام مقام الخليل ابن أحمد فيها، وأورد أشياء في اللغة لم توجد في كتب المتقدمين. فإن من جيد شعره القصيدة المقصورة التي يمدح بها الشاه بن ميكال، ويقال إنه أحاط فيها بأكثر المقصور وأولها:

أما ترى رأسيَ حاكى لونه ... طرّة صبح تحت أذيال الدجى
واشتعل الأبيض في مسوده ... مثل اشتعال النار في جمر الغضى

ومنها:

إن الجديدين إذا ما استوليا ... على جديد أدنياه للبلى

ومنها يقول:

لست إذا ما بهظتني غمرة ... ممن يقول بلغ السيل الزُّبى
وإن ثوت بين ضلوعي زفرة ... تملأ ما بين الرجا إلى الرجا

ومن مشهور كتبه كتاب الاشتقاق، وله غير ذلك منها ما طبع ومنها ما لم يطبع. وقد «رُمي بافتعال العربية وتوليد الألفاظ وإدخال ما ليس من كلام العرب في كلامها» وهذا ما نستبعده. والذي حصل والله أعلم أنه نقل ألفاظًا

غير مألوفة أدمجها في شعره، وعند ظنه أنه خدم بها اللغة العربية مثل قوله مثلًا:

أماطت لثامًا عن أقاح الدمائث ... بمثل أساريع الحقوف العثاعث

ونصت عن الغصن الرطيب سوالفًا ... يَشُب سناها لون أحوى جثاجث

ولاثت تُثَنّي مِرطها دعص رملة ... سقاها مجاج الطلِّ عَبَّ الدثائث

وبعض هذه الألفاظ مما يحتاج فهمه إلى أن يرجع إلى مثل الأصمعي وأبي زيد لأنها من عويص اللغة تورث الصدر انقباضًا لمن أراد تفهمها، وبعض من لم يعرف يقتصر الطريق ويقول إن ابن دريد يأتي بما ليس له أصل في اللغة من الكلمات، بل إن الأصمعي قال في عدة مواقع وقد عرض عليه الكلام العويص إنه لم يفهم. أنشدوه مرّة بيتًا لامرئ القيس:

وسنٍّ كسُنّيق سناء وسُنّما ... ذعَرْت بمدلاج الهجير نهوض

قال الأصمعي: لا أدري ما السن ولا السنيق ولا السُّنَّم.

وقوله:

عصافير وذبان ودود ... واجرأُ من مجلجلة الذباب

وزاد في تقبيح ذلك وقوعه في أبيات منها:

فقد طوفت في الآفاق حتى ... رضيت من الغنيمة بالإياب

وكل مكارم الأخلاق سارت ... إليه همتي ونما اكتسابي

وقد استعمل ابن دريد الشعر في تقرير بعض المفردات وجعله سلمًا إلى تفسير أمور صعبة تدخل في قواعد الألفاظ؛ مثل ما يذكر من الأعضاء ولا يؤنث، وما يؤنث ولا يذكر، وما يذكر ويؤنث.

ومن شعره العذب:

لو أن قلبًا ذاب من كمد ... ما كان بين ضلوعه قلب

لو كنت صبًّا أو تسرُّ هوى ... لعلمتَ ما يتجرع الصب
يهوى اقترابك وهو قاتله ... فشفاؤه وسقامه القرب

ومنه:

وليلة سامرتْ عيني كواكبها ... نادمت فيه الصّبا والنوم مطرودُ
تستنبط الراح ما تخفى النفوس وقد ... جادت بما مَنعته الكاعب الرود
والراح تفتر عن درٍّ وعن ذهب ... فالتبر منسبك والدر معقود
باليل لا تُبح الإصباح حوزتنا ... وليحم جانبَه إعطافك السود

وكتب إلى أبي الحسن علي بن عيسى بن داود بن الجراح الوزير:

أبا حسن، والمرء يُخلق صورة ... تُخبِّر عما ضُمّنَتْه الغرائز
إذا كنت لا تُرجى لنفع معجل ... وأمرك بين الشرق والغرب جائز
ولم تكُ يوم الحشر فينا مشفعًا ... فرأي الذي يرجوك للنفع عاجز
علي بن عيسى خير يوميك أن تُرى ... وفضلك مأمول ووعدك ناجز
وإني لأخشى بعد هذا بأن تُرى ... وبين الذي تهوى وبينك حاجز

وقال:

وما أحد من ألسن الناس سالمًا ... ولو أنه ذاكَ النبي المطهر
فإن كان مقدامًا يقولون أهوج ... وإن كان مفضالًا يقولون مُنزر
وإن كان سكيتًا يقولون أبكم ... وإن كان منطيقًا يقولون مهذر
وإن كان صوامًا وبالليل قائمًا ... يقولون زرَّاف يرائي ويَمكَر
فلا تحتفل بالناس بالذم والثنا ... ولا تخشَ غير الله فالله أكبر

ومن مليح شعره:

غراءُ لو جلت الخدور شعاعها ... للشمس عند طلوعها لم تشرق

غصن على دِعص تأود فوقه ... قمر تألق تحت ليل مطبق
لو قيل للحُسن احتكم لم يَعْدُها ... أو قيل خاطب غيرها لم يَنطق
وكأننا من فرعها في مغرب ... وكأننا من وجهها في مشرق
تبدو فيهتف للعيون ضياؤها ... الويل حل بمقلة لم تُطبق

وقال وهو مشهور ومتداول على الألسن:

وحمراء قبل المزج صفراء بعده ... أتت بين ثوبي نرجس وشقائق
حكت وجنة المعشوق قبل مزاجها ... فلما مزجناها حكت خَدّ عاشق

وقال:

لا تحقرن عالمًا وإن خَلقت ... أثوابه في عيون رامقه
وانظر إليه بعين ذي خطر ... مهذب الرأي في طرائقه
فالمسك بينا تراه ممتهنًا ... بِفهر عطاره وساحقه
حتى نراه بعارضي ملك ... أو موضع التاج من مفارقه

وله أيضاً:

العالم العاقل ابن نفسه ... أغناه جنس علمه عن جنسه
كن ابن من شئت وكن مؤدبًا ... فإنما المرء بفضل كَيْسه
وليس من تكرمه لغيره ... مثل الذي تكرمه لنفسه

وقال في أخلاق الناس:

أرى الناس قد أُغروا ببغي وريبة ... وَغيّ إذا ما ميز الناسَ عاقل
وقد لزموا معنى الخلاف فكلهم ... إلى نحو ما عاب الخليقة مائل
إذا ما رأوا خيرًا رموه بظنّة ... وإن عاينوا شرًّا فكلٌّ مناضل
وليس امرؤ منهم بناج من الأذى ... ولا فيهم عن زلّة متغافل

وإن عاينوا حبرًا أديبًا مهذبًا     حسيبًا يقولوا أنه لمخاتل

وإن كان ذا ذهن رموه ببدعة     وسموه زنديقًا وفيه يُحاول

وإن كان ذا دين يُسمّوه نعجة     وليس له عقل ولا فيه طائل

وإن كان ذا صمت يقولون صورةٌ     ممثلة بالعِيِّ بل هو جاهل

وإن كان ذا شر فويل لأمه     لما عنه يَحْكي من تضمُّ المحافل

وإن كان ذا أصل يقولون إنما     يفاخر بالموتى وما هو زائل

وإن كان مجهولًا فذلك عندهم     كبيض رمال ليس يعرف عامل

وإن كان ذا مال يقولون ماله     من السحت قد رابى وبئس المآكل

وإن كان ذا فقر فقد ذلَّ بينهم     حقيرًا مهينًا تَزدريه الأراذل

وإن قنع المسكين قالوا لقلة     وشحة نفس قد حوتها الأنامل

وإن هو لم يقنع يقولون إنما     يطالب من لم يُعطه ويقاتل

وإن يكتسب مالًا يقولوا بهيمةٌ     أتاها من المقدور حظ ونائل

وإن جاد قالوا مسرف ومبذر     وإن لم يَجُد قالوا شحيح وباخل

وإن صاحب الغلمان قالوا لريبة     وإن أجملوا في اللفظ قالوا مَباذل

وإن هويَ النسوان سمّوه فاجرًا     وإن عفَّ قالوا ذاك خنثى وباطل

وإن تاب قالوا لم يتب منه عادة     ولكن لإفلاس وما ثمّ حاصل

وإن حج قالوا ليس لله حَجّه     وذاك رياءٌ أنتجته المحافل

وإن كان بالشطرنج والنرد لاعبًا     ولاعبَ ذا الآداب قالوا مُداخل

وإن كان في كل المذاهب فائزًا     وكان خفيف الروح قالوا مثاقل

وإن كان معزامًا يقولون أهوج     وإن كان ذا ثبت يقولون باطل

وأن يعتلل يومًا يقولوا عقوبةٌ     لشر الذي يأتي وما هو فاعل

وإن مات قالوا لم يمت حتف أنفه ... لما هو من شر المآكل آكل
وما الناس إلا جاحد ومعاند ... وذو حسدٍ قد بان فيه التخاتل
فلا تتركن حقًّا لخيفة قائلٍ ... فإن الذي تخشى وتحذر حاصل

هذا شعر ابن دريد وهذه حِكَمه، وقد جاء منها في مقصورته الشيء الكثير حتى كاد يكون في حكم الأمثال، ولم نطلع فيما اطلعنا عليه من مؤلفاته على شيء من نثره ولا شك أن له منه طائفة خصوصًا وقد تقلد الدواوين وكان الحاكم يصدر عن آرائه فبالشعر لا تتم هذه المقاصد، ومن العادة أن يغفَل النثر ويتهالك على جمع القريض ولو كان من السقط الذي يجب أن يرذل.



(١٢)

# ابن الداية

## أحمد بن يوسف الكاتب

(٣٣٠)

كان يوسف بن إبراهيم، والد أحمد بن يوسف المعروف بابن الداية، ولد داية ابن المهدي العباسي وكاتب إبراهيم بن المهدي ورضيعه ومدبِّر أمواله وضياعه. يُعَدُّ من كتاب الدرجة الأولى، له كتاب الطبيخ وكتاب أخبار إبراهيم بن المهدي. وانتقل من بغداد إلى مصر، ولم يعرف سبب انتقاله ولا سنة هجرته وغاية ما عُلم أنه جاء دمشق سنة ٢٢٥، ولعل في هذا العام كانت هجرته من بغداد.

كان يوسف من أهل المروءات التامة والعصبيات العظيمة، وكان متموِّلًا ابتاع الضياع وتقبّل المزارع فنمت أمواله وأفضل منها على عُفاته[١]، فكان يُجري على عشراتٍ من أهل الستر من الأشراف وغيرهم في مدينة الفسطاط. حبسه ابن طولون مرة في بعض داره، وكان اعتقال الرجل في داره يؤيس من خَلاصِه، فجاء جماعة إلى أحمد بن طولون وبكوا وطلبوا إليه أن يقتلهم إن كان معتزمًا على قتله. وقالوا إن لهم ثلاثين سنة ما فكروا في ابتياع شيء مما احتاجوا له ولا وقفوا بباب غيره. وكل هذا يزيد في خوف ابن طولون من يوسف بن إبراهيم فيقوم في نفسه أنه عَيْن عليه يتسقَّط أخباره ويُنْهي بها إلى بغداد، وهو من صنائع خلفائها وربيب نعمتهم.

---

(١) العافي: كلُّ طالب فضلٍ أو رزق. ج: عُفاة [القاموس]. (المُراجع)

ولما هلك يوسف بن إبراهيم أخذ ابن طولون صندوقين من كتبه، وبين يديه رجل من أشراف الطالبيين، فوقع على دفتر جراياته على الأشراف وغيرهم فوجد اسم الطالبي في الجراية فقال له: وكانت عليك جراية يوسف بن إبراهيم؟ فقال له: نعم أيها الأمير، دخلت هذه المدينة وأنا مُمْلق، فأجرى عليّ في كل سنة مئتي دينار، أسوة بابن الأرقط والعقيقي وغيرهما، ثم امتلأت يداي بطَوْل الأمير فاستعفَيْتُ منها.

في هذه البيئة الرَّوِيّة بمكارم الأخلاق، العريقة في الآداب والفضل نشأ أحمد بن يوسف في نعمة سابغة، وسراوة ظاهرة. تخرَّج في الآداب، وتفنَّن في أخذ العلوم، فجاء كاتبًا سريًا، وشاعرًا مجيدًا، وطبيبًا نطاسِيًّا، يُحْكِم الرياضيات، ويحذق الطبيعيات، ويعلم النجوم. وصفه بعض واصفيه بأنه مِجِسْطِيّ أوقيلدسي، وكان يعرف في العراق بالمهندس، ذكروا أنه عُرِف بالشعر، ولم يذكروا أن إنشاءه فوق كل هذا. ولم يصلنا من شعره سوى بضعة أبيات قالها على البديهة لما خرج عليه الأعراب في بعض أرجاء مصر وأنقذه المُخَفّرون من شرهم فقال فيهم:

جزى الله خيرًا معشرًا حقنوا دمي ... وقد شُرعت نحوي المثقفة السّمرُ
دراهمهم مبذولة لضعيفهم ... وأعراضهم من دونها الغَفْر والستر
إذا ما أغاروا واستباحوا غنيمة ... أغار عليهم في رحالهم الشكر
وإن نزلوا قطرًا من الأرض شاسعًا ... فما ضرَّه ألّا يكون به قَطْر

وكان كتب إلى صديقه أبي الفياض سوار بن شُراعة الشاعر لما اعتزم الرجوع إلى بغداد مقدار خمسين ورقة من شعره، وكان يستحسنه ويعجب به ولم يُؤْثَر منه إلا بيت واحد:

ظَلِلْنا بها نستنزل الدنَّ صفوها ... فينزل أقباسًا بغير لهيب

كتب أحمد بن يوسف سيرة أحمد بن طولون وسيرة ابنه أبي الجيش خُمارويه وسيرة هارون بن أبي الجيش، وأخبار غلمان بني طولون؛ أي

رجالهم والقائمين بأمرهم، وفسّر كتاب الثمرة لبطليموس، ولعله كان في علم الفلك. ومن تآليفه أخبار الأطباء وأخبار المنجِّمين، ومختصر المنطق ألفه للوزير علي بن عيسى وغير ذلك، والكتاب الصغير الذي عرّفنا في الحقيقة إلى أحمد بن يوسف كتاب «المكافأة»، روى فيه قصصًا سمعها أو رآها هو أو رواها له من شاهدها في مصر والعراق ومنهم والده ورجال ابن طولون. ساق إحدى وثلاثين قصة في المكافأة على الحسن، وإحدى وعشرين قصة على القبيح، وتسع عشرة قصة في حسن العقبى، رجاء «أن يكون ذلك عونًا للاستكثار من مواصلة الخير وتطلب العارفة في الحسن، وزجر النفس عن متابعة الشر، وإبعادها عن سَوْرة الانتقام في القبيح». قال في المدخل إلى القسم الثالث: «رأيت أن أصِلَ ذلك (حفظك الله) بطُرف من أخبار من ابتُلي فصبر. فكان ثمرة صبره حسن العقبى، لأن النفس إذا لم تُعَنْ عند الشدائد بما يجدد قواها تولَّى عليها اليأس فأهلكها. وقد علم الإنسان أن سُفور الحالة عن ضدها حتمٌ لا بد منه، كما علم أن انجلاء الليل يُسفر عن النهار، ولكن خَور الطبيعة أشد ما يلازم النفس عند نزول الكوارث، فإذا لم تعالج بالدواء اشتدت العلة وزادادت المحنة، والتفكر في أخبار هذا الباب مما يشجع النفس ويبعثها على ملازمة الصبر وحسن الأدب مع الرب ﷻ بحسن الظن في مواتاة الإحسان عند نهاية الامتحان».

كل ذلك كتبه بأسلوب رشيق وبألفاظ مختارة عذبة لا ترى أدنى أثر للتكلف في نسجها، صاغ كلامه صياغة صناع اليد فأبدع جديدًا وأتى بغرائب من أخبار الناس، ومن أتاهم بمثل هذا الضرب الطريف من الأدب تعاظموه وأكبروا بيانه. ولعل أحمد بن يوسف لم يكن دون ابن المقفع ببلاغته، وقد سَلَكَ معه في سلكٍ واحد وينقل عنه ويقول: إن هذا مما نقله ابن المقفع عن الفرس وتعالمه العرب، وربما زاد على ابن المقفع أنه كان أقرب إلى الحياة لامتزاجه بالسُّوْقَة من فلاحين وتجار ورجال الدولة وعلمائها ومهندسيها

وقوادها، وكان يعيش وأبوه من قبله من الزراعة فعرف طرق الكسب الحلال وطرق تثمير المال، وعرف طبقات الناس بكل ما انطووا عليه من خير وشر.

ولو قد أبقت الأيام على بعض ما كتبه هذا المؤلِّف العظيم لكان منه مادة في البلاغة والتاريخ والسياسة والعلم تُوْفِي على الغاية، ولا سيما ما كان منه خاصًا بوصف عصره ورجاله. ومن عجائب الدهر أن تُفْقَد كتب من جَوَّدوا التأليف وتبقى مؤلفات من لم يحسنوا الإحسان المطلوب يتناقل الخلف تآليفهم.

وربما كان لنكبة الطولونيين (٢٩٢) وقضاء العباسيين على دولتهم صلة كبيرة بضَياع كتب ابن الداية وفيها ولا شك الشيء الكثير من محاسن الطولونيين، ومحاسنهم مما يشق على بني العباس نشره في الأمة، وتخليده في الصحف لئلا يكون من بثها دعاية لهم، وأبغض ما يكون إلى المنافس الإشادة بفضائل منافسه، لا سيما وقد كاد المؤرخون يجمعون على أن أحمد بن طولون بعلمه وسياسته وعدله أرقى من كثير من الخلفاء.

وعلى كثرة فضائل ابن الداية واتساعه في أدبه ونضجه في علمه، لم يشتهر الشهرة التي هو قمين بها. ولو لم يعثر له على هذا الجزء من كتاب المكافأة لغطت الأيام على اسمه، خصوصًا وهو لم يُذْكَر إلا في بعض تضاعيف الكتب ذكرًا يكاد يكون مبتورًا، ومعظم كتب الأدب حتى ما ألفه المصريون منها لا تذكره بكلمة إلا نادرًا، ومن العجائب أيضًا ألا يَعُدَّه جهابذةُ الأدب في جملة أعلامه وألَّا يضعوه في الصف الأول بين رعيل قدماء البلغاء. وقديمًا سدل الدهر قناع النسيان على كثير من العظماء بعد قليل من رحيلهم عن الأرض لفَقْد ما كتبوا بعامل من عوامل الفناء أو لقلَّة أنصارهم ومَن أهمَّه أمرهم. ومنهم من تضاعفت شهرتهم عند موتهم لسكوت حُسَّادهم عنهم ومغالاة أحبابهم في تقريظهم.

ولعل انتقال والد ابن الداية من بغداد إلى الفسطاط ونشأته في مصر في

زمن غضب فيه خلفاء بني العباس على مصر وعلى أميرها أحمد بن طولون لاستقلاله بحكمها كان من جملة الدواعي في ضؤولة شهرته. على أن مصر الطولونية ومصر الفاطمية بعد حين ما ساوت العراق بمنزلتها، ولا يتأتى أن يشتهر أبناؤها اشتهار البغداديين، وإلى الحضرة أو مدينة السلام كان يحمل كل جميل، وينعت الناس أهلها بالنعوت الحسنة، وتتأفق شهرة أدبائها وعلمائها لكثرة ما تردد أسماؤهم في كل مكان، وكيف تتأتى الشهرة لأحمد بن يوسف في دولة ضعيفة لم تعترف بها دولة الخلافة وتعدها خارجة عليها.

ولم يتصل أحمد بن يوسف بأحمد بن طولون اتصالًا وثيقًا في صباه وابن طولون مات سنة سبعين ومئتين، وابن الداية مات سنة نيف وثلاثين وثلاثمئة في أصح الأقوال، والدولة الطولونية انقرضت سنة ثنتين وتسعين ومئتين؛ فيكون ابن الداية على هذا كتب كتبه في بني طولون قبيل انقراض دولتهم.

نعم هذا هو الكتيّب الذي به ظهر أحمد بن يوسف في أندية الآداب يحمل إبداعًا في موضوعه وإبداعًا في وضعه، موضوعٌ قلما عاناه أحد قبله يقصد به تربية النفوس على الخير ويحبب إليها فعله، ويُشيد بمن كان هذا مبلغهم من الأخلاق إشادة يقدسون بها تقديسًا. ولم يَصْدُر المؤلِّف في ما كتب به عن خيالٍ، بل أخذ مادته من قلبه وخُلقه، تغنّى بما سبق له ولأبيه من المحامد، وعدًّا من الطبيعة القيام بمثله، وأراد أن يلقن أبناء المستقبل هذه المكرمات حتى لا تستغرق الماديةُ الناسَ، ويرتفع من بينهم التعاطف والإيثار. فكتب فيها ورقاتٍ قليلةَ الجرم عظيمةَ النفع أفادتنا ما لا تفيده المجلدات، لأن المؤلف كتب وأخلص في تأليفه وأراد به الدعوة إلى المروءات لا التبجح ولا التنفج. بضعة كتب خطتها أنامله الفنَّانة قضى الله بذهابها وبقي له هذا الكتاب الصغير أحيا به ذكره بعد ألف سنة على وفاته.

وهنا نكتفي بإيراد قصص من قصصه رأيناها خير ما يترجم له ويقفنا على طريقته.

قال ابن الداية: «حدثني أحمد بن أبي يعقوب قال: أنكر المهدي على هَرْثمة ابن أعْيَن (من أكبر قواد المهدي) تحككه بمعن بن زائدة وأمر بنفيه إلى المغرب الأقصى، فكلمه الرشيد فيه واستلَّ سخيمته عليه ومات معن، وزادت حال هرثمة، وشكر للرشيد ما كان منه. وأفضت الخلافة إلى موسى الهادي فتمكَّن منه هرثمة. وحدثتِ الهاديَ نفسُه بخلع الرشيد، وجمع الناس على تقليد ابنه العهد بعده، وعلم هذا هرثمة، وتذكر عارفة الرشيد فتمارض، وجمع الهادي الناس ودعاهم إلى خلع الرشيد ونصب ابنه مكانه فأجابوه وحلفوا له، وأحضر هرثمة فقالوا له: تبايع يا هرثمة؟ فقال: يا أمير المؤمنين يميني مشغولة ببيعتك، ويساري مشغولة ببيعة أخيك فبأي يد أبايع؟ والله يا أمير المؤمنين لا أكدت في الرقاب من بيعة ابنك أكثر مما أكده أبوك لأخيك في بيعته. ومن حنث في الأولى حنث في الأخرى. ولولا تأول هذه الجماعة بأنها مكرهة وإسرارها فيك خلافَ ما أظهرت، لأمسكت عن هذا. فقال لجماعة من حضر: شاهت وجوهكم، والله لقد صدقني وكذبتموني، ونصحني وغششتموني. وسلم إليّ الرشيد ما قدره الهادي فيه».

قصة ثانية: «حدثني هارون بن مَلُّول قال: حدثني ياسين بن زرارة قال: كان ببعض أرياف مصر نصراني من أهلها كثير المال فاشي النعمة سمح النفس، وكانت له دار ضيافة، وجرايات واسعة على ذوي السّتر بالفسطاط. فهرب من المتوكل رجل كَنَى عن اسمه لخطير منزلته، لميل كان من المنتصر إليه، فلما دخل رأى فيها كثيرًا من أهل بغداد، فخاف أن يعرف فنزع إلى أريافها، فانتهى به المسير إلى ضياع النصراني فرأى منه رجلًا جميل الأمر، وسأله النصراني عن حاله، فذكر أن الاختلال انتهى به إلى ما ظهر عليه فغير هيئته، وفوَّض إليه شيئًا من أمره، فأحكم ما أسند إليه واضطلع به. ولم يزل حاله يتزايد عنده حتى غلب على جميع أمره، وقام به أحسن قيام، فكان محل الرجل الهارب من النصراني يفضل كلَّ ما ذهب له.

«وورد على النصراني مستحث بحمل مال وجب عليه. (وسأله) النصراني عن خبر الفسطاط فقال: ورد خبر قتل المتوكل وتقلد المنتصر. ووافى رسول من المنتصر في طلب رجل هرب في أيام المتوكل يعرف بفلان بن فلان ويوعز إلى عمال مصر والشام بأن يتلقوه بالتكرمة والتوسعة فيلحق أمير المؤمنين في حال تشبه محله عنده، فعدل النصراني بالمستحث إلى بعض من أنزله عليه، وخلا الهارب بالنصراني فقال: أحسن الله جزاءك، فقد أوليت غاية الجميل، وأحتاج إلى أن تأذن لي في دخول الفسطاط فقال: يا هذا إن كنت استقصرتني فاحتكم في مالي، فإني لا أرد أمرك ولا أزول عن حكمك؛ ولا تَنْأَ عني، فقال له: أنا الرجل المطلوب بالفسطاط، وقد خلّفت شملًا جمًّا، ونعمة واسعة. إنما عدل بي الخوف على نفسي. فقال له: يا سيدي فالمال في يدك وما عندك من الدواب فأنت أعرف به مني فاحتكم فيه، فأخذ بغالًا وما صلح لمثله، وخرج النصراني معه. وقدم كتابًا إلى عامل المعونة من مستقره، فتلقاه عامل المعونة في بعض طريقه، ووصاه وجميع العمال بالنصراني، وصار إلى الحضرة، فأصدر إليهم الكتب في الوصاة به إلى أن قدم بعض العمال المتجرة، فتتبع النصراني ورام الزيادة عليه فخرج إلى بغداد.

«قال لي هارون أن ياسين قال له: إن النصراني حدثه أنه دخل إلى بغداد فلم يَرَ بها أرقى محلًا، وأكثر قاصدًا منه، ثم استأذنت عليه وعنده جمع كثير فخرج أكثر غلمانه حتى استقبلوني. فلما رآني قام على رجليه ثم قال: مرحبًا بأستاذي وكافلي والقائم بي حين قعد الناس عني، وأجلسني معه، وانكب على ولده وشمله، وأنا أتأمل مواقع الإحسان من الأحرار، وسألني عن حالي في ضياعي فأخبرته خبر العامل، وكان أخوه في مجلسه فنظر إليه من كُنّا عنده، وقال له: كنت السبب في تقليد أخيك فصار أكبر سبب في مساءتي، فكتب من مجلسه كتابًا إليه بجلية الخبر وأنفذه. وأقمت عنده حولًا في أرغد

عيشة وأعظم ترفه. وورد عليّ كتب أصحابي فخبروني بانصراف العامل عن جميع ما كان اعترض عليه في أمري، وأخرج أمر السلطان في إسقاط أكثر خراج ضياعي والاقتصار بي على يسير من مالها. قال ياسين: فكتب النصراني ببغداد حجة أشهد فيها على نفسه أن أسهمه في جميع الضياع التي في يده (وسماها وحددها) لهذا الرجل الذي كان هرب، وصار بها إليه، فقال له: قد سوغك الله هذه الضياع، فإني أراك أحق بها من سائر الناس، فامتنع الرجل من ذلك وقال له: عليك فيها عادات تحسن ذكرك، وترد الأضغان عنك، ولست أقطعها بقبض هذه الضياع عنك، ورجع النصراني إلى الفسطاط فجدد الشهادة فيها. قلما توفي النصراني أقرها في يد أقاربه، ولم يزالوا معه بأفضل حال».

قصة ثالثة: وحدثتني أم آسية قابلة أولاد خُمارويه بن طولون (وكان لها دين ومذهب جميل ومحل لطيف من خمارويه) وقد تذاكرنا لطف الله ﷻ في أرزاق عباده، وحسن الدفاع عنهم، أنه تزوجها وأختها أخَوان. فأقبلتْ حال زوج أختها وأدبرتْ حال زوجها. قالت وتوفي زوجها بأسوأ حالة، وخلّف لها بنات، وتعذر عليها تجهيزه من اختلاله. وتوفي زوج أختها وقد خلف من العيْن والمساكن والأواني لولد أختها.

قالت: فكنت أجاهد في مؤونة ولدي، وإذا وقف أمري صرت إلى أختي فقلت: أقرضيني كذا وكذا استحياء من أن أقول لها: هبي لي. ودخل شهر رمضان فلما مضى نصفه اشتهوا علي صبياني حلواء في العيد، فصرت إلى أختي فقلت لها أقرضيني دينارًا أعمل به للصبيان حلواء في العيد. فقالت: يا أختي تغيظيني بقولك: «أقرضيني» وإذا أقرضتك من أين تعطيني؟ أمن غلة دورك أو بستانك؟! لو قلتِ هَبي لي كان أحسن. فقلت لها: أقضيك من لطف الله تعالى الذي لا يُحتسب، وجوده الذي يأتي من حيث لا يُرتقب.

فتضاحكت وقالت: يا أختي! هذا والله من المُنى، والمُنى بضائع النّوكى، فانصرفت عنها أجر رجليَّ إلى منزلي.

وكان في جوارنا خادم أسود لبنت اليتيم امرأة خمارويه. فلما بلغتُ حارتنا قال لي: في جوارنا امرأة تُطْلَق قد أوجعت قلبي. ادخلي إليها فليس لها قابلة. قالت أم آسية: والله ما عاينت ممخوضةً قط. فدخلت إليها فمسحت جوفَها وأجلستها كما كان القوابل يُجلسنني في طلقي فولدت من ساعتها، فلما أمسك صياحها، جاء الخادم يسأل عنها فقلتُ قد ولدت. فعجب من سرعة أمرها، وظن أن هذا شيء قد اعتمدته بحذق صناعة، ولُطف في مهنة، فمضى إلى سته بنت اليتيم وكانت مُقرِبًا بأول ولد حُمل لأبي الجيش، وقد عُرض عليها قوابل استثقلتهن، فقال: في جوارنا قابلة أحضرناها لمرأة في حارتنا تطلق فوضعت يدها على جوفها فسقط ولدها. ووصفني بما لا يوجد في قدرة أحد إلا بالله ﷻ. فقالت للخادم: إذا كان غدٌ فجئني بها. فأتى الغلام ودعاني إلى مولاته فأجبت بانشراح صدر وثقة بالله تعالى. فاستخفَّت روحي وقالت: إلى التمام تقدير الله تبارك وتعالى. ثم شكت مَغْسًا تجده المُقْرِب، فأدخلتُ يدي في ثيابها ومسحتُ جوفها، وعججتُ إلى الله تعالى في سرّي بتوفيقي، وكنت أدعو، ومن حضر من أهلها يتوهم أني أرْقي، فسكن ما وجدته وتبركت بي، ودخل إليها خُمارويه، وقال: ما وجدت؟ فقالت: مغسًا في جوفي، فوضعت قابلة أردتها يدها عليه فزال ما أجده. وأخرجني إليه (وكان قريبًا من حرمه) فقال لي: أرجو أن يخلصها الله ﷻ ببركتك.

قالت أم آسية: ودخلنا في العشر الأواخر من شهر رمضان، وقد تمسكت من الإخلاص لله ﷻ بما لا يصل إليه مَن ساح في الجبال، خوفًا من شماتة أختي بي، فلم تمض إلا ثلاثة أيام حتى مَخِضَت فأجلستها إلى كرسي الولادة (وكان مقدار طلقها ساعتين) فولدت ابنًا أسهل ولادة، وأبو الجيش يقوم ويقعد ويذهب ويجيء، فلما ولدت وكانت تتوقع من الولادة أمرًا عظيمًا،

فلما ألقته قالت لي: هذا الطلق؟ قلت: نعم. فقبّلت ـ يعلم الله ـ عيني من الفرح، وصاح خمارويه: أخبريني يا مباركة بخبرها فقلت: وحياة الأمير إنها في عافية، وقد ولدت غلامًا سويَّ الخَلْق بحمد الله، فوجَّه إليّ بألف دينار، وألحَّ أبو الجيش في النظر إليها لفرط إشفاقه عليها. فاستوقفته إلى أن نقلت حوائج الولادة، وقلت لها يا سيدتي: اضحكي في وجهه لمَّا تَرَيْنه. فلما دخل إليها ضحكت في وجهه، فتقدم بصدقة مال كثير عنها وعن ولده.

وقالت لي أم آسية: لمَّا كان يوم الأسبوع «ووقع قبل العيد بيوم واحد» أمرت لي بخمسمئة دينار، وحصل من أتباعها ألف دينار. فحصل لي ألفان وخمسمئة دينار. وخلعت عليَّ وسائر حشمها أكثر من ثلاثين خلعة. وحُمل إليّ مما أعد للعيد ثلاث موائد خاصة. وانصرفتُ إلى منزلي فأرسلت إلى أختي مائدة، ووافتني مهنئة، وقد تقاصر طولها، فأريتها ما حصل لي من المال والخلَع والطِّيب وقلت لها: يا أختي: أنكرتِ عليَّ قولي: «أقرضيني»، ومن هذا كنت أقضيك، فلا تستصغري من كان الله مادته، وعليه مدار ثقته وتعويضه.

واكتسبت هذه المرأة بمحلها من أبي الجيش مالًا كثيرًا، وقضت لجماعة من وجوه البلد حوائج خطيرة اهـ.

وفي المكافأة فوائد طريفة وحقائق قد لا تجدها مكتوبة؛ منها: وكنا لا نفضي من بلدان خراسان على بلد إلا وجدناه أغلظ طبعًا من البلد الذي فارقناه حتى بلغنا بخارى، فرأينا قومًا في نهاية من غلظ الطباع فقال لي مذ رآني أتعجب منهم: كيف لو رأيت الترك وبلدانهم؟ يقتلون المستجير بهم، ويغير بعضهم على بعض فيهلك النازع إليهم بينهم.

هذا في المعاني، وفي الألفاظ تفرَّد المؤلِّف بألفاظ عذبة لا عهد لنا بمثلها قبله حاشا كبار البلغاء من الكُتَّاب، ومنها ما لم يعثر له على أثر في المعاجم العربية، ومنها ما لا نزال نستعمله ولكن في معانٍ غير المعاني التي

عبر بها عنها. أما التراكيب فهناك الإعجاز. كتاب المكافأة معجز بألفاظه وتراكيبه، تقف فيه على ما ليس له اليوم ما يشبهه، وتقرأ فيه صورًا من الظلم كان يقع من عمال السلطان، بل على ما ليس لهم علاقة به، وجمعوا ثروتهم من تجاراتهم، ووصف ما يعمله زبانية الملك أو الأمير أو الخليفة لاستخراج الأموال بالتعذيب على صفة قلَّ أن جرى مثلها في أدوار الإنسانية.



(١٣)

# الصُّولي

## (أبو بكر محمد بن يحيى)

(٣٣٥)

نشأ في بغداد وأخذ العلم عن أئمة عصره وتأدَّب به ناس، وروى عنه الحديث بعضُ المشاهير، وكانت محاضرته أجمل من شعره ونثره. وضع تآليف كثيرة وساعده على التوسع في أخبار خلفاء بني العباس ووزرائهم وشعرائهم، وعلى «ذكر غرائب لم تقع لغيره وأشياء تفرد بها لأنه شاهدها بنفسه» كونه نادم الراضي، وكان أولًا يعلمه، ونادم المكتفي، ثم المقتدر دفعة واحدة، فجال في أفق جديد تفرد بالتوسع فيه.

قالوا: «كان محظوظًا من العلم، مجدودًا من المعرفة، مرزوقًا من التصنيف، حسن التأليف» وأنه «حسن الاعتقاد، جميل الطريقة، مقبول القول»، كان زينة المجالس موصوفًا بظرفه البغدادي، رغب الخلفاء في منادمته، لسعة فضله ولطف عشرته. وقد استبطن أخبار الناس ودوّن كل ظريف روي عنهم، فهو إلى الطرافة فيما دونه من طريف وتالد، يُحْسِن الغناء وسائر فنون الأدب الرفيع، وكان ألعب أهل زمانه بالشطرنج، ويمتاز بعلمه وفقهه وبُعْد نظره. وجميع أدواته هذه تجعله بين أفراد قلائل صلحوا للمنادمة من كبار هذه الأمة، فهو أديب يُحْسِن الكلام والحوار، وليس سلك المنادمة بالشيء السهل، لما يحتاج إليه من آداب تؤيِّدها حافظة وذاكرة وتزيِّنها طلاقة لسان وفضل بيان.

كانت له يد باسطة في نقد الشعر، ونظرٌ ثاقب في تقدير مراتب الشعراء

الإسلاميين والجاهليين، فهو نقَّادة راوية، تقرأ أمثلة من نَقَداته في كتاب الموشَّح لتلميذه المرزباني. أما فيما ينظم، فلم يوفق التوفيق كله، وما نشره له بعض أهل الأدب في كتبهم، فإنما كانت إجادته نسبية بالقياس إلى بقية شعره، وما كان من النوع الذي يرضون عنه. وهو نديمٌ متكلم لا أديب يخلد أدبه، ورُبَّ خطيبٍ لا يجيد الكتابة، وكم من كاتب لا يجيد الخطابة. حاول في كتابه الأوراق أن يأتي بقصائد ذات قوافٍ مستغربة فأبهم وعمَّى، وظهر التكلف على ما قرض.

يقول الصاحب في الكشف عن مساوئ شعر المتنبي: «وهذا الصولي كان كثير الرواية حسن الأدب إلا أنه ساقط الشعر، يقول في كتاب الخلفاء وقد حشاه بشعره: إنما أَثبتُّ شِعري ليعلم الناس أنَّ في زمانهم مَن إن لم يَسْبق البحتري انتصف منه، وليس في الإعجاب بالنفس نهاية.

وفي الصولي شيء من الضعف ظهر في مبالغته في محامد الراضي لأجل عطاياه له، وما كان الراضي بالخليفة التي تهوى إليه النفوس إذا جرى التنظير بينه وبين الممتازين من أسلافه، ومُلْكه لا يتجاوز أسوار مدينة بغداد وحُكْمه أيضًا غير نافذ فيها. وقد رأينا الصولي يستجدي الخليفة ويشكو الزمان والحرمان، ولا يفتأ يقول فلان منحني وفلان حرمني. خُلُقٌ لا يليق أن يتخلَّق به مَنْ يدَّعي أنه من نسل ملوك، وهو على أي حال يعاشر ملوكًا وأمراء ولا يجوع في قربهم مهما عدا عليه الزمان.

تدور موضوعات كتب الصولي على أخبار الطبقات الراقية في عصره وعلى شعرهم وأدبهم وظرفهم، وكتابه «الأوراق» مثال جميل من ذلك. وكذلك أدب الكتاب «ألَّفه فيما يحتاج إليه أعلى الكتاب درجة وأقلهم منزلة» وهو هنا إذا كتب بدا ضعفه، وإذا روى جود النقل. وما خلا الصولي من أناس بهرجوا علمه واستصغروا تآليفه ومنهم ابن النديم، قال إن الصولي عوّل عند تأليفه «الأوراق» على كتاب المرثدي في الشعر والشعراء، أو على كتاب

أشعار قريش، وأنه نقله نقلًا وانتحله. وزعم ابن النديم أنه رأى دستور الرجل في خزانة الصولي بخط المرثدي فافتضح به.

قد يكون الصولي اقتبس أمورًا كثيرة من كتاب الشعر والشعراء أو شعراء قريش أو غيره، لكن ما أتى به من عنده ظاهر، وتعمَّد ابنُ النديم الطعن عليه، يُستنتج من وصفه إياه بأنه «جمَّاعة للكتب»، ولعل ذلك أتى من تنافس الرجلين في اقتناء الأسفار، وابن النديم ورّاق قبل كل شيء. وذكرا أنه كان للصولي بيت عظيم مملوء بالكتب، وهي مصفوفة وجلودها مختلفة الألوان؛ كلُّ صفٍّ من الكتب لون: فصفٌّ أحمر، وآخر أخضر، وآخر أصفر وغير ذلك. وكان الصولي يقول: هذه الكتب كلها سماعي.

ولعل بعضهم يعترض على سلكنا الصولي في عظماء المؤلِّفين، وهو في الواقع منهم لأنه أتى بجديد، ولأنه صورة غريبة من رجال تلك الأيام، فقد جاء حتى في عصره أعظم منه في الحديث وأكبر منه في الأدب، ولكن العبرة بمن يجمع هذه الأدوات في ثقافة ذاك العصر، ويحظى في قصور الخلفاء بتلك المكانة، ولا يضيع ما مر به من الفوائد فيقيدها ويخلِّفها للأجيال بعده تنتفع بها. أما نَقَلَةُ المؤلِّفين عن غيرهم، ولا سيما في الحديث والفقه، فأي مزية لهم إذا لم ينفردوا بأشياء لم يسبقوا إليها، فما أكثر عدد هؤلاء وما أقلّ مَن جمعوا إلى فقههم أدبًا وانتفعوا به ونفعوا، وكان له على الأيام صدى يتناقل فيُطرب ويُعجب.

قصة من مروياته: عن العتابي قال: كنا بباب الفضل بن يحيى البرمكي أربعة آلاف ما بين شاعر وزائر، وفينا فتًى يحدثنا ونجتمع إليه. فبينا هو ذات يومٍ قاعد إذ اقبل إليه غلام له كأجمل الغلمان فقال له: يا مولاي أخرجتني من بين أبويّ وزعمتَ أن لك وصلة بالملوك، فقد صرنا إلى أسوأ ما يكون من الحال وقال: إن رأيت أن تأذن لي فأنصرف إلى أبويّ فعلت، قال فاغرورقت عينا الفتى ثم قال: ائتني بدواة وقرطاس، فأتاه بهما فقعد حجزة

فكتب رقعة، ثم عاد إلى مجلسه ثم قال للغلام: انصرف إلى وقت رجوعي إليك. فبينا نحن كذلك، إذ جاء رجل ليستأذن على الفضل، فقام إليه الفتى فقال: توصل رقعتي هذه إلى الأمير؟ قال: وما في رقعتك؟ قال: أمدح نفسي وأحث الأمير على قبولي. قال: هذه حاجة لك دون الأمير، فإن رأيت أن تعفيني فعلت. قال: قد فعلت. فعاد إلى مجلسه، فخرج الحاجب فقام إليه فقال له مثل مقالته الأولى فاستظرفه الحاجب وقال: إن رجلًا يتصل بمثل الفضل يمدح نفسه لا يمدح الفضل عجيب. فأخذ منه الرقعة ثم دخل فلوحها للفضل، فقرأ منها سطرين وهو مستلق على فراشه، ثم استوى قاعدًا وتناول الرقعة فقرأها فلما فرغ من الرقعة قال للحاجب: أين صاحب الرقعة؟ قال: أعز الله الأمير، لا والله لا أعرفه لكثرة من بالباب. فقال الفضل أنا أنبذه لك الساعة؛ يا غلام اصعد القصر فناد: أين مادح نفسه؟ فقام الغلام فصاح، فقام الفتى من بيننا بغير رداء ولا حذاء، فلما مثل بين يدي الفضل قال له: أنت القائل ما فيها؟ قال: نعم. قال أنشدني: فأنشده الفتى يقول:

أنا من بغية الأمير وكنز ... من كنوز الأمير ذو أرباح
كاتب حاسب خطيب بليغ ... ناصح زائد على النصاح
شاعر مفلق أخف من الريـ ... ـشة مما يكون تحت الجناح

إلى أن قال في قصيدته أنه يروي شعرًا عن ابن هرمة وعلمًا عن ابن سيرين وله في النحو نفاذ، وأنه قادر على منادمة الخلفاء يضطلع بالمهمات، ويعرف أدب المجالسة، وأنه أبصرُ الناس بالجوارح والخيل والنساء، وأن فيه دعابة، وهو غير ماجن إلى آخر ما وصف به نفسه فقال له الفضل:

كاتب حاسب خطيب أديب ... ناصح زائد على النصاح

قال: نعم، أصلح الله الأمير. فقال الفضل: يا غلام، الكتب التي وردت من فارس، فأتى بها، فقال للفتى: خذها فاقرأها وأجب عنها، فجلس بين يدي الفضل يكتب، فقال له الحاجب: اعتزل يكن أذهن لك، فقال: هاهنا

الرأي أجمع، بحيث الرغبة والرهبة، فلما فرغ من الكتب عرضها على الفضل، فكأنما شق عن قلبه.

فقال الفضل: يا غلام بدرة بدرة بدرة، فقال الفتى للغلام: أعز الله الأمير دنانير أو دراهم. قال: دنانير يا غلام. فلما وضعت البدرة بين يديه قال الفضل: احملها بارك الله لك فيها. قال الفتى: والله أيها الأمير ما أنا بحمال، وما للحمل خلقت، فإن رأى الأمير أن يأمر بعض غلمانه بحملها، على أن الغلام لي، فأشار الفضل إلى بعض الغلمان، فأشار الفتى إليه: مكانك. فقال: إن رأى الأمير، أيده الله أن يجعل الخيار إليّ في الغلمان كما فعل بين البدرتين فعل. فقال: اختر، فاختار أجملهم غلامًا فقال: احمل. فلما صارت البدرة على منكب الغلام بكى الفتى، فاستفظع الفضل ذلك وقال: ويلك استقلالًا؟ قال: لا والله، أيدك الله، ولقد أكثرت، ولكن أسفًا أن الأرض تواري مثلك، قال الفضل: هذا أجود من الأول، يا غلام زده كسوة وحملانًا. قال العتابي: فلقد كنت أرى ركاب الفتى تحت ركاب الفضل.

مات الصولي مستترًا بالبصرة لأنه روى خبرًا في علي بن أبي طالب رضي الله عنه فطلبته الخاصة والعامة لتقتله.



(١٤)

# الأشعري

## أبو الحسن علي بن إسماعيل

## (نيف وثلاثون وثلاثمئة)

بصري سكن بغداد إلى أن توفي بها. نشأ من بيت عريق في العلم والفقه والمناظرة والقضاء والفتوى، وأخذ العلم عن أبي علي الجبائي إمام المعتزلة، وتبعه في الاعتزال، وأَلَّف في نصرته والدعوة إليه، وأقام على الاعتزال أربعين سنة حتى صار للمعتزلة إمامًا، ثم تغيَّب في بيته عن الناس خمسة عشر يومًا، وقالوا إنه تاب من القول بالعدل وخلق القرآن، وذلك في المسجد الجامع بالبصرة، رَقِيَ كرسيًا ونادى بأعلى صوته في يوم الجمعة: من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا أعرِّفه بنفسي: أنا فلان بن فلان، كنت أقول بخلق القرآن، وأن الله لا تراه الأبصار، وأن أفعال الشر أَنا أفعلها، وأنا تائب مقلعٌ. وأهل العدل فرقة من أهل التوحيد تقول إن الله إنما خلق الخلق أجمعين لصلاحهم ونفعهم.

قال: معاشر الناس، إنما تغيَّبتُ عنكم هذه المدة لأني نظرت فتكافأت عندي الأدلة ولم يترجَّح شيء على شيء، فاستهديت الله فهداني إلى اعتقاد ما أودعته في كتبي هذه، وانخلعتُ من جميع ما كنت أعتقده كما انخلعت من ثوبي هذا. وانخلع من ثوب كان عليه ورمى به. ودفع الكتب التي ألفها على مذاهب أهل السنة إلى الناس. قالوا إن المعتزلة كانوا قد رفعوا رؤوسهم حتى ظهر بدعوته فجحرهم في أقماع السمسم.

رواية غريبة مثَّلها أبو الحسن تمثيلًا مقبولًا، فاتقى بما أتى صولة العامة،

واستمال قلوبهم وأقنعهم بتوبته عن الاعتزال، ورجوعه عن مذهب لا يخالف ما خرج إليه إلا بما لا بال له. وقد وُفِّق في نزعته الجديدة توفيقًا لم يسبق له مثيل. ولما سلك طريقًا بين النفي الذي هو مذهب الاعتزال وبين الإثبات الذي هو مذهب أهل التجسيم، وناظر على قوله هذا واحتج لمذهبه، مال إليه جماعة وعوَّلوا على رأيه منهم الباقلاني وابن فورك وأبو إسحاق الإسفرايني وأبو حامد الغزالي والشهرستاني وفخر الدين الرازي وغيرهم، ونصروا مذهبه وناظروا عليه وجادلوا فيه واستدلوا له في مصنفات كثيرة، فانتشر مذهبه في العراق من نحو سنة ثمانين وثلاثمئة وانتقل إلى الشام.

يقول ابن خلدون: إن الشيخ أبا الحسن الأشعري إمام المتكلمين توسَّط بين الطرق ونفى التشبيه وأثبت الصفات المعنوية وقَصَرَ التنزيه على ما قصره عليه السلف، وشهدت له الأدلة المخصصة لعمومه، فأثبت الصفات الأربع المعنوية والسمع والبصر والكلام القائم بالنفس بطريق النقل والعقل، ورد على المبتدعة في ذلك كله، وتكلم معهم فيما مهدوه لهذه البدع من القول بالصلاح والأصلح والتحسين والتقبيح، وكمل العقائد في البعثة وأحوال الجنة والنار والثواب والعقاب، وألحق بذلك الكلام في الإمامة لما ظهر حينئذٍ من بدعة الإمامية من قولهم إنها من عقائد الإيمان وإنه يجب على النبي تعيينها والخروج عن العهدة في ذلك لمن هي له وكذلك على الأمة.

تصدى الأشعري للرد على المعتزلة والرافضة والجهمية والخوارج وغيرهم وقيل: إنه صنف خمسة وخمسين تصنيفًا. وقال بعض الباحثين: إنه عدّها أكثر من ثلاثمئة مصنف، وبعضها ردود ونقض أقوال من لا يقول بقولهم من العلماء، وقيل: إنه كان ضعيفًا في التأليف قويًا في المناظرة. والصحيح أنه كان قويًا في كليهما يفيض من علمه على ما يجب ويعرف اجتذاب القلوب إليه، ويهتم لرضا العوام والخواص. صفات يتحتم تحقيقها في صاحب كل دعوة. أما صفاته الشخصية فخير صفات يستطيع بها من أُوتيها استهواء

العقول، فلا ينفر منه أحد ولو خالف رأيه. وما كان فيه جمود بعض العلماء ولا تزمُّتهم وعزوفهم، وكان فيه دعابة ومرح ويحب المزاح كثيرًا.

وأما عيشه فكان مضمونًا لا يحتاج في تحصيله إلى كدٍّ، يأكل من غلة ضيعة وقفها جده بلال بن أبي بُردة بن أبي موسى الأشعري على عقبه، وكانت نفقته كل يوم سبعة عشر درهمًا، وقيل أقلّ من ذلك، أي إنه كان موسَّعًا عليه لا يضطر إلى الرواتب وتولي المناصب بما يقطعه عن غرضه الديني الشريف.

إن في القول بأن أبا الحسن الأشعري بعد أن قضى في مذهب الاعتزال أربعين سنة قد تاب وأناب مجالًا للتفكير الطويل. والمعقول أنه بقي على تراتيب مذهبه الأصلي، وما جاءه الفيض إلا بالأخذ عن أئمة المعتزلة، وما انفتق ذهنه إلا بأصولهم والتشبع بطرائقهم في المناظرة والاجتهاد والتحقيق.

وكتاب الأشعري في «مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين» من أمتع ما كتب عالَمٌ في الكشف عن فرق الإسلام. أخذ بعضه من الكتب المؤلَّفة قبله ونسقه وضمنه آراءه ومنازعه وحشاه بفوائد تاريخية وسياسية، ووصف فيه مسائل علم الكلام واختلاف أرباب المذاهب فيها وصفًا دقيقًا مفهومًا، ومما روى وقائع المطالبين بالخلافة وفصولًا في الإمامة واعتقاد أهل الفرق فيها، وفي الحَكَمَيْن والحُكْم عليهما بما فَعَلا. أطلق في كل ذلك العنان لقلمه حتى إن النبيه المتصفح لكلامه لا يشعر أن الأشعري خالف أصحابه القدماء. وخروجه عن مذهبه الأصلي بعد قضاء أكثر عمره فيه دليل مهارة استوجبها فرط حريته وإخلاصه لدينه.

الأشعري «لم يبدع رأيًا ولم ينشئ مذهبًا، وإنما هو مقرر لمذاهب السلف، مناضل عما كانت عليه صحابة رسول الله، فالانتساب إليه إنما هو باعتبار أنه عَقَدَ على طريق السلف نطاقًا وتمسك به، وأقام الحجة والبراهين، فصار المقتدي به في ذلك، والسالك سبيله في الدلائل يسمى أشعريًا». ولمّا قرب حضور أجله قال لأحدهم: اشهد عليَّ أني لا أكفِّر أحدًا من أهل هذه

القبلة، لأن الكل يشيرون إلى معبودٍ واحدٍ، وإنما هذا كله اختلاف العبارات.
قال ابن عساكر في تبيين كذب المفتري: وحين كثرت المبتدعة في هذه الأمة وتركوا ظاهر الكتاب والسنة وأنكروا ما ورد به من صفات الله ﷻ نحو الحياة والقدرة والعلم والمشيئة والسمع والبصر والكلام، وجحدوا ما دل عليه من المعراج وعذاب القبر والميزان، وأن الجنة والنار مخلوقتان، وأن أهل الإيمان يخرجون من النيران وما لنبينا ﷺ من الحوض والشفاعة، وما لأهل الجنة من الرؤية، وأن الخلفاء الأربعة كانوا محقين فيما قاموا به من الولاية، وزعموا أن شيئًا من ذلك لا يستقيم على العقل ولا يصح في الرأي أخرج الله ﷻ من نسل أبي موسى الأشعري رضي الله عنه إمامًا قام بنصرة دين الله وجاهد بلسانه وبنانه من صد عن سبيل الله.

وللأشعري من الكتب المطبوعة «الإبانة في أصول الديانة» و«استحسان الخوض في الكلام» و«رسالة إلى أهل الثغر بباب الأبواب». وأمتعها «مقالات الإسلاميين». وهو كاتب مجيد، كَتَبَ الشريعة بلسان عذب لا تعقيد فيه حتى ليستدرجك إلى الاعتقاد بعقيدته من حيث لا تدري، والأشعري بما أصدره من الطبعة الأخيرة من آرائه التي وافقت قبولًا من عظماء الملة، وسرت في الأفكار بدون أن تلقى تصادمًا يُعتدُّ به، قد أراح السواد الأعظم من المسلمين بأن عين لهم حدود المعتقدات، فكان واضع أساس مذهب أهل السنة والجماعة، وكان المؤمنون أُزعجوا باختلاف الباحثين.

قالوا كان من الاعتزال ما كان من تفرُّق كلمة الفرق وكان لردّ الفرق بعضها على بعض رواج كثير، ولما تعيَّنت معتقدات التشيع والتسنن وانقرض المعتزلة انقرض بانقراضهم التفكير الحر مع الأسف، وبات البحث في هذه الأمور وقفًا على خاصة الخاصة يدرسونه من باب الاطلاع على الشيء.



(١٥)

# قُدَامَة بن جعفر

## أبو الفرج قدامة بن جعفر بن قدامة بن زياد

(٣٣٧)

سكن أبو جعفر البصرة ثم انتقل إلى بغداد، وكان من أهل الأدب والكتابة وله مصنفات، وتولى بعض الدواوين، وولد ابنه قدامة في بغداد على الأرجح، في أول الربع الأخير من القرن الثالث، ونشأ على النصرانية دين أبيه، وتثقف ثقافة إسلامية، فأحكم اللغة والأدب والفقه والكلام والفلسفة والرياضيات وغلب عليه الأدب واللغة. ثم أسلم على يد الخليفة المكتفي، وتولى في سنة ٢٩٧ بعض الأعمال في دواوين الأموال.

وسكتت الأخبار عن أصل أبي جعفر، والغالب أنه فارسي نزل أبوه أو جدّه العراق، وتمازج بالمسلمين وتعلم من علومهم ما يستعين به على الكتابة والتصنيف. أما ابنه فتلقف علوم الملة الإسلامية شأن كثير من أذكياء العصور ومنهم ابن المقفع وعلي بن رَبَن ثم امتلوا ملة الإسلام عن علم وثقافة.

يقول المسعودي: «إن أبا الفرج قدامة بن جعفر الكاتب كان حسن التأليف، بارع التصنيف، موجز الألفاظ، مقربًا للمعاني، وإذا أردت علم ذلك فانظر إلى كتابه في الأخبار المعروف بكتاب زهر الربيع، وأشرف على كتابه المترْجَم بكتاب الخراج، فإنك تشاهد بهما حقيقة ما ذكرنا، وصدق ما وصفنا». وقال ياقوت: إن قدامة أدرك زمن ثعلب والمبرد وأبي سعيد السكري وابن قتيبة وطبقتهم، والأدب يومئذ طري، فقرأ واجتهد وبرع في صناعتي البلاغة والحساب، ثم قرأ صدرًا صالحًا من المنطق، وهو لائح على ديباجة

تصانيفه، واشتُهر في زمانه بالبلاغة ونقد الشعر. وذكر له أسماء كتب كثيرة ألفها. وقال الخطيب البغدادي: هو من مشايخ الكتَّاب وعلمائهم، وكان وافر الأدب، حسن المعرفة، وله مصنفات في الكتابة وغيرها. وضرب الحريري المثل في مقدمة مقاماته ببلاغة قدامة فقال: وإن المتصدي بعده (أي بعد البديع الهمذاني) لإنشاء مقامة، ولو أُوتي بلاغة قدامة، لا يغترف إلا من فضالته.

شهادات كلها متفقة على تفرُّد أبي الفرج ببلاغته، وشفوف طبعه وغزارة علمه، عُرِف بذلك بين الخواص، واعترف له بمزاياه النادرة جهابذة النقد وأئمة البلاغة، وإن لم يشتهر كثيرًا بين العوام، وهؤلاء لا تستفيض شهرة أحد عندهم إن لم يقرب في تآليفه ودروسه من أفكارهم وتصوراتهم.

وأَهمُّ ما لم يُفْقَد من كتبه كتابه «نقد الشعر» دلَّ فيه على نبوغ وإحاطة، ولو لم يكن من جلال الآداب بالمقام الأعلى ما ناقشه في بعض آرائه في البديع أئمة الأدب بعده أمثال المرزباني في الموشح، والعسكري في الصناعتين، وابن سنان في سر البلاغة، والآمدي في الموازنة بين أبي تمام والبحتري.

أما الكتاب الذي سموه «نقد النثر» ونسبوه إليه فهو مما لم يكتبه، والظاهر أنهم نحلوه إياه. ومن يتأمل عباراته يجدها أشبه بعبارات أهل القرن السادس والسابع، وبلاغته موضع نظر. فقد رأيناه في مقدمة «نقد الشعر» يدخل على موضوعه مباشرة وفي مقدمة «نقد النثر» أسجاع تنادي بأن الكتابين لكاتبين متخالفين في الطريقة والأداء.

وكذلك نشك في نسبة كتاب جواهر الألفاظ الذي عزي إليه.

وفي جريدة تآليفه ذكر لكتاب الألفاظ من تأليفه، وبضعة سطور من مقدمته تحمل الناقد على إلحاق كتاب جواهر الألفاظ بكتاب نقد النثر. قال في كتاب الجواهر وهو «كتاب يشتمل على ألفاظ مختلفة تدل على معان متفقة مؤتلفة،

وأبواب موضَونة، بحروف مسجعة مكنونة، متقاربة الأوزان والمباني، متناسبة الوجوه والمعاني، تونق أبصار الناظرين، وتروق بصائر المتوسمين، وتتسع بها مذاهب الخطاب، وتنفسح معها بلاغة الكتَّاب، لأن مؤلف الكلام البليغ الفصيح، واللفظ المسجع الصحيح، كناظم الجوهر المرصع، ومركب العقد الموشع، يَعُدُّ أكثر أصنافه، ليسهل عليه إتقان رصفه وائتلافه».

أما كتابه «الخراج وصنعة الكتابة»، وهو مما صنفه بعد نحوٍ من عشرين سنة من اشتغاله في دواوين الأموال، فهو نمط آخر من كتابته ليس فيه أثر من آثار السجع ويقل فيه الازدواج. مثال من كتابته في الخراج قوله في ذكر ثغور الإسلام والأمم والأجيال: «الأمم والأجيال المخالفة للإسلام مكتنفة له من جميع أطرافه وغايات أعماله منهم المتقارب من دار مملكته، ومنهم المتباعد عنها. وكانت ملوك الطوائف الذين يملكهم ذو القرنين يؤدون الأتاوة إلى ملك الروم خمس مئة وإحدى عشرة سنة إلى أن جمع أردشير بن بابك المملكة بعد مشقة وطول مجاهدة فمنع حينئذٍ الأتاوة التي كانت الفرس تؤديها إلى الروم، فينبغي ألَّا يكون المسلمون لصنوف أعدائهم أشد حذرًا منهم للروم، وقد جاءت بذلك آيات يظهر بها حقيقة ما قلته، والله الموفق للمصلحة بقدرته».

ونتجوز فننقل جملة أخرى من كلامه من هذا الكتاب أيضًا وهو قوله «ثم نتبع ذلك بوصف أحد أيام الغزوات ليكون علم ذلك محصلًا محفوظًا فنقول إن أجهدها مما يعرفه أهل الخبرة من الثغريين أن تقع الغزاة التي تسمى الربيعية لعشرة أيام تخلو من أيار بعد أن يكون الناس قد أربعوا دوابهم وحسنت أحوال خيولهم فيقيمون ثلاثين يومًا وهي بقية أيار وعشرة من حزيران، فإنهم يجدون الكلأ في بلد الروم ممكنًا وكأن دوابهم ترتبع ربيعًا ثانيًا، ثم يقفلون فيقيمون إلى خمسة وعشرين يومًا وهي بقية حزيران وخمسة من تموز حتى يقوى ويسمن الظهر، ويجتمع الناس لغزو الصائفة، ثم يغزون لعشر تخلو من تموز فيقيمون إلى وقت قفولهم ستين يومًا. فأما الشواتي فإني

رأيتهم جميعًا يقولون: إن كان لا بد منها فليكن مما لا يبعد فيه ولا يوغل، وليكن مسيره عشرين ليلة بمقدار ما يحمل الرجل لفرسه ما يكفيه على ظهره، وأن يكون ذلك في آخر شباط فيقيم الغزاة إلى أيام تمضي من آذار، فإنهم يجدون العدو في ذلك الوقت أضعف ما يكون نفسًا ودواب ويجدون مواشيهم كثيرة ثم يرجعون ويربعون دوابهم».

هذا نمط قدامة في الإنشاء وليس فيه أثر من آثار التكلف غير حسن الصناعة وجمال الأداء. ولقائل أن يقول: ولكن قدامة هنا يقرر حقائق وهناك يكتب أدبًا. فنقول: إن من يدقق يدرك إدراكًا لا تعتوره ريبة أن قائل هذا الكلام لا يرضى لنفسه ذاك التكلف والتعسف.

إن ما أصاب الخزائن من النكبات قضى بأن يضيع القسم الأعظم مما كتبه المؤلفون، وطول الزمن وانتشار الجهل كانا مدعاة على أن تنسب بعض المصنفات إلى غير مصنفيها. ولعل الأمة العربية إذا طبعت كل ما في الشرق والغرب من المخطوطات تصل إلى كشف حقائق تتعذر اليوم الإحاطة بها.



(١٦)

# ابن حِبّان البُسْتِي

## أبو حاتم محمد

(٣٥٤)

عربيٌ اتصل نسبه بإلياس بن مضر، ونُسِبَ في إحدى الروايات إلى دارم ثم إلى تميم بن مر ثم إلى عدنان. نشأ في بُسْت مدينة بين سجستان وغزنين وهراة، لا يعرف عن نشأته إلا ما قالوه من أنه كان مكثرًا من الحديث بالرحلة والشيوخ، وأنه سمع الحديث من خلائق في خراسان والعراق والحجاز والشام ومصر والجزيرة وغيرها، وقال في بعض كتبه: ولعلنا كتبنا عن ألف شيخ ما بين الشاش والإسكندرية.

وَلِيَ قضاء سمرقند ثم قضاء نَسَا وغيرها، ثم صُرِف من القضاء بدعوى أنه زعم أن النبوات علم وعمل، وأنه صنف لأبي الطيب المصعبي كتابًا في القرامطة. وقال بعضهم: إن له أوهامًا أُنكرت عليه، وأنه طُعن عليه بهفوة منه بدرت، ولها محل لو قبلت. وقيل إن الخليفة قتله بدعوى أنه يعرف بعض العلوم الرياضية وهو في الثمانين من عمره! وقيل مات حتف أنفه. والأرجح أن كتابه في القرامطة حمل أفكارًا لا يرضاها السلطان فنقموا منه ما كتب، فكان مقتله سياسيًا.

كان البستي عالمًا بالمتون والأسانيد، أخرج من علوم الحديث ما عجز عنه غيره، وصحيحه فيه أصحُّ من سنن ابن ماجه، وكانت الرحلة بخراسان إلى مصنفاته، لأنه أدرك الأئمة والعلماء والأسانيد العالية، وكان وعاء من

أوعية العلم في اللغة والفقه والحديث والوعظ، عارفًا بالطب والنجوم والكلام، عاقلًا ألمعيًا وكاتبًا لوذعيًا.

وذكر العارفون أن من الكتب التي تكثر منافعها إن كانت على قدر ما ترجمها به واصفوها مصنفات أبي حاتم؛ وهي في الحديث، ومناقب الأئمة، والعلوم وأنواعها، والهداية إلى علم السنن. وقد سبّلها ووقفها وجمعها في دار رسمها بها جعلها لأصحابه، وبنى مسكنًا للغرباء الذين يقيمون بها من أهل الحديث والمتفقهة، وجعل لهم جرايات يستنفقونها داره. وأوصى وصيّه أن تبذل كتبه لمن يريد نسخ شيء منها من غير أن يخرجها من دارها. وتشتت كتبه مع «تطاول الزمان وضعف السلطان واستيلاء ذوي العيث والفساد على تلك البلاد وجهل أهلها، فلم تعاوَر بالنسخ» فضاع أصلها ولم يكثر فرعها.

لم نعرف إن كان طبع لابن حبان شيء من كتبه المحررة في العلم الذي اشتُهر به في القاصية والدانية، وغاية ما طبع له كتاب «روضة العقلاء ونزهة الفضلاء»؛ وهو كتاب بديع قسمه إلى زهاء خمسين مطلبًا، ابتدأ كل مطلب بحديث وأتبعه بما قصد بيانه، ووشاه بشواهد كثيرة من الشعر وغيره، بحيث يستفيد منه الكبير والصغير، ويتأدب به الأمير والأجير، ويغني غناءه في تربية الرجال والنساء، ببيان معجب وتنسيق جاءت معه فصوله ذات حجم واحد، متوازية الفائدة آخذة من الحسن والإحسان بأوفر نصيب.

ابن حبان ينقل الشعر والنثر بالرواة على أصول المحدثين. ومنظومه طبقة يتنافس فيها، ثم يأتي من عنده بكلام يدل على بعد غوره ولطف أدائه، وقد يورد في بعض الفصول قصصًا تروق وتعلّم، ويخاطب العقل وما يجدر بصاحبه عمله «لأن من جاوز الغاية في كل شيءٍ صار إلى النقص، ولا ينفع العقل إلا بالاستعمال، كما لا تنفع الأعوان إلا عند الفرصة، ولا ينفع الرأي إلا بالانتحال، كما لا تتم الفرصة إلا بحضور الأعوان».

قال: أنشدني عبد الرحمن بن محمد المقاتلي:

فمن كان ذا عقل ولم يك ذا غنى    يكون كذي رجل وليست له نعل
ومن كان ذا مال ولم يكن ذا حجًى    يكون كذي نعل وليست له رجل

ومما حكاه قال: سمعت إسحاق بن أحمد القطان البغدادي بتستر يقول: كان لنا جار ببغداد كنا نسميه طبيب القراء، كان يتفقد الصالحين ويتعاهدهم، فقال لي: دخلت يومًا على أحمد بن حنبل فإذا هو مغموم مكروب فقلت: مالك يا أبا عبد الله. قال: خير. قلت ومع الخير، قال: امتُحنت بتلك المحنة حتى ضُربت ثم عالجوني وبَرَأْت، إلا أنه بقي في صلبي موضع يوجعني، هو أشد عليَّ من ذلك الضرب. قال: قلت اكشف لي عن صلبك: قال: فكشف لي فلم أر فيه إلا أثر الضرب فقط. فقلت: ليس لي بذي معرفة، ولكن سأستخبر عن هذا. قال: فخرجت من عنده حتى أتيت صاحب الحبس، وكان بيني وبينه فضل معرفة، فقلت له: أدخل الحبس في حاجة؟ قال: ادخل. فدخلت وجمعت فتيانهم، وكان معي دريهمات فرقتها عليهم، وجعلت أُحدثهم حتى أَنِسُوا بي. ثم قلت: من منكم ضرب أكثر؟ قال: فأخذوا يتفاخرون حتى اتفقوا على واحد منهم أنه أكثرهم ضربًا وأشدهم صبرًا. قال: فقلت له: أَسالك عن شيء؟ قال: هات. فقلت: شيخ ضعيف ليس صناعته كصناعتكم وضُرب على الجوع للقتل سياطًا يسيرة، إلا أنه لم يمت، وعالجوه وبرأ، إلا أن موضعًا في صلبه يوجعه وجعًا ليس له عليه صبر. قال: فضحك، فقلت: مالك؟ قال الذي عالجه كان حائكًا. قلت: إيش الخبر؟ قال: ترك في صلبه قطعة لحم ميتة لم يقلعها، قلت: فما الحيلة؟ قال: يُبطُّ صلبه وتؤخذ تلك القطعة ويُرمى بها، وإن تُركت بلغت إلى فؤاده فقتلته. قال: فخرجت من الحبس فدخلت على أحمد بن حنبل فوجدته على حالته، فقصصت عليه القصة، قال: ومن يبطه؟ قلت أنا، قال: أَو تفعل؟ قلت: نعم، قال: فقام ودخل البيت ثم خرج وبيده مخدتان وعلى كتفه فوطة، فوضع إحداهما لي والأخرى له ثم قعد عليها وقال: استخر الله فكشفت الفوطة عن صلبه وقلت:

أرني موضع الوجع قال: ضع إصبعك عليه فإني أُخبرك به، فوضعت إصبعي وقلت: هاهنا موضع الوجع؟ قال: هاهنا أحمد الله على العافية. فقلت: هاهنا قال: هاهنا أحمد الله على العافية. فقلت هاهنا قال: هاهنا أسأل الله العافية. قال: فعلمت أنه موضع الوجع، قال: فوضعت المبضع عليه فلما أحسن بحرارة المبضع وضع يده على رأسه وجعل يقول: اللهم اغفر للمعتصم، حتى بططته. فأخذت القطعة الميتة ورميت بها وشددت العصابة عليه، وهو لا يزيد على قوله: اللهم اغفر للمعتصم. قال: ثم هدأ وسكن ثم قال: كأني كنت معلقًا فأحدرت. قلت: يا أبا عبد الله إن الناس إذا امتحنوا محنة دعوا على من ظلمهم ورأيتك تدعو للمعتصم. قال إني فكرت فيما تقول، وهو ابن عم رسول الله ﷺ فكرهت آتي يوم القيامة وبيني وبين أحد من قرابته خصومة، وهو مني في حلّ.

ومن حكاياته، وحكاياته على الأَغلب ذات مغزى سياسي واجتماعي: أنبأنا محمد بن صالح الطبري بالضيْمَرة، حدثنا محمد بن عثمان العجلي قال: لما حدث شريك بحديث الأعمش، عن سالم بن ثوبان: أن النبي ﷺ قال: «استقيموا لقريش ما استقاموا لكم، فإذا خالفوكم فضعوا سيوفكم على عواتقكم فأبيدوا خضراءهم، فإن لم تفعلوا فكونوا زراعين أشقياء». سُعي به على المهدي فبعث إلى شريك فأتاه، فقال: حدثت بها؟ قال: نعم. قال: عمن رويتها؟ قلت: عن الأعمش. قال: ويلي عليه لو عرفت مكان قبره لأخرجته فأحرقته بالنار. قلت: إنه كان مأمونًا على ما يروي. قال: يا زنديق لأقتلنك. قلت: الزنديق من يشرب الخمر ويسفك الدم. قال: والله لأقتلنك. قلت: أو يكفي الله؟ قال: فخرجنا من عنده فاستقبلني الفضل بن الربيع فقال: ليس لك موضع تهرب إليه؟ قلت: بلى، قال: فإنه أمر بقتلك قال: فخرجت إلى جُبّل. وخرجت يومًا أتجسس الخبر فأقبل ملاح من بغداد فاستقبله ملاح آخر من البصرة، فسأله ما الخبر؟ قال: مات أمير المؤمنين. قلت: يا ملاح

قرِّب، فقرَّب. وفي هذه القصة إشارة إلى ظلم العباسيين، وفي أقل منها كانوا يستبيحون إهلاك الناس، ولذلك ما كان ابن حبان من المرضيّ عنهم في بلاط بغداد على ما يظهر. وما أغناه انطواؤه على علم غزير وخير كثير. أفاد الأمة من كل وجوه الاستفادة فما نال منها إلا كفر ما أسدى وغمط ما أجدى.



(١٧)

# أبو الفرج الأصفهاني

## علي بن الحسين

(٣٥٦)

قيل: إنه من ولد هشام بن عبد الملك، وساق ياقوت نسبه هكذا: علي بن الحسين بن عبد الرحمن بن مروان بن عبد الله بن مروان بن محمد بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف. ولد في أصفهان، وأخذ العلم في بغداد عن ابن دريد وابن الأنباري والجمحي والأخفش ونفطويه، وكتب عليه أن ينتقل في البلاد، وانتهى إلى أن أصبح من ندماء الوزير المهلبي، ووصل إلى سيف الدولة بن حمدان. ووصفه ياقوت بالعلَّامة النسَّابة الأخباري الحُفَظَة الجامع بين سعة الرواية والحذق في الدراسة. قال: لا أعلم لأحد أحسن من تصانيفه في فنها وحسن استيعاب ما يتصدى لجمعه. وكان مع ذلك شاعرًا مجيدًا.

وذكر التنوخي أنه كان يحفظ من الشعر والأغاني والأخبار والآثار والأحاديث المسندة والنسب ما لم يحفظ مثله أحد، ويحفظ دون ذلك من علوم أخر؛ منها: اللغة والنحو والخرافات والسير والمغازي، ومن آلة المنادمة شيئًا كثيرًا مثل: علم الجوارح والبيطرة ونُتَف من الطب والنجوم والأشربة وغير ذلك، وله شعر يجمع إتقان العلماء وإحسان الظرفاء والشعراء.

كتب المؤلف مصنفات كثيرة أجاد فيها، وأجلُّها كتاب الأغاني جمع فيه الأصوات القديمة وما قيل فيها وتراجم الأدباء والشعراء وأخبار الحضارة

والعلم بما لم يُكْتب لكثيرين أن يجيدوا فيه؛ فالأغاني كتبٌ كثيرة في كتاب، انتفع به كلُّ مؤلِّف وكلُّ أديب وكل شاعر وكل ناثر على اختلاف العصور، ولو قد كُتِب له الضياع لَفَقَدَ الأدب العربي بفقده أعظم جزء منهم. ومن عظمة هذا الكتاب أن فيه أخبارًا اقتبسها من كتب لم تصل إلينا، وقد حَمَّله أشعارًا وقصصًا من الأدب المكشوف لا تروق الإفرنج طريقتها، وتلاهم العرب لعهدنا في الاشمئزاز من كَتْبِها وتلاوتها وإنشادها.

وقد استغرب مَن ترجموا لأبي الفرج بأنه كان على نزعة شيعية مع أنه أُموي من صميم بني أُمية. والغالب أن بيئته أوحت إليه ذلك، وكانت بعض الكتب التي اعتمد عليها من مؤلفات الشيعة. وقيل: إنه كان يؤلِّف بعض الكتب ويرسلها إلى ذوي قرباه من الأمويين في الأندلس ويجيزونه عليها سرًّا. وهذا كتابه الأغاني أهداه لسيف الدولة بن حمدان وهو شيعي، فأجازه عليه بألف دينار، وبلغ الصاحب بن عباد فقال: لقد قصر سيف الدولة، وأنه يستأهل أضعافها، ووصف الكتاب فأطنب ثم قال: ولقد اشتملت خزانتي على مئتين وستة آلاف مجلد ما منها ما هو سميري غيره ولا راقني منها سواه. قال أبو محمد المهلبي: سألت أبا الفرج في كم جمعت هذا الكتاب؟ فقال: في خمسين سنة. قال ياقوت: «ولعمري إن هذا الكتاب لجليل القدر، شائع الذكر، جمّ الفوائد عظيم العلم، جامع بين الجد البحت، والهزل النحت».

جمع الأصفهاني كتابه مِن كتب مَن سبقوه إلى خوض هذه الموضوعات ومن دواوين الشعر والخطب والأخبار ما عزَّ على غيره استيفاء مثله. جمعه بذوق عال شفافٍ حتى لينسى قارئه أن أبا الفرج جمّاعة قلَّ أن يأتي بشيء من عنده، وإذا أتى به كان من الجيِّد الممتع، لا يخرج كتابه عن منهاجه ولا يحيد عن ترتيبه. وأسلوبه السهل الممتنع في الكتابة، وربما كان كاتبًا أكثر منه شاعرًا، وإن نَسَبَ المؤلِّفون إليه الشعر ووصفوه بالجودة. فالأغاني مفخرةُ لغة العرب لو اقتصر متأدِّبٌ عليه لجاء منه أول أديب؛ لأنه يظفر فيه بأرقِّ الشعر

وأجزل الخطب إلى ما هناك من أخبار وطُرَف وسِيَر ومجالس وبدائع كتبها بحرية ظاهرة، وما عمد إلى شيء من التَّقِيَّة في تقييدها وتدوينها.

نقل صاحب الوافي عن الشيخ شمس الدين قال هذا: رأيت شيخنا ابن تيميّة يضعفه ويتهمه في نقله ويستهول ما يأتي به، وما علمت فيه جرحًا إلا قول ابن أبي الفوارس أنه خلط قبل أن يموت. وقد أثنى على كتابه الأغاني جماعةٌ من جلَّة الأدباء انتهى. قال ابن غرس الموصلي كتب إليّ أبو تغلب بن ناصر الدولة يأمرني بابتياع كتاب الأغاني فابتعته له بعشرة آلاف درهم، فلما حملته إليه ووقف عليه قال: لقد ظُلم ورّاقة المسكين، وإنه ليساوي عشرة آلاف دينار، ولو فُقِدَ ما قدرت عليه الملوك إلا بالرغائب، وأمر أن يكتب له به نسخة أخرى.

ورموا أبا الفرج بأنه كان مستهترًا في سيرته، شأن بعض الندماء في العصر العباسي. وكيف يمتنع النديم عن أشياء حظرها العرف والشرع وهي معروضة عليه كل ساعة وبها قد ينفق على مخدومه. وكما أوصلته بيئته الأصلية إلى القول بالتشيع لأهل البيت وهو من أُسرة منافسة لهم، ساقته الندامة على ارتكاب أمور كان يعفُّ عنها لو لم يصل إلى تلك المجالس والملاهي، ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه.

ثم إن من الطبيعي أن يرجع من يكتب كتاب «مقاتل الطالبيين» إلى مصادرهم ويرشح فكره من أفكارهم، وكما أن مَن يتوسَّع في الترجمة لأبي نواس وينقل شعره العاهر بدون حرج يحكم على المؤلف أنه كان في كتاب «مقاتل الطالبيين» شيعيًّا جلدًا[1] وفي الشعر النواسي خليعًا ماجنًا. وكتاب الأغاني على أيِّ حال مَعْلَمةُ أدب، أو أكبر مَعْلَمَةٍ في أدب العرب، لا يستغني عنه كاتب ولا مؤلف ولا تلميذ ولا أستاذ. كتبه مؤلفه في السنين الطويلة،

---

(١) يقول صديقي الأستاذ المحقق شفيق جبري إنه أمعن النظر كثيرًا في كتاب الأغاني فرأى أن أبا الفرج لم يكن متعصبًا في تشيعه.

كتبه، في خمسين سنة، ولم يدَّخر وسعًا في تجويده، فجاء كما أراد هو وأراد الأدب، وحاول بعض المتزمِّتين اختصاره فما أتوا بكبير أمر، وبقيت قلوب الدارسين والمتلهين لا تَعَلُّق لها بغير قراءة الأصل والاعتماد عليه.

أُلِّف كتاب الأغاني في عصرٍ نضجت فيه الآداب نضجًا لم يتيسر لها في القرون التالية أَن وُفقت إلى أكثر منه، فهو بلغته السامية ومادته الواسعة من النمط العالي، وفي جودة تأليفه المثل السائر بين المؤلفات. صرف مؤلفه في تصنيفه نقد عمره، فخلد اسمه تخليدًا لم يبلغه من أَلَّفوا مجلداتٍ أكثر من مجلداته، ذلك لأن هؤلاء كتبوا برؤوس أناملهم من حاضر الوقت، وكتاب أبي الفرج كتبه بتحقيقه وجمال ذوقه وخلع على ما جمع حلة شائقة من ظرفه. ومجموع هذا دلّ على نبوغٍ تفرَّد به في هذا الباب من دون أكثر المؤلفين، ومثل هذا التأليف إذا أرادت أمة عظيمة من أمم الحضارة الحديثة أن تخرجه للناس لا يعمل فيه أقل من خمسين عالمًا مختصًا في فنه، وأبو الفرج عمل وحده، وكان نسيج وحده؛ فالأغاني كنز من كنوز الأجداد ومفخرة الآباء والأبناء والأحفاد.

ومما روي من شعره ما قاله في هجو المهلبي:

أبعين مفتقر إليك رأيتني بعد الغنا فرميت بي من حالق
لست الملومَ أنا الملوم لأنني أمَّلتُ للإحسان غير الخالق

ومنه:

حَضَرْتُكم دهرًا وفي الكُمِّ تحفةٌ فما أَذِن البوابُ لي في لقائكم
إذا كان هذا حالكم يوم أَخْذِكم فما حالُكم تالله يوم عطائكم

وذكروا أن صاحب الأغاني كان كاتبًا لركن الدولة حظيًّا عنده محتشمًا له، وكان يتوقع من الرئيس أبي الفضل بن العميد أن يكرمه ويبجله ويتوفر عليه في دخوله وخروجه وعَدِمَ ذلك منه فقال:

مالُكَ موفورٌ فما بالُه أَكْسَبَكَ التِّيهَ على المُعْدِمِ

ولِمْ إذا جئتَ نهضنا وإن جئنا تطاولت ولم تُتْمِمِ
وإن خرجنا لم تقل مثل ما نقول: «قدم طرفَهُ قدّمِ»
إن كنتَ ذا علم فمن ذا الذي مثل الذي تعلم لم يعلمِ
ولستَ في الغارب من دولة ونحن من دونك في المَنْسمِ
وقد وَلِينا وعُزِلنا كما أنت فلم نَصْغُر ولم نَعْظُمِ
تكافأتْ أحوالُنا كلُّها فَصِلْ على الإنصاف أو فاصْرِمِ

وقد روى أبو حيان في كتاب الوزيرين من تصنيفه في خبر هذه الأبيات غير هذا ومن قوله في المهلبي:

ولما انتجعنا عائذين بظلِّهِ أعانَ وما عنّى ومَنَّ وما منَّا
وَرَدنا عليه مُقْترين فَراشَنَا ورُدْنا نداه مُجدبين فأَخصبنَا

وله من قصيدة يستميحه:

رهنت ثيابي، وحال القضاء دون القضاء، وصد القدر
وهذا الشتاء كما قد ترى عسوف عليَّ قبيح الأثر
يغادي بصرٍّ من العاصفا ت أو دمقٍ مثل وخز الإبر
وسكان داري ممن أعو ل يلقين من برده كل شرّ
فهذي تَحِنُّ وهذي تَئِنُّ وأدمع هاتيك تجري درر
إذا ما تململن تحت الظلام تعللن مِنك بحسن النظر
ولاحظن ربعك كالممحلين شاموا البروق رجاء المطر
يؤملن عودي بما ينتظرن كما يرتجى آيبٌ من سفر

شعر لطيف، ولكنه بعيد عن عزة النفس، ما كان يليق صدوره من مثله.

(١٨)

# القاضي علي بن عبد العزيز

(٣٦٦)

لم نعرف شيئًا عن حياة أبي الحسن علي بن عبد العزيز في طفولته وشبابه، وغاية ما ترجموا له أنه ولد في جرجان، وأخذ العلم عن بعض علماء نَيْسابور، وطَوَّف في العراق والشام، واشتهر في أنواع العلوم والآداب، وأنه تولى القضاء، وآخر منصب تولاه قاضي قضاة الريّ. واتصل بالصاحب بن عَبّاد الوزير الأديب، فكان لا يفارقه مقيمًا وظاعنًا ويقول: إنه من أفراد الدهر في كل قسم من أقسام الأدب والعلم. وقالوا: إنه كان حسن السيرة صدوقًا في قضائه، يقضي ويفتي على مذهب الشافعي وهو كصاحبه الصاحب معتزلي الرأي والمذهب. وكان أكثر أهل بلده جرجان في عصره حنفية والباقون شفعوية، وللشيعة فيها جلبة وتقع فيها عصبيات على المذاهب.

كان القاضي علي بن عبد العزيز يجمع خطَّ ابن مُقلة إلى نثر الجاحظ ونظم البُحْتُري، فهو إمام في الصناعتين، وإمام في الفقه عظيم، ومؤرخ حجة ثبت، وقد ألّف في الفقه والتاريخ كما ألف في الأدب والشعر، فهو غزير الفضل صحيح الحجة وديع النفس، تامُّ المروءة جمُّ الوفاء، سلمت يده من الرشا، ونفسه من الدنايا، وعرف كيف يقيم العدل، ويذهب بعموم الفضل.

لا نعلم أي الملكتين كانت أقوى في القاضي ابن عبد العزيز الشعر أم النثر؟ ولا أي الفضيلتين أرسخ في قلبه العلم أم العمل؟ وشعره سلس قرضه قصائد ومقطَّعات ولا سيما في الغزل، ونثره السهل الممتنع. وما تُنوقل شعره

القرن بعد القرن إلا لما فيه من حكم شائقة تتذوقها النفوس؛ وَنَدر أن يظفر بمثلها في كثير من دواوين الشعراء. وما كان لشعره طابعه الخاص إلا لأنه صورة من أخلاقه، ومنزع من منازعه في الحياة، ومما قال في وصف الشعر:

وما الشعر إلا ما استقر ممدحًا وأطرب مشتاقًا وأرضى مغاضبا
أطاع فلم توجد قوافيه نُفّرًا ولم تأته الألفاظ حسرى لواغبا

ومن شعره ما جرى مجرى الأمثال، لأنه حوى إبداعًا ليس لغيره مثله، قصيدته المشهورة التي يجب على كل من اتخذ العلم صناعة أن يجعلها دستورًا يسير عليه في حياته وهي:

يقولون لي فيك انقباض وإنما رأوا رجلًا عن موقف الذل أحجما
أرى الناس من داناهم هان عندهم ومن أكرمته عزة النفس أُكرما
ولم أقض حق العلم إن كان كلما بدا طمع صيرته ليَ سُلّما
وما زلت منحازًا بعرضي جانبًا من الذلِّ أعتدُّ الصيانة مغنما
إذا قيل هذا منهل قلت قد أرى ولكن نفس الحر تحتمل الظما
أُنزهها عن بعض ما لا يَشينها مخافة أقوال العِدا فيمَ أولِمَا
فأصبح عن عيب اللئيم مُسَلّما وقد رحت في نفس الكريم معظما
وإني إذا ما فاتني الأمر لم أبت أُقَلِّب فكري إثره متُنَدّما
ولكنه إن جاء عفوًا قبلته وإن مال لم أُتبعه هَلَّا وليتما
وأقبض خُطوي عن حظوظ كثيرة إذا لم أنلها وافر العِرض مكرما
وأُكرم نفسي أن أُضاحك عابسًا وأن أَتلقى بالمديح مذمما
وكم طالب رقي بنعماه لم يصل إليه وإن كان الرئيس المعظما
وكم نعمة كانت على الحر نقمة وكم مغنم يعتده الحر مغرما
ولم أبتذِل في خدمة العلم مهجتي لأخدم من لاقيت لكن لأُخدما

أأَشْقى به غرسًا وأجنيه ذلةً … إذًا فاتباع الجهل قد كان أحزما
ولو أن أهل العلم صانوه صانهم … ولو عظَّموه في النفوس لعظما
ولكن أهانوه فهان ودنسوا … محياه بالأطماع حتى تجهّما
وما كل برق لاح لي يستفزني … ولا كل من في الأرض أَرضاه منعما
ولكن إذا ما اضطرني الضر لم أبت … أُقلب فكري منجدًا ثم متهما
إلى أَن أرى ما لا أغصُّ بذكره … إذا قلت قد أسدى إليَّ وأنعما

ومن مقطعاته:

ما تطعمت لذة العيش حتى … صرت للبيت والكتاب حَليسا
ليس شيء أعزَّ عندي من العـ … ـلم فلا تبتغي سواه جليسا
إنما الذل في مخالطة النا … س فدعهم وعش عزيزًا رئيسا

وقال:

وقالوا اضطرب في الأرض فالرزق واسع … فقلت ولكن مطلب الرزق ضيق
إذا لم يكن في الأرض حُرٌّ يعينني … ولم يكُ لي كسب فمن أين أُرزق

وقال:

وقالوا توصلْ بالخضوع على الغنى … وما علموا أَن الخضوع هو الفقر
وبيني وبين المال بابان حَرَّما … عليَّ الغنى نفسي الأبيةُ والدهر

وهذا من الشعر الذي يُشعر بعظم نفس صاحبه، ولم يتناقل شعره في الغزل والمديح على رقته تناقل شعر المجيدين مثله، ولكن هذه المعاني وهذه الحكم عَزَّت في شعر الشعراء فأصبحت كَحِكَمِ المتنبي من خير ما حمله ديوانه.

أما نثره فهو مرسل على الأغلب، تقرأ صفحاتٍ بارعةً منه في كتابه الوساطة بين المتنبي وخصومه في شعره. ومثله جدير بأن يدافع عن شعر شاعر

عظيم، وهو شاعر يعرف من أين تؤكل الكتف، يعرف بعلمه وتوسعه في صناعة الكتابة؛ كيف يورد حججه ويصدرها بهذا البيان المرقص المطرب. والسبب في دفاع القاضي أبي الحسن عن المتنبي أن الصاحب بن عباد لما عمل رسالته في إظهار مساوي المتنبي عمل هو كتاب الوساطة، ولم تمنعه صلته بالصاحب عن رده عليه، وما حالت الصداقة دون تزييف رأيه، والحق أولى بالصداقة من كل صديق.

وفي هذا الكتاب كما قال الثعالبي «أحسن وأبدع وأطال وأطاب، وأصاب شاكلة الصواب، واستولى على الأمد في فصل الخطاب، وأعرب عن تَبَحُّرِهِ في الأدب، وعلم العرب، وتمكنه من جودة الحفظ وقوة النقد». وكتاب الوساطة من أجمل كتب النقد العربي لا نعرف له مثيلًا قبله، وكأنه تنبأ بطرق الغربيين في نقدهم في العصور المتأخرة، وأوضح لهم المنهاج فساروا عليه وتوسعوا فيه. رد في كتابه أجمل رد على من تحاملوا على المتنبي، وأسقطوه بغير حق. وعرض فيه لجمال هذا الشعر وإبداعه وحِكَمِهِ وبدائعه، وما تأخر عن إيراد ما يرذل من شعره. ومما قال فيه: «وقد تجد كثيرًا من أصحابك ينتحل تفضيل ابن الرومي ويغلو في تقديمه، ونحن نستقرئ القصيدة في شعره، وهي تناهز المئة أو تربي أو تُضعِّف، فلا نعثر فيها إلا بالبيت الذي يروق أو البيتين ثم قد تَسْنَحُ قصائد منه وهي واقعة تحت ظلها جارية على رِسلها لا يحصل السامع منها إلا على عدد القوافي وانتظار الفراغ، وأنت لا تجد لأبي الطيب قصيدة تخلو من أبيات تُختار ومعان تُستفاد، وألفاظ تروق وتعذب، وإبداع يدل على الفطنة والذكاء، وتصرُّف لا يصدر إلا عن غزارة واقتدار. ولو تأملت شعر أبي نُوَاس حق التأمل، ثم وازنت بين انحطاطه وارتفاعه، وعددت منفيّه ومختاره، لعظَّمت من قدر صاحبنا ما صغَّرت، ولأكبرت من شأنه ما استحقرت، وعلمت أنك لا ترى لقديم ولا محدث شعرًا أعم اختلالًا، وأقبح تفاوتًا وأبين اضطرابًا، وأكثر سفسفة،

وأشد سقوطًا من شعره، هذا وهو الشيخ المقدَّم، والإمام المفضَّل، الذي شَهِدَ له خَلَف وأبو عبيدة والأصمعي، ونشر ديوانه الكميت، فهل طمست معايبُه محاسنَه، وهل نقص رديئُهُ من قدر جيده؟

وتلطَّفَ واحتاط قائلًا إنه لم يدَّعِ الإحاطة بشعر الأوائل والأواخر، بل لم يزعم أنه نصفه سماعًا وقراءة. قال وإنما أجسر في الوقت بعد الوقت فأقدم على هذا الحكم انقيادًا للظن، واستنامة إلى ما يغلب على النفس، فأما اليقين الثقة والعلم والإحاطة فمعاذ الله أن أدعيه، ولو أدعيته لوجب ألَّا تقبله مع علمك بكثرة الشعراء، واختلاف الحظوظ وخمول أكثر ما قيل، وضياع جُلِّ ما نقل، وأظنك قد سمعت وانتهى إلى علمك أن البحتري أسقط خمسمئة شاعر في عصره فما يؤمنني من وقوع بعض أشعارهم إلى غيري وما يدريني ما فيها».

وقال فيما ندعوه اليوم بالذوق الأدبي: «وأنا أعدل إلى ذكر ما رأيتك تنكر من معانيه وألفاظه، وتَعِيب من مذاهبه وأغراضه وتُحِيل في ذلك الإنكار على حجة أو شبهة، وتعتمد فيما تعنيه على بينة أو تهمة إذا كان ما قدمت حكايته عنك، وما عددته من مطاعنك وأثبته من الأبيات التي استقطعتها وملت على هذا الرجل لأجلها من باب ما يمتحن بالطبع لا بالفكر، ومن القسم الذي لا حظَّ فيه للمحاجة ولا طريق له إلى المحاكمة، وإنما أقصى ما عند عايبه وأكثر معارضه أن يقول فيه جهامة سلبته القبول، وكزازة نفرت عنه النفوس، وهو خال من بهاء الرونق، وحلاوة المنظر، وعذوبة المسمع، ودماثة النثر، ورشاقة المعرض، قد حمل التعسف على ديباجته، واحتكم التعمُّل في طلاوته. وخالف التكلف بين أطرافه، وظهرت فجاجة التصنع في أعطافه، واستهلك التعقيد معناه، وقيد العويص مراده، وهذا أمر تستخبر به النفوس المهذبة، وتستشهد عليه الأذهان المثقفة. وإنما الكلام أصوات محلها من الأسماع محل النواظر من الأبصار، وأنت قد ترى الصورة تستكمل شرائط

الحسن، وتستوفي أوصاف الكمال، وتذهب في الأنف كل مذهب، وتقف من التمام بكل طريق، ثم تجد أخرى دونها في انتظام المحاسن، والتئام الخِلْقة، وتناصف الأجزاء، وتقابل الأقسام، وهي أحظى بالحلاوة، وأدنى إلى القبول، وأعلق بالنفس، وأسرع ممازجة للقلب...».

وقاضينا هذا كان مؤرخًا أيضًا كما قلنا، اختصر تاريخ الطبري. ومما كتب في خطبة كتابه تهذيب التاريخ «لولا التاريخ لما تميز ناسخ من منسوخ، ومتقدم من متأخر، وما استقر من الشرائع، وثبت مما أُزيل ورفع، ولا عرف ما كان أسبابها، وكيف مست الحاجة إليها، وحصلت وجوه المصلحة فيها، ولا عرفت مغازي رسول الله وحروبه وسراياه وبعوثه، ومتى قارب ولاين وسارر وخافت، وفي أي وقت جاهر وكاشف، ونبذ أعداءه وحارب، وكيف دبر أمر الله الذي ابتعثه له، وقام بأعباء الحق الذي طوقه نقله، وأي ذلك قدَّم وأيها أَخر، وبأيها بدأ وبأيها ثنَّى وثلَّث، وإن الولد البر ليتفقد ذلك من آثار والده، والصاحب الشفيق ليعنى بمثله من شأن صاحبه الخ...».

هذا ما عُرِفَ من حال القاضي العظيم، والمجال لا يتسع لإيراد شواهد من كلامه، وفي كتاب الوساطة نموذج مهم يرجع إليه من شاء.



(١٩)

# البَلَوِيّ

## أبو محمد عبد الله بن محمد بن عُميْر بن محفوظ المديني البلوي

### (الثلث الثاني من القرن الرابع)

قبيلة بَلِيّ (كرضيّ وعليّ) فرع من قضاعة ينتهي نسبها إلى قحطان. ومنازل بَلِيّ اليوم في الوجه من أرض الحجاز، جاء منها الصحابة والتابعون والعلماء والفصحاء والقواد. وكانت بلي في الشام فنادى رجل منها: يالَ قضاعة! فبلغ ذلك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فكتب إلى عامل الشام أن يسير ثلث قضاعة إلى مصر فتفرقت بلي في أرضها. وبَلَوِيُّنا كما فُهِمَ من نسبه حجازيّ، وكما يُفْهَم من تأليفه مصريّ، والأرجح أنه نشأ في مصر إن لم يكن ولد فيها.

وصفوه بأنه عالم فقيه واعظ، ولم يصفوه بأنه مؤرخ مع اعتراف معاصريه له بهذه الصفة. وطعن عليه أهل السنة والشيعة بأنه وضَّاع للأحاديث كذاب. ولعله نقل أحاديث لتأييد دعوته، وهو أقرب إلى أن يكون إسماعيليًا سبعيًا، وإن كان مذهبه محل نظر بين العلماء والمعاصرين. فقالوا إنه إمامي وقالوا إسماعيلي، ونحن لا نعلق على مذهبه كبير أمر ونقول إنه عالم من علماء المسلمين فقط له كتاب الأبواب (الأنوار؟) وكتاب المعرفة وكتاب الدين وفرائضه، ذكر له ذلك صاحب الفهرست، وقيل إن له رحلة الشافعي وأنه طوَّلها ونمَّقها، وقد ظفرنا له بكتاب سيرة أحمد بن طولون، وهذا الذي جلَّاه للناس بأنه مؤرخ من الطراز الأول. ولولا ظهور كتابه هذا لنُسِي اسمه ونُسِيت تآليفه.

نعم نحن لا يهمنا مذهب هذا المؤرخ هنا بقدر ما يهمنا أن نقول إنه وضع

تاريخًا لم يَسْبق أحدٌ إلى وضع مثله، وما صنَّف بعده أحدٌ على طريقته، وأنه طبع تآليفه في قالب ابتدعه لنفسه، ألا وهو تعليم التاريخ بالقصص؛ فأورد لأحمد بن طولون المتغلب على مصر في القرن الثالث قصصًا وقعت له، عرف بها نشأته وأدبه وحكمه وإدارته وعدله وظلمه وشجاعته وأريحيته ورحمته وقسوته وكرمه وشرهه في جمع المال وغرامه بالنظام وبُعده عن الفوضى ومراميه السياسية ودخوله في مسائل الخلافة العباسية لأنه بايع ولي العهد ولا يرى أن يعبث بحقوقه وهو خليفة.

نقل المؤلف بعض الحكايات وقدرها تسعون قصة منها خمسون عن ابن الداية في سيرة ابن طولون، وردت في كتابه المكافأة، ومنها أربعون جاء بها من عنده على ما يظهر. وعبارة البلوي إذا وضعت إلى جانب كتابة ابن الداية لا تقل عنها فصاحة وجزالة. وإذ اعتاد البلوي عدم العزو إلى ابن الداية وإلى غيره اختلط الكلامان على ما يخالف عرف المؤرخين والمحدثين. وما كتبه البلوي في كتابه من الفصول ظاهر لمن ينعم النظر والقول بأنهما أُخِذا من مصدر واحد وهو أضابير أحمد بن طولون وجزازاته لا يصح على إطلاقه، لأن الموضوعات التي كان يدونها أمين سر ابن طولون بأمر سيده ليست كلها في موضوع كتاب المكافاة، بل هي عبارة عن أوامر وأحاديث صدرت من لسانه أمام جلَّاسه ورعيته وقُصَّاده وعماله، وأكثرها مما يدخل في موضوع الإدارة والحكم.

ومع أن البلوي كتب تاريخه بعد انقراض الدولة الطولونية بستين سنة جمجم وما صرح عند ذكر مساوئ ابن طولون وقد يعتذر عنه فيما اقترف. وأي مؤرخ في القديم والحديث لم تضطره السياسة إلى استعمال التقية.

ومن لم يصانع في أمور كثيرة ... يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم

أما من حيث التأليف، فإنه لولا تقدم ابنُ الداية البلويَّ بتأليفه لما أتى كتابه آخذًا بحظ جزيل من الإمتاع وسعة المادة، ولولا أن تاريخ البلوي كتب

في عصر نجا المؤلف فيه من ضرورة المصانعة، لما جاء أقرب إلى الثقة من كتاب ابن الداية، وتاريخ البلوي بما تعرض له من الحوادث سد ثلمة في تاريخنا كانت عظيمة في التواريخ التي وصلت إلينا مما كتبه مؤرخو العرب.

ويُعَدّ في حسنات هذا التاريخ أنه عرض لتفاصيل كثيرة قد يتخطاها معظم مؤرخينا لا يأبهون لها والدارسون يغتبطون بالوقوف على أشباهها لأنها تجلي أمامهم أشياء يُعْنَى أهل العصر بمثلها. وبذلك نحكم بأننا لم نعهد رجلًا من رجال السياسة الإسلامية كصاحب الدولة الطولونية أن تجلت سيرته للأعين تجليًا لم يكتب لغيره، وما ذاك إلا لأن ابن طولون عظيم، كيف دار المؤرخ يجد ما يسجله له وهو يكتب حياته ولأن ابن الداية عظيم في المؤرخين والكتاب كما أن البلوي عظيم في المؤرخين والمؤلفين.

يورد البلوي في تاريخه الحوادث مفصَّلة ويحلِّلها ويعللها أحيانًا ويبدي رأيه ويظهر شعوره، يرويها بأسانيدها على عادة مؤرخي عصره، وإذا اقتبس من عبارة مسجوعة لغيره طرح الأسجاع واكتفى بلب العبارة، وهو يترك السجع أكثر الأحيان ويَستعمل الازدواج، وما اقتبسه من ابن الداية يورده في الغالب بعبارته أو يورد على الأقل مقدمته ويزيد عليها شيئًا من عنده.

كتاب البلوي وكتاب ابن الداية من الكتب التي تقرؤها عشر مرات وتحس بعدها أنك تشتهي أيضًا أن تعاود قراءتها؛ ذلك لأنها استوفت عامة شروط التأليف، وكفى أن البلاغة تتدفق من صفحاتها لا تعثر في سبكها وترتيبها على عيب تتعلق به. وللقوالب التي تصاغ بها الأفكار دخل عظيم في تأثير الكلام، وما كان لصوغ البلوي هذه الروعة لو لم يكن صادرًا عن نفس رُوِيت من معين الآداب وتمثَّلتها تمثلًا ظاهرًا.

وهاكم الآن قصة من قصص البلوي لا ندري إن كان جاء بها من عنده أو اقتبسها من ابن الداية.

حدث نسيم الخادم قال: كان أحمد بن طولون مولاي على غاية من الميل

والمحبة لمَعْمَر الجوهري، فلما مات مَعْمَر الجوهري حزن عليه أحمد بن طولون حزنًا عظيمًا، حتى ظهر ذلك منه للناس كلهم، فلم يتعزَّ به ولم يَسْلُ عنه. فلحزنه عليه كان يبكر كل يوم سَحَرًا إلى قبره، وأنا معه، فيترحم عليه ويقرأ قليلًا، ويعود إلى قصره مع الصبح. فكنا عند موافاتنا قبره نجد في كل يوم امرأة قد سبقتنا إلى قبر مقابل قبر مَعْمَر، تبكي وتنتحب بِحُرقة موجعة مؤلمة لقلبِ مَن يَسمعها، فكانت تزيد في حزن أحمد بن طولون وتُبكيه.

فلما كثر ذلك عليه منها قال لها يومًا: يا امرأة أتبيتين هاهنا؟ فقالت: لا أيها الأمير. فعلم أنها قد عرفته. فقالت: وكيف لي لو تهيأ لي المبيت، حتى أبيت ولا أفارق هذا القبر، وأدفن فيه مع صاحبه. ولكني أسهر ليلي، لما أجد في قلبي؛ فإذا قرب الفجر خرجت وقد شغل الحزن قلبي عن الخوف من وحشة الطريق. فقال لها أحمد بن طولون: وما هذه الحال العظيمة التي استحق بها هذا الفعل منك؟ فقالت: أيها الأمير إنها حال عظيمة عندي، لا يجوز لي أن أذكرها. فقال لها: لا بدَّ أن تخبريني ذلك. ابنك هو؟ قالت: لا. قال فأخوك؟ قالت: لا. قال: فزوجك؟ قالت: نعم. قال: أقسمت عليك لتخبرِنّي بما استوجب به منك هذا الفعل. فقالت: أيها الأمير، إني أحتشم من ذكره، وأرفع الأمير عن كشفه. قال لها: إلزامي لك ذكره قد أزال حشمتك، وأقام عذرك.

فقالت: أزوجني أبي لهذا الرجل، وأنا صبية، ما بلغت مبالغ النساء. فلما عقد النكاح سافر سفرًا طال مدة أيسنا منه معها. فخلا بي من النساء مَن لا خير فيه، وأنا مع أبي وأمي، وأفسدوني واستولوا على عقلي وحملوني على أن ساعدتهم فيما كُتِب عليَّ، مما لم يكن لي منه محيص، وصبوت كما تصبو النساء وحملت. فلما تبين والداي جميعًا ذلك، ورد عليهما ما يرد مثله من المصائب، فبينما هما يركضان في الحيرة في أمري إذ قدم هذا الرجل من سفره، فطالب بإدخالي عليه، فدافعه أبي وأمي بما يُحتاج إلى إصلاحه لي،

رجاء أن يزول ما في جوفي، فلم يدعا شيئًا يعمل في طرحه حتى عملاه، فما نفع ذلك، لما قضى الله جل اسمه بكونه.

وقربت ولادتي فوافانا هذا الرجل، وقد طالت المدافعة له، فحلف بالطلاق أنه يأخذني بعد ثلاثة أيام، فلم يجد أَبي وأمي بدًّا من إدخالي عليه فَدُفعت إليه، وأنا على حال قد علمها الله جل اسمه غمًّا وقلقًا، وأبي وأمي أعظم مما أنا فيه، فلما أُدْخلت عليه، وأُخْلِيت معه، انصرفتْ أمي وسائر أهلي، خوفًا من مشاهدة الفضيحة، فلما حصلت معه في الكِلَّة[1]، ضربني الطلق، وزاد الأمر عليّ، فوثبتُ من الكلة، أريد الخروج من البيت إلى أمي، وليس عندي أنها هربت. فما بلغتُ عتبة باب البيت حتى طرحتُ الولدَ من بين رجلي إلى الأرض، وسقطت ولا عقل لي، فوثب هذا الرجل يتأمل، فرأى طفلًا مطروحًا يبكي فصاح بأخته، فسمعته وأَنا في كربي وغمي، يقول لها: يا أُختي! اقض كل حق لي عليك، بما تأتيه في أمر هذه الامرأة، وانصرف عن البيت، وتركني مع أخته، فقامت بي أحسن قيام، وتولت من أمري ما لا يتولى مثله أمي: برفق وإشفاق، وانبساط وجه، وحسن خلق، ومزح ومداعبة، حتى كأن الولد منهم، وكل ذلك يزيدني خجلًا واحتشامًا، إلا أنه قد سكن قلبي بعض السكون.

وبلغ أَبي وأمي خبري فلم يقربني أحد منهما حياء واحتشامًا، وبِتُّ ليلتي، فلما كان من الغد دخل إليَّ بوجه منبسط طَلْق ضاحك، فجلس عند رأسي، وساءلني عن خبري، وقال لي: ألك حاجة؟ قلت، ودموعي تجري: يبقيك الله. فبكى لبكائي، ومضى بنفسه إلى أبي وأُمي، فحلف عليهما حتى جاءني بهما وقال لهما: لا مهرب من قضاء الله ﷻ، إني ليس في يدي ولا في أيديكما ولا في يدي أحد من عبيده جل ذكره منه غير الصبر والحمد له تبارك

---

(١) الكلة: ستر رقيقي، وهي ما نعبر عنه اليوم بالناموسية واقية النائم من الناموس.

وتعالى على البأساء والضراء والحمد لله الذي كان هذا من فيض (؟) الله جل اسمه، له الصبر عليه والستر عليكم، واحمدوا الله جل اسمه. فدعيا له وشكراه، واستعبدهما بذلك.

فكان كل يوم يدخل إليَّ بكرة وبالعشي، يسألني عن حالي، ويسألني عن شيء أشتهيه ويستحلفني على ذلك، فأبوس يديه وأدعو له حتى إذا مضى لي أربعون يومًا، وهي أَيام النفاس، ودخلت الحمام وصلحت له، دخل إليّ مستبشرًا طيب النفس، فمازحني وجلس عندي واستحضر أبي وأمي وأنفق نفقة كبيرة واسعة حسنة، حتى كانت مقام عرس ثانٍ. فلما انقضى يومنا وبات عندي، وجرى بيني وبينه ما يجري بين الرجل وزوجته، وأنا على غاية من الاحتشام والحياء منه، وأصبح، وهب لي دنانير كثيرة، وقطع لي ثيابًا حسانًا. فما مضى إلا أشهر حتى حملت فولدت غلامًا فسرّ به غاية السرور، فكأني انبسطتُ قليلًا إليه، ودعا أيضًا أبي وأمي وحلف عليهما أن يلزماني ولا ينقطعا عني، وصاغ لي حُلِيًا حسنًا، وما ترك شيئًا من إكرامي وسروري حتى بلغه لي، وعاشرتني أخته ولأمي[1] أحسن عشرة، وفعلتْ معنا أجمل فعل، فكنا له ولها كالعبيد.

وما زلت معه على حال ما فوقها مزيد من الإحسان والمحبة، حتى مضت لي عشر سنين، وكبر ابني، وحذق القرآن، وعلّمه جميع الآداب، وأنجب فعظم بذلك سروره وسروري. ثم اعتلَّ علّته هذه التي مات فيها فسمعتهم يقرؤون في الوصية: والذي خلفه من الولد، ولدان ذكران، وهما فلان وفلان، وزوجة وهي فلانة ابنة فلان، يريدني. فلما سمعت ذلك لحق قلبي ما يلحق قلوب النساء من الغيرة، ثم فكرت في خيانتي وقبح فعلي، وجميل فعله، فأمسكت، إلا أني لما خرج العدول من عنده، خرجت إليه من وراء

(١) الأولى: وعاشرت أمي.

مقطع كنت جالسة خلفه فقبلت رأسه ويده، وقلت له: يا سيدي، لك عليَّ من الإحسان والإنعام وجميل الفعل ما قد استعبدتني به، حتى لو وقفت على أن لك ثلاث نسوة وعدة جوار لحملتهن لك على رأسي، فكان ذلك أقلَّ واجبك عليَّ، فكيف يكون لك ولد غير ولدي من امرأة غيري أو جارية، فلا تعرفني حتى أتولى خدمتها بنفسي، وكان ذلك بعض ما تستحقه مني؟ فقال: كأنك أنكرتي ما سمعتيه في وصيتي من ذكري ولدين ذكرين، فقلت: نعم. فحوَّل وجهه عني إلى الحائط فقال لي: ويحك، هذا وذاك وتشهد ومات.

فأحضرتني أخته ذلك الطفل الذي كنت رميته، ووالله ما قدَّرته يعيش ولا سألت عنه ولا فكرت فيه، فقالت له: يا بني هذه أُمك فبُس رأسها، فانكبَّ على رأسي وبكيت وبكت أُخته، وإذا بها قد اشترت له داية، وأفردته في موضع معها، وكبر فعلمته مع ابنه القرآن وجميع ما علمه ابنه من الآداب وأنجب أيضًا، على أنه بعض ولد الجيران، وأحضرت أخاه فقالت له: يا ابن أخي هذا أخوك فتعانقا، ووقف كل منهما على صورة الأمر، واتفقت الحال بينهما فتسخمت أنا وأخته عليه، وجزننا شعورنا، ولزمنا الحزن عليه، فماتت أخته حزنًا، وبقيت أنا وابني وأخوه معي، وخلف له شيئًا يسدّ حاجتنا. فأنا ألزم قبره ولا أنسى جميل فعله، ولا يزول من قلبي حزنه. فقال لها أحمد بن طولون: رحمه الله ورضي عنه، فما في الدنيا أكرم من هذا الرجل ولا أجمل فعلًا، وأحسن الله جزاءَك إذ عرفت له مقدار فعله بك، وكثر الله في النساء مثلك، فإن يكن لك حاجة، أو نابتك نائبة، فعرفيني فقد لزمني حقك، ووجب عليَّ حفظك، فدعت له وانصرف أحمد بن طولون وقد أبكته وأحزنته.



(٢٠)

# بديع الزمان الهَمَذَانِي

## أبو الفضل أحمد بن الحسين

(٣٨٠)

نُسِب إلى هَمَذَان، وسكن غَزْنة زمنًا، وتخرج بأبي الحسين أحمد بن فارس، وأخذ عن غيره، وخُصَّ بحافظة عجيبة «كان ينشد الشعر لم يسمعه قط وهو أكثر من خمسين بيتًا إلا مرة واحدة فيحفظها كلها، ويؤديها من أولها إلى آخرها لا يخرم حرفًا، وينظر في الأربعة والخمسة الأوراق من كتاب لم يعرفه ولم يره نظرة واحدة خفيفة ثم يهزها عن ظهر قلبه هزًّا ويسردها سردًا. وهذا حاله في الكتب الواردة وغيرها، وكان يقترح عليه عمل قصيدة وإنشاء رسالة في معنى بديع وباب غريب فيفرغ منها في الوقت والساعة. وكان ربما كتب الكتاب المقترح عليه فيبتدئ بآخره ثم هلم جرًّا إلى أَوله ويخرجه كأحسن شيء وأملحه. ويوشح القصيدة الفريدة من قبله بالرسالة الشريفة من إنشائه، فيقرأ من النظم والنثر، ويروي من النثر والنظم، ويعطي القوافي الكثيرة فيصل بها الأبيات الرشيقة، ويقترح عليه كل عويص وعسير من النظم والنثر، فيرتجله أسرع من الطَّرْف، على ريق لم يبلعه، ونَفَسٍ لا يقطعه، وكلامه كله عفو الساعة وفيض البديهة، ومسارقة القلم، ومسابقة اليد للفم، وكان يترجم ما يقترح عليه من الأبيات الفارسية المشتملة على المعاني الغريبة بالأبيات العربية فيجمع فيها بين الإبداع والإسراع».

قال فيه مترجموه إنه كان «متعصبًا لأهل الحديث والسنة، ما أخرجت همذان بعده مثله». وأوصى «أن يتولى الصلاة عليه أهل الحديث وأهل السنة».

وهو جماعي يصرح بمذهبه «وينعى على من ينالون من الشيخين ويقول: ولا كل سيرة عدل العمرين. ومما قال في انتشار الرفض: وهذه الكوفة مما اختط أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وما ظهر الرفض بها دفعة، ولا وقع الإلحاد فيها وقعة، إنما كان أوله النياحة على الحسين بن علي رضي الله عنهما وذلك ما لم ينكره الأنام، ثم تناولوا معاوية، فأنكر قوم وتساهل آخرون، فتدحرجوا إلى عثمان، فنفرت الطباع ونبت الأسماع، وكان القراع والوقاع، حتى مضى ذلك القرن وخلف من بعدهم خلف لم يحفظوا حدود هذا الأمر، فارتقى الشتم إلى يفاع، وتناول الشيخين رضي الله عنهما».

كان الهمذاني عربيًّا مجاهرًا بعربيته في أرض فارسية كما كان صريحًا في نحلته في بلاد فيها جماع الأهواء. كتب إلى الشيخ الرئيس أبي عامر «نحن أطال الله بقاء الشيخ إذا تكلمنا في فضل العرب على العجم وعلى سائر الأمم أردنا بالفضل ما أحاطت به الجلود، ولم ننكر أن تكون أمة أحسنَ من العرب ملابس، وأنعم منها مطاعم، وأكثر ذخائر، وأبسط ممالك، وأعمر مساكن، ولكنا نقول: العرب أوفى وأوفر، وأرقى وأوقر، وأنكى وأنكر، وأعلى وأعلم، وأحلى وأحلم، وأقوى وأقوم، وأبلى وأبلغ، وأشجى وأشجع، وأسمى وأسمع، وأعطى وأعطف وألطى وألطف، وأحصى وأحصف، وأفقى وآفق، ولا ينكر ذلك إلا وقح وَتح، ولا يجحده إلا نغِل نغِر. وإنما قدم الله تعالى مُلك العجم ليحتج عليها، وإنما أخر ملك العرب ليحتج بها، وما ملكت العجم حتى تواصلت، وما ملكت العرب إلا حين تصاولت، وما تواصلت العجم إلا يأسًا من نفوسها، ولا تصاولت العرب إلا لما في رؤوسها...».

بَرَّز الهمذاني في الشعر والنثر، ونثره ذو طابع خاص يهتز اهتزاز الغصن الوريف، وتسمع له جميل الحفيف والأفيف، وحفيفه منبعث من نفسه، ورفيفه صادر عن قوى في حسه، وقَلَّ في الكتَّاب مَن أحدث له طريقة

كطريقته، وأملى بها صورته وجسّم صوته ونُعَرَته، وإن كُتِبَ لك أن تتدبَّره تدرك في يسرٍ وسهولة ما وصلت إليه الأخلاق في عصره، وما حدث من متاعب ومعضلات في البقاع النائية من أرض الشرق، وكأن ما كتب في رسائله لوحة نقشت عليها ما كان في زمنه من التزاويق والتهاويل ومن التعمية والتخليط، فهو يعطيك ما يهمك من الأخبار مما قد تضن به عليك كتب التاريخ والسير. ويرضيك لأنه كان بعيدًا عن التَّقِية لا يهاب شيئًا عند إرادته بث شعوره وأفكاره. صانَعَ بعضَ الأمراء، لاعتقاده أن من يخاشنهم يُضرب ويُنكب، وبالتقرب منهم يجمع من نوالهم وجوائزهم ما يعتقد به العقد وتسجل له به صكاك الضياع، وهكذا كانت طريقة الناس في عصره، وشعراؤه وكتَّابه هم ألسنته الناطقة الصداحة.

يتجلى روح الشباب في رسائل أبي الفضل تجلي أغراض أهل زمنه وأغراضه هو، وللشباب وثباتٌ لا يساويهم فيها الشيوخ ولو تكلَّفوا لها وحشدوا، ولو اصطنع الشاب وقار الشيوخ والشيخ حماسة الفتيان لظهر للناس أمرهما وانكشف للمدقق خبيئة نفسهما. وفي كتابة الشباب مطامع وآمال، وفي كتابة الشيوخ حكمة وأناة. وفي الأولى ابتسامات وتفاؤل، وفي الثانية انقباض وتشاؤم.

وفي المناظرة التي جرت بين الهمذاني وأبي بكر الخوارزمي بمشهد من القضاة والفقهاء والأشراف وغيرهم وما ظهر من آثار بديهة أبي الفضل ودهشة أبي بكر وسرعة خاطر الأول وجمود الثاني ما أطمع في هذا خصمه فبذَّه وجعله وراءه في قرض القريض وتحبير الخطب دليل على أن سكرة الشباب أحيانًا أفضل من وقار الشيوخ. هذا والخوارزمي عَلَمٌ من أعلام الأدب، عظيم في عصره ولكنه شيخ بَرَدَ دمه أو كاد، وصاحبه شاب كله حيوية.

ومع كثرة ما وقع بين المتناظرين تَرفَّع الهمذاني عن الشماتة بخصمه وقت مرضه، فقد هنؤوه بمرض الخوارزمي فأجاب جوابًا دلَّ على عظم نفسه

وقال: «فكيف يشمت بالمحنة من لا يأمنها على نفسه، ولا يعدمها في جنسه. والشامت إن أفلت فليس يفوت، وإن لم يمت فسيموت، وما أقبح الشماتة بمن أَمِن الإماتة، فكيف بمن يتوقعها بعد كل لحظة، وعقب كل لفظة، والدهر غَرْثان[1] طعمه الخيار، وظمآن شربه الأحرار، فهل يشمت المرء بأنياب آكله، أم يُسرُّ العاقل بسلاح قاتله، وهذا الفاضل شفاه الله، وإن ظهر بالعداوة قليلًا، فقد باطناه ودًّا جميلًا، والحرُّ عند الحمية لا يصطاد، ولكنه عند الكرم ينقاد، وعند الشدائد تذهب الأحقاد، فلا تتصور حالي إلا بصورتها من التوجع لعلته، والتحزن لمرضته، وقاه الله المكروه ووقاني سماع السوء فيه بحوله ولطفه»، ومعنى هذا: أن الهمذاني وإن ألهب للخوارزمي نار هجاء، ونال منه وهو مغتاظ فأسقطه في بديهته وشعره ونثره، لم تجد الشماتة بمرضه إلى قلبه سبيلًا، وأبى أن يكون من النذالة وسفساف الخلق ما قد يكون على مثله بعض المتباغضين المتلاعنين والمتنافسين المختصمين.

أملى الهمذاني أربعمئة مقامة ما عُرِف إلا بعضها، فهو واضع طريقة المقامات وإن قالوا إنه نقلها من غيره، وغيره لم تؤثر له ولا مقامة. ومع أن مقاماته نسق واحد في صنعتها يتحدث بها عن عيسى بن هشام، وينسبها إلى بطلها أبي الفتح الإسكندري، فإن مقاماته على طرافتها كانت دون رسائله في الإبانة عن حالة العصر.

وهذا الضرب من الأدب لم يُفلح كثيرًا عند العرب، وهو نوع من القصة المخنوقة تبتدئ وتنتهي على نسقٍ واحدٍ، لا يُقصد بها التعليم أكثر مما يقصد بها بهرجة الألفاظ والاستكثار من زخارف البديع والترصيع والتجنيس، ولا يقال فيها إلا أنها ابنة التطبع لا الطبع. ومقاماته ورسائله تُشعرك بسعة محفوظه في المنظوم والمنثور، وبما وعت حافظته من متن اللغة وآدابها.

---

(١) غَرْثان: جَوْعان. (المُراجع)

ونثره متساوق متناسب، موجز الفقرات بادي القسمات، تكاد تحمل كل فقرة منه معنى بذاته كقوله: هذا سوس لا يقع إلا في صوف الأيتام، وجراد لا يسقط إلا على الزرع الحرام، ولص لا ينقب إلا خزانة الأوقاف، وكردي لا يُغِير إلا على الضعاف، وذئب لا يفترس عباد الله إلا بين الركوع والسجود، ومحارب لا ينهب مال الله إلا بين العهود والشهود.

ولو ادَّعى مدَّعٍ إن الكتابة ما خُتِمت بابن العميد كما قالوا بل بالهمذاني، لكان حقًّا ومذهبًا. الهمذاني لا يَستغني شادٍ في الأدب عن الأخذ عنه، ومثل ابن العميد كثار غير قلائل، وبعضهم أكتب وأشعر، أخملهم تخلف الدنيا عنهم. وللشهرة أسباب قد تخطئ أعظم مستحق لها.

❊ ❊ ❊

بقي أن نلمع إلى مكانة بديع الزمان في الجد ومكانته في الهزل، ولا أحسن في الدلالة على ذلك من نقل نموذجين جميلين في هذين الموضوعين، فإنه في المَقامة المَضِيرية كان من وراء الغاية في هزله، كما جوَّد كل التجويد في رسالته على وزير محمود بن سُبُكتكين.

وإليك المقامة المَضِيريَّة بنصها الرائق: حدثنا عيسى بن هشام قال: كنت بالبصرة ومعي أبو الفتح الإسكندري رجل الفصاحة يدعوها فتجيبه، والبلاغة يأمرها فتطيعه، وحضرنا معه دعوة بعض التجار فقدمت إلينا مَضيرة تُثْنِي على الحضارة، وتترجرج في الغضارة، وتؤذن بالسلامة، وتشهد لمعاوية رحمه الله بالإمامة، في قصعة يزل عنها الطرف، ويموج فيه الظرف، فلما أخذت من الخُوان مكانها، ومن القلوب أوطانها، قام أبو الفتح الإسكندري يلعنها وصاحبها، ويمقتها وآكلها، ويثْلبها وطابخها، وظنناه يمزح فإذا الأمر بالضد، وإذا المزاح عين الجد، وتنحى عن الخوان، وترك مساعدة الإخوان، ورفعناها فارتفعت معها القلوب، وسافرت خلفها العيون، وتحلَّبت لها الأفواه، وتلمظت لها الشفاه، واتقدت لها الأكباد، ومضى في أثرها الفؤاد،

ولكنا ساعدناه على هجرها، وسألناه عن أمرها فقال: قصتي معها أطول من مصيبتي فيها، ولو حدثتكم بها لم آمن المقت، وإضاعة الوقت. قلنا: هاتِ. قال: دعاني بعض التجار إلى مضيرة وأنا ببغداد، ولزمني ملازمة الغريم، والكلب لأصحاب الرقيم، إلى أن أجبته إليها وقمنا، فجعل طول الطريق يثني على زوجته، ويفديها بمهجته، ويصف حذقها في صنعتها، وتأنقها في طبخها. ويقول: يا مولاي لو رأيتها، والخرقة في وسطها، وهي تدور في الدور، من التنور إلى القدور، ومن القدور إلى التنور، تنفث بفيها النار، وتدق بيديها الأبزار، ولو رأيت الدخان وقد غبّر في ذلك الوجه الجميل، وأثر في ذلك الخد الصقيل، لرأيت منظرًا تحار فيه العيون، وأنا أعشقها لأنها تعشقني، ومن سعادة المرء أن يرزق المساعدة من حليلته، وأن يسعد بظعينته، ولا سيما إذا كانت من طينته، وهي ابنة عمي لَحًّا[1]، طينتها طينتي، ومدينتها مدينتي، وعمومتها عمومتي، وأرومتها أَرومتي، لكنها أوسع مني خُلقًا وأحسن خَلْقًا، وصَدَعني بصفات زوجته، حتى انتهينا إلى محلته. ثم قال: يا مولاي ترى هذه المحلة هي أشرف محال بغداد، يتنافس الأخيار في نزولها، ويتغاير الكبار في حلولها، ثم لا يسكنها غير التجار، وإنما المرءُ بالجار، وداري في السِّطَة[2] من قلادتها، والنقطة من دائرتها، كم تقدر يا مولاي أنفق على كل دار منها؟ قُلْه تخمينًا إن لم تعرفه يقينًا، قلت: الكثير، فقال: يا سبحان الله ما أكبر هذا الغلط، تقول الكثير فقط. وتنفس الصعداء وقال: سبحان من يعلم الأشياء. وانتهينا إلى باب داره، فقال: هذه داري، كم تقدر يا مولاي أنفقت على هذه الطاقة؟ أنفقت والله عليها فوق الطاقة، ووراء الفاقة. كيف ترى صنعتها وشكلها؟ أرأيت بالله مثلها؟ انظر إلى دقائق الصنعة فيها، وتأمَّل حسن

(١) لَحَّتِ القرابةُ بيننا لَحًّا: دَنَتْ ولصقت. ويقال في المعرفة: هو ابن عمي لَحًّا، منصوب على الحال؛ ويقال في النكرة: هو ابن عمٍّ لَحٍّ، بالجرِّ، لأنه نعتٌ للعمِّ [الوسيط]. (المُراجع)

(٢) وَسَطَ القومَ والمكانَ وَسْطًا وسِطَةً: جَلَسَ وَسَطَهم [محيط المحيط]. (المُراجع)

تعريجها، فكأنما خُطَّ بالبِركار[١]. وانظر إلى حذق النجار في صنعة هذا الباب، اتخذه من كم. قل: ومن أين أعلم. هو ساج من قطعة واحدة لا مأروضٌ ولا عفن، إذا حُرِّكَ أنّ، وإذا نُقِر طَنَّ، مَن اتخذه يا سيدي؟ اتخذه أبو إسحاق بن محمد البصري، وهو والله رجل نظيف الأثواب، بصير بصنعة الأبواب، خفيف اليد في العمل، لله در ذلك الرجل، بحياتي لا استعنت إلا به على مثله، وهذه الحلقة التي تراها اشتريتها في سوق الطرائف من عمران الطرائفي بثلاثة دنانير مُعِزِّية، وكم فيها يا سيدي من الشَّبَه[٢]، فيها ستة أرطال وهي تدور بلولب في الباب، بالله دوِّرها ثم انقرها وابْصُرها، وبحياتي عليك لا اشتريت الحلق إلا منه، فليس يبيع إلا الأعلاق. ثم قرع الباب ودخلنا الدهليز وقال: عَمَّرك الله يا دار، ولا خرَّبك يا جدار، فما أمتن حيطانك، وأوثق بنيانك، وأقوى أساسك، تأمل بالله معارجها، وتبيّن مداخلها وخوارجها، وسلني كيف حصّلتها، وكم من حيلة احتلتها حتى عقدتها. كان لي جار يُكنى أبا سليمان يسكن هذه المحلة وله من المال ما لا يسعه الخزن، ومن الصامت ما لا يحصره الوزن. مات رحمه الله وخلّف خَلْفًا أتلفه بين الخمر والزمر، ومزقه بين النرد والقَمْر، وأشفقت أن يسوقه قائد الاضطرار إلى بيع الدار، فيبيعها في أثناء الضجر، أو يجعلها عرضة للخطر، ثم أراها وقد فاتني شراها، فأتقطع عليها حسرات إلى يوم الممات، فعمدت إلى أثواب لا تنضُّ تجارتها فحملتها إليه، وعرضتها عليه، وساومته على أن يشتريها نسيّة، والمدبر يحسب النسية عطية، والمُتَخَلِّف يَعْتَدُّها هدية، وسألته وثيقة بأصل المال ففعل وعقدها لي، ثم تغافلت عن اقتضائه، حتى كادت حاشية حاله ترق، فأتيته فاقتضيته، واستمهلني فأنظرته، والتمس غيرها من الثياب فأحضرته، وسألته أن يجعل داره رهينة لديّ ووثيقة في يديَّ ففعل، ثم

(١) البِركار: آلة ذات ساقين تُرسَم بها الدوائر [محيط المحيط]. (المراجع)

(٢) الشَّبَه: النحاس الأصفر [محيط المحيط]. (المُراجع)

درجته بالمعاملات إلى بيعها حتى حصلت لي بجدّ صاعد، وبخت مساعد، وقوة ساعد، ورب ساعٍ لقاعد، وأنا بحمد الله مجدود، وفي مثل هذه الأحوال محمود. وحسبك يا مولاي أني كنت منذ ليال نائمًا في البيت مع من فيه إذ قُرع علينا الباب فقلت: من الطارق المنتاب؟ فإذا امرأة معها عقد لآل، في جلدة ماءٍ ورِقّةِ آل تعرضه للبيع، فأخذته منها إخذة خَلْس[1]، واشتريته بثمن بخس، وسيكون له نفع ظاهر، وربح وافر بعون الله تعالى ودولتك، وإنما حدثتك بهذا الحديث لتعلم سعادة جدي في التجارة، والسعادة تنبط الماء من الحجارة، الله أكبر لا ينبئك أصدق من نفسك، ولا أقرب من أَمْسِك، اشتريت هذا الحصير في المناداة، وقد أُخرج من دور آل الفرات، وقت المصادرات وزمن الغارات. وكنت أطلب مثله منذ الزمن الأطول فلا أجد، والدهر حُبلى ليس يُدرى ما يلد. ثم اتفق أني حضرت باب الطاق، وهذا يعرض في الأسواق، فوزنت به كذا وكذا دينارًا، تأمل بالله دقته ولينه وصنعته ولونه فهو عظيم القدر، ولا يقع مثله إلا في الندر، وإذا كنت سمعت بأبي عمران الحصيري فهو عمله، وله ابن يخلفه الآن في حانوته، لا يوجد أعلاق الحصر إلا عنده، فبحياتي لا اشتريت الحصر إلا من دكانه، فالمؤمن ناصح لإخوانه، لا سيما من تحرّم بخوانه.

ونعود إلى حديث المضيرة، فقد حان وقت الظهيرة. يا غلام: الطست والماء. فقلت الله أكبر ربما قرب الفرج، وسهل المخرج، وتقدم الغلام، فقال: ترى هذا الغلام، إنه رومي الأصل، عراقي النشء. تقدَّم يا غلام واحسر عن رأسك، وشَمِّر عن ساقك، وانْضُ عن ذراعك، وافتر عن أسنانك، وأقبل وأدبر، ففعل الغلام ذلك. وقال التاجر: بالله من اشتراه؟ اشتراه والله أبو العباس من النخاس، ضعِ الطست وهات الإبريق، فوضعه

---

(١) خَلَسَ الشيءَ خَلْسًا: اسْتَلَبَهُ في مخاتلةٍ وغفلة [المعجم المدرسي]. (المُراجع)

الغلام وأخذه التاجر وقلبه وأدار فيه النظر ثم نقره فقال: انظر إلى هذا الشَّبَه كأنه جذوة اللهب، أو قطعة من الذهب: شَبَهُ الشام، وصنعة العراق، ليس من خلقان الأعلاق، قد عرف دور الملوك ودارها. تأمل حسنه وسلني متى اشتريته؟ اشتريته والله عام المجاعة، وادخرته لهذه الساعة، يا غلام: الإبريق، فقدَّمه، وأخذه التاجر فقلّبه. ثم قال: وأنبوبه منه، لا يصلح هذا الإبريق إلا لهذا الطست، ولا يصلح هذا الطست إلا مع هذا الدست، ولا يحسن هذا الدست إلا في هذا البيت، ولا يجمل هذا البيت إلا مع هذا الضيف. أرسل الماء يا غلام، فقد حان وقت الطعام. بالله ترى هذا الماء ما أصفاه، أزرق كعين السنور، وصاف كقضيب البلور اسْتُقِيَ من الفرات، واستُعمل بعد البيات، فجاء كلسان الشمعة، في صفاء الدمعة، وليس الشأن في السقاء، الشأن في الإناء، لا يدلك على نظافة أسبابه، أصدِق من نظافة شرابه. وهذا المنديل سَلْني عن قصته فهو نسج جرجان وعمل أرَّجان، وقع إليَّ فاشتريته فاتخذت امرأتي بعضه سراويلًا، واتخذت بعضه منديلًا، دخل في سراويلها عشرون ذراعًا، وانتزعت من يدها هذا القدر انتزاعًا، وأسلمته إلى المطرز حتى صنعه كما تراه وطرزه، ثم رددته من السوق، وخزنته في الصندوق، وادَّخرته للظراف، من الأضياف، لم تتبذله عرب العامة بأيديها، ولا النساء لمآقيها، فلكل علق يوم، ولكل آلة قوم. يا غلام الخوان، فقد طال الزمان، والقصاع، فقد طال المصاع، والطعام، فقد كثر الكلام، فأتى الغلام بالخوان، وقلبه التاجر على المكان، ونقره بالبنان، وعجمه بالأسنان، وقال: عمّر الله بغداد فما أجود متاعها، وأظرف صنّاعها، تأمل بالله هذا الخوان، وانظر إلى عرض متنه، وخفة وزنه، وصلابة عوده وحسن شكله، فقلت: هذا الشكل، فمتى الأكل؟ فقال: الآن، عجِّل يا غلام الطعام، لكن الخوان قوائمه منه. قال أبو الفتح: فجاشت نفسي وقلت: قد بقي الخبز وآلاته، والخبز وصفاته، والحنطة من أين اشتريت أصلًا، وكيف اكترى لها حَمْلًا،

وفي أي رحى طُحِن، وإجانة عُجِن، وأيَّ تنور سجر، وخباز استأجر، وبقي الحطب من أين احتطب، ومتى جلب، وكيف صفّف حتى جفف، وحبس، حتى يبس، وبقي الخباز ووصفه، والتلميذ ونعته، والدقيق ومدحه، والخمير وشرحه، والملح وملاحته، وبقيت السُكُرُّجات من اتخذها، وكيف انتقذها، ومن استعملها، ومن عملها، والخل كيف انتقى عنبه، أو اشترى رطبه، وكيف صُهرجت معصرته، واستخلص لبه، وكيف قُيِّر حَبُّه، وكم يساوي دنه، وبقي البقل كيف احتيل له حتى قطف، وفي أي مبقلة رُصف، وكيف تُؤَنِّقَ حتى نظف، وبقيت المضيرة كيف اشترى لحمها، ووفّي شحمها، ونصبت قدرها، وأُججت نارها، ودقت أبزارها، حتى أجيد طبخها، وعقِّد مرقها، وهذا خطب يطمُّ، وأمر لا يتم، فقمت، فقال: أين تريد؟ فقلت حاجة أقضيها. فقال: يا مولاي تريد كنيفًا يزري بربيعي الأمير وخريفي الوزير. قد جصص أعلاه، وصُهرج أسفله، وسطّح سقفه، وفرشت بالمرمر أرضه، يزل عن حائطه الذَّر فلا يعلق، ويمشي على أرضه الذباب فيزلق، عليه باب غير أنه من خليطي ساج وعاج، مزدوجين أحسن ازدواج، يتمنى الضّيف أن يأكل فيه، فقلت: كل أنت من هذا الجراب، لم يكن الكنيف في الحساب. وخرجت نحو الباب، وأسرعت في الذهاب، وجعلت أعدو وهو يتبعني ويصيح: يا أَبا الفتح المضيرة، وظن الصبيان أن المضيرة لقب لي فصاحوا صياحه فرميت أحدهم بحجر، من فرط الضجر، فلقي رجل الحجر بعمامته، فغاص في هامته، فأخذت من النعال بما قَدُم وحَدُث، ومن الصفع بما طاب وخبث، وحشرت إلى الحبس، فأقمت عامين في ذلك النحس. فنذرت ألّا آكل مضيرة ما عشت، فهل أنا في ذا يا آل همذان ظالم؟ قال عيسى بن هشام: فقبلنا عذره، ونذرنا نذره، وقلنا: قديمًا جنت المضيرة على الأحرار، وقدمت الأرذال على الأخيار. اهـ.

* * *

وهذه رسالته التي تدل على مبلغه من الجد، كتب بها إلى الفضل بن أحمد الإسفرائيني وهو أول من استوزر لأبي القاسم محمود بن سبكتكين فاتح السند والهند:

إن الله وهو العلي العظيم المعطي ما شاء، مَنَّ على الإنسان بهذا اللسان، خلق ابن آدم وأودع فكيه مضغة لحم يَصرِفها في القرون الماضية، ويُخبر بها عن الأمم الآتية. يخبر بها عما كان بعد ما خُلق وعما يكون قبل أن يخلق، ينطق بالتواريخ عما وقع من خطب وجرى من حرب، وكان من يابس ورطب، وينطق بالوحي عما سيكون بعد، وصدق عن الله بالوعد، ولم ينطق التاريخ بما كان، ولا الوحي بما يكون بأن الله تعالى خصَّ أحدًا من عباده ليس النبيين، بما خص به الأمير السيد يمين الدولة وأمين الملة. ودون الجاحد إن جحد أخبار الدولة العباسية، والمدة المروانية، والسنين الحربية، والبيعة الهاشمية، والأيام الأموية، والإمارة العدَوَية، والخلافة التيمية، وعهد الرسالة وزمان الفترة. ولولا الإطالة لعَدَدْنا إلى عاد وثمود بطنًا بطنًا، وإلى نوح وآدم قرنًا قرنًا، ثم لم يجد قائل مقالًا إن ملكًا وإن علا أمره، وعظم قدره وكبر سلطانه وهبت ريحه طرق الهند فأسر طاغيتها بسطة مَلِك ثم خلَّاه، وعرض الأرض قوة قلب وصبّح سجستان وهي المدينة العذراء، والخطة العوراء والطيّة الغراء، فأخذ ملكها أخذة عز وعنف، ثم خلاه تخلية فضل ولُطف، ثم لم يلبث أن خاض البحر إلى بهاضية والسيل والليل جنودها والشوك والشجر سلاحها، والضِّج والريح طريقها، والبر والبحر حصارها والجن والإنس أنصارها، فقتل رجالها وغنم أموالها، وساق أقيالها، وكسر أصنامها وهدم أعلامها. كل ذلك في فُسحة شَتوة قبل أن يتطرقها الصيف، توسطها السيف، وهو الله مالك الملك يؤتي الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء. ثم حكمت علماء الأمة، واتفق قول الأئمة أن سيوف الحق أربعة وسائرها للنار: سيف رسول الله في المشركين، وسيف أبي بكر في المرتدين،

وسيف علي في الباغين، وسيف القِصاص بين المسلمين، وسيوف الأمير وفقه الله في مواقفه لا تخرج عن هذه الأقسام. فسيفه بظاهر هراة فيمن عطل الحد، واتهم بأنه ارتد، وسيفه بظاهر غزنة سد في وجه العقوق، نوعًا من الكفر والفسوق، وسيفه بظاهر مرو في مَن نقض العهد بعد تغليظه، ونبذ اليمين بعد تأكيده، وسيفه بظاهر سجستان في من نَبَّه الحرب بعد رقودها، وخلع الطاعة بعد قبولها، وسيفه الآن في ديار الهند سيف قُرنت به الفتوح، وأثنت عليه الملائكة والروح، وذلت به الأصنام، وعزَّ به الإسلام، والنبي عليه السلام، واختص بفضله الإمام، واشترك في خيره الأنام، وأرخت بذكره الأيام، وأحفيت بشرحه الأقلام. وسنذكر من حديث الهند وبلادها، وغلظ أكبادها، وشدة أحقادها، وقوة اعتقادها، وصدق جلادها، وكثرة أجنادها نبذًا ليعلم السامع أي غزوة غزاه الأمير السيد. إنها بلاد لو لم تُحبها السحاب بدرها، لأهلكتها الشمس بحرها، فهي دولة بين الماء والنار، ونبوة بين الشمس والأمطار، تقدمها صعاب الجبال، وتحجبها رحاب القفار، ويعصمها ملتفُّ الغياض، وتحفها طواغي الأنهار. حتى إذا خرقت هذه الحجب خلص على عدد الرمل والحصى رجالًا، وشبه الجبال أفيالًا، وإنزاع المخاض جلادًا، ومسناف الجمال طعانًا وأركان الجبال ثباتًا، ثم لا يعرفون غدرًا ولا بياتًا، ولا يخافون موتًا ولا حياة، ولا يبالون على أي جنبيه وقع الأمر، وينامون وتحتهم الجمر، وربما عمد أحدهم لغير ضرورة داعية ولا حمية باعثة فاتخذ لرأسه من الطين إكليلًا، ثم قوَّر قحفه فحشاه فتيلًا. ثم أضرم في الفتيل نارًا ولم يتأوه، والنار تحطمه عضوًا فعضوًا، وتأكله جزءًا فجزءًا. فأما محرق نفسه ومغرقها وآكل لحمه ومفصل عظمه والرامي بها من شاهق فأكثر من أن يعد، وأقلهم من يموت حتف أنفه، فإذا مات هذه الميتة أحدهم سُبَّ بها أعقابه وعظم عندهم عقابه. بلاد هذه حالها، وفِيَلة تلك أهوالها وجبال في السماء قلالها، وفلاة يلمع آلها، وغياض ضيق مجالها، وأنهار كثيرة أوحالها،

وطريق طويل مِطالها، ثم الهند ورجالها والهندوانية واستعمالها. زحم الأمير السيد أدام الله ظله هذه الأهوال بمنكبه محتسبًا نفسه معتمدًا نصر الله وعونه، فركض إليهم بعون من الله لا يخذل، ومدد من الله لا يفتُر، وقلب من الأهوال لا يجبن، وحثٍ على المطلوب لا يقصر، وسيف على الضريبة لا ينكل. فسهل الله له الصعب، وكشف به الخطب. ورجع ثانيًا من عنانه بالأسارى تنظمهم الأغلال، والسبايا تنقلهم الجمال، والفيلة كأنها الجبال والأموال ولا الرمال، فتحٌ ذخره الله عن الملوك السالفة الخالية، الكفرة الطاغية، الجبابرة العاتية، حتى وسمه بناره، وجعله يعض آثاره. والحمد لله معز الدين وأهله، ومذلّ الشرك وحزبه، وصلى الله على محمد وآله.



(٢١)

# الخوارزمي

## أبو بكر محمد بن العباس

(٣٨٣)

أصله من طبرستان ومولده ومنشؤه خوارزم، وكان يتسم بالطبري، ويُعْرف بالخوارزمي، ويلقب بالطبرخزي، لأنه كانت أمه من خوارزم وأبوه من طبرستان وهو ابن أخت ابن جرير الطبري. ادعى أنه معتزلي، وفي الواقع أنه شيعي من نوع لم نعرفه. وخاله الطبري شيخ السنة وعَلَم أعلام الأمة، فارق وطنه في ريعان عمره وهو قوي المعرفة قويم الأدب وكان قويًّا في حفظ اللغة والشعر «وكانت قريحته تقصر عن حفظه»، وكان يحاضر بأخبار العرب وأيامها وروايتها، ويدرس كتب اللغة والنحو والشعر، وشعره في جزالته لا يقل عن نثره، وطلاوة نثره آتية من كثرة ما كتب في المقاصد المختلفة. ولم يزل يتقلب في البلاد ويدخل كور العراق والشام ويأخذ عن العلماء ويقتبس من الشعراء. وقد لقي سيفَ الدولة في حلب وخدمه، وورد بخارى وصحب أبا علي البلعمي ثم هجاه، واتصل بالأمير أبي نصر الميكالي واستكثر من مدحه، وداخل أبا الحسن القزويني وأبا المنصور البغوي وأبا الحسن الحكمي فارتفق بهم، وارتفق من الأمير أحمد ومدحه، ونادم كثير بن أحمد، ثم قصد سجستان وتمكن من واليها طاهر بن محمد ومدحه وأخذ صلته، ثم هجاه وأوحشه حتى أطال سجنه، ثم نهض إلى غَرْشستان وكانت حاله مع صاحبها كهي مع طاهر بن شاد. ثم أنه عاود نيسابور وأقام بها إلى أن وفق بقصد حضرة الصاحب بن عباد ومدحه فضمه على ندمائه ووصله بعضد الدولة

بشيراز فارتاش وأيسر ولم يَخْلُ الصاحب أيضًا من هجائه، ثم عاد إلى نيسابور واستوطنها واقتنى بها ضياعًا وعقارًا، ولما عاد إلى شيراز أُجري له رسم يصل إليه في كل سنة بنيسابور مع المال الذي كان يحمل من فارس إلى خراسان. وكان يتعصب لآل بُوَيْه تعصبًا شديدًا ويغض من سلطان خراسان فأطلق لسانه فيه حتى أُخذ وحبس وقيد وصودر، وأُخذ خطه بمئتي ألف درهم، ثم أُطلق سراحه ورُدَّ إليه ما أُخذ منه فطاب عيشه وارتفع مقداره إلى أن بُلِيَ بمساجلة البديع الهمذاني فانخزل انخزالًا شديدًا ونفذ قضاء الله فيه.

هذه خلاصة ما ترجم له الثعالبي في اليتيمة وقد عَرَفَه عيانًا، وسيرته كما رأيت سيرة الشعراء المستجدين يمدح على الهوى ويذم على الهوى ويعلو ويسفل بحسب الحال، وكان إلى ذلك لما استقرت به الحال يدرس ويُملي من محفوظاته وينظم ويكتب في الأغراض التي تنبعث لها نفسه، وشعره شعر أهل الطبقة الثانية من الشعراء، ويجيد في المقطعات إذا كان الموضوع مما تأثر به، ونثره فيه البديع، وفيه المتكلف لالتزامه السجع. جاء أكثره مصنوعًا وما أجاد إلا عندما صدر عن عاطفته. وقد بلغ من الغلو مبلغًا قل أن وصل إلى أكثر منه معظم الشعراء والكتاب، فضاعت لذلك صنعته في غمار إغراقه. ودل على أن فارسيته شديدة وأن إماميته كانت مشوبة بتعصب وعصبية. نقل له الثعالبي طائفة من حِكَمِه وأورد له مقطعات من شعره كانت تخرجه عن اتزانه ورويته أحيانًا مع أن المفروض فيه غير ذلك.

وخير ما خطت أَنامل الخوارزمي كتابه إلى جماعة الشيعة بنيسابور وقد كتبه بعاطفته، وهل التشيع إلا عاطفة وعصبية؟ وإذا قصدت إلى أن تعرف مقدار الصدق في رسالته البديعة تسقط على ترهات لا يدونها في القرطاس من يأخذ من نفسه للحق. معظم الكتاب كالشعراء يتعذر الركون إليهم في تقرير الصدق، وخاصة إذا كانوا من الموتورين وأصحاب الغايات والدعوات، وكم

في الكتب من اختلاق، والنقاد هم الذين يخرجون من الحديد خبثه ومن الذهب بهرجه.

إن من يقول «إن بني أمية الشجرة الملعونة في القرآن وأتباع الطاغوت والشيطان!»، وفي بني العباس: «وما أصف من قوم هم نطف السكارى في أرحام القيان، وماذا يقال في أهل بيت منهم نبغ البغا وفيهم راح التخنث وغدا وبهم عرف اللواط!» أن يطمس الغرض على بصره ويقول: «وقل في بني العباس، فإنك ستجد بحمد الله تعالى مقالًا، وجُلْ في عجائبهم فإنك ترى ما شئت مجالًا يُجبى فيئهم فيفرق على الديلمي والتركي، ويحمل إلى المغربي والفرغاني، ويموت إمام من أئمة الهدى وسيد من سادات بيت المصطفى فلا تتبع جنازته ولا تجصص مقبرته، ويموت ضراط لهم أو لاعب، أو مسخرة أو ضارب، فتَحْضُر جنازته العدول والقضاة، ويَعْمُر مسجد التعزية عنه القواد والولاة، ويسلم فيهم من يعرفونه دهريًا أو سوفسطائيًا، ولا يتعرضون لمن يدرس كتابًا فلسفيًا ومانويًا، ويقتلون مَن عرفوه شيعيًا، ويسفكون دم من سمى ابنه عليًا...»، ويقول في بني العباس إنهم «يولون أنباط السواد وزارتهم، وقلف العجم والطماطم قيادتهم، ويمنعون آل أبي طالب ميراث أمهم وفيء جدهم، يشتهي العلوي الأكلة فيحرمها، ويقترح على الأيام الشهوة فلا يطعمها، وخراج مصر والأهواز، وصدقات الحرمين والحجاز تصرف إلى ابن أبي مريم المديني وإلى إبراهيم الموصلي وابن جامع السهمي وإلى زلزل الضارب وبرصوما الزامر. وأقطاع بختيشوع النصراني قوت أهل بلد، وجاري بغا التركي والأفشين الأشروسني كفاية أمة ذات عدد، والمتوكل زعموا يتسرى باثني عشر ألف سرية، والسيد من سادات أهل البيت يتعفف بزنجية أو سندية، وصفوة مال الخراج مقصور على أرزاق الصفاعنة، وعلى موائد المخاتنة، وعلى طعمة الكلابين، ورسوم القرادين، وعلى مخارق وعلوية المغني، وعلى زرزر وعمر بن بانة الملهي،

ويبخلون على الفاطمي بأكلة أو شربة ويصارفونه على دانق وحبة، ويشترون العوادة بالبدر ويجرون لها ما يفي برزق عسكر......

إن من يقول هذا ويبالغ ويذم الأمويين والعباسيين هذا الذم المقذع ويعمى عن أعمالهم الحسنة التي توازي أضعاف أضعاف ذلك إن صحت كلها، مطعون في آرائه، ولا يقنع عاقل بصحة أقواله، ولكن بني العباس عرفوا على الغالب نفسيته فطردوه عن بلدهم وحرموه عطاياهم فجال في أطراف ملكهم ينزل على ملوك الطوائف يستجديهم ويمدحهم ويهجوهم. فرسالته إلى شيعته وشتم الأمويين والعباسيين جاءت من هذا السخف، والناقد يرذل من أفكارها أكثر ما أورده. وخير الأدب ما صدق قائله، ومن دوَّن الكذب وقال إنه أدب فهو مغبون الصفقة. أما شعره في هجو من غضب عليه فقد حمل مقابح وأقذاعًا لا يليق صدورها عمن يصطنع الوقار والجلال أمثاله.

وفي الوافي: والظاهر أن الخوارزمي كان فيه ملل واستحالة، لأن أبا سعيد أحمد بن شهيب الخوارزمي قال فيه:

أبو بكر له أدب وفضل ... ولكن لا يدوم على الوفاء

مودته إذا دامت لخلّ ... فمن وقت الصباح إلى المساء

وبعد فهذا مثال من أدب هذا الأديب، وهذه صورة من أخلاقه وطعمته، وهذا وفاؤه لمن آووه وأغنوه، وهذه مصانعته لجماعته وإغواؤه لمن يضلل عقولهم. وقد أُثِرت له حِكَمٌ بعضها جميل وأكثر معانيها مبتذلة مأخوذة عمن سبقه. ونعذر مثل الخوارزمي إذا لم يبرِّز في حِكَمِه ما دام جماع حكمته في حياته أن يَغنى ويَنعم ويغلو ويغرق. ولا يعدم صاحب السخف مهما بلغ من خطته أن يجد مستمعين لقوله وإن كان كلامه الهراء بعينه.

قال الحصري: كان أبو بكر الخوارزمي رافضيًا غاليًا. وقال ياقوت: قرأت في آخر ديوانه له:

بآمل مولدي وبنو جرير ... فأخوالي ويحكي المرء خاله

فـهـا أنـا رافـضـي عـن تـراث وغـيـري رافـضـي عـن كـلالـه

صوّر من ترجموا للخوارزمي هذه الصورة التي نقلناها عنهم، ودلتنا بعض رسائله على مَنَازعه، ولولا هذه المخزيات الملموسة في كتابه لكان بما أتقنه من علوم وآداب آية في فنه. ومع أنه جرى طلقًا مع عاطفته، فقد كانت رسائله مما يتعلم منه، وقليل في حملة الأقلام من جودوا تجويده.

تأمل هذه الظاهرة في أخلاق الخوارزمي تَرَهُ على كثرة ما جنى من مال واعتقد من ضياع ممن يصعب عليهم أداء مال السلطان. فمما كتب إلى صاحب ديوان الحضرة أنه ورد عليه من عمال الخراج من لا أُطريه بحرمة ولا أتناوله بطرف ذريعة أو وسيلة، وكأني به وقد حشرني في جملة العامة، وأدخلني في غمار سائر الرعية، ووقفني على جسرٍ قُدَّامة الخسران وخلفه الهوان، وفجعني بدريهمات جُمعت بتقحم المهالك واختراق المسالك والممالك، ودنانير قطعت القفار، وخاضت البحار، وناطحت الحوادث والأقدار، فإن بذلتها أبرزت وفرًا طالما كان مخزونًا، وإن منعتها ابتذلت عرضًا لم يزل مصونًا.

وكتب إلى صاحب ديوان الخراج بالحضرة: وإن درهمًا يؤخذ مني لدرهم ثقيل الوضع على السلطان قبيح الأحدوثة في البلدان، ولئن كان يعمر به بيت المال، إنه يخرب بيت الجمال. ولئن كان يزيد به عدد الدراهم، إنه لينقص من عدد المكارم، ولئن كان يسمى في العامة جباية، إنه يسمى في الخاصة خزاية. وللبس أكفان الموتى، وسرق أدوية المرضى، وقطع الطريق على حجاج بيت الله الحرام، وزوار قبر النبي عليه السلام، أحسن في الأحدوثة وأبعد من العار والنقيصة، من إلزام مثلي خراجًا، وسومه غرامة واستخراجًا!».

وكتب في حالة أُخرى إلى صاحب ديوان الحضرة: «فإن رأى أن لا يفجع خراسان بلسانها، ولا يخليها من سيفها وسنانها فعل». وكتب إلى بعض حكام

الرساتيق: «وما ظن سيدي بضيعة ألزمتني الجزية بعد أن كنت أُلزمها الصغير والكبير، وأستأديها الرعية والأمير، وأخرجتني من عز السلاطين إلى ذل الدهاقين، وجمعت عليَّ فتون الأغنياء وغم المساكين، وشغلني صداعها عن أشغال الدنيا والدين، يستغل الناس الغلة، وأنا أستغل القلة والذلة. ويزرعون في الأرض حبًّا، فيحصدون حبوبًا، وأنا أزرع في قلبي كربًا وأحصد كروبًا، وقد صرت من أجلها أخدم قومًا كنت أستخدمهم، وأُسلم على أناس كنت إذا كلموني لا أُكلمهم، ويحجبني من لو حضر بابي من قبل حجبته، ويعرض عني من لو سألني فيما مضى ما أجبته.

ومن كتاب له إلى صاحب ديوان الحضرة: ولقد خصني من بين الأزمان زمن لئيم، ووقع في قسمي من البخوت بخت ذميم، حيث صرت ألزم خراجًا التزم بنو المدَّبر أضعافه للبحتري، وأضايق في ضيعة وهب أمثالها محمد بن الهيثم الغنوي لأبي تمام الطائي حيث قال البحتري:

ولم لا أُغالي بالضياع وقد دنا ... عليَّ مداها واستقام اعوجاجها
إذا كان لي تربيعها واغتلاها ... وكان عليكم عشرها وخراجها

وقال أبو تمام الطائي:

فدع ذكر الضياع فبي شماس ... إذا ذكرت وبي عنها نفار
وما لي ضيعة غير المطايا ... وشعر لا يباع ولا يعار

للخوارزمي مجازفات تُعْجب وإن حادت عن المعقول مثل قوله لأحد الحجاب لما نكبه ابن عباد: وأنت أيدك الله تعلم أنك كنت من الذل في مكان يتخطاك فيه الناظر، ويدوسك الخف والحافر، لا يشرفك نسب ولا يرفعك أدب، ولا يرجوك صديقك ولا يخافك عدوك، عن يمينك الخمول، وعن يسارك الذبول، وبينهما الفقر الذي لو قسم على الأغنياء لصاروا فقراء، والضعف الذي لو فرق على الأقوياء لعادوا ضعفاء، تصبح في قُلّ، وتمسي في ذلّ، وتروح إلى أنثى وتغدو على طفل: فأنصفك الدهر

الظالم، وانتبه لك البخت النائم، وأراد الله تعالى أن يرفع من حكمتك، ويقوّم من قنبور حدبتك الخ. وهو كلام فاض باللؤم والشماتة.

كتب إلى الصاحب يعرض نفسه فقال: «فإن أذن الوزير في ورود عسكره المحفوف بجناح النصرة، المكنوف بجوانب الدولة والكرة، رأى مني بحمد الله تعالى فارسًا ملء العين، كما سمع مني عالمًا ملء الأذن، فيعلم حينئذٍ أن إقباله خرج له تلميذًا انتظم فيه فروسية اللسان، وفروسية السيف والسنان، ويكر في معركة الطعان، كما يكر في معركة البيان ويثبت اسمه في جريدة العلماء والفرسان». وهذا كأكثر ما أثر عنه يفيض منه البأو وتتدفق الدعوى.
ومن هذا البحر قوله: «وقد علم الأمير أن والدي رحمه الله تعالى خلف علي ما لو خلفه على أهل بلد لكفاهم، ولو فرقه على فقراء الدنيا لأغناهم. فما زالت صروف الدهر بخوارزم تقاتلني جهرًا، وتخاتلني سرًّا، حتى خرجت منها أعرى من حية، بعد ما كنت أكسى من بصلة، وأفقر من الحجر، بعدما كنت أغنى من الكعبة وأعطل من المحرم». وفي هذا أيضًا من الكذب ما لا يقبله طفل.



(٢٢)

# القاضي التَّنُوخِي

## أبو علي المحسِّن بن علي

(٣٨٤)

أخذ القاضي عن أئمة البصرة، ونزل بغداد، وتقلد القضاء زمنًا طويلًا وعرف رجال السياسة في عصره، ودرس مذاهبهم وأهواءهم، ورأى مشاكل الناس ومتاعبهم فاتسع أفقه وكثرت آدابه وتجاربه. وهو من بيت كل أهله فضلاء وأدباء، كان أبوه عالمًا وأديبًا، وهو عالم وأديب وكان سماعه صحيحًا ويميل للأدب والشعر والأخبار.

أتم ما بدأ به أستاذه الصولي من تدوين أخبار المجتمع العباسي، واقتصر الصولي على أخبار الخلفاء والوزراء والكتاب والشعراء، ودَوّن التنوخي الأخبار على اختلاف مصادرها وأشكالها. وقد يروي القصة بأكثر ألفاظها، وإن كانت مولدة أو عامية لئلا يضيع من رونقها، فهو من هذا النظر ناقل صحيح النقل يجوّد تصوير ما وقع بأمانة، ولا يخرم شيئًا مما يبلغه عن الثقات، أو يرى فيه نكتة وعبرة وتسلية.

من مصنفات القاضي التنوخي «الفرج بعد الشدة» و«نشوار المحاضرة» أو جامع التواريخ و«المستجاد من فعلات الأجواد». ألف كتاب الفرج ليفزع إليه من أناخ الدهر بمكروهه عليه، فيقرأ من الأخبار فيه ما يسلبه ويتعظ به. وكان سبقه إلى مثل هذا الموضوع ثلاثة من المؤلفين كتبوا فيه أوراقًا، أما هو فاقتصر على أحسن ما روي من الأخبار، مخالفًا مذهب من تقدمه في التأليف. نوّع الأخبار وجعلها أبوابًا، وعزا ما أخرجه من الكتب الثلاثة إلى

مؤلِّفيه تأدية للأمانة، واستيثاقًا في الرواية، وتبيينًا لما أتى به من الزيادة فأوجز، وأسقط الحشو وترك الإكثار أي إنه جمع ما هَبَّ ودبَّ أولًا، ثم أسقط ما أسقط وأبقى ما أبقى. وحمل كتابه مع هذا من أنواع الخرافات صنوفًا ومن الأمور النابية عن حد المعقول ضروبًا، ومن أخبار الفساق والمُجَّان ما نقله على علاته إرادة الترويح عن النفوس، وجاء بحكايات ونكات وبعضها مما دخل في كتابه نشوار المحاضرة. وفي الفرج بعد الشدة. يقول الثعالبي في اليتيمة: وله كتاب الفرج بعد الشدة وناهيك بحسنه وإمتاع فنه، وما جرى من الفأل بيمنه، لا جرم أنه أَسْيَرُ من الأمثال، وأجرى من الخيال.

ومعنى «النشوار» جرة الحيوانات المجترة استعملها بمعنى الحديث. وهو حكايات منقحة منسجمة، كتبت بقلم كاتب تحتذى كتاباته متى ترك التكلف، وتكلفه كان ظاهرًا في مقدمة كتابَيْه الفرج والنشوار. وقد قال في مقدمة النشوار: ولعل قارئها أن يستضعفها إذا وجدها خارجة عن السنن المعروف في الأخبار، الراتبة في الكتب، وذكر أصناف الذين دوّن أخبارهم حتى قطاع الطريق والمتلصصين والخراب والمتخربين واصحاب العصبية والسكاكين وأهل الخسارة والعيارين. ولا تكاد تخطر بالبال طبقة من طبقات الخلق إلا ويعرض لذكر أخبارها. فأثبت من ذلك ما سمعه منذ وعى على نفسه، واعتقد إثبات كل ما سمعه من هذا الجنس مما يحث على قراءته من شعر لمتأخر من المُحْدثين، أو مجيد من الكتَّاب والمتأدبين، أو كلام منثور لرجل من أهل العصر أو رسالة أو كتاب بديع المعنى أو حسن النظم والنثر إلى ما شاكل ذلك من مَثَلٍ طري، أو حكمة جديدة، أو نادرة حديثة، أو فائدة قريبة المولد، ليعلم أن الزمان قد أبقى من القرائح والألباب في ضروب العلوم والآداب أكثر مما كان قديمًا أو مثله، ولكن تَقَبَّل أرباب تلك الدول للأدب أظهره ونشره، وزهد هؤلاء الأئمة في هذا الأدب غمره وستره، قال: وإلا

فقد خرج من أعمارنا وما قاربها من السنين من مكنون أسرار العلم ما لعله كان معتاصًا على الماضين، وجرى من الحواث الكبار والانقلابات العجيبة التي لا يوجد مثله سالفًا في أضعاف هذه السنين ما لو قُيِّد بتأليف الكتب لأوفى على ما سلف وتقدم في علو الرتب.

وزاد أن هذه المدونات نوع لم يسبق إلى كتبه، لأنها مقصورة في الأكثر على ضروب من الأحاديث السابقة والسالفة في زماننا التي تُظلم عندي بأن لا تكتب، وهي تصلح لمن قد فرغ من أكثر العلوم، واشتهى قراءة ما يدله على أخلاق أهل الأزمنة وسننهم وطرائقهم وعاداتهم، وأن يقايس بين ما نحن فيه وما مضى، ليعلم كيف ماتت الدنيا وانقلبت الأهواء وانعكست الآراء، وفقدت المكارم قال: «وحقًّا لو نشر حكيم من أهل تلك الأزمنة حتى يرى ما حصلنا عليه ودفعنا إليه ما شك في قيام الساعة أو أن الناس بُدّلوا بهائم مهملة أو جعلوا آلات غير مستعملة لفقد الأحرار، وشدة الإعسار، ولطول المتاعب، وتوارت النوائب».

وفي الكتاب ذكر معتقدات الناس وأوهامهم وكثير من الشعر الرائق والنثر الفائق. ولا نغالي إذا قلنا عن كتاب النشوار أفاد في الكشف عن أحوال القرن الرابع ما لا يستفاد من عشرات من الكتب، ومنها ما لا يستبين منه حال العصر الذي كتبه فيه إلا بشيءٍ من الفرضيات والاستنتاجات. ولو سلم «النشوار» كله وانتقل إلى أبناء هذا الجيل كما كتبه مؤلفه لكان أصدق صورة عن ذاك الزمن، وعُدَّ في فنه من الأمهات.

ومن لم يكتب له مطالعة النشوار يحتاج إلى مثال منه يعطيه فكرة في جلال موضوعه وأسلوبه، قال التنوخي: حدثني القاضي أبو بكر محمد بن عبد الله قال: حدثني مكرم بن أبي بكر عمر أبي الحسن بن مكرم القاضي قال: كنت خصيصًا بأبي الحسن علي بن عيسى (من أعظم وزراء بني العباس وأعفهم وأعلمهم) وربما شاورني في شيءٍ من أمره قال: دخلت عليه يومًا وهو مغموم

جدًّا فقدَّرتُ أنه بلغه عن المقتدر أمر كرهه فقلت: هل حدث شيء وأومأت إلى الخليفة فقال: ليس غمي من هذا الجنس ولكن مما أشد منه، فقلت: إن جاز أن أقف عليه فلعلي أقول شيئًا، فقال: نعم كتب إليّ عاملنا بالثغر أن أسارى المسلمين في بلد الروم كانوا على رفق وصيانة إلى أن وُلي آنفًا مُلك الروم حَدثان فعسفا الأسارى وأجاعاهم وأعرياهم وعاقباهم وطالباهم بالتنصر، وإنهم في جهد جهيد وبلاء شديد، وليس هذا مما لي فيه صلة لأنه أَمر لا يبلغه سلطاننا ولا الخليفة يطاوعني. فكنت أنفق الأموال وأجتهد وأجهز الجيوش حتى تطرق القسطنطينية. فقلت: أيها الأمير هاهنا رأي أسهل مما وقع لك يزول به هذا. فقال: قل يا مبارك، فقلت: إن بأنطاكية عظيمًا للنصارى يقال له البطرك وببيت المقدس آخر يقال له القاتليق (الجاثليق؟) وأمرهما ينفذ على ملك الروم، حتى إنهما ربما حرما الملك فيحرم عندهم ويحلانه فيحلُّ، وعند الروم أن من خالف منهم هذين كفر، وأنه لا يتم جلوس الملك ببلد الروم إلا برأي هذين، وأن يكون الملك قد دخل إلى بيعتهما وتقرب بهما. والبلدان في سلطاننا والرجلان في ذمتنا، فيأمر الوزير أن يكتب إلى عاملَي البلدين بإحضارهما وتعريفهما ما يجري على الأسارى، وأن هذا خارج عن الملة، وأنهما إن لم يزيلا هذا لم يطالب بجريرته غيرهما، وينظر ما يكون الجواب.

قال فاستدعى كاتبًا وأملى عليه كتابين في ذلك وأنفذهما في الحال، وقال سَرَّيت عني قليلًا. وافترقنا فلما كان بعد شهرين وأيام، وقد أنسيت الحديث جاءني فُرانق[1] من جهته يطلبني فركبت، وأنا مشغول القلب بمعرفة السبب في ذلك، حتى وصلت إليه، فوجدته مسرورًا، فحين رآني قال: يا هذا أحسن الله جزاءَك عن نفسك ودينك وعني، فقلت: ما الخبر؟ فقال: كان رأيك في

(١) الذي يدل صاحب البريد على الطريق معرب بَروانك.

أمر الأسارى أبرك رأي وأصحه، وهذا رسول العامل قد ورد بالخبر (وأومأ إلى رجل كان بحضرته) وقال له: خبرنا بما جرى، فقال الرجل: أنفذني العامل مع رسول البطرك والقاتليق برسالتهما إلى قسطنطينية وكتبا إلى ملكيهما: إنكما قد خرجتما عن ملة المسيح بما فعلتماه بالأسارى، وليس لكما ذلك فإنه حرام عليكما ومخالف لما أمرنا به المسيح من كذا وكذا وعدد أشياء من دينهما، فإما زلتما عن هذا واستأنفتما الإحسان إلى الأسارى وتركتما مطالبتهم بالتنصر وإلا لعناكما على هذين الكرسيين وحرمناكما. قال فمضيت مع الرسول فلما صرنا بقسطنطينية حجبت عن الملكين أيامًا، وخليا بالرسول ثم استدعياني إليهما فسلمت عليهما فقال لي ترجمانهما: يقول لك الملكان إن الذي بلغ ملك العرب من فعلنا بالأسارى كذب وتشنيع، وقد أذنا في إدخالك دار البلاط لتشاهد أساراكم فترى أحوالهم بخلاف ما بلغكم، وتسمع من شكرهم لنا ضد ما اتصل بكم. قال: ثم حملت إلى دار البلاط فرأيت الأسارى وكأن وجوههم قد أخرجت من القبور تشهد بالضرر وما كانوا فيه من العذاب إلا أنهم مرفهون في ذلك الوقت، وتأملت إلى ثيابهم فإذا جميعها جُدُد فعلمت أني منعت من الوصول تلك الأيام حتى غُير زي الأسارى. وقال لي الأسرى: نحن للملكين شاكرون فعل الله بهما وصنع، وأومؤوا إليَّ أن الأمر كما كان بلغكم، ولكنه خفف عنا وأحسن إلينا بعد حصولك هاهنا. وقالوا لي: كيف عرفت حالنا ومن تنبه علينا وأنفذك بسببنا. فقلت لهم: ولي الوزارة علي بن عيسى فبلغه ذلك فأنفذ من بغداد وفعل كذا وكذا قال: فلجُّوا بالدعاء إلى الله تعالى للوزير، وسمعت امرأة منهم تقول: مر يا علي بن عيسى لا نسي الله لك هذا الفعل. قال: فلما سمع ذلك علي بن عيسى أجهش بالبكاء وسجد حمدًا لله سبحانه وتعالى وبرّ الرسول وصرفه، فقلت له: أيها الوزير أسمعك دائمًا تتبرم بالوزارة وتتمنى الانصراف عنها في خلواتك خوفًا من آثامها، فلو كنت في بيتك هل كنت تقدر أن تحصِّل هذا

الثواب، ولو أنفقت فيه أكثر مالك، ولا تفعل ولا تتبرم بهذا الأمر فلعل الله يمكنك ويجري على يديك أمثال هذا الفعل فتفوز بثوابه في الآخرة كما تفردت بشرف الوزارة في الدنيا.

والكتاب الثالث من تأليف القاضي التنوخي «المستجاد من فعلات الأجواد» أورد فيه مئة وخمسين قصة في كرماء الجاهلية والإسلام إلى عهده التقطها من أصدق المصادر فجاءت صحيفةَ حكمةٍ وأدب واجتماع وأخلاق ذكر فيها من تقدموا عصره كما ذكر في النشوار من كانوا فيه أو قبله بقليل، ورسم به صورة من الكرم قلّ أن اجتمع مثلها في مصحف واحد، حملت أطايب الشعر وأزاهير جميلة من النثر، ومنها ما كان من نسجه ومنها ما نسجه مَن قبله. فكأن هذا المؤلِّف العظيم أحب أن يهذب الناس بحكايات جوَّد إيرادها حتى تقع في نفوسهم موقعها، وهاكم الآن قصة من قصصه في المستجاد وهي مما يجب على كل من يتعاطى الحكم والإدارة أن يجعلها نُصب عينه ودليل حكمه:

قال عبد الله بن سليمان: كنت بحضرة والدي في ديوان الخراج بسرَّ من رأى وهو يتولاه إذ دخل عليه أحمد بن أبي خالد [الصريفيني] الكاتب فقام له أبي من مجلسه وأَقعده في صدره، وتشاغل به، فلم ينظر في عمل حتى نهض، ثم قام معه وأمر غلمانه بالخروج بين يديه، فاستعظمت أنا وكلُّ من في المجلس هذا، لأن رسم أَصحاب الدواوين صغارهم وكبارهم لا يقومون في الديوان لأحد ممن يدخل إليهم، وتبين أبي ذلك في وجهي فقال لي: يا بني إذا خلونا فسلني عن السبب فيما عملته مع هذا الرجل.

قال: وكان أبي يأكل في الديوان وينام فيه ويعمل عشيًّا الحسبانات، فلما جلسنا نأكل لم أذكره إلى أن كاد الطعام ينقضي، فقال لي هو مبتدئًا: يا بني شغلك الطعام عما قلت لك تذكرني به؟ فقلت: لا، ولكن أردت أن يكون ذلك على خَلوة فقال: هذا وقت خلوة ثم قال: ألستَ أنكرتَ والحاضرون

قيامي لأحمد بن أبي خالد في دخوله وخروجه وعما عملته معه؟ فقلت: بلى. قال: كان هذا يتقلَّد مصر سنين فوليت أعمالها وصرفته عنها، وقد كانت مدته فيه طالت فتتبعته، فرأَيت آثار رجل لم أر أجمل آثارًا منه، ولا أعفَّ عن أموال السلطان والرعية، ولا رأَيت رعية لعامل أشكر من رعيته له، وكان الحسين الخادم المعروف بعرَق الموت صاحب البريد بمصر أصدق الناس له مع هذا، وكان من أبغض الناس [إليَّ] وأشدهم اضطرابًا في أخلاقه، فلم أتعلق عليه بحجة، ووجدته قد أَخر رفع الحسبانات لسنة متقدمة وسنته التي هو فيها ولم يستتمها لصرفي له عنها، ولم ينفذه على الديوان، فَسُمْته أن يحط من الدخل ويزيد من النفقات والأرزاق؛ ويكسر من البقايا في كل سنة مئة ألف دينار لآخذها لنفسي، فامتنع من ذلك، فأغلظت له وتوعدته ونزلت معه إلى مئة ألف دينار واحدة للسنتين وحلفت له أيمانًا مغلظة مؤكدة أني لا أقنع منه بأقل منها، فأقام على امتناعه وقال: لا أخون لنفسي فكيف أخون لغيري، وأُزيل ما قام به جاهي من العفاف؟ فحبسته وقيدته فلم يجب، وأَقام مقيدًا في الحبس شهورًا. وكتب عرق الموت صاحب البريد إلى المتوكل، وحلف له أن أموال مصر لا تفي بنفقتي ومؤنتي، ويصف أحمد بن أبي خالد ويذكر ميل الرعية إليه وعفته، فأرسل المتوكل بتوليته. فأنا ذات يوم على المائدة آكل إذ وردت علي رقعة أحمد بن أبي خالد يسألني استدعاءه لمهم يلقيه إليّ، فلم أشك أَنه قد استضر بالحبس والقيد، وقد عزم على الاستجابة لمرادي، فلما غلست يدي دعوته فاستخلاني فأخليته، فقال: أما آن لك يا سيدي أن ترقَّ لي مما أنا فيه من غير ذنب إليك [ولا جرم ولا قديم ذحل] ولا عداوة؟ فقلت: أنت اخترت لنفسك ذلك، وقد سمعتَ يميني وليس منها مخرج، فاستجبْ لما أريده منك [واخرج]، فأخذ يستعطفني [ويخدمني ويخدعني]، [فجاءني ضد ما قدرته] فغاظني فشتمته، وقلت له هذا الأمر المهم الذي ذكرته لي في رقعتك أنك أردت إلقاءه إلي هو أن تستعطفني وتستجيرني وتخدعني؟ فقال:

يا سيدي وليس الآن عندك غير هذا؟ فقلت: لا، فقال: إذا كان ليس عندك غير هذا، فاقرأ يا سيدي هذا، وأخرج إلي كتابًا لطيفًا مختومًا في ربع قرطاس ففضته فإذا هو بخط المتوكل الذي أعرفه [يأمرني فيه] بالانصراف وتسليم ما أتولاه إلى أحمد بن أبي خالد، والخروج إليه مما يُلزمني ورفع الحساب إليه والامتثال لأمره وطاعته، والمسير عن مصر بعد ذلك، فورد علي أقبح مورد لقرب عهد الرجل بشتمي له والإساءة إليه، وأنه في الحال تحت حديدي ومكارهي، فأمسكت مبهوتًا، ولم ألبث أن دخل أمير مصر إذ ذاك في أصحابه وغلمانه، فوكل بداري وجميع ما أملكه وأصحابي وغلماني وجهابذتي وكتّابي. وجعلت أزحف من الصدر حتى صرت بين يدي أحمد بن أبي خالد، ولست أستطيع القيام وهو في قيوده بعد. فدعا أمير البلد بحداد فحلّ قيوده، فمددت رجلاي ليوضع فيها القيد، فقال لي: يا أبا أيوب ضُمَّ أقدامك، فوثب قائمًا ثم قال لي: يا أبا أيوب: أنت قريب عهد بعمالة هذا البلد، ولا منزل لك فيه ولا صديق ومعك حُرَم وحاشية، وليس يسعك إلا هذه الدار، وكانت دار العمالة، وأما أنا فأجد عدة مواضع غيرها وليس لي كبير حاشية، ومن نكبة وقيد خرجتُ، فأقِمْ مكانك، وخرج عني وصرف التوكيل عني وعن الدار، وأخذ كتابي وأشياعي إليه، فلما انصرف قلت لغلماني: هذا الذي أراه في النوم؟ انظروا من وَكل بنا فقالوا: ما وكل بنا أحدًا، فعجبت من ذلك عجبًا شديدًا، وما صليت العصر حتى عاد إليّ من كان حمله معه من المتصرفين والكتّاب والجهابذة مطلقين وقالوا: أخذ خطوطنا برفع الحساب، وأمرنا بالملازمة وأطلقنا، فازداد عجبي، فلما كان من غد باكرني مسلّمًا ورحت إليه في عشية ذلك اليوم، فأقمت ثلاثين يومًا إن سبقني إلى المجيء وإلا رحت إليه، وإن راح إليّ وإلا باكرته، وكل يوم تجيئني هداياه وألطافه من الثلج والفاكهة والحيوان والحلوى والطيب.

فلما كان بعد ثلاثين يومًا جاءني فقال لي: قد عشقت مصر يا أبا أيوب

والله ما هي طيبة الهواء ولا عذبة، وإنما تطيب لغير أهلها بالولاية فيها والاكتساب، ولو قد رحلت إلى بغداد وسر من رأى لما أقمت إلا شهرًا، ثم تتقلد أجلَّ الأعمال، فقلت: والله ما أقمت إلا متوقعًا لأمرك في الخروج، فال: أعطني خط كاتبك بأن عليه القيام بالحساب، واخرج في حفظ الله، فأحضرت كاتبي وأخذت خطه كما أراد، وسلّمت الخط إليه، فقال لي: اخرج أيَّ وقت شئت، فخرج من غد هو وأَمير مصر وقاضيها ووجوهها وأهلها وشيعوني إلى ظاهر مصر. وقال لي: تقيم في أول منزل على خمسة فراسخ على أن أزيح علة قائد يصحبك برجاله إلى الرملة، فإن الطريق فاسد، فاستوحشت من ذلك وقلت: هذا إنما غرني حتى أُخرج كل ما أملكه وجميع ما كسبت فيتمكن منه في ظاهر البلد فيقبضه ثم يردني إلى الحبس والتوكيل والمطالبة، ويحتج علي بكتاب ثان، يذكر أنه «صك»، فخرجت وأقمت بالمرحلة التي ذكر مستسلمًا للقضاء متوقعًا للشر، إلى أن رأيت أوائل عسكره مقبلًا من مصر، فقلت لعله القائد الذي يريد أن يصحبنيه، أو لعله يريد أن يقبض عليَّ به، فأمرت غلماني بمعرفة ذلك وما الخبر؟ فقالوا: العامل أحمد بن أبي خالد قد جاء، فلم أَشك في أنه قد ورد البلاء بوروده، فخرجت من مضربي وسلمت عليه، فلما جلس قال: أَخْلُونا، فلم أشك في أنه للقبض علي فطار عقلي، وقام من كان عندي فلما لم يبق عندي أحد قال: أنا أعلم أن أيامك لم تطل بمصر، ولا حظيت فيها بكبير فائدة، وذلك الباب الذي سألتنيه في ولايتك لم أستجب إليك، وأخرت الإذن لك في الانصراف منذ أول الأمر إلى الآن، لأني تشاغلت بالفراغ لك منه، وقد حططت من الارتفاع وزدت في النفقات في كل سنة خمسة عشر ألف دينار تكون للسنتين ثلاثين ألف دينار وهو يقرب ولا يظهر، ويكون أيسر مما أردته مني في ذلك الوقت، وقد تشاغلت به حتى جمعته لك، وهذا المال على البغال، وقد جئتك به

فتقدم إلى من يتسلمه، فتقدمت لقبضه وقبَّلت يده، وقلت قد والله يا سيدي فعلت ما لم تفعل البرامكة، فأنكر ذلك مني وتقبض عنه وقبّل يدي ورجلي.

وقال: هاهنا شيء آخر أُريد أن تَقْبله فقلت: ما هو قال: خمسة آلاف دينار وقد استحققنها من رزقي، فامتنعت من ذلك، وقلت: فيما قد تفضلت به كفاية، فحلف بالطلاق أن أقبلها منه فقبلتها، فقال: وهاهنا ألطاف من هدايا مصر أحببت أن أُصحبك إياها، فإنك تمضي إلى كتَّاب الدواوين ورؤساء الحضرة فيقولون لك: وَلِيت مصر فأين نصيبنا من هداياها؟ ولم تطل أيامك فتعد ذلك لهم، وقد جمعت لك منه ما يشتمل عليه هذا الثّبْت، وأخرج درجًا فيه ثبت جامع لكل شيءٍ في الدنيا حسن طريف جليل القدر من كل جنس، من ثياب دبيق وقصب وخدم وبغال ودواب وحمير وفرش وطيب حتى أقلام ومداد ما يكون قيمته مالًا كثيرًا، فأمرت بتسلمه وزدت في شكره، فقال لي: يا سيدي أنا مغرى بحب الفرش وقد استعملت لي بيتًا أرمنيًا بأرمينية وهو عشر مصلّيات بمخادّها ومساندها ومساورها ومطارحها وبسطها وهو بطرر مذهبة، قد قام عليَّ بخمسة آلاف دينار، على شدة احتياطي، وقد أهديته لك فإن أهديته إلى الوزير عَبَدك وإن أهديته إلى الخليفة ملكته به، وإن أبقيته لنفسك وتجملت به كان أحب إليّ، قال: وحمله فما رأيت مثله قط، ولم تسمح نفسي بإهدائه لأحد ولا باستعماله، فما ابتذلت منه شيئًا يا بني إلا يوم أعذارك، فإني اتخذت منه الصدر ومساند ومخاده، أفتلومني يا بني على أن أقوم لهذا الرجل؟ فقلت: لا والله يا أبي؛ ولا على ما هو أكثر من القيام، لو كان مستطاعًا.

قال: فكان أبي بعد ذلك إذا صرف رجلًا عن عمل، عامله بكل جميل، ويقول: علَّمنا ابن أبي خالد أحسن الله جزاءه، حسن الصرف.



(٢٣)

# الباقِلَّانِي

## القاضي محمد بن الطيب بن محمد أبو بكر

(٤٠٣)

الباقلاني، نسبة إلى الباقلا وبَيْعِهِ، من كبار المتكلمين الأشاعرة ومن زعماء مذهب مالك: ولد في البصرة على أصح الأقوال وسكن بغداد وتولى القضاء «وكان حسن الفقه عظيم الجدل وكانت له ببغداد حلقة عظيمة». وصفوه بأنه «سيف أهل السنة في زمانه وإمام متكلمي أهل الحق»، «كان أعرف الناس بعلم الكلام وأحسنهم فيه خاطرًا، وأجودهم لسانًا، وأوضحهم بيانًا، وأصحهم عبارة»، وقالوا: «كلُّ مصنِّفٍ ببغداد إنما ينقل من كتب الناس إلا القاضي أبا بكر فإن صدره يحوي علمه وعلم الناس»، وقالوا: «لو أوصى الرجل بثلث ماله لأفصح الناس لوجب أن يدفع إلى أبي بكر الأشعري». وكان من المكثرين من التأليف والمجودين فيه، يكتب كل ليلة خمسًا وثلاثين ورقة تصنيفًا من حفظه «فإذا صلى الفجر دفع إلى بعض أصحابه ما صنَّفه ليلته وأمره بقراءته عليه وأملى عليه الزيادات فيه»، و«حُسِبت تواليف القاضي وإملاءاته وقسمت على أيام عمره من مولده إلى موته فوجد أنه يقع لكل يوم منها عشر ورقات أو نحوها». واشتهر القاضي بمناظراته فكان في العراق وفارس يناظر المعتزلة ولما شاع ذكره، وهو ما برح في سن الشباب، استدعاه عضد الدولة فناخسرو لمناظرة المعتزلة في شيراز، وكان عضد الدولة قال في مجلس له إن هذا المجلس عامر بالعلماء إلا أني لا أرى أحدًا من أهل السنة والأثبات ينصر مذهبه، فقال له قاضي القضاة وكان معتزليًّا: إن أهل السنة والأثبات

عامة رعاعٌ أصحاب تقليد وأخبار وروايات يروون الخبر وضده ويعتقدونهما وواحدهما ناسخ للثاني أو متأول. فجاؤوا بالباقلاني وناظر المعتزلة فقيل: إنه غلبهم وحظي عند عضد الدولة البويهي وهذا من الشيعة، وقد ندبه عنه في جواب رسالة إلى الروم فناظر علماءهم في القسطنطينية وقالوا إنه كان أبدًا الظافر في مناظراته. وله أكثر من خمسين مؤلَّفًا ولم يُطبع له منها إلا إعجاز القرآن والتمهيد، وألف هذا الكتاب لابن عضد الدولة وقد أسلمه أبوه إليه ليعلمه مذهب أهل السنة، وهو في الرد على الملحدة والمعطلة والرافضة والخوارج والمعتزلة. وفي حرص عضد الدولة على تعليم ابنه مذهب السنة دليل تسامحه وبُعْد نظره، فإنه رأى كثرة الأمة من أهل السنة وأكثر رعيته منهم، فأحب أن يتخرج ابنه في مذهبهم حتى يكون ملكًا على رأي الأكثرية بعد أبيه.

كان الباقلاني إلى الاعتدال في محاجة المخالفين معتدلًا أكثر من غيره ممن يشتمون ويهزؤون ولا يستنكفون من المبادرة إلى تكفير خصمهم، وقد عقد فصلًا ممتعًا في آخر كتابه التمهيد عرض فيه لإمامة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم، ورَدَّ على من نالوا منهم وقالوا إن خلافتهم موضع نظر ردًا دلَّ على علو كعبه في التاريخ وعلى سعة استخراجه ومعرفته بنقض ما يردُّه العقل. كتب كل ذلك من السهل الممتنع بدون سجع ولا تزيُّد في الألفاظ، وأسلوبه هذا، كما ظهر من إعجاز القرآن والتمهيد لم يَحِدْ عنه، ولذلك حاز القبول. وما رأينا له أسجاعًا إلا في مقدمة كتابيه وهي أسجاع لطيفة لا تَكَلُّف فيها.

وكتابه «إعجاز القرآن» لم يَسبق لعالم قبله ولا لعالم بعده أن وُفِّق إلى تأليف مثله، وهو على المقصد الذي قصد إليه كتاب في البيان والنقد واللغة حمل فوائد عظيمة في ورقات قليلة. وإلى القارئ نموذجًا منه، وفيه دليل آخر على سعة علمه في الجدل قال: إن نظم القرآن على تصرف وجوهه واختلاف

مذاهبه خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم، وله أسلوب يختص به ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد. وذلك أن الطرق التي يتقيد بها الكلام البديع المنظوم تنقسم إلى أعاريض الشعر على اختلاف أنواعه، ثم إلى أنواع الكلام الموزون غير المقفى، ثم إلى أصناف الكلام المعدل المسجع، ثم إلى معدل موزون غير مسجع، ثم إلى ما يرسل إرسالًا فتطلب فيه الإصابة والإفادة وإفهام المعاني المعترضة على وجه بديع وترتيب لطيف وإن لم يكن معتدلًا في وزنه، وذلك شبيه بجملة الكلام الذي لا يتعمل ولا يتصنع له... والقرآن خارج عن هذه الوجوه ومباين لهذه الطرق..، إنه ليس من باب السجع ولا فيه شيء منه، وكذلك ليس من قبيل الشعر، لأن من الناس من زعم أنه كلام مسجع، ومنهم من يدعي أن فيه شعرًا كثيرًا... فإذا تأمله المتأمل تبين بخروجه عن أصناف كلامهم وأساليب خطابهم ـ إنه خارج عن العادة وإنه معجز، وهذه خصوصية ترجع على جملة القرآن، وتميُّز حاصل في جميعه.

ومنها: أنه ليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة والغرابة والتصرف البديع والمعاني اللطيفة والفوائد الغزيرة والحكم الكثيرة، والتناسب في البلاغة، والتشابه في البراعة، على هذا الطول وعلى هذا القدر. وإنما تنسب إلى حكيمهم كلمات معدودة وألفاظ قليلة، وإلى شاعرهم قصائد محصورة يقع فيها ما نبينه بعد هذا من الاختلال، ويعترضها ما نكشفه من الاختلاف، ويقع فيها ما نبديه من التعمل والتكلف والتجوز والتعسف، وقد حصل القرآن على كثرته وطوله متناسبًا في الفصاحة على ما وصفه الله تعالى به فقال عز من قائل ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾، فأخبر أن كلام الآدمي إن امتد وقع فيه التفاوت وبان عليه

الاختلال. وهذا المعنى هو غير المعنى الأول الذي بدأنا بذكره، فتأمله تعرف الفضل.

وإن عجيب نظمه وبديع تأليفه لا يتفاوت ولا يتباين على ما يتصرف إليه من الوجوه التي يتصرف فيها من ذكر قصص ومواعظ واحتجاج وحِكَم وأحكام وإعذار وإنذار ووعد ووعيد وتبشير وتخويف وأوصاف وتعليم أخلاق كريمة وشيم رفيعة وسِيَرٍ مأثورة وغير ذلك من الوجوه التي يشتمل عليها. ونجد كلام البليغ الكامل والشاعر المفلق والخطيب المصقع يختلف على حسب اختلاف هذه الأمور.

فمن الشعراء من يُجَوِّد في المدح دون الهجو، ومنهم من يُبَرِّز في الهجو دون المدح، ومنهم من يسبق في التقريظ دون التأبين، ومنهم من يجود في التأبين دون التقريظ، ومنهم من يغرب في وصف الإبل أو الخيل أو سير الليل أو وصف الحرب أو وصف الروض أو وصف الخمر أو الغزل أو غير ذلك مما يشتمل عليه الشعر ويتداوله الكلام، ولذلك ضُرِب المثل بامرئ القيس إذا ركب، والنابغة إذا رهب، وبزهير إذا رغب، ومثل ذلك يختلف في الخطب والرسائل وسائر أجناس الكلام. ومتى تأملت شعر الشاعر البليغ رأيت التفاوت في شعره على حسب الأحوال التي يتصرف فيها، فيأتي بالغاية في البراعة في معنى، فإذا جاء إلى غيره قصَّر عنه ووقف دونه وبان الاختلاف على شعره. ولذلك ضرب المثل بالذين سميتهم لأنه لا خلاف في تقدمهم في صنعة الشعر ولا شك في تبريزهم في مذهب النظم. فإذا كان الاختلال بينًا في شعرهم لاختلاف ما يتصرفون فيه استغنينا عن ذكر من هو دونهم، وكذلك يستغنى به من تفصيل نحو هذا في الخطب والرسائل ونحوها. ثم نجد في الشعراء من يجوِّد في الرجز ولا يمكنه نظم القصيد أصلًا، ومنهم من ينظم القصيد ولكن يقصر فيه مهما تكلفه أو عمله، ومن الناس من يجود في الكلام

المرسل فإذا أتى بالموزون قصر ونقص نقصانًا عجيبًا، ومنهم من يوجد بضد ذلك.

وقد تأملنا نظم القرآن فوجدنا جميع ما يتصرف فيه من الوجوه التي قدَّمنا ذكرها على حدٍّ واحدٍ في حسن النظم وبديع التأليف والوصف، لا تفاوت فيه ولا انحطاط عن المنزلة العليا، ولا إسفاف فيه إلى الرتبة الدنيا، وكذلك قد تأملنا ما يتصرف إليه وجوه الخطاب من الآيات الطويلة والقصيرة، فرأينا الإعجاز في جميعها على حد واحد لا يختلف، وكذلك قد يتفاوت كلام الناس عند إعادة ذكر القصة الواحدة، فرأيناه غير مختلف ولا متفاوت بل هو على نهاية البلاغة وغاية البراعة، فعلمنا بذلك أنه مما لا يقدر عليه البشر، لأن الذين يقدرون عليه قد بينا فيه التفاوت الكثير عند التكرار وعند تباين الوجوه واختلاف الأسباب التي يتضمن.

وكلام الفصحاء يتفاوت تفاوتًا بينًا في الفصل والوصل والعلو والنزول والتقريب والتبعيد وغير ذلك كما ينقسم إليه الخطاب عند النظم وينصرف فيه القول عند الضم والجمع. ألا ترى أن كثيرًا من الشعراء قد وُصِفَ بالنقص عند التنقُّل من معنى إلى غيره والخروج من باب إلى سواه، حتى إن أهل الصنعة قد اتفقوا على تقصير البحتري مع جودة نظمه وحسن رصفه في الخروج من النسيب إلى المديح، وأطبقوا على أنه لا يحسنه ولا يأتي فيه بشيء، وإنما اتفق له في مواضع معدودة خروج يُرتَضَى وتَنَقُّل يُستحسَن، وكذلك يختلف سبيل غيره عند الخروج من شيءٍ إلى شيءٍ والتحوّل من باب إلى باب، ونحن نفصل بعد هذا ونفسر هذه الجملة ونبين على أن القرآن على اختلاف ما ينصرف فيه من الوجوه الكثيرة والطرق المختلفة ـ يجعل المختلف كالمؤتلف والمتباين كالمتناسب والمتنافر في الأفراد إلى حد الآحاد. وهذا أمر عجيب تتبين به الفصاحة وتظهر به البلاغة ويخرج به الكلام عن حد العادة ويتجاوز العرف اهـ.

والباقلاني كان على فرط اعتداله في المناظرات وردِّ كلام خصومه عارفًا بسياسة العلم وسياسة الخلق، ذكيًّا مفرط الذكاء عنده لكل ضيق مخرج، وفي سفارته عن الملك البويهي إلى ملك الروم قال إن هذا أُخبر بمقدمنا فأرسل إلينا من يلقانا وقال: لا تدخلوا على الملك بعمائمكم حتى تنزعوها إلا أن تكون مناديل وحتى تنزعوا أخفافكم، فقلت: لا أفعل ولا أدخل إلا بما أنا عليه من الزي واللباس، فإن رضيتم وإلا فخذوا الكتب تقرؤونها وأرسلوا بجوابها وأعود بها. فأخبر الملك بذلك فقال: أريد معرفة سبب هذا وامتناعه مما مضى عليه رسمي مع الرسل. فسئل القاضي عن ذلك فقال: أنا رجل من المسلمين وما تحبونه مني ذل وصَغار. والله تعالى قد رفعنا بالإسلام وأعزنا بنبينا محمد ﷺ، وأيضًا: فإن من شأن الملوك إذا بعثوا رسلهم إلى ملك آخر رفع أقدارهم ولا يتعمد إذلالهم سيما إذا كان الرسول من أهل العلم، ووضع قدره انهدام جانبه عند الله تعالى وعند المسلمين. فرضي الملك أن يدخل ومن معه كما يشاؤون. وفي رواية: أن الملك رضي أن يدخل عليه الباقلاني كما جرى رسم الرعية أن يقبل الأرض بين يدي ملوكها، فرأى أن يضع سريره من وراء باب لطيف لا يمكن أن يدخل أحد منه إلا راكعًا فدخل القاضي من هذا الباب وأحنى رأسه راكعًا ودخل من الباب مستقبلًا الملك بدبره حتى صار بين يديه ثم رفع راسه ونصب ظهره ثم أدار وجهه إلى الملك، فعجب الملك من فطنته ووقعت له الهيبة في قلبه. وكانت هذه السفارة سنة ٣٧١.

ولما اجتمع على أحد الرهبان في حضرة ملك الروم سأله الباقلاني عن أهله وأولاده فتعجب الملك من سؤاله وقال: إننا ننزِّه هؤلاء عن الأهل والأولاد فأجاب: أنتم لا تنزهون الله سبحانه عن الأهل والولد، فكأن هؤلاء عندكم أقدس وأجل من الله تعالى؟ ولما سأله الملك عن قصة عائشة وما قيل فيها قال: هما اثنتان قيل فيهما ما قيل: زوج نبينا ومريم بنت عمران؛ فأما زوج نبينا فلم تلد، وأما مريم فجاءت بولد تحمله على كتفها وقد برأها الله مما رُمِيت به، فانقطع الملك ولم يُحِرْ جوابًا.

رُزق الباقلاني حظًّا عظيمًا من البديهة أعانته على التفرد بمناظراته؛ ففيه سرعة الخاطر وفيه الحافظة، وبديهته نفعته في مناظراته الدينية ومواقفه السياسية، وقَلَّ ظهور أمثاله في العلماء المشهورين. وكثرت تآليفه لأنه كان كابن تيمية لا يرجع إلى الكتب فيما يؤلف بقدر ما يرجع إلى صدره ويغترف من محفوظه.

وقد ترجم له العلامة بروكلمان في معلمة الإسلام فقال: إنه أدخل في علم الكلام آراء جديدة اقتبسها من الفلسفة اليونانية أَو من معتقدات الكنيسة الشرقية كالقول بالأجزاء المفردة والقول بالخلاء والقول أن العَرَضَ لا يحمل عرضًا آخر وأنه لا يبقى زمانين.



(٢٤)

# ابن هندو

## أبو الفرج علي بن الحسين

(٤٢٠)

هو من أهل الرَّيّ لا نعرف إن كان من العرب النازلين فيها أو أنه من أصل فارسي. وهو من رجال البلاغة، كاتبٌ شاعر. قالوا كان صاحب أبوة في بلده ولسلفه نباهة بالنيابة وخدمة السلطان هناك، وكان متفلسفًا قرأ كتب الأوائل على أبي الحسن الوائلي بنيسابور ثم على الحكيم أبي الخير بن الخمار. وكان أحد كتاب الإنشاء في ديوان عضد الدولة. وقال البندنيجي الشاعر هو من أهل الري شاهدته بجرجان في سني بضع عشرة وأربعمئة كاتبًا بها، وأنه مشهور في تلك البلاد بجودة الشعر وكثرة الأدب والفضل. وقال فيه صاحب يتيمة الدهر: هو مع ضربه في الآداب والعلوم بالسهام الفائزة، وملكه رقه البلاغة والبراعة، فرد الدهر في الشعر، وأحد أهل الفضل في صيد المعاني الشوارد، ونظم الفرائد في القلائد، مع تهذيب الألفاظ البليغة وتقريب الأغراض البعيدة.

ومن تآليفه: «أنموذج الحكمة» و«المفتاح» في فوائد علم الطب و«الرسالة المشرقية» و«كتاب النفس» ورسائل وديوان وكتب أُخر. وفي كتاب المفتاح أن متكلمًا كان في جواره وصنف كتابًا في إبطال علم الطب، وحث تلامذته على درسه فعرض له صداع فبعث تفسرته إلى الحكيم أبي الخير، فقال الحكيم أبو الخير لرسوله: قل له ضع تصنيفك في إبطال علم الطب تحت وسادتك وضع عليها رأسك، فإنه لا حاجة لك إلى الطبيب والطب. فما عالجه واحد من

الأطباء حتى اعترف ببطلان كلامه ومزق تصنيفه وتاب. ثم عالجناه وشفاه الله تبارك وتعالى.

وقال: إن أحد المتكلمين في جواره عرض له خناق فعاده، فقال له: ما ينفعني من طريق الطب؟ فقلت له: ينفعك ماء الشعير الفاتر مع ماء الرمانين ورُبّ التوت وخل الجوز وماء الهندباء مع فلوس الخيارشنبر وفصد القيفال (عِرق في اليد) وغير ذلك. فقال: وما يضرني؟ فقلت: ما فيه حرارة. فقال: كيف يكون العسل المصفى والعصيدة التمرية؟ فقلت، نعوذ بالله ففيهما هلاكك. فقال لتلامذته: أنا أخالف رأي الأطباء عقيدة ومذهبًا، ولا غفر الله لي إن خالفت عقيدتي وأَطعت طبيبًا فقمت من عنده، فتناول العسل والعصيدة ومات قبل غروب الشمس.

وابن هندو كان على ما ظهر مما قاله المؤرخون فيه عالمًا ممتازًا فيما غلب عليه من صنوف الآداب، قعد به الحظ فلم يظهر بالمظهر الذي كان جديرًا به من الرياسات والمقامات، فكان في الديوان كاتبًا دون الدرجات العالية، فأثر ذلك في نفسه وحنق على الدهر والأيام. من ذلك ما حدث به البندنيجي قال: كان الناس يظنون بمنوجهر بن قابوس ما كان في أبيه من الأدب والفضل ولم يكن كذلك، فلما انتقل الأمر إليه قصد بما يقصد به مثله، وكان لا يوصل إليه إلا القليل ولا يتقبل ما يمدح به، ولا يهش لشيء من هذا الجنس لتباعده عنه، وكان مع هذه الحالة فروقة قليل البطش، فمدحه ابن هندو بقصيدة وتأنق فيها وأنشده إياها فلم يفهمها ولم يثبه عليها فقال:

يا ويح فضلي أما في الناس من رجل ... يحنو عليَّ أما في الأرض من ملك
لأكرمنّك يا فضلي بتركهم ... وأستهينن بالأيام والفلك

فقيل لمنوجهر إنه قد هجاك لأن لقبه كان «فلك المعالي»، فطلبه ليقتله فهرب إلى نيسابور وانفلت منه.

وتحدث أبو الفضل البندنيجي الشاعر قال: كان بابن هندو ضرب من

السوداء كان قليل القدرة على شرب النبيذ لأجل ذلك، واتفق أنه كان يومًا عند أبي الفتح بن أبي علي كاتب قابوس بن وشمكير وأنا معه، على عادة لنا في الاجتماع، فدخل أبو علي إلى الموضع ونظر إلى ما كان بأيدينا من الكتب وتناشد هو وابن هندو الشعر وحضر الطعام فأكلنا وانتقلنا إلى مجلس الشراب، ولم يطق ابن هندو المساعدة على ذلك فكتب في رقعة كتبها إليه:

قد كفاني من المدام شميم ... صالحتني النهى وثاب الغريم

هي جهد العقول سمي راحًا ... مثل ما قيل لِلَّدِيغ سليم

إن تكن جنة النعيم ففيها ... من أذى السكر والخمار جحيم

فلما قرأها ضحك وأعفاه من الشرب. وأنشد أبو الفضل له:

قالوا اشتغل عنهم يومًا بغيرهم ... وخادع النفس إن النفس تنخدع

قد صيغ قلبي على مقدار حبهم ... فما لحب سواهم فيه متسع

وحدث أبو الفضل هذا قال: كان ابن هندو يشرب يومًا عند أبي غانم القصري، واقتصر على أقداح يسيرة ثم أمسك فسأله الزيادة فلم يفعل وقال:

أرى الخمر نارًا والنفوس جواهرا ... فإن شُربت أبدت طباع الجوهر

فلا تفضحن النفس يومًا بشربها ... إذا لم تثق منها بحسن السرائر

وله أيضًا:

تعرضت الدنيا بلذة مطعم ... وزخرف موشي من اللبس رائق

أراد سفاهًا أن يموّه قبحها ... على فِكر خاضت بحار الدقائق

فلا تخدعينا بالشراب فإننا ... قتلنا نهانا في طلاب الحقائق

وله:

ضعت بأهل الريّ في أهلها ... ضياع حرف الراء في اللثغة

صرت بها بعد بلوغ المنى ... أحمد أن تبلغ أبي البلغة

وله:

إذا ما عقدنا نعمة عند جاحد ... ولم نره إلا جموحًا عن الشكر
رجعنا فعفينا الجميل بضده ... كذاك يجازي صاحب الشر بالشرّ

وله أيضًا:

وكافر بالمعاد أمسى ... يخلبني قوله الخلوب
قال اغتنم لذة الليالي ... وعدٍّ عن آجل يريب
طال هواه وجاء يهذي ... طبت لعينيك يا طبيب
أأخطأ العالمون طرًّا ... وأنت من بينهم مصيب

وله:

حللت وقاريَ في شادن ... عيون الأنام به تعقد
غدا وجهه كعبة للجمال ... ولي قلبه الحجر الأسود

وله:

ألا ربَّ مولى غرَّني من عهوده ... يمين عليها صافحتني يمينه
أُكابد منه ضد ما أستحقه ... فأصدق في ودي له ويمين هو
عجيب لأخلاق اللئام كأنهم ... عن الكرم المعجون في شيمتي نهوا

وله:

يقولون لي ما بال عينك مذ رأت ... محاسن هذا الظبي أدمعها هطل
فقلت زنت عيني بطلعة وجهه ... فكان لها من صوب أدمعها غسل

وقال:

قوّض خيامك من أرض تضام بها ... وجانب الذل إن الذل يجتنب
وارحل إذا كانت الأوطان منقصة ... فمندل الهند في أوطانه حطب

هذه أمثلة جميلة من شعره الذي حوى النكات مع السلاسة والإبداع. بقي أن ننقل ما أُثر له من النثر، فمنه: إنما المرء حيث يجعل نفسه. عظِّم العلم في

ذاتك، وصغر الدنيا في عينك، واخرج من سلطان شهواتك، وكن ضعيفًا عند الهزل، قويًا عند الجد، ولا تلم أحدًا عن فعل يمكن أن يعتذر منه، ولا ترفع شكايتك إلا إلى من يرى نفعه عندك حتى تكون حكيمًا كاملًا. ومن كلماته: العاقل لا يكلف نفسه ما لا يطيق، ولا يسعى فيما لا يدرك، ولا ينظر فيما لا يعنيه، ولا ينفق إلا بقدر ما يستفيد، ولا يلتمس الجزاء إلا بقدر ما عند صاحبه من الاستطاعة.

وكانت الحكمة تظهر في شعره، يشبه في ذلك المتنبي كثيرًا. وقد التقط حكم اليونان وجمعها في مصنف سماه: «الكلم الروحانية من الحكم اليونانية» أثبت من كلمات الفلاسفة اليونانيين ما يجري مع الأمثال السوائر، ويدخل في النوادر، دون ما يعد من غامض الفلسفة، ويحصل معناه بعد الكلفة، فجمع من شواردها ما ساعد عليه الوقت واستحضره الحفظ، ناسبًا أكثره إلى قائليه، وشافيًا خفّيه بما يجليه.

بدأ بحِكَمٍ لأفلاطون، وقد استغرقت نحو نصف المجموعة، ثم ثناها بأرسطاطاليس، ثم سقراط، ثم بمحاورات جرت بين أريجانس وسقراط، ثم كلمات لاميروس فالاسكندر فباسيليوس ففيثاغورس فبقراط فجالينوس فديمستانس فزينون فديقوميس ففيلمون فنوموس فأكسانوقراطس فغورس فديمطس فديوجانس إلى غيرهم من الفلاسفة غير المشهورين في أَدبنا المتعارف.

فمما نقله من حِكَم أفلاطون: لا تصحبوا الأشرار فإنهم يمنون عليكم بالسلامة منهم. وقال: لا تقسروا أولادكم على آدابكم، فإنهم مخلوقون لزمان غير زمانكم. وقال: لا تطلب سرعة العمل واطلب تجويده، فإن الناس لا يسألون عن مدة العمل، وإنما يسألون عن جودته. وقال: إذا أقبلت الدولة خدمت الشهوات العقول، وإذا أدبرت خدمت العقول الشهوات.

قال أفلاطن: (لغة في أَفلاطون) لا تَكْمُل خيرية الرجل حتى يكون صديقًا

لمتعاديين. وقال: اتقوا صولة الكريم إذا جاع، واللئيم إذا شبع. وقال: موت الرؤساء أسهل من رئاسة السفلة. موقع الصواب من الجهال مثل موقع الجهل من العقلاء. إذا بلغ المرء من الدنيا فوق مقداره تنكرت أخلاقه للناس. لا تصحب الشرير، فإن طبعك يسرق منه وأنت لا تدري. وقال: لا تفارق طاعة الرأي والصبر في كل أمورك، فإنك إن لم تحرز الحظ الذي تبغيه كنت قد أحرزت العذر. قال المؤلف قد أحسن الشاعر في هذا حيث يقول:

لأبلغ عذرًا أو أنال رغيبة ... ومبلغ نفس عذرها مثل منجح

وقال: موت الصالح راحة لنفسه، وموت الطالح راحة للناس. قال المؤلف: قريب من هذا ما يحكى عن غير أفلاطن: ابْكِ على العاقل يوم يموت، وعلى الأحمق حتى يموت. وقال: الفضيلة تجمع أهلها على المحبة والرذيلة تفرق بين أهلها بالتنافر والبغضة، ألا ترى أن الصادق يحب الصادق ويستنيم إليه، وكذلك الثقة مع الثقة والحسن الخلق مع الحسن الخلق، وترى الكاذب يبغض الكاذب والسارق يخاف السارق وكل واحدٍ منهما حَذِرٌ من مجاورة صاحبه. وقال: المصغي إلى الذم شريك لقائله؛ قال بعض الشعراء:

والسامع الذم شريك له ... والمطعم المأكول كالآكل

وقال: الفقير إذا تشبه بالغني كان كمن به الورم ويوهم الناس أنه سمين وهو يستر ما به من الورم. قال المؤلف: كأن أبا الطيب المتنبي لَحَظَ هذا الكلام حيث يقول:

أُعيذها نظرات منك صادقة ... أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم

وقال أرسطوطاليس: الحكيم الصالح لا يخادِع أحدًا، والعاقل الكامل لا يخدعه أحد. قال المؤلف: أن يكون الإنسان مخدوعًا ليس بصفة محمودة، لأنه يدخل في باب الغباوة، وربما ظن الناس أنه صفة مدح لما يسمعون من قولهم الكريم مخدوع:

ومن قول الشاعر:

إن الكريم إذا ما خودع انخدعا

ومن قول الآخر:

خادع خليفتنا عنها بمسألة إن الخليفة للسؤال ينخدع

وليس الأمر كما يظنون وإنما المراد بالانخداع هاهنا التكلف مع المعرفة بالخديعة. وقد صرح أبو تمام الطائي بالواجب في هذا المعنى فقال:

ليس الغبيّ بسيد في قومه لكن سيد قومه المتغابي

وقال: يا إسكندر لا يكوننَّ لجائزتك حد، فإن ذلك أبسط للأمل فيك. وقال: يا إسكندر اعمر ما خرب مما أنشأه من تقدمك يعمر ما تبنيه من يعقبك. وقيل لسقراط: لمَ لا نرى أثر حزن فيك؟ قال: لأني لا أَملك ما أحزن عليه إذا عدمته. قال بعض الشعراء:

ألم تَر أن الدهر يهدم ما بنى ويأخذ ما أعطى ويفسد ما أسدى

فمن سره ألّا يرى ما يسوءه فلا يتخذ شيئًا يخاف له فقدا

وقال أوميرس: الكذاب لا يصلح لشيء حتى يصلح الثعلب للذئب. وقال: الإنسان الخيّر أفضل من جميع الحيوان الذي على وجه الأرض، والإنسان الشرير أخسُّ من جميع الحيوان الذي على وجه الأرض. وقال: إني لأعجب من الناس إن مكنهم الله من الاقتداء بالملائكة فيدعون ذلك ويميلون للاقتداء بالبهائم. قال المؤلف: عندهم أن التفلسف هو الاقتداء بالله تعالى وأن تعلم الحق وتفعل الخير.

ومن كلام باسيليوس الملك: لا تغتر بحسن الكلام إذا كان الغرض منه ضارًّا فإن الذين يَسُمُّون الناس يخلطون السم بالحلاوات، ولا يصعبن عليك الكلام الغليظ إذا كان الغرض منه نافعًا، فإن أكثر الأدوية الجالبة للصحة مرة بشعة.

من كلام فيثاغورس، ويقال: إنه أول فيلسوف اجتمعت إليه التلاميذ قال

لابنه: أوصيك بعشرة أشياء فاحفظها تسلم: لا تلاحِ حديدًا، ولا تشارب غيورًا، ولا تساكن حسودًا، ولا تجاور جاهلًا، ولا تناهض من هو أقوى منك، ولا تؤاخِ مرائيًا، ولا تعامل كذابًا، ولا تكثر مجالسة النساء، ولا تصاحب بخيلًا. والعاشرة هي عمدة الوصية وبها سلامة نفسك ألا تستودع سرك أحدًا.

من كلام ديمستانس الخطيب، قال: يجب على من اصطنع معروفًا أن يتناساه من ساعته، ويجب على من أُسدي إليه معروف أن يكون ذكره نصب عينيه. قال المؤلف: قيل في يحيى بن الفضل:

ينسى الذي كان من معروفه أبدًا　　　إلى الرجال ولا ينسى الذي يعد

من كلام ديوجانس الكلبي ـ والكلبيون فرقة من الفلاسفة يستهينون بالعادات مثل أن يأكلوا في الطرقات ويلبسوا ما اتفق ويناموا حيث اتفق ولذلك شبهوا بالكلاب ـ رأى ديوجانس غلامًا منبوذًا أي: ملقوطًا يرمى بالحجارة. فقال له: لا ترم فلعلك تصيب أباك وأنت لا تدري. قال المؤلف: نقل شاعر من العرب هذا المعنى فقال:

لا تهجون أسنَّ منك فربما　　　تهجو أباك وأنت لا تدري

من كلام فندروس قال: كما أن الجسد إذا فارقته النفس فاح منه النتن في الخارج، كذلك الجاهل الذي عدم الحكمة لا يخرج من فيه لفظة إلا كانت أذًى ونتنًا على سامعها، وكما أن الجسد لا يشعر بما يظهر منه من النتن لأنه ميت، كذلك لا يحس الجاهل بنتن كلامه لأنه ميت التمييز.

قيل لسطيحوس: إن أوميروس يكذب كثيرًا فقال: الذي يُطلب من الشاعر إنما هو الكلام الحسن اللذيذ، فأما الصدق فإنما يطلب من الأنبياء عليهم السلام.



(٢٥)

# التوحيدي

(٤١٤)

علي بن محمد بن العباس التوحيدي، نسبة إلى التوحيد نوعٌ من التمر كان يبيعه أبوه بالعراق، أو إلى التوحيد لقب المعتزلة، وكانوا يسمون أنفسهم أهل العدل والتوحيد، وهو الأرجح. وقال الذهبي: وأبو حيان هو الذي نسب نفسه إلى التوحيد، كما سمى ابن تومرت أتباعه فقال الموحدون، وكما سمى صوفية الفلاسفة نفوسهم بأهل الوحدة وأهل الاتحاد. قيل: إنه شيرازي. وقيل: نيسابوري. وقيل: واسطي. وكنيته أبو حيان. ولد في أواخر العقد الثاني من القرن الرابع، وجاء بغداد صغيرًا. وسواء كان من أصل فارسي أو عربي فليس في ثقافته أثر ظاهر للفارسية يصح للحكم به على نسبه. قيل: إنه مات بشيراز سنة ٤١٤.

تخرج بالسيرافي والرُّماني بالنحو، وبالفقه الشافعي بأبي حامد المَرْوروزي وأبي بكر الشافعي، وحضر بين سنتي ٣٦١ ـ ٣٩١ دروس يحيى بن عدي وأبي سليمان المنطقي وغيرهما من الفلاسفة مثل أبي الحسن العامري وأبي النفيس الرياضي الفيلسوف.

وصفه ياقوت: أنه كان جاحظيًّا يسلك في تصانيفه مسلك الجاحظ ويشتهي أن ينتظم في سلكه، فهو شيخ الصوفية، وفيلسوف الأدباء، وأديب الفلاسفة، ومحقق أهل الكلام، ومتكلم المحققين، وإمام البلغاء، فرد الدنيا الذي لا نظير له، ذكاءً وفطنةً وفصاحةً ومكنةً، كثير التحصيل للعلوم في كل

فن، حُفَظة واسع الرواية والدراية. وقال فيه: إنه كان صوفي السمت والهيئة وإنه كان فقيرًا صابرًا. وعَدَّه السبكي في طبقات الشافعية من المؤرخين.

ولم يكن للتوحيدي مرتزق من السلطان، واشتغل زمنًا بالوراقة في بغداد. ولما ترامى إليه نبأ مَكارم ابن العميد والصاحب بن عباد من وزراء آل بُوَيْه في الشرق، وكانا من حماة الأدب كالوزير المهلبي وسيف الدولة بن حمدان قصدهما في بلديهما فلم يحظ بطائل. وكان من الصاحب أن عرض عليه نسخ كتاب في ثلاثين مجلدًا. فقال نسخ مثله يأتي على العمر والبصر، والوراقة كانت موجودة ببغداد. فأخذ الصاحب في نفسه عليه وعاد إلى وطنه وهجاهما في كتاب أسماه مثالب الوزيرين أورد فيه حكايات من ثلبهما، ومنها ما عزاه إلى بعض من روى عنهم.

وإذا فاتت التوحيدي عوارف ابن العميد وابن عباد فقد أكرمه الوزيران ابن سعدان وابن العارض. ولابن سعدان ألَّف كتابَ الصداقة والصديق ولابن العارض كتاب الإمتاع والمؤانسة. وللدُّلجي بشيراز ألف كتاب المحاضرات. وله غير ذلك من الكتب، طُبع منها الصداقة والصديق والمقابسات وثمرات العلوم. وأهم ما طُبع من كتبه كتاب الإمتاع والمؤانسة ينم عن مبلغ صاحبه من الأدب والعلم والفلسفة والتاريخ والرواية، وفيه تقريع وتقريظ ونقد ولمز ووعظ وإرشاد وأسئلة وأجوبة وروايات ومساجلات ومحاضرات ومحاضر جلسات بأسلوب جديد حوى كل مفيد، يدل على شدة تصرفه بالكلام والتلاعب بالآراء والأفكار وهو من نوع الأدب الطريف يدخل عقلَ المطالع بلا استئذان ويمتعه فيه بكل عجيب.

دوَّن فيه ما دار بينه وبين الوزير ابن العارض في أربعين ليلة عرض فيها لموضوعات جمة في الشعر والكتابة والتفسير والحديث والفلسفة والكلام والملح والمجون والتاريخ والتصوف والطبيعة والحيوان ونفث فيه ـ كما قال ـ كل ما كان في نفسه من جد وهزل، وغث وسمين، وشاحب ونضير، وفكاهة

وطيب وأدب، واحتجاج واعتذار، واعتلال واستدلال، وأشياء من طريف الممالحة على وجهٍ قَلَّ أن حمل كتاب للقدماء في الأدب مثل هذه الأبحاث الطريفة، فإن أكثر كتب القدماء نقول ينقل المتأخر عن المتقدم، لا يعزون على الأكثر إلى المصدر المأخوذ منه، وكتاب الإمتاع يحوي ما تحوي كتب القدماء، ويكثر فيه الجديد الذي لم يسبق إليه. وأما الطريف حقًّا فهو مجالس العلماء ومحاضرات الحكماء والحكم على المشهورين منهم، صورهم صورة غريبة فصور بهم عصرهم بحسنه وقبحه.

وكان الوزير ابن العارض الذي جرت هذه الفوائد في مجلسه، على ما ظهر من أسئلته وأجوبته في تلك الأسمار على جانب من العلم والفهم ومعرفة بالسياسة، وكان إلى هذا يعرف ضعف صاحبه الملك ويخافه فقال عن نفسه: إنه وصل إلى المجلس مرة فقيل له أُعدت الخِلعة فالبسها على الطائر الأسعد، فقال: أفعل وفي تذكرتي أشياء لا بد عن ذكرها وعرضها، فقال: يتقدم بكذا وكذا، ويفعل كذا وكذا فقال صاحبه: عندي جميع ذلك، أمض هذا كله واصنع فيه ما ترى وما فوق يدك يد، ولا عليك لأحد اعتراض. فانقلب الوزير إلى زاوية في الحجرة وأخذت تتحدر دموعه، ويعلو شهيقه، ويتوالى نشيجه. فسئل الوزير عن سب بكائه فقال: إني عرضتُ على صاحبي تذكرة مشتملة على أَشياء مختلفة فأمضاها كلها ولم يناظرني في شيءٍ منها ولا زادني شيئًا فيها ولا ناظرني عليها ولعلي قد بلوته بها، وأخفيت مغزاي في ضمنها، فخيّل إليَّ بهذه الحالة أن غيري يقف موقفي فيقول فيّ قولًا مزخرفًا، وينسب إليَّ أمرًا مزيفًا فيُمضي ذلك أيضًا له كما أمضاه لي. وصدق الوزير، فإن الملك لم يلبث أن قتله بوشاية منافس له.

سأل التوحيدي مسامره الوزير من أول ليلة أن يأذن له في كاف المخاطبة وتاء المواجهة حتى يتخلص من مزاحمة الكناية ومضايقة التعريض ويركب جدد القول من غير تقية ولا تحاش ولا محاباة، فقال له: لك ذلك وأنت

المأذون فيه وكذلك غيرك وقال: إن الله تعالى على علو شأنه، وبسطة ملكه، وقدرته على جميع خلقه، يواجه بالتاء والكاف، ولو كان بالكناية بالهاء رفعةً وجلالة وقدر ورتبة وتقديس وتمجيد لكان الله أحق بذلك ومقدَّمًا فيه، وكذلك رسول الله ﷺ والأنبياء قبله عليهم السلام وأصحابه ﷺ والتابعون لهم بإحسان رحمة الله عليهم. وهكذا الخلفاء فقد كان يقال للخليفة: يا أمير المؤمنين أعزك الله، ويا عمر أصلحك الله، وما عاب هذا أحد وما أَنِفَ منه حسيب ولا نسيب، ولا أباه كبير ولا شريف. وإني لأعجب من قوم يرغبون عن هذا أو شبهه ويحسبون أن في ذلك ضعة أو نقيصة أو خطأ أو زراية وأظن ذلك لعجزهم وفسولتهم، وما يجدونه من الغضاضة في أنفسهم وقال: هيهات لا تكون الرياسة حتى تصفو من شوائب الخيلاء، ومن مقابح الزهو والكبرياء.

وبالقليل الذي نجا من كتب أبي حيان استدللنا أنه كان متصوفًا وفيلسوفًا، آيةً في العلوم المعادية والعلوم المعاشية، لا يتلكأ في الأخذ من كل علم ولا يتعفف من الطعن فيمن لا ترضيه طريقتهم، وربما سجل لبعضهم شيئًا من الهنات، وأغفل كثيرًا من حسناتهم، وبهذا كثر خصومه فخاصموه في علمه وفي رزقه، وهو النابغة الذي يمضي القرن والقرنان ولا ينبغ مثله في تفكيره.

أَضاق أبو حيان في آخر عمره فأحرق كتبه سنة أربعمئة، فقال لمن عذله على فعلته: ثم اعلم، علمك الله الخير، أن هذه الكتب حوت من أَصناف العلم سره وعلانيته، فأما ما كان سرًّا فلم أجد له من يتحلى بحقيقته راغبًا، وأما ما كان علانية فلم أُصب من يحرص عليه طالبًا، على أني جمعت أكثرها للناس، ولطلب المثالة منهم، ولعقد الرياسة بينهم، ومدّ الجاه عندهم، فحرمت ذلك كله... ومما شحذ العزم على ذلك ورفع الحجاب عنه أني فقدت ولدًا نجيبًا، وصديقًا حبيبًا، وصاحبًا قريبًا، وتابعًا أديبًا، ورئيسًا منيبًا، فشق عليّ أن أدعها لقوم يتلاعبون بها، ويدنسون عرضي إذا نظروا فيها،

ويشمتون بسهوي وغلطي إذا تصفحوها، ويتراءون نقصي وعيبي من أجلها، فإن قلت ولِمَ تَسِمهم بسوء الظن، وتقرّع جماعتهم بهذا العيب، فجوابي لك أن عياني منهم في الحياة، هو الذي حقق ظني بهم بعد الممات، وكيف أتركها لأناس جاورتهم عشرين سنة فما صحَّ لي من أحدهم وداد، ولا ظهر لي من إنسان منهم حِفاظ، ولقد اضطررت بينهم بعد الشهرة والمعرفة في أوقات كثيرة إلى أكل الخَضِر في الصحراء، وإلى التكفف الفاضح عند الخاصة والعامة، وإلى بيع الدين والمروءة، وإلى تعاطي الرياء بالسمعة والنفاق، وإلى ما لا يحسن بالحر أن يرسمه بالقلم، ويطرح في قلب صاحبه الألم، وأحوال الزمان بادية لعينيك، بارزة بين مسائك وصباحك، وليس ما قلته بخافٍ عليك، مع معرفتك وفطنتك، وشدة تتبعك وتفرغك. . .

قال: والله يا سيدي لو لم أتعظ إلا بمن فقدته من الإخوان والأخدان، في هذا الصقع من الغرباء والأدباء والأحباء لكفى، فكيف بمن كانت العين تقرُّ بهم، والنفس تستنير بقربهم، فقدتهم بالعراق والحجاز والجبل والريّ وما والى هذه المواضع، وتواتر إليَّ نعيّهم، واشتدت الواعية بهم، فهل أنا إلا من عنصرهم، وهل لي محيد عن مصيرهم. . وماذا أقول وسامعي يصدق أن زمانًا أحوج مثلي إلى ما بلغك، لزمان تدمع له العين حزنًا وأسى، ويتقطع عليه القلب غيظًا وجوًى، وضنى وشجى، وما يصنع بما كان، وحدث وبان، إن احتجت على العلم في خاصة نفسي فقليل، والله تعالى شاف كاف، وإن احتجت إليه للناس، ففي الصدر منه ما يملأ القرطاس بعد القرطاس، إلى أن تفنى الأنفاس بعد الأنفاس. فلم تُعَنّي عيني، أيدك الله، بعد هذا بالحبر والورق والجلد، والقراءة والمقابلة والتصحيح، وبالسواد والبياض، وهل أدرك السلف في الدين الدرجات العلى إلا بالعمل الصالح وإخلاص المعتقد والزهد الغالب في كل ما راق من الدنيا وخدع بالزبرج وهوى بصاحبه إلى الهبوط. وهل وصل الحكماء والقدماء إلى السعادة العظمى إلا بالاقتصاد في

السعي وإلا بالرضا بالميسور، وإلا ببذل ما فضل عن الحاجة للسائل والمحروم. وختم كتابه بقوله: «على أني لو علمت في أي حال غلب على ما فعلته، وعند أي مرض، وعلى أي عسرة وفاقة، لعرفت من عذري أضعاف ما أبديته، واحتججت لي بأكثر ما نشرته وطويته».

بلغ التشاؤم أقصى حده من نفسه فأتى ما أتى من إحراق كتبه وهو في عشر التسعين وقد أدقعه الفقر واستولى عليه اليأس، وغلبت عليه السويداء، ونفس عظيمة كنفس التوحيدي لم تحقق الأيام أطماعها، وفشل في مادياته وهي السُلّم إلى معنوياته، لا بد أنه عَدِم اتزانه في شيخوخته، والطموح إلى العلا كان متجليًا فيه في الكهولة وانقلب في الشيخوخة إلى قنوط، وزاده ما ناله من أعدائه ومنهم من كان هو السبب الأول في استجلاب عداوتهم بما وصفهم به في كتبه من النقائص، وما أرى أنه سلم من لسانه إلا أساتذته كعيسى الرماني وأبي سليمان المنطقي ويحيى بن عدي وغيرهم، أما من عداهم فذكر مساوئهم على الغالب، وما جنح لذكر محاسنهم مع أنهم كانوا يعدون شيئًا في عصرهم ومصرهم.

قالوا: إنه كان قليل الرضا عند الإساءة إليه والإحسان، الذم شأنه والثلب دكانه، يشتكي صرف زمانه، ويبكي في تضاعيفه على حرمانه وقد لامه أستاذه السيرافي يومًا وهو ينقل ذم أعرابي بقوله: «تأبى إلا الاشتغال بالقدح والذم وثلب الناس»، فأجاب: «أدام الله الأستاذ، شغل كل إنسان بما هو مبتلى به مدفوع إليه».

أما اتهام بعض الأردياء الأغبياء لشيخنا التوحيدي بالزندقة فهي تهمة ألصقت بأكثر من ظَهَرَ التجدد في أفكارهم وآرائهم، وما خلا قرن من قرون الإسلام من كثيرين اتهموا بما هم منه أبرياء، ومنهم من عُذِّبوا أو قتلوا ومنهم من عاشوا مشردين بعيدين عن عيالهم وأهلهم وعشيرتهم وأوطانهم، وكان حظهم من الكآبة والبؤس غير قليل، ولو كُتب للحكومات أن تحسن سياستهم

لأتت على أيديهم خيرات جسيمة للعلم والعقل والمدنية. وصفه صاحب تاريخ بغداد وصاحب معجم الأدباء بأنه كان يتألَّه أي يتنسك ويتعبد، والناس على ثقة من دينه وصحة عقيدته.

يتجلَّى النبوغ وسعة الإدراك وفرط التجدد في كتب التوحيدي، وكتبه من الأسفار التي يود الناظر فيها أن يعود على قراءتها مرات فتنجلي له أمور ما انجلت له في قراءتها أول مرة. هكذا كان في المقابسات؛ وهي وصف مجالس العلماء، ولا سيما أحاديث أستاذه أبي سليمان المنطقي محمد بن طاهر بن بهرام السجستاني، ذكر فيها بعض ما وقع إليه من مفاوضات علماء مشهورين كانوا في بغداد يختلفون إلى مجلس أستاذه، ومنه أكثر مروياته، فيذاكرون في موضوعات شتى في الفلسفة وما وراء الطبيعة والأدب وأكثرها على طريقة السؤال والجواب، وكان فيهم المجوسي والصابي واليهودي واليعقوبي والنسطوري والملحد والمعتزلي والشافعي والشيعي.

وذكر في كتاب الصداقة والصديق ما يتصل بالوفاق والخلاف، والهجر والصلة والعتب، والمذق والإخلاص، والرياء والنفاق، والحيلة والخداع، والاستقامة والالتواء، والاستكانة والاحتجاج والاعتذار. قال: ولو أردنا أن نجمع ما قال كل ناظم في شعره، وكل ناثر من لفظه لكان ذلك عسرًا بل متعذرًا، فإن أنفاس الناس في هذا الباب طويلة، وما من أحد إلا وله في هذا الفن حصة، لأنه لا يخلو أحد من جار أو معامل أو حميم أو صاحب أو رفيق أو سكن أو حبيب أو صديق أو أليف أو قريب أو بعيد أو ولي أو خليط، كما لا يخلو أيضًا من عدو أو كاشح أو مداج أو مكاشف أو حاسد أو شامت أو منافق أو مؤذ أو منابذ أو معاند أو مزل أو مضل أو مغل. . .

قال: فقدتُ كلَّ مؤنس وصاحب، ومرافق ومشفق، والله لربما صليت في الجامع فلا أرى إلى جنبي من يصلي معي، فإن اتفق فبقَّال أو عصَّار، أو ندَّاف أو قصَّاب، ومن إذا وقف إلى جانبي أسدرني بصنانه، وأسكرني بنتنه،

فقد أمسيت غريب الحال، غريب اللفظ، غريب النحلة، غريب الخلق، مستأنسًا بالوحشة، قانعًا بالوحدة، معتادًا للصمت، ملازمًا للحيرة، محتملًا للأذى، يائسًا من جميع من ترى. . .

ورسالته ثمرات العلوم كتبها لقوم لم يفهموا مقصده من العلم وتأوَّلوا كلامه فجَبَهَهم بما كتب وأجاد. قال فيها: ولعمري ما زال الناس يعتادون التقاذف والتقارف، ولكن كانوا يرون التساعف والتناصف، ولا يتناسون بينهم التعاون والتوازر والترادف والتناصر، والذي هاجني لهذه الشكوى، وأحوجني إلى هذه الدعوى، قول من قال منكم: ليس للمنطق مدخل في الفقه، ولا للفلسفة اتصال بالدين، ولا للحكمة تأثير في الأحكام، وهذا كلامُ مَن لو أنعم النظر، واستقصى الحال، لوقف على ما عليه فيه، وعرف ما له منه، فكان يستبدل بالخلاف وفاقًا، وبالمنازعة خلاقًا، عاب هذا الرجل المنطق وهجن طريقة الأوائل، وزرى على الحكمة. وفيّل رأي الناظر فيها، وقبح اختيار الباحث عنها؛ وهذا كله إن لم يكن قله سوء تحصيل، فإنه يوشك أن يكون ضيق عطن، وحرج صدر، ومجازفة في القول، وانحرافًا عن الصواب.

وفي الحق: إن كتابه الإمتاع والمؤانسة أمتع كتبه وأجمعها للفوائد، وقد حل فيه مشكلات عظيمة منه القول في رسائل إخوان الصفا قال: «سأل الوزير أبا حيان التوحيدي في حدود سنة ٣٧٢ عن إخوان الصفا بقوله: إني لا أزال أسمع من زيد بن رفاعة قولًا يريبني، ومذهبًا لا عهد لي به، وكناية عما لا أحققه، وإشارة على ما لا يتوضح شيء منه، يذكر الحروف ويذكر النقط، ويزعم أن الباء لم تنقط من تحت واحدة إلا لسبب والتاء لم تنقط من فوق اثنتين إلا لعلة، والألف لم تُعجم إلا لغرض وأشباه هذا. وأشهد منه في عُرض ذلك دعوى يتعاظم بها، وينتفخ بذكرها، فما حديثه، وما شأنه، وما دخلته؟ فقد بلغني يا أبا حيان أنك تغشاه وتجلس إليه، وتكثر عنده، ولك مع نوادر معجبة، ومن طالت عشرته لإنسان صدقت خبرته، وأمكن اطلاعه على

مستكن رأيه، وخافي مذهبه، قلت: أيها الوزير، أنت الذي تعرفه قبلي قديمًا وحديثًا بالاختيار والاستخدام، وله منك الإمرة القديمة، والنسبة المعروفة. فقال: دع هذا وصفه لي، فقلت: هناك ذكاء غالب، وذهن وقاد، ومتسع في قول النظم والنثر، مع الكتابة البارعة في الحساب والبلاغة، وحفظ أيام الناس، وسماع المقالات، وتبصر في الآراء والديانات، وتصرف في كل فن، إما بالشدو الموهم، وإما بالتوسط المفهم، وإما بالتناهي المفحم، قال: فعلى هذا ما مذهبه؟ قلت: لا يُنْسَب إلى شيء، ولا يُعْرَف برهط، لجيشانه بكل شيءٍ، وغليانه بكل باب، ولاختلاف ما يبدو من بسطته ببيانه وسطوته بلسانه، وقد أقام بالبصرة زمنًا طويلًا وصادف بها جماعة لأصناف العلم وأنواع الصناعة، منهم أبو سليمان محمد بن معشر البستي ويعرف بالمقدسي، وأبو الحسن علي بن هارون الزنجاني وأبو أحمد المهرجاني والعَوَفي وغيرهم فصحبهم وخدمهم.

«وكانت هذه العصابة قد تألفت بالعشرة، وتصافت بالصداقة، واجتمعت على القدس والطهارة والنصيحة، فوضعوا بينهم مذهبًا زعموا أنهم قربوا به الطريق إلى الفوز برضوان الله، وذلك أنهم قالوا: إن الشريعة قد دنست بالجهالات واختلطت بالضلالات، ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية، والمصلحة الاجتهادية، وزعموا أنه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال، وصنفوا خمسين رسالة في جميع أجزاء الفلسفة علميها وعمليها، وأفردوا لها فهرسًا وسموها «رسائل إخوان الصفا» وكتموا فيها أسماءهم، وبثوها في الوراقين، ووهبوها للناس، وحشوا هذه الرسائل بالكلمات الدينية والأمثال الشرعية، والحروف المحتملة والطرق المموهة.

«قال الوزير: فهل رأيتَ هذه الرسائل؟ قلت: قد رأيت جملة منها، وهي مبثوثة من كل فن بلا إشباع ولا كفاية، وفيها خرافات وكنايات، وتلفيقات

وتلزيقات، وحَمَلت عدةً منها إلى شيخنا أبي سليمان المنطقي السجستاني محمد بن بهرام، وعرضتها عليه فنظر فيها أيامًا وتبحرها طويلًا ثم ردّها عليَّ وقال: تعبوا وما أغنوا، ونَصِبوا وما أجدوا، وحاموا وما وردوا، وغنَّوْا وما أطربوا، ونسجوا فهلهلوا، ومشطوا ففلفلوا، ظنوا ما لا يكون ولا يمكن ولا يستطاع، ظنوا أنه يمكنهم أن يدسوا الفلسفة التي هي علم النجوم والأفلاك والمقادير والمجسطي وآثار الطبيعة، والموسيقا الذي هو معرفة النغم والإيقاعات والنقرات والأوزان، والمنطق الذي هو اعتبار الأقوال بالإضافات والكميات والكيفيات في الشريعة، وأن يربطوا الشريعة في الفلسفة، وهذا مرام دونه حدد، وقد تورد على هؤلاء قوم كانوا أحدَّ أنيابًا، وأحضر أسبابًا، وأعظم أقدارًا، وأرفع أخطارًا، وأوسع قوًى، وأوثق عرًا، فلم يتم لهم ما أرادوه، ولا بلغوا منه ما أملوه، وحصلوا على لوثات قبيحة، ولطخات واضحة موحشة، وعواقب مخزية، فقال له البخاري بن العباس: ولِمَ ذلك أيها الشيخ؟ فقال: إن الشريعة مأخوذة عن الله ﷻ بوساطة السفير بينه وبين الخلق، من طريق الوحي وباب المناجاة، وشهادة الآيات وظهور المعجزات، وفي أثنائها ما لا سبيل إلى البحث عنه والغوص فيه، ولا بد من التسليم المدعو إليه، والمنبّه عليه، وهناك يسقط «لِمَ» ويبطل «كيف» ويزول «هلا» ويذهب «لو وليت» في الريح..».

لا جرم أن القارئ سيدرك مما نقلناه من نماذج أقواله إلى أي موطن من مواطن البلاغة بلغ قلم التوحيدي، ويقف على دقة معانيه ورقة ألفاظه. وهاكم نموذجًا آخر مما كتبه لصاحب الوزير: بسم الله الرحمن الرحيم. أيها الوزير، جعل الله أقدار دهرك جارية على تحكم آمالك، ووصل توفيقه بمبالغ مرادك في أَقوالك وأفعالك، ومكنك من نواصي أعدائك، وثبت أواخي دولتك على ما في نفوس أوليائك. يجب على كل من آتاه الله رأيًا ثاقبًا، ونصحًا حاضرًا، وتنبهًا نافعًا، أن يخدمك متحريًا لرسوخ دعائم المملكة بسياستك وريادتك،

قاضيًا بذلك حق الله عليه في تقويتك وحياطتك. وإني أرى على بابك جماعة ليست بالكثيرة ـ ولعلها دون العشرة ـ يؤثرون لقاءك والوصول إليك، لما تجن صدورهم من النصائح النافعة، والبلاغات المجدية، والدلالات المفيدة، ويرون أنهم إذا أهلوا لذلك فقد قضوا حقك، وأدوا ما وجب عليهم من حرمتك، وبلغوا بذلك مرادهم من تفضلك واصطناعك، وتقديمك وتكريمك، والحجاب قد حال بينهم وبينك، ولكل منهم وسيلة شافعة وخدمة للخيرات جامعة، منهم ـ وهو أهل الوفاء ـ ذوو كفاية وأمانة ونباهة ولباقة، ومنهم من يصلح للعمل الجليل، ولرتق الفتق العظيم، ومنهم من يُمتِع إذا نادم، ويشكر إذ اصطُنع، ويبذل المجهود إذا رُفع، ومنهم من ينظم الدر إذا مدح، ويُضحك الثغر إذا مزح، ومنهم من قعد به الدهر لسِنِّه العالية وجلابيبه البالية، فهو موضع الأجر المذخور، وناطق بالشكر المنظوم والمنثور، ومنهم طائفة أخرى قد عكفوا في بيوتهم على ما يَعنيهم من أحوال أنفسهم، في تزجية عيشهم، وعمارة آخرتهم، وهم مع ذلك من وراء خصاصة مُرة، ومؤن غليظة وحاجات متوالية، ولهم العلم والحكمة والبيان والتجربة، ولو وثقوا بأنهم إذا عَرَضوا أنفسهم عليك، وجهزوا ما معهم من الأدب والفضل إليك حظوا منك، واعتزوا بك، لحضروا بابك، وجشموا المشقة إليك، لكن اليأس قد غلب عليهم، وضعفت مُنّتهم، وعكس أملهم، ورأوا أن سفّ التراب أخف من الوقوف على الأبواب، إذا دنوا منها دُفعوا عنها، فلو لحظت هؤلاء كلهم بفضلك، وأدنيتهم بسعة ذرعك وكرم خِيمك، وأصغيت إلى مقالتهم بسمعك، وقابلتهم بملء عينك، كان في ذلك بقاء للنعمة عليك، وصيت فاش بذكرك، وثواب مؤجل في صحيفتك، وثناء معجل عند قريبك وبعيدك، والأيام معروفة بالتقلب والليالي ماخضة مما يتعجب منه ذو اللب، والمجدود من جُدَّ في جَده، أعني من كان جده في الدنيا موصولًا بحظه من الآخرة، ولأن يوكل العاقل بالاعتبار بغيره، خير من أن يوكل غيره بالاعتبار به.

أيها الوزير اصطناع الرجال صناعة قائمة برأسها، قلَّ من يفي بربها، أو يتأتى لها، أو يعرف حلاوتها، وهي غير الكتابة التي تتعلق بالبلاغة والحساب. وسمعت ابن سورين يقول: آخر من شاهدنا ممن عرف الاصطناع واستحلى الصنائع، وارتاح للذكر الطيب واهتز للمديح، وطرب على نغمة السائل، واغتنم خلة المحتاج، وانتهب الكرم انتهابًا، والتهب في عشق الثناء التهابًا، أبو محمد المهلبي، فإنه قدم قومًا ونوَّه بهم، ونبه على فضلهم، وأحوج الناظرين في أمر الملك إليهم وإلى كفايتهم، منهم أبو الفضل العباس بن الحسين، ومنهم ابن معروف القاضي، ومنهم أبو عبد الله اليفُرَني، ومنهم أَبو إسحاق الصابي، وأبو الخطاب الصابي، ومنهم أحمد الطويل، ومنهم أبو العلاء صاعد، ومنهم أبو أحمد بن الهيثم وابن حفص صاحب الديوان وفلان وفلان، هؤلاء إلى غير هؤلاء، كأبي تمام الزينبي وأبي بكر الزهري وابن قريعة وأبي حامد المروروزي، وأبي عبد الله البصري وأبي سعيد السيرافي، وأبي محمد الفارسي وابن درستويه وابن البقال والسري ومن لا يحصى كثرة من التجار والعدول.

وقال لي ابن سورين: كان أبو محمد يطرب على اصطناع الرجال كما يطرب سامع الغناء على الشبابير (آلة موسيقية)، ويرتاح كما يرتاح مدير الكأس على العشائر. وقال عنه إنه قال: والله لأكونن في دولة الديلم أول من يذكر إنْ فاتني أنْ كنتُ في دولة بني العباس آخر من يُذكر اهـ.

هذا أسلوب التوحيدي السهل الممتنع. وشعره قليل، وقد قال عن نفسه: لست من الشعر والشعراء في شيء.



(٢٦)

# الثعالبي

## أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل النيسابوري

(٤٢٩)

هذه النسبة إلى خياطة جلود الثعالب وعملها. قيل له ذلك لأنه كان فرَّاءً. نشأ في نيسابور وطاف البلاد. والغالب أنه من أصل عربي، أخذ عن أبي بكر الخوارزمي، وسمَّاه بعضهم جاحظ نيسابور. قال ابن خلكان فيه: إنه كان في وقته راعي تَلَعات العلم، وجامع أشتات النثر والنظم، رأس المؤلفين في زمانه، سار ذكره سير المثل. وطلعت دواوينه في المشارق والمغارب، وتواليفه كثيرة. وأكبر كتبه يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر وفيه يقول ابن قلاقس:

أبيات أشعار اليتيمة ... أبكار أفكار قديمة

ماتوا وعاشت بعدهم ... فلذاك سميت اليتيمة

كان شاعرًا عظيمًا وكاتبًا مُجيدًا يعرف ما يختار ويدع، وفي كل ما كتب أجاد وأبدع ونمّ عن ذوق ظريف في الشعر والنثر.

وما جَوَّد الثعالبي هذه الإجادة النادرة في تأليف اليتيمة إلا لأنه تصدى لتصنيفها والعمر في إقباله، ثم تعاورها بالزيادة والنقص إلى أوان نضجه واكتماله قال: «وحين أَعَرْتُه على الأيام بصري وأَعَدْتُ فيه نظري تبَّينتُ مصداق ما قرأتُه في بعض الكتب أن أول ما يبدو من ضعف ابن آدم أنه لا يكتب كتابًا فيبيت عنده ليلة إلا أحب في غدها أن يزيد فيه أو ينقص منه، هذا في ليلة واحدة، فكيف في سنين عدة؟» والنسخة الأخيرة التي اعتمدها

من اليتيمة تجمع «من بدائع أعيان الفضل ونجوم الأرض من أهل العصر ومَن تقدمهم قليلًا وسبقهم يسيرًا تتضمن من ظُرْفهم ومُلَحِهم لطائف أمتع من بواكير الرياحين والثمار، وأطيب من فَوْح نسيم الأسحار بروائح الأنوار والأزهار ما لم تتضمنه النسخة السائرة الأولى، والشرط في هذه الأخرى إيراد لبّ اللب وحبة القلب وناظر العين ونكتة الكلمة وواسطة العقد ونقش الفصّ، مع كلام في الإشارة إلى النظائر والأحاسن والسرقات، فتأخذ في طريق الاختصار ونُبَذٍ من أخبار المذكورين وغُرَرٍ من فصوص فصول المترسّلين يميل إلى جانب الاقتصار».

بدأ بشعراء الشام وفضَّلهم في البلاغة على غيرهم وقال: إن السبب في تبريز القوم قديمًا وحديثًا على من سواهم في الشعر قربهم من خطط العرب ولا سيما أهل الحجاز وبعدهم عن بلاد العجم، وسلامة ألسنتهم من الفساد العارض لألسنة أهل العراق بمجاورة الفرس والنبط ومداخلتهم إياهم، فجمع شعراء العصر من أهل الشام بين فصاحة البداوة وحلاوة الحضارة. قال: كانت أشعار الإسلاميين أرقى من أشعار الجاهليين وأشعار المحدثين، ثم كانت أشعار العصريين أجمع لنوادر المحاسن وأنظم للطائف البدائع من أشعار سائر المذكورين ولانتهائها إلى أبعد غايات الحسن وبلوغها أقصى غايات الجودة والظرف، تكاد تخرج من باب الإعجاب إلى الإعجاز، ومن حدّ الشعر إلى السحر، فكأن الزمان ادَّخر لنا من نتائج خواطرهم وثمرات قرائحهم وأبكار أفكارهم أتم الألفاظ والمعاني استيفاء لأقسام البراعة، وأوفرها نصيبًا من كمال الصنعة ورونق الطلاوة.

بدأ اليتيمة بسيف الدولة والذين كانوا من شعرائه في الذروة، ثم شعراء مصر والمغرب والموصل، وشعراء بني بُوَيْه وكتَّابهم، وشعراء البصرة والعراق وحده، ثم بغداد وحدها، وأصبهان والجبل وفارس والأهواز وجرجان وطبرستان وخوارزم وخراسان ونيسابور وغيرهم من أهل البلاد التي نسي

اسمها إلا من كتب التاريخ وتقويم البلان، وكانت تقيم للآداب أسواقًا وتفضل على الأدباء والشعراء فتنضر أوراقه وتينع ثماره.

وكتابه الثاني فقه اللغة وأسرار العربية وهو كتاب كاد يحيط باللغة. قَسَمَهُ أبوابًا وضمَّ كلَّ معنى إلى شكله وكل لفظ إلى ما يماثله، وجعله في متناول الخواص والعوام والبنات والبنين، وهو كتاب آخذ بناصية الكمال من أوله إلى آخره، قدَّمه لأبي الفضل عبيد الله بن أحمد الميكالي، وكان أقام عنده زمنًا في ضيعته فيروزآباد من رستاق جوين وأَمَدَّه بكتب من خزانته حتى كتب هذا الكتاب الدال على إغراقه في النظام والتنسيق ما يكاد يكون فيه منقطع النظير.

وكتابه الثالث «ثمار القلوب في المضاف والمنسوب» ليس أقل من الثاني تنسيقًا وجمالًا، وقد خَرَّجه «في أحد وستين بابًا ينطق كل منها بذكر ما يشتمل عليه أولًا، ويفصح عن الاستشهاد وسياق المراد آخرًا، وما منها إلا ما يتعلق من المثل بسبب، ويوفي من اللغة والشعر على طرف، ويضرب في التشبيهات والاستعارات بسهم، ويأخذ من الأخبار والأنساب بقسم، ويُجيل في خصائص البلدان والأماكن قَدَحًا، ويَجري في أعاجيب الأحاديث شوطًا» وكتابه هذا كله علم وبحث.

أما كتبه الصغيرة فكثيرة، وكلها من الإمتاع والإجادة في القمة؛ منها أحاسن كلام النبي والصحابة التابعين وملوك الجاهلية وملوك الإسلام، ومنها: كتاب من غاب عنه المطرب، وأحسن ما سمعت، والكنايات والتمثيل والمبهج، وسحر البلاغة، والإعجاز والإيجاز والأمثال، وبرد الأكباد في الأعداد، وخاص الخاص، وسر الأدب، وغرر أخبار ملوك الفرس، والفرائد والقلائد، ونثر النظم وحل العقد، والكناية والتعريض، ولطائف المعارف، واللطائف والظرائف، والمؤنس الوحيد، ومرآة المروءات، ومكارم الأخلاق والمنتحل إلى غير ذلك مما طبع له، وكله مجموعة فوائد وغرر في اللغة

والتاريخ وتراجم الشعراء وأشعارهم والأدباء وأخبارهم والكتَّاب ومنثورهم «جمع فيها أشعار الناس ورسائلهم وأخبارهم وأحوالهم دلالة على كثرة اطلاعه. ينقل ما ينقل من الكتب المعتمدة المشهورة في عصره ويضم بعضه بنظامٍ راقٍ وعلمٍ واسعٍ يستفيد منه المتعلم والمتفكه حتى لتتألف من كتبه خزانة لطيفة. وكان يَلْقى المشهورين من الشعراء الممتازين ويستنشدهم شعرهم ويقتبس أَحاديثهم ويأخذ من دواوينهم. ومن هؤلاء الذين عاصرهم ضم كتابه طائفة عظيمة كانوا حلية زمانهم وسادة أبناء صناعتهم. ولم يتقزز من نَقْل أكثر الشعر بذاءة كشعر الواساني وابن الحجاج مثلًا، فجاءت يتيمته مرآة العصر الذي كُتبت فيه ومثالًا من أدب أهله ومن سبقهم إلى الأرض.

وأعظم ما نفعه في تآليفه تنقُّله في حواضر الإسلام وأَخْذُه من الكتب الموقوفة وكتب الخواص ما طاب له وكفاه أن نشأ في نيسابور، وكانت في زمنه أَعْمَرَ مدن الدنيا بالعلم والأدب، كادت تفوق بغداد في القرن الثالث والرابع، ونيسابور كأصفهان نبغ بها من كل صنف من أصناف الرجال المشتغلين بعقولهم ما يتعذر إحصاؤه.

ومن شعره:

وسائلٍ عن دمعي السائلِ ... وحالِ لوني الكاسفِ الحائلِ
قلتُ له والأرضُ في ناظري ... أوسع منها كفة الحابلِ
بُلِيتُ والله بمملوكة ... في مُقْلَتَيْها مَلَكا بابلِ
فإنْ لَحَاني عاذلٌ في الهوى ... يومًا فما العاذلُ بالعادلِ

ومنه:

سقَطْتُ لحَيْني في فراشٍ لزِمْتُه ... أضمُّ إلى قلبي جناحَ مهيضِ
وما مَرَضٌ بي غير حبِّي وإنما ... أُدَلِّسُ فيكم عاشقًا بمريضِ

وكتب إلى أبي نصر سهل بن المرزبان، ولقد لسعته عقرب على قدمه فلما وجدت وقتلت زال الوجع، بهذه الأبيات:

يا عمدةَ الأمراءِ والوزراءِ ... يا عِدَّةَ الأدباءِ والشعراءِ
يا غرَّةَ الزمنِ البهيمِ وناظرَ الـ ... ـكرم الصميم وواحدَ الفضلاء
أرأيتَ همَّةَ عقربٍ وثبتْ إلى ... قدمٍ بها تخطو إلى العلياء
لما ارْتَقَتْ باللَّسع أعظم مُرْتقى ... أحنتْ عليها رُتبةَ العظماء
إن ذُقْتَ ضرَّاء العقارب فابقين ... بعقارب الأصداغ في سراء
يا طيبَ لسعةِ عقربٍ درياقُها ... ريقُ الحبيب بقهوةٍ عذراء

وله:

ثلاثٌ قد مُنيتُ بهنّ أضحتْ ... لنار القلب مني كالأثافي
ديونٌ أنقضتْ ظهري وجورٌ ... من الأيام شابَ له غُدافي
وفقدانُ الكَفاف وأيُّ عيشٍ ... لمن يُمنى بفقدان الكفافِ

ومن شعرهِ ما كتبه إلى الأمير أبي الفضل الميكالي:

لك في المفاخر معجزاتٌ جمَّةٌ ... أبدًا لغيرك في الورى لم تجمع
بحران بحرٌ في البلاغة شابه ... شعر الوليد وحُسْن لفظ الأصمعي
وترسّل الصابي يزين علوّه ... خط ابن مقلة ذو المحل الأرفع
كالنَّوْر أو كالسحر أو كالبدر أو ... كالوشي في بُرد عليه موشع
شكرًا فكم من فقرة لك كالغنى ... وافى الكريم بُعَيْد فقر مدقع
وإذا تفتَّق نَوْر شعرك ناضرًا ... فالحسن بين مرصَّع ومصرَّع
أرجلت فرسان الكلام ورضت أفـ ... ـراس البديع وأنت أمجد مبدع
ونقشت في فص الزمان بدائعًا ... تزري بآثار الربيع الممرع

ومن شعره:

لما بَعثتُ فلم توجب مطالعتي وأَمْعَنَتْ نارُ شوقي في تلهُّبها
ولم أجِدْ حيلةً تُبقي على رَمَقي قَبَّلتُ عينَ رسولي إذ رآك بها



(٢٧)

# أبو الريحان البِيرُونِي

(٤٤٠)

معنى بِيرُون بالفارسية خارج، والبيروني (بكسر الباء الموحدة وسكون الياء آخر الحروف وضم الراء وبعدها الواو في آخرها النون) نسبة إلى خارج خُوارزم؛ فإن بها من يكون خارج البلد ولا يكون من البلد نفسه.

بِيرون منشأ أبي الريحان ومولدُه بلدة طيبة فيها غرائب وعجائب، ولا غرو فإن الدر ساكن الصدف. قال السمعاني: وما علمنا هذه الغرائب ولم نعرف عن مَنْشئه وأساتيذه شيئًا، وغاية ما انتهى إلينا من بعض المظانِّ أنه تلميذ أبي نصر منصور بن علي الرياضي المشهور، ولعلَّ هذا ممن أدرك الأربعمئة من الهجرة.

سافر البيروني في بلاد الهند أربعين سنة، وزادت تصانيفه على حمل بعير، رأى ياقوت فهرستها في وقف الجامع بمرو في نحو الستين ورقة بخط مكتظ، وهي في النجوم والرياضيات والمنطق والحكمة والتاريخ، طبع منها بعض علماء الألمان ثلاثةَ كتب فقط فقرأنا فيها كل مفيد. قال ياقوت: إنه لما صنف القانون المسعودي أجازه السلطان محمود بن سبكتكين بحِمْلِ فِيل من نقده الفضي، فرده إلى الخزانة بعذر الاستغناء عنه ورفض العادة في الاستغناء به. وكان رحمه الله مكبًّا على تحصيل العلوم منصبًّا إلى تصنيف الكتب، لا يكاد يفارق يده القلم، وعينه النظر، وقلبه الفكر، إلا في يومَي النيروز والمهرجان من السنة لإعداد ما تمس إليه الحاجة في المعاش. وهو أعظم

رياضي قام في هذه الملة «لم يَشُقَّ المحضرون غباره ولم يلحق المضمّرون المجيدون مضماره».

دخل عليه أحد أصدقائه وهو يجود بنفسه فقال: كيف قلت لي يومًا حساب الجدات الفاسدة؟ فقلت له إشفاقًا عليه: أفي هذه الحالة؟ قال لي: يا هذا أُودِّع الدنيا وأنا عالمٌ بهذه المسألة ألا يكون خيرًا من أن أخليها وأنا جاهل بها. فأعدت ذلك عليه وحفظه، وعلمني ما وعد، وخرجت من عنده وأنا في الطريق فسمعت الصراخ.

دخل البيروني الهند مع ابن سبكتكين لما فتحها وأقام بينهم وتعلم لغتهم واقتبس علومهم، وفيها ألَّف كتابه الذي لا نظير له في حرية الفكر وإنصاف المخالف في الدين والمذهب والمُعَنْوَن بتحقيق ما للهند من مقالة مقبولة في العقل أو مرذولة. وهو من أجلِّ الأسفار التي وضعها علماء الإسلام في المِلَل والنِّحَل. لم يكد علماء هذا العصر يكتبون مثلها مجردة عن الغرض عند الكلام على المخالف. ومن كتبه المطبوعة: «الآثار الباقية عن القرون الخالية»؛ وهو في النجوم والتاريخ ألَّفه للأمير شمس المعالي وبيَّن فيه التواريخ التي تستعملها الأمم، والاختلاف في الأصول التي هي مبادئها وفيه فوائد تاريخية عن ملوك آشور وبابل وكلدة والقبط واليونان والروم. قالوا وكان طيب العشرة خليعًا في ألفاظه عفيفًا في أَفعاله، لم يأت الزمان بمثله علمًا وفهمًا. وله شعر منحط عن نثره كان يقوله في المناسبات وفيه بذاءة أحيانًا، وكان على عُجْمته معجبًا باللغة العربية، ولم يؤلِّف في غيرها ويقول: إن الهجو بالعربية أحب إليه من المدح بالفارسية.

غاية ما عُرِفَ عن البيروني أنه فارسيٌّ شُغِفَ بحب العرب، وكان بَعْدُ من أئمة اللغة العربية وأدبائها، يضاف ذلك إلى علومه الكثيرة في الرياضيات والنجوم والتاريخ والمِلَل والنِّحَل. صحب الملوك فأفادهم أكثر مما استفاده منهم وكان على عزوفٍ وزهد، لا همَّ له إلا تحصيل العلم وبثه في الناس،

واعتمادُه في ذلك على التأليف. ويقول العلامة بروكلمان: إنه كانت بينه وبين الحكيم ابن سينا مكاتباتٌ كان من مجموعها كتابة الآثار الباقية. ولما فُتحت الهند على يد محمود بن سبكتكتين درس فيها العلوم اليونانية وأخذ من كنوز العلوم الهندية.

ولم نَعرف جميعَ أساتذة البيروني، وخوارزم كانت في عصره دار علم كسائر العواصم الإسلامية الكبرى. والبيروني مثل للأنظار وهو كبير وسكتوا عن نشأته وأساتيذه، وكان قبل أن بلغ الكهولة رجلًا مذكورًا بدليل أنه كان من جملة رجال صاحب غزنة.

ومن تصفح كتاب الهند والآثار الباقية يدرك مكانة هذا العالم الذي لم يترجم له مترجموه بما يستحقه من التوسع، ولعلهم كانوا يفضِّلون عليه بعض أرباب الحديث والفقه، وهو الذي أتى أمته بجديد وخدمها فأفاد ولم يستخدمها في مظهر له ولا في طلب دنيا، هو أحد أفراد نوابغ يُعَدُّون على الأصابع، ومن أولئك تُعَدُّ مئات ممن لم يبدع جديدًا ومعظم ما دونوه وتناقشوا فيه لو حذف من الخزائن تعد كأنها لم تفقد شيئًا. أخلص للعلم وما شغف بغيره وما طلب عن غيره بديلًا.

قال البيروني: جل خطر الملوك عن المجازاة بالانتقام.

ليس للملك أن يحسد إلا على حسن التدبير والسياسة.

الملك أقل الناس خوفًا من الفقر وأكثر الناس خطرًا وقربًا إلى الهلاك، فليس له أن يبخل ويجبن، فإن ما قلَّ عنده لا يكثر وما كثر لا يعدم.

المنُّ يبطل إحسان المحسن.

العاقل من استغنى بتدبير اليوم عن تدبير الغد.

لا تحقر الأمر الصغير فللأمر الصغير موضع يُنتفَع به، وللأمر الكبير موقع لا يستغنى عنه.

ما اجتمعت عليه الألفة والعادة واصطلحتْ عليه العامة فلا تخالفه.

من كفاه التأديب بالكلام لا يؤدَّب بالسوط والسيف.

مدارسة أخلاق الحكماء والعلماء تُحِيي السنة الحسنة وتُمِيت البدعة السيئة.

السنن الصالحة علامات الخير والحق.



(٢٨)

# الماوردي

## أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب

(٤٥٠)

الماوردي نسبة إلى بيع ماء الورد، نشأ في البصرة وتلقى العلم فيها، وهو إمام في الفقه والأصول والتفسير، بصير بالعربية والأدب، من أعظم الكتَّاب، معتدل في تأليفه، هادئ في أفكاره، أوحد في فنه وفهمه، محمود الطريقة، مطمئن النفس، حريص على الاستفادة، بعيد عن الدعوى والهوى. تولَّى القضاء في بلدان كثيرة ثم غدا أقضى القضاة، يُفتي بمذهب الشافعي، وقيل إنه كان فيه ميل إلى الاعتزال.

قال الصفدي: إنه كان متَّهمًا بالاعتزال، وكان لا يتظاهر بالانتساب إليهم، ولكن لا يوافقهم على خَلْق القرآن ولا يرى صحة الرواية بالإجازة، وإنه شافعي المذهب. وكان القادر قد تقدم إلى أربعة من الأئمة في المذاهب الأربعة ليضع له كل واحدٍ مختصرًا في الفقه، فوضع الماوردي الإقناع، ووضع القدوري مختصره، ووضع من الحنابلة واحد مختصرًا، وعرضت عليه فخرج الخادم إلى الماوردي وقال له: قال لك أمير المؤمنين: حفظ الله علمك كما حفظت علينا ديننا. وتلقَّب بأقضى القضاة إلى أن توفي.

هذا غاية ما كتبه المؤرخون فيه. وأجمل ما خص به أسلوبه في أسفاره: «الأحكام السلطانية» و«أدب الدنيا والدين» و«أعلام النبوة» و«قانون الوزارة» وفيها تتجلى شخصيته عن معرفة ثاقبة بأمور الدولة، واضطلاع واسع بتاريخ الحركات الفكرية والسياسية في الإسلام.

لم يقتصر الماوردي على الأخذ عن الشيوخ وتصفُّح ما خلَّفه مَن تقدَّموه، بل قَرَن إلى علمه تجاربَ تنبئ عن نفسها، ومعارف منوعة لقِفَها من الحياة وما عاناه من مشاكل العالم، وعُمّر حتى بلغ السادسة والثمانين، فكان له دور سكون ارتاح فيه من هزاهز العيش ومشاكل الناس، وانصرف إلى التأليف وخدمة العلم.

تتمثل الماوردي وأنت تقرأُ «الأحكام السلطانية» كأنك تقرأ كتاب عالم عصري قتل الأيام تجربة، ودوّن زبدة الأحكام التي تشغل الأذهان. وكُتُبه من الكتب التي تدعوك إلى نفسها أبدًا وتتحبَّب إليك، إذا تصفَّحتها مرةً ساقتك بدون تعمُّد إلى معاودة قراءتها، وكلما تلوتها انصرفت عنها بجديد.

حقًّا إن الأحكام السلطانية مرجعٌ فريد في بابه، ولو لم يكن له غيره من المصنفات لعُدَّ في زمرة من أبدعوا الإبداع كله في مصنفاتهم. وإذا حدقت النظر في هذا المصنَّف تراءى لك أن الماوردي لم يتقن من فنون العلم غير هذا الذي يحدثك فيه ويفيض عليك منه. ذلك لأنه لم يقتصر على الأخذ عن الشيوخ، وتَفَهُّم نصوص العلماء في الكتاب والسنة، بل شفع علمه بتجاربه وما درسه بذاته وهدته إليه الأحوال. جمع إلى معرفته الواسعة معرفة أصول الإسلام وفروعه وعلمه وعمله ومنطوقه ومفهومه وكل ذلك يزينه وقوفه على سياسة الخلق، ومهارته في حسن القضاء بينهم، وحسن التأليف لأجيالهم.

أفاض في الأحكام السلطانية في الخلافة وتقليدها والوزارات وأنواعها والإمارات والولايات، والقضاء وضروبه والمظالم والنقابات والجبايات والصدقات والإقطاعات، وأنواع الدواوين وأحكام الجرائم والحسبة والمنكرات والمعروفات إلى ما له مساس بإقامة العدل بين الرعية. جمع ما كان متفرقًا في بطون الدفاتر ونسقه وعلق عليه وخالف عُرْفَ علماء وقته في مسائل اجتهد فيها فتحملوه وما شاكسوه. واكتفى من دنياه بما أعطته فكان خير

معلم للناس في حياته وبعد مماته، أتاهم بكتب تُتلى ولا تَبْلى جدَّتها على غابر الأحقاب.

ومَن تدبَّر الأحكام السلطانية وقارنه بالأحكام السلطانية للقاضي أبي يعلى يتبيَّن له الفرق بين رجل أفاده دخوله في المجتمع، ورجل درس الحديث والفقه واقتصر على ما تلقَّاه في مجالس العلماء جاء كتابه نظريًّا، وكان كتاب الماوردي عمليًّا. وكتابه هذا ما أمتع هذا الإمتاع إلا لأن صاحبه كان قاضيًا لامعًا وسياسيًّا مبرزًا، يقلُّ في أهل صناعته أمثاله، وأوحت إليه مسائل الخلق والدول أشياء أحسن تلقُّفها وتصويرها والانتفاع بها.

كان الماوردي قادرًا على ضبط نفسه فيما ليس منه ضرر على الدين أو الدنيا، يبتعد عمن إذا رأى محبرة تطيَّر منها، وإن وجد كتابًا أعرض عنه، وإن رأى متحلِّيًا بالعلم هرب منه، كأنه لم يَرَ عالمًا مقبلًا، وجاهلًا مدبرًا. قال: ولقد رأيت من هذه الطبقة جماعة ذوي منازل وأحوال، كنت أخفي عنهم ما يصحبني من محبرة وكتاب، لئلا أكون عندهم مستثقلًا، وإن كان البعد عنهم مؤنسًا ومصلحًا، والقرب منهم موحشًا مفسدًا.

وكان إذا عرض أمر يعود على الدين بالضرر يستأسد ويزمجر، وينزع ثوب السياسي ويلبس ثوب العالم الشجاع، على ما كان منه لما أمر الخليفة أن يُزاد في ألقاب جلال الدولة بن بُوَيْه لقب «ملك الملوك» فما أفتى الماوردي مع مَن أفتى بجواز ذلك، مع أنه كان من خواص جلال الدولة، ولما أفتى بالمنع انقطع عنه، فطلبه جلال الدولة فمضى إليه على وجلٍ شديد، فلما دخل عليه قال له: أنا أتحقَّق أنك لو حابيت أحدًا لحابيتني لما بيني وبينك، وما حملك إلا الدين، فزاد بذلك محلّك عندي. ولذا قال المؤرخون: أنه كان محترمًا عند الخلفاء والملوك «وكان ذا منزلة من ملوك بني بويه يرسلونه في التوسطات بينهم وبين من يناوئهم، ويرتضون بوساطته ويقنعون بتقريراته».

وكتابه الثاني: «أدب الدنيا والدين» من أمتع ما كتب علماء الأخلاق

والتربية، مصادره الكتاب والسنة وأقوال الحكماء والبلغاء، وفيه طائفة من الشعر البديع والنثر المنسجم. ومما قال عن نفسه في كتابه هذا: «ومما أنذرك به من حالي أنني صنَّفتُ في البيوع كتابًا جمعتُ فيه ما استطعت من كتب الناس، وأجهدت فيه نفسي وكددت فيه خاطري حتى إذا تهذَّب واستكمل، وكدت أُعجب به، وتصورت أنني أشد الناس اضطلاعًا بعلمه، حضرني وأنا في مجلسي أعرابيان فسألاني عن بيع عقداه في البادية على شروط تضمنت أربع مسائل لم أعرف لواحدة منها جوابًا، فأطرقت مفكِّرًا، وبحالي وحالهما معتبرًا، فقالا: ما عندك فيما سألنا جواب، وأنت زعيم هذه الجماعة؟ فقلت: لا. فقالا: واهًا لك. وانصرفا ثم أتيا من يتقدمه في العلم كثير من أصحابه، فسألاه فأجابهما مسرعًا بما أقنعهما وانصرفا عنه راضيَيْن بجوابه، حامدَيْن لعلمه. قال فبقيت مرتبكًا وبحالهما وحالي معتبرًا، وإنني على ما كنت عليه في تلك المسائل إلى وقتي. فكان ذلك زاجر نصيحة، ونذير عظة، تذلل بها قياد النفس، وانخفض لها جناح العُجب، توفيقًا مُنحته، ورشدًا أُوتيته، وحقٌّ على من ترك العجب بما يحسن أن يدع التكلف لما لا يحسن، فقديمًا نَهَى الناسُ عنهما، واستعاذوا بالله منهما».

وعلى ما عرف به الماوردي من بعد النظر والتحري في قضائه أورد أشياء في كتابه أعلام النبوة إذا وُضعتْ على محك النقد كانت مثار العجب منه، وهو الراوية الحسن الرواية والنقادة الذي يمتاز باستخراج السقيم من السليم، وقد نُسب إليه هذان البيتان:

وفي الجهل قبل الموت موتٌ لأهله ... فأجسادهم دون القبور قُبُورُ
وإن امرأً لم يَحْيَ بالعلم صدره ... فليس له حتى الممات نُشُورُ



(٢٩)

# ابن حزم

## أبو محمد علي

(٤٥٦)

كان جده الأعلى أول من أسلم، وكان مولى يزيد بن أبي سفيان الأموي، وأصل أهله من فارس، وجده الخامس خلف أول من دخل الأندلس من آبائه، وسكن أول أمره في قرية مَنْت لِيْشم من إقليم الزاوية في عمل أُونبه من كورة لَبْلة غرب الأندلس، وسكن أبوه قرطبة، ووَزِرَ للمنصور محمد بن أبي عامر.

ولد علي سنة ٣٨٤ في قصر ما عرف فيه إلا النعيم والنعم في صباه، وتولى النساء تربيته، رُبِّي في حجورهن، ونشأ بين أيديهن، ولم يَعْرِف غيرهن، ولا جالس الرجال إلا وهو في حَدِّ الشباب وحين تبقَّل وجهه. وهنّ علَّمنه القرآن، ورَوَّيْنه كثيرًا من الأشعار، ودَرَّبْنه في الخط، فكانت ثقافته أرقى ثقافة يثقفها أبناء العظماء. وما كانت المظاهر الخلابة التي شاهدها في قصر أبيه لتحول دون رغبته في التناغي بالعلم والغرام بالأدب، وما كان ذاك الثراء ليبطره فيشغل نفسه بما لا يجدي عليه في حياته. وناقش مرة أحد علماء الأندلس فقال له هذا: إن أكثر مطالعاته كانت على سراج الحرس فأجابه عليّ: إن أكثر مطالعاته كانت على منائر الذهب والفضة، يريد أن الغنى أمنع لطلب العلم من الفقر.

ولما تغلب البربر على قرطبة وعليٌّ في الخامسة عشرة من عمره انتقل أبوه من دورهم المحدثة بالجانب الشرقي من قرطبة في ربض الزاهرة إلى دورهم

القديمة في الجانب الغربي، ثم انتهب البربر دورهم في الجانب الغربي هذا ونزلوا فيها، فخرج عن قرطبة وسكن المَرِيّة. وقال ابن حزم: إنهم شُغلوا «بالنكبات وباعتداء أرباب دولة هشام المؤيد، وامتحنوا بالاعتقال والترقيب والإغرام الفادح والاستتار. وأرزمت الفتنة وألقت باعها وعَمَّت الناس وخَصَّتنا» ثم نَكَبه صاحب المَرِيّة بدعوى أنه يسعى في القيام بدعوة الدولة الأموية فاعتقل أشهرًا، ثم أُخرج على جهة التغريب، ثم صار إلى حصن القصر ولقي صاحبه التُّجيبي فأقام عنده شهورًا «في خير دار إقامة وبين خير أهل وجيران»، ثم ركب البحر قاصدًا بَلَنْسِية عند ظهور أمير المؤمنين عبد الرحمن بن محمد وسكن بها وتولى له الوزارة ثم تولاها لهشام المعتمد بالله.

هذه بالإجمال سيرة ابن حزم السياسية إلى العقد الثالث من عمره. ولما رأى ما رأى من تقلقل الدول في الأندلس وعزفت نفسه عن أمور «الرياسة التي كانت له ولأبيه من قبله في الوزارة وتدبير الملك» أقبل على قراءة العلوم وتقييد الآثار والانتفاع بدروس أجلّ رجال عصره.

نبغ ابن حزم في الأدب والفلسفة والطب والحديث والفقه والتاريخ، وكان أُصوليًا نظارًا كاتبًا شاعرًا، يرتجل الشعر ويبتده الخطب ويضع الكتب، وكان «أجمعَ أهل الأندلس قاطبةً لعلوم الإسلام وأوسعهم معرفة مع توسعه في علم اللسان ووفور حظه من البلاغة والشعر والمعرفة بالسير والأخبار»، «وكان شافعيًا أولًا ثم صار ظاهريًا على مذهب داود بن علي بن خلف الأصفهاني ومن قال بقوله من أهل الظاهر ونفاة القياس»، وناضل عن مذهبه الجديد فنال منه فقهاء الأندلس، وكان أكثرهم يميل إلى القول بمذهب مالك، ولولا أن حال صاحب المَرِيّة دون تحاملهم عليه لأوردوه حتفه، واكتفوا بأن أحرقوا بعض كتبه في إحدى ساحات إشبيلية وحرموا النظر فيما كتب، ولولا أن حمل بعض تلاميذه كتبه إلى الشرق لما انتشرت في الآفاق. أما هو فظلَّ على كثرة معانديه يقرأ ويُقرئ ويدرِّس في بلده حتى مضى لسبيله.

وفي إحراق ابن عباد كتبه قال ابن حزم:

فإن تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذي ... تضمنه القرطاس بل هو في صدري
يسير معي حيث استقلت ركائبي ... وينزل إن أنزل ويدفن في قبري
دعوني من إحراق رقّ وكاغد ... وقولوا بعلم كي يرى الناس من يدري
وإلا فعودوا في المكاتب بدأة ... فكم دون ما تبغون لله من سرّ
كذاك النصارى يحرقون إذا عَلت ... أكفهم القرآن في مدن الثغر

وقال:

لا يشمتن حاسدي أن نكبة عرضت ... فالدهر ليس على حال بمتّرك
ذو الفضل كالنبر طورًا تحت ميْقعة ... وتارة في ذرى تاج على ملك

ومن شعره:

قالوا تحفَّظ فإن الناس قد كثرت ... أقوالهم وأقاويل الورى محن
فقلت هل عيبهم لي غير أني لا ... أقول بالرأي إذ في رأيهم فتن
وإنني مولع بالنص لست إلى ... سواه أنحو ولا في نصره أهن
لا أنثني لمقاييس أقول بها ... في الدين بل حسبي القرآن والسنن
يا برد ذا القول في قلبي وفي كبدي ... ويا سروري به لو أنهم فطنوا
دعهم يعضوا على صُمّ الحصى كمدًا ... من مات من قوله عندي له كفن

ومما عدوه عليه أنه كانت «له مجالس مع أولي المذاهب المرفوضة من أهل الإسلام»، أي إنه كان يجتمع إلى غير السواد الأعظم، وعابوا عليه أنه خالف أرسطو في بعض آرائه، كأن الاجتماع بالمخالف ونقد صاحب الرأي من الكبائر. والذي يُنْتَقَد عليه في الحقيقة إنحاؤه على بعض الأئمة ومغالاته في رد كل من خالف مذهبه من فرق الإسلام، يَستعمل لهجة قاسية حتى قالوا إنه كان يصك معارضه في علمه صك الجندل، ويُنشقه أَحَرَّ من الخردل.

قالوا: وكان مما يزيد في شنآنه تَشيُّعه لأمراء بني أُمية ماضيهم وباقيهم بالشرق والأندلس، واعتقاد صحة إمامتهم وانحرافه عمن سواهم من قريش.

قال عن نفسه معتذرًا عما يبدو في كلامه من الشدة على من لم يتبع مذهبه إنه كانت به علة شديدة أصابته فولدت عليه ربوًا في الطحال شديدًا، فولَّد ذلك عليه من الضجر وضيق الخُلق وقلة الصبر والنزق أمرًا جاشت به نفسه. وقال أنه انتفع بمحْكِ أهلِ الجهل منفعة عظيمة، وهي أنه توقد طبعه، واحتدم خاطره، وحَيِيَ فكره، وتهيج نشاطه فكان ذلك سببًا إلى تواليف عظيمة النفع، ولولا استثارتهم ساكنه، واقتداحهم كامنه، ما انبعثتُ لتلك التواليف.

وقال عن نفسه إنه جُبل على طبيعتَيْن لا يهنؤه معهما عيش أبدًا وهما: وفاء لا يشوبه تلون، قد استوت فيه الحضرة والمغيب والباطن والظاهر، وعزة نفس لا تقر على الضيم مهتمة لأقل ما يرد عليها من تغيُّر المعارف مؤثرة للموت عليه. فكل واحدة من هاتين السجيتَيْن تدعو إلى نفسها وقال: وإني لأُجفى فاحتمل وأستعمل الأناة الطويلة والتلوّم الذي لا يكاد يطيقه أحد، فإذا أفرط الأمر وحميت نفسي تصبَّرت وفي القلب ما فيه.

وقال: غاظني أهل الجهل مرتين من عمري؛ إحداهما بكلامهم فيما لا يحسنونه أيام جهلي، والثانية بسكوتهم على الكلام بحضرتي، فهم أبدًا ساكتون عما ينفعهم ناطقون فيما يضرهم. وسرَّني أهل العلم مرتين من عمري؛ إحداهما بتعليمي أيام جهلي والثانية بمذاكرتي أيام علمي.

كان ابن حزم يعرف كيف يحاجّ المخالفين له ويبذُّهم؛ لأنه كان أرقى منهم كما ظهر، مع ما أوتيه من بلاغة اللسان وبلاغة القلم، وحضور الذهن،ووفرة المادة، وشدة الإخلاص والصدق، ولما ضاق به مخالفوه ذرعًا لجؤوا إلى السلطان فما استطاعوا أن يذلوه وهو العزيز، ولا أن ينتقصوه وهو الكامل، ولا أن يُجَهِّلوه وهو العالم، وكيف يصلون إلى غاياتهم منه وهو الذي انتشرت في الأقطار كتبه في حياته، وما وسع حتى أعداؤه في رأيه أن

ينكروا فضله العظيم. ألَّف تآليف كثيرة بلغت نحو أربعمئة مصنف تدخل في ثمانين ألف ورقة، فكان أكثر علماء الإسلام تآليف بعد ابن جرير الطبري.

وأنت أيها القارئ العزيز إذا أحببت أن تقرأ نمطًا عجيبًا من رد ابن حزم على مخالفيه وكيف يزيف أقوالهم ويشتد في حوارهم طالع «الفصل في الملل والأهواء والنِّحَل»، وإذا شئت أن تطلع على الحكم فيما اختلف فيه الناس من أصول الأحكام في الدين فطالع كتابه الجامع «الإحكام في أصول الأحكام»، وإذا سَمَتْ بك همتك إلى التبحر في الحجاج ومعرفة الاختلاف وتصحيح الدلائل المؤدية إلى معرفة الحق مما تنازع الناس فيه، والإشراف على أحكام القرآن والوقوف على جمهرة السنن الثابتة عن رسول الله وتمييزها مما لم يصح، والوقوف على الثقات من رواة الأخبار وتمييزهم من غيرهم، والتنبيه على فساد القياس وتناقضه، وتناقض القائلين به، فليكن تصفحك لكتابه «المحلّى». وإذا جنحت إلى تعرف حكمة العشق يُطلعك بمجالس في الحب وعلم النفس على تحليل أرواح النساء والرجال وكشف أسرار الجنسين، وفي كل أولئك تدرك مبلغ ابن حزم من حرية القول وبُعْد التفكير، وتتبيَّن درجة أدبه على ما لا يخطر ببالك صدور مثله عن مثله. فاقرأ كتابه البارع «طوق الحمامة في الألفة والألاف» يثبت لك من هذا أن ابن حزم لا يقول بالتَّقية وهو القائل: «ولا أنسك نسكًا أعجميًا، ومن أدى الفرائض المأمور بها واجتنب المحارم المنهي عنها، ولم ينس الفضل فيما بينه وبين الناس فقد وقع عليه اسم الإحسان، ودعني مما سوى ذلك». ومن أحب أن يقرأ فلسفته في الأخلاق وما يصلح الجماعات والمجتمعات، فليقرأ كتابه «مداواة النفوس» وهذا كتاب كله زبدة يجزئ قارئه عن كثير مما كُتِب في موضوعه ويبيِّن درجته من الحكمة.

ذاك بعض كتبه التي تخطَّتها حملات خصومه فَسَلِمت، وإنك لتقرأ أسفاره في الشريعة فتدهش لما ترى من إحاطته بأطراف كل موضوع خاض عبابه،

كأن مسائل الدين صفحة واحدة ماثلة أمام عينه استظهرها في الصغر واستخرج أيام نضج عقله وعلمه كل ما فيها من دقائق الحقائق. فكان بهذا حقًّا من أعظم علماء الإسلام لم يجئ في بابه بضعة رجال من عياره.

ابن حزم إمام في كل شأن: في الدين والحكمة والأخلاق والأدب والتاريخ، وفي كل ما أتقن من علم وتَمَثَّله وألَّف فيه، فهو جد عظيم يملك عليك نفسك وأنت تنظر فيما شرح أو بسط وحاور وجادل، يتعاظمك بسلطان علمه فتُكْبره وتُكْبر أدبه، ويعجبك بشدة غيرته على بث دعوته، ويسوءك أن يسيء إليه معاصروه وهو الذي كان كله إحسانًا. ومن «طوق الحمامة» تعرف أي أديب هو، ومن «المحلى» تدرك أي عالم ديني هو، وتنادي لا تبالي: هكذا فليكن العلماء. ناهيك من رجل ينشأ على الفضائل الموهوبة والمكسوبة، ولم يلهه ترف القصور عن الاستغراق في معالجة صعاب المسائل. ولمَّا عَلِم تقصيره في بعض الفروع الشرعية وهو في نحو الثلاثين من عمره عاد فقعد مقعد المتعلم بين أيدي العلماء يُحصِّل ما فاته، وما برح يتلقى عن الشيوخ حتى بلغ درجة الاجتهاد، وأَعْظِم بها من مرتبة لا ينالها في قطره وعصره إلا من استحقها الاستحقاق كله، خصوصًا وهو بين ظهراني خصماء غير رحماء وأعداء أردياء، يحسدونه على نعمته ونعمة آبائه، وعلى علمه وعلى مكانته ورجاحته.



(٣٠)

# ابن زيدون

## أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن زيدون

(٤٦٣)

هو من قبيلة مخزوم النازلة في الأندلس، وأهله من صدورها المعروفين بالحكم والقضاء. ولد في قرطبة سنة ٣٩٤. ومات أبوه فأسلمه أوصياؤه إلى أعاظم من علماء عصره فتأدَّب بأدبهم، وظهرت عليه أمارات النجابة وهو في سن العشرين، واستفاضت شهرته في الأدب والحكمة ومعاناة السياسة ولمَّا يبلغ الخامسة والعشرين.

ولمَّا حاول دعاة بني أمية أن يعيدوا الملك فيهم، وثار أهل قرطبة لطرد البربر عن ديارهم، اضطر ابن زيدون بحكم مكانة بيته إلى خوض تلك المعركة السياسية، فكان في جملة رجال أبي الحزم بن جوهر صاحب قرطبة بعد جلاء البربر عن تلك الأصقاع.

وأحب ابن زيدون ولَّادة بنت المستكفي بالله فما عَتَّم[1] أن نازعه حبها ابن عبدوس وزير ابن جهور، فهجاه ابن زيدون وهَزَأ به، فأضمر له الحقد وما زال يشي به عند الملك حتى اتهمه بأنه يدعو للدولة الأُموية، فاعتقله ثم رَقَّ له ابنه الوليد بن جهور فأَطلقه من اعتقاله. ولكن كانت ولَّادة قد خرجت عن حكم ابن زيدون. وتشرد في الأقطار مدة، ثم رجع إلى قرطبة يخدم الوليد بن جهور بعد وفاة أبيه فوضع ثقته به، وسفر عنه إلى ملوك الأطراف،

---

(١) ما عَتَّمَ أنْ فَعَلَ كذا: ما لبث وما أبطأ [محيط المحيط]. (المُراجع)

ثم غضب عليه ففرَّ. وكان يقيم تارةً في دانية وأخرى في باجة وطورًا في إشبيلية، إلى أن اتصل بالمعتضد أمير إشبيلية فجعله أمين سره ثم ولاه أعظم وزاراته، وظل بعد وفاة المعتضد على خدمة ابنه المعتمد فأعانه على فتح قرطبة وجعل منها عاصمة ملكه، وكان منافسه في بلاط المعتمد الوزير ابن عمار قد زج بابن زيدون في فتنة نشبت بسبب اليهود فهلك، فحزنت عليه عشيرته في قرطبة حزنًا شديدًا.

ترجم له صاحب الذخيرة بقوله: كان أبو الوليد صاحب منثور ومنظوم، وخاتمة شعراء بني مخزوم، أحد من جرّ الأيام جرًّا، وفاق الأنام طرًّا، وصرف السلطان نفعًا وضرًّا، ووسع البيان نظمًا ونثرًا، على أدب ليس للبحر تدفقه، ولا للبدر تألقه، وشعر ليس للسحر بيانه، ولا للنجوم الزُّهر اقترانه، وحظ من النثر غريب المباني، شعري الألفاظ والمعاني.

ووصفه صاحب القلائد بقوله: زعيم الفئة القرطبية، ونشأة الدولة الجهورية، الذي بهر بنظامه، وظهر كالبدر ليلة تمامه، فجاء من القول بسحر، وقلده أبهى نحر، لم يصرفه إلا بين ريحان وراح، ولم يطلعه إلا في سماء مؤانسات وأفراح، ولا تعدَّى به الرؤساء والملوك، ولا تروَّى منه إلا حظوة كالشمس عند الدلوك، فشرف بضائعه، وأرهف بدائعه وروائعه، وكلفت به تلك الدولة حتى صار ملهج لسانها، وحلَّ من عينها مكان إنسانها.

أَطلقوا على ابن زيدون لقب «بحتري المغرب» لسلاسة شعره وجزالة رصفه. وذكر العارفون بعلو طبقة الشعر أن أبا بكر بن عمار وأبا الوليد بن زيدون كانا في حسن الشعر فرسَيْ رهان ورضيعَيْ لبان، وقال أكثر الأدباء بالأندلس إنهما أشعر أهل عصرهم. والمعقول أن يذهب كل شاعر بمزية لا يشاركه فيها غيره؛ فابن هانئ لا تنحط طبقته عن طبقة ابن زيدون، وهكذا إذا أردنا المقارنة بين كبراء شعراء الأندلس.

وإذا أجمع أرباب المعرفة على تفرد ابن زيدون في الشعر، فإن منهم من

أشار إلى أن نثره شعر أيضًا، أي إنه نازل عن طبقته بين الكتاب؛ ففي شعره كل معاني الإحسان، أما نثره فتحسّ فيه روحًا شعريًا، وهذا لا يستحب كل حين. والطبيعة على ما علمنا لا تجود على كل إنسان بإتقان الصناعتين، ولا بد أن تمتاز الملكة في الأولى عن الأخرى. كان هوى ابن زيدون بالشعر ليله ونهاره، ونثره عارض يستخدمه عند الحاجة ويجيد، ولكن لا كالشعر الذي أخذ من روحه وقلبه.

وكما كان آية فيما يكتب كان كذلك فيما يخطب: غزير البيان، متدفق الطبع، فصيح اللسان، حاضر البديهة. قال أحد وزراء إشبيلية وفيه دليل على سعة بيانه: لعهدي بأبي الوليد قائمًا على جنازة بعض حُرَمه، والناس يُعزُّونه على اختلاف طبقاتهم، فما سمع يجيب أحدًا بمثل ما أجاب به غيره، لسعة ميدانه وحضور جنانه. وذكروا أن أقل ما كان في تلك الجنازة وهو وزير ألف رئيس ممن يتعين عليه أن يتشكر له، فيحتاج في هذا المقام إلى ألف عبارة مضمونها الشكر، وهذا كثير إلى الغاية لا سيما من محزون فقد قطعة من كبده.

ولكنه صوب العقول إذا انبرت سحائب منه أعقبت بسحاب

ترى هل يدين ابن زيدون بشهرته لأدبه وشعره، ووزاراته وسفاراته، أم أن لغرامه بولّادة دخلًا كبيرًا فيما كان له من عظمة. قد يهيم أعظم منه بأعظم من محبوبته ولا يدري جمهرة الناس بهما، وغرام ابن زيدون عظم في العيون، لأنه كان في حسناء تقول الشعر وتعرف أدب الملوك، فهي كانت تدرك كل الإدراك ما عند عشيقها من صفات تليق ببنات الملوك، وهو موقن أنه لا يجد في بنات السوقة أمثالها بجمالها وكمالها، وكان من ذلك الشعر الذي كله روح وحسن.

وصف ابن زيدون أول اتصاله بحبيبته بقوله.

كنت في أيام الشباب، وغمرة التصاب، هائمًا بغادة، تدعى ولَّادة، فلما قدر اللقاء، وساعد القضاء كتبت إليّ:

ترقب إذا جنّ الظلام زيارتي فإني رأيت الليل أكتم للسر
وبي منك ما لو كان بالبدر ما بدا وبالليل ما أدجى وبالنجم لمْ يَسْرِ

فلما طوى النهار كافوره، ونشر الليل عنبره، أقبلت بقدٍّ كالقضيب وردف كالكثيب، وقد أطبقت نرجس المقل، على ورد الخجل، فملت إلى روض مدبج، وظل سجسج، وقد قامت رايات أشجاره، وفاضت سلاسل أنهاره، ودر الطل منثور، وجيب الراح مزرور، فلما شببنا نارها وأدركت فينا ثارها، باح كل منا بحبه، وشكا اليم ما بقلبه، وبتنا بليلة نجني أقحوان الثغور، ونقطف رمان الصدور، فلما انفصلت عنها صباحًا، أنشدتها ارتياحًا:

وَدَّع الصبرَ محبٌّ ودَعَكْ ذائعٌ من سره ما استودعك
يَقرعُ السِّنَّ على أن لم يكن زادَ في تلك الخُطا إذ شيَّعك
يا أخا البدر سناءً وسنا حفظ الله زمانًا أطلعك
إن يَطُلْ بَعدَكَ لَيْلِي فلكم بِتُّ أشكو قِصَرَ الليل معك

ويذهب الفكر إلى أن هذه العبارة ليست لابن زيدون، بل صاغها غيره والمعنى له، أو هكذا وقع غرام ولادة في قلب ابن زيدون، وهو يُعْذر على ما بدا من هيامه لأنها استوفت على ما يظهر جميع صفات المعشوقات.

اشتُهر في الآفاق شعره بسبب هذه الصبابة النادرة في العاشقين، وما كان الغرام نفسه السبب الأكبر في شهرته بل لأنه غرام كان على غير مثال.

ومن أشهر قصائده فيها القصيدة التي اشتهرت كل الاشتهار:

أضحى التنائي بديلًا من تدانينا وناب عن طيب لقيانا تجافينا
بِنْتم وبِنَّا فما ابتلت جوانحنا شوقًا إليكم ولا جفت مآقينا
يكاد حين تناجيكم ضمائرنا يقضي علينا الأسى لولا تأسينا

حالت لفقدكم أيامنا فغدت ... سودًا وكانت بكم بيضًا ليالينا
إذ جانب العيش طلق من تألفنا ... ومورد اللهو صاف من تصافينا

ومنها:

لم نعتقد بعدكم إلا الوفاء لكم ... رأيًا ولم نتقلد غيره دينا
لا تحسبوا نأيكم عنا يغيرنا ... إن طال ما غَيَّر النأي المحبينا
والله ما طلبت أهواؤنا بدلًا ... منكم ولا انصرفت عنكم أمانينا
ولا استفدنا خليلًا عنك يشغلنا ... ولا اتخذنا بديلًا منك يسلينا

إلخ...

وله في ولّادة:

يا نازحًا وضمير القلب مثواه ... أنستك دنياك عبدًا أنت مولاه
أَلْهَتْك عنه فكاهات تَلذُّ بها ... فليس يجري ببال منك ذكراه
علّ الليالي تبقيني إلى أملٍ ... الدهرُ يَعلمُ والأيامُ معناه

وله يتشوَّق إليها:

إني ذكرتكِ بالزهراء مشتاقا ... والأفق طلقٌ ووجه الأرض قد راقا
وللنسيم اعتلالٌ في أصائله ... كأنما رَقَّ لي فاعتلَّ إشفاقا
والروض عن مائه الفضي مبتسم ... كما حللت عن اللبات أطواقا
يوم كأيام لذات لنا انصرمت ... بِتْنا لها حين نام الدهر سراقا
نلهو بما يستميل العين من زهر ... جال الندى فيه حتى مال أعناقا
كأن أعينه إذ عاينت أَرَقي ... بكتْ لما بي فجال الدمع رقراقا

إلخ...

وله يتشوق إليها أيضًا:

غريب بأقصى الشرق يشكر للصّبا ... تحملها منه السلام إلى الغرب

وما ضر أنفاس الصبا في احتمالها　　سلامُ فتى يُهديه جسم إلى قلب

ولا يبعد أن يكون ما قاله في ولَّادة أكثر مما روى الرواة في ديوانه، امتنعوا من نقله كما امتنع صاحب الذخيرة من نقل شعر ولَّادة لأن فيه هجاءً. وكما أجاد كل الإجادة في التغزل بولَّادة أجاد أيضًا في مدح ابن جهور والمعتمد والمعتضد، ولا سيما فيما قدم له من النسيب من قصائد مدحهم ومدح غيرهم. فشعره في الملوك والوزراء والأصحاب شعر دنياه ومناصبه، وشعره في الغزل والنسيب وتغزله بولَّادة شعر لذاته ونعيمه.

وما أحلى قوله:

سأحب أعدائي لأنك منهم　　يا من يُصح بمقلتيه ويسقم
أصبحت تُسخطني فأمنحك الرضا　　محضًا وتظلمني فلا أتظلم
يا من تألف ليله ونهاره　　فالحسن بينهما مضيء مظلم
قد كان في شكوى الصبابة راحة　　لو أنني أشكو على من يرحم

وله، وقد قال صاحب الذخيرة إنه كتب بها من بطليوس أيام تكدره عليها، وهي من غرر نظامه ودرر كلامه:

يا دمع صبْ ما شئت أن تصوبا　　ويا فؤادي آن أن تذوبا
إن الرزايا أصبحت ضروبا　　لم أر لي في أهلها ضريبا
قد ملأ الشوق الحشا نُدوبا　　في الغرب إن رحت به غريبا
عليل دهر سامني تعذيبا　　أضنى الضنا إذ أبعد الطبيبا
ليت القبول أحدثت هبوبا　　ريح يروح عهدها قريبا
بالأفق المهدي إلينا طيبا　　تعطرت منه الصبا جنوبا
يبرد حرَّ الكبد المشبوبا　　يا متبعًا اساده التأويبا
مشرقًا قد سئم التغريبا　　أما سمعت المثل المضروبا

أرسل حكيمًا واستشر لبيبا

إلخ . . .

وقال من أخرى:

أنت معنى الضنى وسر الضلوع وسبيل الهوى وقصد الدموع

أنت والشمس ضَرّتان ولكن لك عند الغروب فضل الطلوع

ليس بالمؤيسي تكلفك العتـ ـبَ دلالًا من الرضا المطبوع

إنما أنت، والحسود مُعنى كوكب يستقيم بعد الرجوع

وقال:

ما جال بعدك لحظي في سنا القمر إلا ذكرتك ذكر العين بالأثر

ولا استطلت زمام الليل من أسف إلا على ليلة مرت مع القصر

يا ليت ذاك السواد الجون متصل قد استعار سواد القلب والبصر

جمعت معنى الهوى في لحظ طرفك لي إن الحوار لمفهوم من الحور

هذه نماذج قليلة من شعره المرقص المطرب، أما نثره فألطف ما وصفوه به أنه أقرب إلى الشعر. ولس معنى هذا أن فيه ما يعاب وهو على كل أحط من شعره وفيه التكلف ماثل أحيانًا. وقد ملأ بعض رسائله بمسائل تاريخية وإشارات أدبية ومنازع هزلية وجدية، شرحها الشراح ودلوا على ما فيها من لمع أدبية وغيرها.

وهذه رسالة كتب بها إلى رئيسه أبي الوليد بن جهور من ملوك الطوائف بالأندلس (٤٤٣) يستعطفه لمَّا كان في اعتقاله:

يا مولاي وسيدي الذي ودادي له واعتمادي عليه واعتدادي به ومن أبقاه الله ماضي حدّ العزم، واري زند الأمل، ثابت عهد النعمة.

إذا سلبتني أعزك الله لباس إنعامك، وعطلتني من حلي إيناسك، وأظمأتني إلى برود إسعافك، ونفضت بي كف حياطتك، وغضضت عني طرف

حمايتك، بعد أن نظر الأعمى إلى تأميلي لك، وسمع الأصم ثنائي عليك، وأحسَّ الجماد باستنادي إليك، فلا غرو فقد يغص الماءُ شاربه، ويقتل الدواءُ المستشفي به، ويؤتى الحذر من مأمنه، وتكون منية المتمني في أمنيته، «والحين قد يسبق جهد الحريص».

كل المصائب قد تمرُّ على الفتى وتهون غير شماتة الحساد

وإني لأتجلد وأري الشامتين «أني لريب الدهر لا أتضعضع» فأقول: هل أنا إلا يد أَدماها سوارها، وجبين عض به إكليله، ومشرفي ألصقه بالأرض صاقله، وسمهري عرضه على النار مثقفه، وعبد ذهب به سيده مذهب الذي يقول:

فقَسا ليزدجرا ومن يك حازمًا فليَقْس أحيانًا على من يرحم

هذا العتب محمود عواقبه، وهذه النَّبْوة غمرة ثم تنجلي، وهذه النكبة «سحابة صيف عن قليل تقشع».

ولن يريبني من سيدي إن أبطأ سحابه، أو تأخر غير ضنين غناؤه، فأبطأ الدلاء فيضًا أملؤها، وأثقل السحاب مشيًا أحفلها، وأنفع الحيا ما صادف جدبًا، وألذ الشراب ما أصاب غليلًا، ومع اليوم غد، ولكل أجل كتاب. له الحمد على اهتباله، ولا عتب عليه في إغفاله.

وإن يكن الفعل الذي ساءَ واحدًا فأفعاله اللاتي سررن أُلوف

وأعود فأقول: ما هذا الذنب الذي لم يسعه عفوك، والجهل الذي لم يأت من ورائه حلمك، والتطاول الذي لم يستغرقه تطولك، والتحامل الذي لم يف به احتمالك. لا أخلو من أن أكون بريئًا فأين عدلك، أو مسيئًا فأين فضلك.

إلَّا يكن ذَنْبٌ فعدلك واسع أو كان لي ذَنْبٌ ففضلك أوسع

حنانيك قد بلغ السيل الزُّبى، ونالني ما حسبي به وكفى، وما أُراني إلا لو أُمرت بالسجود لآدم فأبيتُ واستكبرت، وقال لي نوح اركب معنا فقلت: سآوي إلى جبل يعصمني من الماء، وأَمرُت ببناء صرحٍ لعلي أَطَّلع إلى إله

موسى، وعكفتُ على العجل، واعتديتُ في السبت، وتعاطيتُ فعقرت، وشربتُ من النهر الذي ابتُلِيَ به جيوش طالوت، وقُدْتُ الفيلَ لأبرهة، وعاهدت قريشًا على ما في الصحيفة، وتأوّلت في بيعة العقبة، ونفرت إلى العير ببدر، وانخذلتُ بثلث الناس يوم أُحد، وتخلّفتُ عن صلاة العصر في بني قريظة، وجئت بالإفك على عائشة الصديقة، وأنفت من إمارة أُسامة، وزعمت أن خلافة أبي بكر كانت فَلْتة، وروّيت رمحي من كتيبة خالد، ومزقت الأديم الذي باركت يد الله عليه، وضحيت بالأشمط الذي عنوان المسجود به، وبذلت لقطام

ثلاثة آلاف وعبد وقينة ... وضرب علي بالحسام المصمم

... والله ما غششتك بعد النصيحة، ولا انحرفت عنك بعد الصاغية، ولا نصبت لك بعد التشيع فيك، ولا أزمعت يأسًا منك مع ضمان تكلفت به الثقة عنك، وعهد أخذه حسن الظن بك، ففيم عبث الجفاء بأزمتي، وعاث العقوق في مواتي، وتمكن الضياع من رسائلي، ولم ضاقت منه أهبتي، وأكدت مطالبي، وعلام رضيت من المركب بالتعليق بل من الغنيمة بالإياب، وإني غلبني المغلب، وفخر عليّ العاجز الضعيف، ولطمتني غير ذات سوار، ومالك لم تمنع مني قبل أن افترس، وتدركني ولما أمزق، أم كيف لا تتضرم جوانح الأكفاء حسدًا لي على الخصوص بك وتنقطع أنفاس النظراء منافسة في الكرامة عليك، وقد زانني اسم خدمتك، وزهاني رسم نعمتك، وأبليت البلاء الجميل في سماطك، وقمت المقام المحمود في بساطك.

والرسالة مطولة اكتفينا منها بهذا دلالة على أسلوب ابن زيدون في النثر.

وله رسالة خاطب بها أبا مروان بن حيّان مؤرخ الأندلس وقد أهداه أحمالًا من الزيت والبُرّ في سنة ممحلة قال في فصل منها: والذي أسكن إليه من حسن قبولك وجميل تأويلك، أقابل بالحقير وأواجه بالتافه اليسير ويعلم الله تعالى أني لو ناصفتك عمري ما رأيت أن ذلك كفؤ بقدرك ولا وفاء ببرك

فكيف ما دونه، فلك المنزلة التي لا تسامى، والجلالة التي لا توازى، وما شيء وإن جلَّ إلا محتقر لك مستصغر عند محلك. ويصل مع موصل كتابي هذا ما ثبت ذكره في المدرجة طيه وأنت بمعاليك تتفضل بقبوله وتصل أجمل صلة بالتغاضي عن رتاحته (؟) والاستجازة لنزارته، مقتضيًا بذلك شكري وحمدي، ومستبدًا منهما بجميع ما عندي.

قد يسأل من تلا هذه النموذجات القليلة من نظم ابن زيدون ونثره واطَّلع على جانب من حياته السياسية: هل كان اشتهاره بشعره النادر أم كان بما ساس من أمور الملك وتنقُّل بين صاحبَيْ قرطبة وإشبيلية يجالس الملوك في خلواتهم ويصيرونه في خواصهم وصحابتهم ويسفر لهم في مهماتهم ثم يغضبون عليه ويعتقلونه أو يصبح طريدًا شريدًا؟ الأرجح أن استفاضة شهرته أتت من حبِّه ولَّادة، والأرجح أن غرامه بها زاد في طلاوة أدبه. ومتى أدرك الكاتب والشاعر أن كلامه سيتلوه من يعجب به يتأنق فيه إلى التي ليس بعدها ويمده الله بمدد لا يدرك سره.

قالوا: إن عبث الأغنياء وموت الفقراء لا يُحَسُّ بهما، وعبث أبي الوليد اشتهر وذاع وملأ القلوب والأسماع، فكان في ذلك سعادته بأدبه حيًّا وميتًا، وكذلك كان شأن عمر بن أبي ربيعة. سبحانه خَصَّ من شاء بما شاء.



(٣١)

# عبد القاهر الجرجاني

## أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن وقيل ابن عبد الواحد

(٤٧١ ــ ٤٧٤)

خلاصة ما قال فيه مترجموه: أنه كان من كبار أئمة العربية أخذها عن أبي الحسين الفارسي النحوي ابن أخت أبي علي الفارسي، وقرأ على القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني واغترف من بحره، وكان إذا ذكره في كتبه تبخبخ به وشمخ بأنفه بالانتماء إليه، وكان يُرحل إليه من الآفاق، ولُقِّب بالنحوي، وقال صاحب الطراز: إنه عَلَم المحقِّقين، وأول من أسس قواعد علم البلاغة، وفكَّ قيد الغرائب بالتقييد، وفتح أزهاره من أكمامها، وفتق أزراره بعد استغلاقها واستبهامها. وقالوا إنه شافعي المذهب متكلِّمٌ على طريقة الأشعري مع تديُّن وورع، ولم يخرج من بلده. وقالوا: إنه كتب كتبًا في النحو منها شرح الإيضاح في ثلاثين مجلدًا وله غيره. وأهم كتبه المطبوعة: «دلائل الإعجاز» و«أسرار البلاغة» وبهما خلد اسمه في عالم الأدب. ودلائل الإعجاز صحيفة من الأدب العالي لم يُكْتَب البيان ولا النحو ولا الفقه بمثل هذا اللسان العذب. ولا نجازف إذا قلنا إن جودة كلام عبد القاهر في تقرير القواعد والدساتير قلَّ أن يدانيه فيه أحد من المصنفين، ونعني بالمصنفين أَرباب التواليف في قرون ازدهار اللغة والكتابة. تظن نفسك وأنت تتلو فصلًا من دلائل الإعجاز أنك في كتاب أدب كُتِب بسلاسة وعذوبة لا في كتاب عِلْمٍ جافٍّ يقرر حقائق ويأتي بمسائل فيحلها، ويناقش مخالفيه ويغضب منهم ويغضبهم، ويورد من الأمثلة ما يؤيد دعواه. وربما لا نعدو الحق إذا قلنا: إن

عبد القاهر كاتب القرن الخامس، وهو أكتَبُ من صديقه جار الله الزمخشري، فجار الله إنما اشتغل بمتن اللغة كثيرًا، وهذا انصرف إلى البيان والتبيين وجمع بين صحة المباني وجودة المعاني. وخصلة أخرى وهي أنك إذا قرأت صفحة من دلائل الإعجاز تعتقد لساعتك أن المؤلف من الرعيل الذين هضموا ما تعلموا، وعرفوا كيف يحملونه إلى من يحاولون تعليمهم.

كان الجرجاني ينظم الشعر في بعض ما تتأثر به نفسه، وعَرَفْنا بالقليل الذي رَوَوْه عنه أنه كان حانقًا على الأيام متبرِّمًا بأهل زمانه. فمما عزوه إليه وهو مشهور قوله:

كبِّرْ على العلم يا خليلي[1] ... ومِلْ إلى الجهل ميل هائم
وعِشْ بليدًا[2] تَعِشْ سعيدًا ... فالسَّعْد في طالع البهائم

وله في شكاية أبناء الزمان واستيلاء نقصهم على فضله:

هذا زمان ليس فيـ ... ـه سوى النذالة والجهالة
لم يرقَ فيه صاعد ... إلا وسُلّمه النذالة

وله أيضًا:

لا يوحشنك أنهم ما ارتاحوا ... مما جلاه عليهم المداح
فهم كقوم عُلِّقَتْ بإزائهم ... بيض المرائي والوجوه قباح

ومن شعره:

لا تأمن النفثة من شاعر ... ما دام حيًّا سالمًا ناطقا
فإن من يمدحكم كاذبًا ... يحسن أن يهجوكم صادقا

ذكروا له شعره ولم يذكروا كتابته، وكتابته هي موضع السمو فيه، ذلك

---

(١) في تاريخ الإسلام للذهبي: لا ترمه، بدل يا خليلي.
(٢) وفي المصدر نفسه: حمارًا، بدل بليدًا.

لأنه لم يتولَّ من أعمال السلطان ما تكتب له به شهرة، وجرت عادة أصحاب التراجم أن يهتموا أبدًا بتلقط شعر المترجم لهم أكثر من اهتمامهم بالتقاط نثر الناثرين وكتابة المنشئين.

ومن كلامه يصف كساد سوق الفضل في عصره: «ثم إنا وإن كنا في زمان هو على ما هو عليه من إحالة الأمور عن جهاتها، وتحويل الأشياء عن حالاتها، ونقل النفوس عن طباعها، وقلب الحقائق المحمودة إلى أضدادها، ودهر ليس للفضل وأهله لديه إلا الشر صرفًا، والغيظ بحتًا، وإلا ما يدهش عقولهم، ويسلبهم معقولهم، حتى صار أعجز الناس رأيًا عند الجميع من كانت له همة في أن يستفيد علمًا، أو يزداد فهمًا، أو يكتسب فضلًا، أو يجعل له ذلك بحال شغلًا».

الازدواج في كلام عبد القادر أكثر من السجع، وإذا سجع فسجعه ينطوي على معنى آخر قد لا تجده في السجعة الأولى، ورصف الألفاظ ومتانة التراكيب هو محل العجب في كلامه. ونرى أن عدم التكلف في إرسال جمله هو الذي سلس به بيانه. انظر إليه يقول في وصف إعجاز القرآن لا يخرج عما يقوله في درس أو يحاور به شخصًا: فإذا كنت لا تشك في أن لا معنى لبقاء المعجزة بالقرآن إلا أن الوصف الذي له كان معجزًا قائم فيه أبدًا وأن الطريق إلى العلم به موجود والوصول إليه ممكن فانظر أيَّ رجل تكون إذا أنت زهدت في أن تعرف حجة الله تعالى، وآثرت الجهل فيه على العلم، وعدم الاستبانة على وجودها، وكان التقليد فيها أحب إليك، والتعويل على علم غيره آثر لديك، ونحِّ الهوى عنك، وراجع عقلك، واصدقْ نفسك، يَبِنْ لك فحش الغلط فيما رأيت، وقبح الخطأ الذي توهمت. وهل رأيت رأيًا أعجز، واختيارًا أقبح، ممن كره أن تعرف حجة الله تعالى، من الجهة التي إذا عرفت عنها كانت أنور وأبهر، وأقوى وأقهر، وآثر ألَّا يقوى سلطانها على الشرك كل القوة ولا تعلو على الكفر كل العلو.

ونختم الكلام في هذا العظيم، ونحن معترفون بالعجز عن توفيته بعض حقه، بقوله في خلط بعض المفسرين في عدم التفريق بين الحقيقة والمجاز في الألفاظ قال: ومن عادة قوم ممن يتعاطى التفسير بغير علم أن توهَّموا أبدًا في الألفاظ الموضوعة على المجاز والتمثيل أنها على ظواهرها فيفسدوا المعنى بذلك ويبطلوا الغرض ويمنعوا أنفسهم والسامع منهم العلم بموضوع البلاغة وبمكان الشرف، وناهيك بهم إذا هم أخذوا في ذكر الوجوه وجعلوا يكثرون في غير طائل. هناك ترى ما شئت من باب جهل قد فتحوه، وزند ضلالة قد قدحوا به.



(٣٢)

# أبو عبيد البكري

## عبد الله بن عبد العزيز بن محمد

(٤٨٧)

كان جدُّه قاضيًا في لَبْلَةَ وأَبوه من الأمراء، وكان قائدًا في شلطيش وأونْبة من قواد الخليفة الأموي هشام المؤيد. ولما سقطت دولته ولم يستطع ابنه عبد العزيز بعده أن يعصي أمير إشبيلية المعتضد، وكان هذا يرمي إلى توحيد إمارات الأندلس بأسرها، فَرَّ من شلطيش بذخائره سرًّا ومعه ابنه عبد الله ثم اعتصم بقرطبة. وفي هذه المدينة نشأ أبو عبيد وأتم ثقافته على أعاظم علماء تلك الحاضرة. ثم اتصل بأمير المَرِيّة وتصرّف له، وفيها أخذ عن ابن حيان مؤرخ الأندلس وسَفَرَ عن صاحب المريّة، ولما استولى المرابطون على الأندلس اعتزل العمل في قرطبة وانصرف إلى العلم والتأليف.

اشتُهر البكري بالشعر، ومعظم شهرته بأبحاثه اللغوية والجغرافية والأدبية والتاريخية. قال ابن مكتوم: إنه من أهل شلطيش سكن قرطبة يكنى أبا عبيد، روى عن أبي مروان بن حيان وأبي بكر المصحفي وأبي العباس العذري، سمع منه بالمريّة، وأجاز له أبو عمر بن عبد البر الحافظ وغيرهم، وكان من أهل اللغة والآداب الواسعة والمعرفة بمعاني الشعر والغريب والأنساب والأخبار متقنًا لما قيده، ضابطًا لما كتبه، جميل الكتب، مهتمًّا بها، يُمسكها في ثياب الشَّرْب (أي الرقيق من الكتان) وغيرها إكرامًا لها وصيانة. رواه ابن بُشكوال.

وترجمه الفتح بن خاقان في قلائد العقيان بما صورته: عالم الأوان

ومصنِّفه، ومقرط البيان ومشنِّفه، بتواليف كأنها الخرائد، وتصانيف أبهى من القلائد، حلَّى بها من الزمان عاطلًا، وأرسل بها غمام الإحسان هاطلًا، وَضَعَها في فنون مختلفة وأنواع، وأقطعها ما شاء من إتقان وإبداع. وأما الأدب فهو كان منتهاه، ومحلّ سُهاه، وقطب مداره، وفَلَك تمامه وإبداره. وكان كل ملك من ملوك الأندلس يتهاداه تهادي المقل للكرى، والآذان للبشرى، على هَنَاتٍ كانت فيه، فإنه رحمه الله مباكر للراح ولا يصحو من خمارها، ولا يمحو رسم إدمانه من مضمارها، ولا يُريح إلا على تعاطيها، ولا يستريح إلا على معاطيها، قد اتخذ إدمانها هَجِّيره، ونبذ من الإقلاع عنها نبذ عاصم بن الأيمن مجيره، فإذا حان انقراض شعبان وانصرامه كانت فيه مستبشعة الذكر، مستشنعة النّكر، تمجُّها الأوهام والخواطر، ويثبتها السماع المتواتر.

وقد أثبت ما يشهد لك بتقدمه، ويريك منتهى قدمه. رأَيته وأنا غلام ما أقمر هلالي، ولا نبع في الذكاء كوثري ولا زلالي، في مجلس ابن منظور، وهو في هيئة كأنما كسيت بالبهاء والنور، وله سَبَلة يروق العيون إيماضها، ويغرق السوادَ بياضُها، وقد بلغ سن ابن محلم، وهو يتكلم فيفوق كل متكلم. فجرى ذكر ابن مقلة وخطه، وأُفيض في رفعه وحطه فقال:

خط ابن مقلة من أرعاه مقلته ... ودّت جوارحه لو أصبحت مقلا
فالدر يصفرُّ لاستحسانه حسدًا ... والورد يَحمرُّ من إبداعه خجلا

وله فصل في كتاب راجع به الفقيه الأستاذ أبا الحسن بن دري رحمهما الله:

وتالله أني لأطعم جَنَى محاورتك فيقف في اللَّهاة، وأجد لتخيل مجالستك ما يجده الغريق للنجاة، وأعتقد في مجاورتك ما يعتقده الجبان في الحياة.

متى تخطئ الأيام فيَّ بأن أرى ... بغيضًا ينائي أو حبيبًا يقرّب

ورأيت رغبتك في الكتاب الذي لم يتحرر ولم يتهذب، وكيف التفرغ لقضاء أرب، والنشاط قد ولى وذهب، فما أجده إلا كما قيل:

نزرًا كما استكرهت عائر نفحة    من فارة المسك التي لم تفتق

وبعد فقد رأيت مما ترجم له صاحب القلائد كيف طعن عليه لإدمانه ابنة العنقود، وكيف شهد ضمنًا بأنه يمتنع عن تعاطيها في شهر رمضان أي إنه مؤمن بخطيئته. والغالب أن طول عشرته للملوك والأمراء جنت عليه من هذه الناحية فزادته غرامًا بالخمر، وحسناته الكثيرة تغفر له هذه الزلة، ولو لم يكن من كبار العلماء ما كانت تعد شيئًا يذكر، والسكارى أكثر من الصحاة.

وأهم ما وضع أبو عبيد من التآليف معجم ما استعجم ذكر فيه جملة ما ورد في الحديث والأخبار والتواريخ والأسفار من المنازل والديار والقرى والأمصار والجبال والآثار والمياه والآبار والدارات والحرار منسوبة محدودة. وأفاض في المقدمة في الكلام على جزيرة العرب وحدودها وقبائلها وما إلى ذلك من الفوائد الجغرافية واللغوية والنحوية. وعده السيوطي في النحاة وترجم له في طبقاتهم.

رتَّب أبو عبيد معجمه على حروف أبي جاد، وهي طريقة المغاربة في المعاجم وغيرها، وذلك لتسهل عليه المبالغة في التنقيح في كل صفحة من صفحاته ولكتابه من اسمه نصيب (معجم ما استعجم) وكان، كما قال أحد علماء المشرقيات، ضروريًا يرجع إليه في دراسة التاريخ القديم وعلم تقويم البلدان وشعراء الأقدمين والحديث. وعلَّق أستاذنا طاهر الجزائري على نسختنا أن عدد الأسماء التي في هذا المعجم نحو ٤١٠٠، وأما الأبيات فهي أكثر من ذلك بكثير.

ورُزق أبو عبيد حظًا كبيرًا من النقد يشهد له معجمه الذي طبَّقت الآفاق شهرتُه، وكان آيةَ تدقيقه وضبطه، وكذلك كان كتابه «التنبيه على أوهام أبي علي في أَماليه» نَقَدَ فيه أمالي أبي علي القالي، وفيه أيضًا مثال من أدبه الجم،

قال في مقدمته: «هذا كتاب نبَّهت فيه على أوهام أبي علي في أماليه تنبيه المنصف لا المتعسف ولا المعاند، محتجًّا على جميع ذلك بالشاهد والدليل. فإني رأيت من تولَّى مثل هذا من الرد على العلماء، والإصلاح لأغلاطهم والتنبيه على أوهامهم، لم يعدل في كثير مما رده عليهم، ولا أنصف في جمل مما نُسب إليهم، وأبو علي رحمه الله من الحفظ وسعة العلم والنبل، ومن الثقة في الضبط والنقل، بالمحلِّ الذي لا يُجْهَل، وبحيث يقصر عنه من الثناء الأحفل، ولكن البشر غير معصومين من الزلل، ولا مبرَّئين من الوهم والخطل، والعالم من عدت هفوانه، وأُحصيت سَقَطاته. وكفى المرء نبلًا أن تُعَدَّ معايبه». وبهذا الأدب نقد ذاك الروايةُ العظيم المشهود له في كل نادٍ فدلّ أيضًا على صفاء نفسه وعالي خُلُقِه.

هذا غاية ما عرف من سيرة فريد قطره ووحيد فنِّه، ابن الأندلس العظيم في عهد تردِّيها السياسي، وقد وقاه الله شر السياسة فلم ينغمس فيها كما انغمس أجداده، فأحبه ملوكهم وأخذوا يتهادونه، ووسيلته إليهم بل وسيلتهم إليه أدبه وعلمه. أَلِفَتْه نفوسهم واغتبطوا بمنادمته فأعطى لكل عمل وقته، حقَّق وأجاد في تحقيقه، وأبدع فأحسن في إبداعه، لا تقول وأنت تنظر في موضوعاته وهي مما لا تقبله كل الأذواق إلا أنك في صحابة رجل جذّاب الحديث يأخذ كلامه بمجامع القلوب وأنه تمثل ما حمل عن أولئك العظماء، ولا سيما ابن حيان مؤرخ الأندلس وكاتبه الأكتب. وإذا لم تكتب له الشهرة من طريق السياسة وفيها ما فيها من إضاعة العمر على الأكثر، فقد كُتبت له الشهرة بتآليفه، وكنت بيئته صالحة كل الصلاح لمن كان في مثل حاله من المؤلفين، عرف ما عند المشايخ وما عند الخاصة والعامة وما عند الملوك والعظماء ووقف على ما يجري في مجالسهم وما تَجُول فيه أفكارهم.

(٣٣)

# الراغب الأصفهاني

## الحسين بن محمد

(٥٠٢)

لاتصال العلماء والأدباء برجال السلطان وتصرفهم لهم في القضاء والعمالات أو تقربهم منهم بالمنادمة والتأديب والشعر دخلٌ كبير في استفاضة شهرتهم وتناقُل آرائهم وتآليفهم. وكم من عظيم لم يتولَّ قضاء ولا عملًا للدولة بقي على خمول لا يكاد يشعر به، ولا يعرفه غير بعض أبناء حيّه، ومنهم على ما يظهر الراغب الأصفهاني.

لم يترجم له حتى أصحاب الطبقات من أهل مذهبه، وغاية ما اتصل بنا من أخباره: أنه كان صاحب لغة وعربية وحديث وشعر وكتابة وأخلاق وحكمة، وأنه عارف بعلوم الأوائل وغير ذلك، وأنه كان مقبولًا عند الخاصة والعامة ومن أئمة السنة شافعي المذهب، وقرنوه بالغزالي، وقيل عن الغزالي كان يستصحب كتابه الذريعة ويستحسنه لنفاسته، وأن القاضي البيضاوي اعتمد على كتابه مفردات الراغب في التفسير.

أما أين قرأ الراغب وعمن أخذ، وكيف نبغ وكيف نفع إلى غير ذلك من خصائصه وحليته ورحلته فمل نقف على شيءٍ منه يبلُّ الغُلَّة. وكانت أصفهان في أيامه عُشَّ العلماء والأئمة على ما كانت نيسابور، لم تكد تخرج مدينة من المدن في فارس أمثالهم في كل فن ولا سيما الحديث وحفاظه على أننا لا نعرف إن كان الراغب نشأ في تلك المدينة الجميلة أم أنها موطن أُسرته وهو عاش في مدينة أُخرى من فارس.

وكأن لسان الحال نادى من غفلوا أو تغافلوا عن التنويه به في كتبهم: إنكم يا هؤلاء إذا أهملتموني فالقدرة تعلَّقت بأنْ تناقَلَ الناس كتبي وانتفعوا بها في مختلف الأعصار والأقطار. وهل يستغني طالب الوقوف على أسرار التنزيل عن الأخذ من كتابه «المفردات في غريب القرآن»، وقد شاع بين الناس باسم «مفردات الراغب»؟ وهل تسد حاجة المتفقِّه بغير كتابه «الذريعة إلى مكارم الشريعة» إذا أراد الجمع بين أحكام الشرع ومكارمه علمًا وعملًا؟ وهل يتم أدب المتأدِّب إذا لم يأخذ من كتابه «محاضرات الأدباء ومحاولات الشعراء والبلغاء» الذي أطلق عليه الناس اسم «محاضرات الراغب» تخفيفًا فاقترن باسمه على الدهر؟ وهل المتعلم في غنية عن مدارسة كتابه «تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين».

الراغب لا يتكلم عن نفسه، بل ينقل في العلم والأدب ـ اللهم إذا حكمنا عليه بما بقي لنا من ممتع تراثه هذا، وهي الكتب الأربعة السابقة ـ كلام من تقدمه ويضع الدساتير ويختط الخطط، وقد امتاز بأن العقل يتجلَّى في سطوره، فهو من أعظم العلماء الذين يحسنون استخراج الآي من القرآن ويوردونها عند الاقتضاء دليلًا على ما يريدون الإفاضة فيه. ومن أعظم من طبقوا الحكمة أي علم العقل على الشرع، كما امتاز بتنسيق فصول كتبه وسهولة عبارتها مع بلاغتها، واقتصاره في تقريره على ما يجب أن يبقى في الذهن ولا تعافه النفس لطوله ولفه ودورانه.

يقول لك الراغب في المفردات: «إن أول ما يحتاج أن يُشتغل به من علوم القرآن العلوم اللفظية، ومن العلوم اللفظية تحقيق الألفاظ المفردة فتحصيل معاني مفردات ألفاظ القرآن في كونه من أوائل المعاون لمن يريد أن يدرك معانيه كتحصيل اللّبن في كونه من أول المعاون في بناءِ ما يريد أن يبنيه، وليس ذلك نافعًا في علوم القرآن فقط، بل هو نافع في كل علم من علوم الشرع، فألفاظ القرآن هي لب كلام العرب وزبدته وواسطته وكرائمه، وعليها

اعتماد الفقهاء والحكماء في أحكامهم وحِكَمهم، وإليها مَفْزع حذاق الشعراء والبلغاء في نظمهم ونثرهم...».

ويقول لك في الذريعة: إنه باكتساب المكرمة يستحق الإنسان أن يوصف بكونه خليفة الله تعالى المعني بقوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، وبقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ وبقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾، وأن خلافة الله ﷻ لا تصحُّ إلا بطهارة النفس كما أن أشرف العبادات لا تصح إلا بطهارة الجسم.

ويقول لك في تفصيل النشأتين: «إن العقل لن يهتدي إلا بالشرع والشرع لا يتبيَّن إلا بالعقل، فالعقل كالأُسّ والشرع كالبناء، ولن يغني أس ما لم يكن بناء، ولن يثبت بناء ما لم يكن أس. وأيضًا: فالعقل كالبصر والشرع كالشعاع، ولن يغني البصر ما لم يكن شعاع من خارج، ولن يغني الشعاع ما لم يكن بصر، ولهذا قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾، وأيضًا: فالعقل كالسراج والشرع كالزيت الذي يمده، فإن لم يكن زيت لم يحصل السراج وما لم يكن سراج لم يُضِئ الزيت. قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ﴾ والله هو الهادي، وأيضًا: فالشرع عقل من خارج، والعقل شرع من داخل وهما متعاضدان بل متحدان؛ ولكون الشرع عقلًا من خارج سلب الله تعالى اسم العقل من الكافر في غير موضع من القرآن نحو قوله: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا

﴿يَعۡقِلُونَ﴾، ولكون العقل شرعًا من داخل قال في وصف العقل: ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾ فسمى العقل دِينًا، ولكونهما متحدَيْن قال: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۗ﴾ أي: نور الشرع ونور العقل، ثم قال: ﴿يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾ فجعلهما نورًا واحدًا، فالشرع إذا فقد العقل عجز عن أكثر الأمور عجز العين عند فقد الشعاع».

بَيْنا يقول لك هذا إذا به في محاضراته أديبٌ لا يتورَّع عن نقل كل ما ندعوه بالأدب الواقع أو المكشوف في جملة ما ينقل من فرائد الشعر ويتيمات النثر، هو هناك أديب على أكمل وجه عرف به أديب ويقول: «ومن لا يتحلى في مجلس اللهو إلا بمعرفة اللغة والنحو كان من الحصر صورة ممثلة أو بهيمة مهملة، ومن لا يتبع طرفًا من الفضائل المخلدة من ألسنة الأوائل كان ناقص العقل.

ويبدأ كتابه بباب العقل والعلم. فهو معلِّمٌ صادق في كل ما كتب لا يحب التزمُّت ويبعد عن التَّقِية، ويلقِّنك ما يعتقد صحته وفصاحته بدون مواربة. كتب كتابه هذا لأمير من أُولئك الأمراء على ما يظهر وخاطبه بسيدنا عمر الله بمكانه مرابع الكرم، ليجعل هذه المحاضرات «صيقل الفهم ومادة العلم» لأنه كان ممن سلك في زمانه طريقًا قلَّ سالكوه، جعل مراعاة الأدب شعاره ودثاره.

قالوا: إن فضل الراغب، صاحب اللغة والعربية والحديث والشعر والكتابة والأخلاق والحكمة وعلوم الأوائل وغير ذلك، أشهر من أن يوصف. وفي «روضات الجنات»: كفاه منقبة أن له قبول العامة والخاصة أي: أهل السنة والشيعة.

هذه نتفة من سيرة عظيم الشرع ونابغة العقل، ولم نعرفه إلا كما عرفنا أكثر العلماء، مثلوهم لأعيننا كبارًا من أول يوم وما وقفوا على بيوتهم ونشأتهم ودراستهم وشيوخهم ومعاشهم وصفاتهم وما وقع لهم من الأحداث في حياتهم مما كانوا لا يرون فيه كبير أمر وممن لا نتصور الرجال إلا به.

(٣٤)

# الغَزَالي

## أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسي

(٥٠٥)

من الرواة من يُشدِّدون الزاي من الغزالي ومنهم من يخفِّفها وهي الرواية الشائعة. ولد أبو حامد بطوس من بلاد خراسان سنة خمسين وأربعمئة، وقيل: إنه ولد في غزالة من أعمال طوس، وقيل: كان والده يغزل الصوف ويبيعه. وحرص الأب على أن يكون ابنه فقيهًا لحبه الفقهاء واختلاطه بهم، وأوصى به وبأخيه أحد الصوفية وقال: إنه يأسف أسفًا عظيمًا على عدم تعلمه الخط وأَشتهي استدراك ما فاتني في ولديَّ هذين، فَعَلِّمْهما ولا عليك أن تنفذ جميع ما أُخلفه لهما. فلما مات أقبل الصوفي على تعليمهما إلى أن فني المال فجعلهما في مدرسة ليحصلا على قوتهما. وكان الغزالي يحكي هذا ويقول: طلبنا العلم لغير الله فأبى إلا أن يكون لله.

قرا أبو حامد في صباه طرفًا صالحًا من الفقه ببلده ثم سافر إلى جرجان واتصل بأبي نصر الإسماعيلي، وعلَّق عنه التعليقة، ثم رجع إلى طوس، ثم قدم نيسابور ولازم إمام الحرمين، ونبغ في أيام أستاذه، هذا وصنَّف وهو شاب. قال سبط ابن الجوزي: وتفقَّه على أبي المعالي الجويني وبرع في النظر في مدة قريبة وفاق الأقران وتوحد وصنف الكتب الحسان في الأصول والفروع التي تفرد بحسن وضعها وترتيبها وتحقيق الكلام فيها حتى إنه صنف في حياة أستاذه الجريني فنظر في كتابه المسمى بالمنحول فقال: دفنتني وأنا حيّ، هلَّا صبرت حتى أموت، وأراد أن كتابك قد غطَّى على كتابي. ولما

هلك أستاذه قصد الوزير نظام الملك، وكان مجلسه مجمع أهل العلم وملاذهم، فناظر العلماء فاعترفوا بفضله فولّاه التدريس في المدرسة النظامية ببغداد فَقَدِمها في سنة أربع وثمانين وأربعمئة، فأعجب الخلقَ حُسْنُ كلامه وكمال فضله وفصاحته، وبعد سنين قضاها في النظامية خرج إلى الحج ودخل دمشق وبيت المقدس، ثم عاد إلى جلّق وأخذ يطوف الأصقاع، فدخل مصر وتوجَّه منها إلى الإسكندرية فأقام بها مدة حاول على ما يظهر أن يركب البحر من الإسكندرية إلى المغرب ليلتحق بابن تومرت صاحب الدولة هناك. وكان جاء العراق وأخذ عن أبي حامد مذهب الأشعري، فلما عاد إلى المغرب قام في المصامدة يفقههم ويعلمهم. فلما بلغت أبا حامد وفاة ابن تومرت رجع. وقيل: إن الغزالي كان يُبْطن مذهبًا سياسيًا أراد أن يتعاون مع تلميذه ابن تومرت على تحقيقه خدمة للدين أو بغية قيام دولة فتية. وعاد أبو حامد إلى نيسابور ودرّس مدة بالمدرسة النظامية، ثم رجع إلى طوس واتخذ إلى جانب داره مدرسة للفقهاء وخانقاهًا للصوفية، ووزع أوقاته على وظائف من تلاوة القرآن ومجالسة أرباب القلوب وتدريس طلبة العلم، إلى أن انتقل إلى جوار ربه.

خُلق الغزالي صوفيًا ومارس التصوف زمنًا، ولكن العلم غلب عليه فتبحَّر في الفقه والكلام والفلسفة، ورُزق لسانًا بليغًا وقلمًا سيالًا وحافظة نادرة وذاكرة واعية وجرأة لا يَنِي معها عن الصدع بالحق الذي عرفه، والنور الذي قُذف في قلبه، وكثيرًا ما نعى على علماء السوء الذين نافقوا في دينهم، وتقرَّبوا من الأمراء والسلاطين بالعبث بالدنيا والدين. وإنَّ رجلًا يحضر مجلس درسه في النظامية ببغداد ثلثمئة عالم من الأعيان المدرسين، وأكثر من مئة من أبناء الأمراء، لأهلٌ أن يُحْسَد ويُسْعَى به إلى الملوك.

ولقد طَعَنَ في بعض كتبه المصنَّفة في أسرار المعاملات فقام المشاغبون يزعمون أن فيها ما يخالف مذهب الأصحاب المتقدمين والمشايخ المتكلمين

وقالوا: إن العدول عن مذهب الأشعري ولو في قيد شبرٍ كفرٌ، ومباينته ولو في شيءٍ نزرٍ ضلالٌ وخُسْر، فكتب رسالة «التفرقة بين الإسلام والزندقة». ومما قال فيها: «واستحقر من لا يُحسد ولا يُقذف، واستصغر من بالكفر أو الضلال لا يُعرف، فأي داعٍ أكمل وأعقل من سيد المرسلين ﷺ وقد قالوا: إنه مجنون من المجانين، وأي كلام أجل وأصدق من كلام رب العالمين وقد قالوا: إنه أَساطير الأولين. وإياك أن تشتغل بخصامهم، وتطمع في إفحامهم، فتطمع في غير مطمع، وتصوَّت في غير مسمع، أما سمعت ما قيل:

كل العداوة قد ترجى سلامتها إلا عداوةَ من عاداك من حسد

قيل: إنه صنف الإحياء في دمشق وقت اغترابه فانتفع الخلق به لاحتوائه على أدب الشريعة بأسلوب مرتب منظم حتى قال فيه بعض المحققين: لو لم يكن للناس من الكتب التي صنفها الفقهاء الجامعون في تصانيفهم بين النقل والنظر والفكر والأثر غيره لكفى»، وغالى بعضهم فقال: لو ضاعت الشريعة لأجزأ الإحياء عنها. لا جرم أنه كتاب التربية الإسلامية العالية مشوب بقليل من التصوف والدعوة إلى مجاهدة النفس والعزوف عن الدنيا.

أملى المؤلف من ذلك أجزاءً كبيرة فيها إفاضة في كل ما أُثر. ولو كان فيه الضعيف من الأثر. وكل ما فيه ينمُّ عن فكر على أي حال طبق فيه الغابر على الحاضر، وأبدع في التأليف وتفنَّن في حصر مسائل بعينها ومناقشتها. فالإحياء كتاب حمل ما جاء عن الشارع، يخلص منه قارئه إلى ما رآه مؤلفه من البدع والضلالات ورده باعتدال. ولما كان التصوف غالبًا عليه خصوصًا في أُخريات أيامه رشح قلمه منه بالضرورة رشحات لا يقول بأكثرها بعض الراسخين في العلم من الأقدمين والمحدثين، لأنها تزهِّد الناس في الحياة، والحياة تتوقف على عمل وجهاد، وهذا ما فهم من روح الشريعة. وكأن الغزالي طَلَبَ الكثيرَ من المؤمنين ليصح له القليل، وهوممن لا يرى التضييق والحرج، ويقول: إن من أَشد الناس غلوًّا وإسرافًا طائفة من المتكلمين كفَّروا عوامَّ المسلمين

وزعموا أن من لا يعرف الكلام معرفتهم، ولم يعرف العقائد الشرعية بأدلتهم التي حرروها فهو كافر. فقال: «إنهم ضيَّقوا رحمة الله الواسعة على عباده أولًا، وجعلوا الجنة وقفًا على شرذمة يسيرة من المتكلمين».

حمل الإحياء آراء كثيرة للغزالي كاد يتفرد بها منها: الشيخ في قومه كالنبي في أُمته، وليس ذلك لكثرة ماله ولا لكبر شخصه ولا لزيادة قوته، بل لزيادة تجربته التي هي ثمرة عقله، ولذلك ترى الأتراك والأكراد وأجلاف العرب وسائر الخلق مع قرب منزلتهم من رتبة البهائم يوقرون المشايخ بالطبع. ومنها: فأكثر الناس جاهلون بالشرع في شروط الصلاة في البلاد، فكيف في القرى والبوادي ومنهم الأعراب والأكراد والتركماينة وسائر أصناف الخلق. ومنها: أن الفتوى قام بها جماعة ولا يخلو بلد من جهلة الفروض المهملة ولا يلتفت الفقهاء إليها وأقربها الطب إذ لا يوجد في أكثر البلاد طبيب مسلم يجوز اعتماد شهادته فيما يعوَّل فيه على قول الطبيب شرعًا، ولا يرغب أحد من الفقهاء في الاشتغال به. ومنها في الكلام على غرام بعض الفقهاء في المناظرات: ولا ترى المتناظرين يهتمون بانتقاد المسائل التي تعم البلوى بالفتوى فيها بل يطلبون الطبوليات التي تسمع فيتسع مجال الجهل فيها. أطلق الطبوليات والطبول على المسائل التي يراد بها الشهرة. ومنها: ولا ينفك المُناظِر عن التكبُّر على الأقران والأمثال والترفُّع إلى فوق قدره، حتى إنهم ليتقاتلون على مجلس من المجالس يتنافسون فيه في الارتفاع والانخفاض والقرب من وسادة الصدر والبعد منها، والتقدم في الدخول عند مضايق الطرق.

من أجمل الظاهرات في تآليف الغزالي: أنه يبسط الكلام ويأتي بحجج خصومه وينقضها على نظام مدقق، ففي كتاب تهافت الفلاسفة، قال: إن أقوم الفلاسفة بالنقل والتحقيق من المتفلسفة في الإسلام الفارابي أبو النصر وابن سينا. فاقتصر على إبطال ما اختاروه ورأوه الصحيح من مذهب رؤسائهم،

ورأى تكفيرهم في ثلاث مسائل فقط: قِدم العالم وقولهم إن الجواهر كلها قديمة، وقولهم: إن الله لا يحيط علمًا بالجزئيات الحادثة من الأشخاص، وإنكارهم بعث الأجساد وحشرها.

قال: وما عدا هذه المسائل الثلاث من تصرفهم في الصناعات الإلهية واعتقاد التوحيد فيها فمذهبهم قريب من مذاهب المعتزلة، ومذهبهم في تلازم الأسباب الطبيعية هو الذي صرح المعتزلة به في التولد، وكذلك جميع ما نقلناه عنهم قد نطق به فريق من فرق الإسلام إلا هذه الأصول الثلاثة، فمن يرى تكفير أهل البدع من فرق الإسلام يكفرهم أيضًا، ومن يتوقف عن التكفير يقتصر على تكفيرهم بهذه المسائل.

وصرح بمثل هذا في كتابه «الاقتصاد في الاعتقاد» فقال: الذين يُصدِّقون بالصانع والنبوة ويصدقون النبي، ولكن يعتقدون أمورًا تخالف نصوص الشرع ويقولون: إن النبي محق، وما قصد بما ذكره إلا صلاح الخلق، ولكن لم يقدر على التصريح بالحق لكلال أفهام الخلق عن دركه، وهؤلاء هم الفلاسفة ويجب القطع بتكفيرهم في ثلاث مسائل: إنكارهم حشر الأجساد والتعذيب بالنار والتنعيم في الجنة، وقولهم: إن الله لا يعلم الجزئيات وإنما يعلم الكليات، وقولهم: إن العالم قديم وإن الله تعالى متقدم على العالم بالرتبة.

ولولا أن الخوض في مباحث الفلسفة يخرجنا عن موضوعنا لنقلنا زبدة ما رد به ابن رشد على الغزالي في كتابه «تهافت التهافت» وهو الكتاب الذي كسره فيلسوف الغرب في الإسلام على نقد تهافت الفلاسفة للغزالي. ولا يزال الفقهاء والفلاسفة مختلفين منذ انتشرت الفلسفة في الأمة الإسلامية. كل يصحح رأيه ويرمي مخالفه بالبهتان والضلال.

افتح أيَّ كتاب أو رسالة من تأليف الغزالي تقعْ في الحال على منزعه وتَنْشَقْ ريح تصوفه وتُدركْ مبلغ عطفه على المتصوفة، وهو الذي اعتقد أن «حاصل علمهم قطع عقبات النفس، والتنزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها

الخبيثة، حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى». وكان عنده أن أصناف الطالبين أربع فرق: المتكلمون والباطنية والفلاسفة والصوفية، وقال: إنه درس مذاهب هؤلاء كلها درسًا عميقًا ثم تعلَّق قلبه بالصوفية. ورأى الثلاث الفرق الأولى ليست الطريق الموصل إلى الحق، فحاول أن يحمل الناس على الأخذ بنزعة ما نزع إليها لولا مزاج خاص فيه، عنينا بذلك التصوف. وهذه نقطة الضعف في الغزالي أعلم علماء الشافعية على الإطلاق، وأي كبير أو أي إنسان تجرد من الضعف!

وكتابه «المنقذ من الضلال» هو تقاييد ما عرض له من أول أمره إلى قبيل وفاته بسنين قليلة قال فيه: «ولم أزل في عنفوان شبابي منذ راهقت البلوغ قبل بلوغ العشرين إلى الآن وقد أناف السن على الخمسين أقتحم لجة هذا البحر العميق وأخوض غمرته خوض الجسور لا خوضَ الجبان الحذور، وأتوغل في كل مظلمة، وأتهجم على كل مشكلة، وأتقحم كل ورطة، وأتفحص عن عقيدة كل فرقة، واستكشف أسرار مذهب كل طائفة، لأميّز بين محق ومبطل، ومتسنن ومبتدع. . . وقد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور دأبي وديدني من أول أمري وريعان عمري، غريزة وفطرة من الله وضعتا في جبلتي لا باختياري وحيلتي. حتى انحلّت عني رابطة التقليد وانكسرت على العقائد الموروثة».

ورأى علم الكلام بعد أن حصَّله وعقله وصنَّف فيه غير وافٍ بمقصوده فتركه، وبعد الفراغ منه أخذ بالتعمق في الفلسفة لأن «من لا يقف على منتهى ذلك العلم حتى يساوي أعلمهم في أصل العلم ثم يزيد عليه ويجاوز درجته» لا يغني الغناء المطلوب. قال: إنه لم ير أحدًا من علماء الإسلام صرف همته وعنايته إلى ذلك فاستبان له الضرر من علوم الفلاسفة بعد البحث الشديد، ونظر كذلك في مذهب التعليم أو الباطنية، وبعد أن وصفهم ووصف علومهم قال: فهذه حقيقة حالهم فاخبرهم تَقْلِهم، فلما خبرناهم نفضنا اليد عنهم أيضًا.

ووصف السبب الذي حداه على ترك التدريس بالمدرسة النظامية في بغداد، وقد تولى التدريس فيها أربع عشرة سنة كان فيها موضع إعجاب العلماء، فقال: إنه رأى ألا مطمع له في سعادة الآخرة إلا بالتقوى، وكفّ النفس عن الهوى، وإن ذلك لا يتم إلا بالإعراض عن الجاه والمال، ورأى نيته في التدريس غير خالصة لوجه الله، بل باعثها طلب الجاه وانتشار الصيت، فصمَّم على الخروج من بغداد، وشهوات الدنيا تتجاذبه سلاسلها إلى المُقام، ومنادي الإيمان يناديه: الرحيل الرحيل. فلم يزل يتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ودواعي الآخرة قريبًا من ستة أشهر، أصيب خلالها بشيءٍ من عقدة اللسان، وقطع الأطباء طمعهم عن العلاج، فصح عزمه على مغادرة تلك البلاد معرضًا عن الجاه والمال والأهل والولد والأصحاب، وأظهر عزمه على الخروج إلى مكة وهو يورّي في نفسه سفر الشام حذرًا أن يطلع الخليفة وجملة الأصحاب على عزمه في المقام بالشام، فتلطف بلطائف الحيل في الخروج عن بغداد على عزم ألّا يعاودها، واستهدف لأئمة أهل العراق كافة، إذ لم يكن فيهم من يجوّز أَن يكون الإعراض عما كان فيه سببًا دينيًا. قال: وكان ذلك مبلغهم من العلم «ففارقت بغداد وفرَّقت ما كان معي من المال، ولم أدَّخر إلا قدر الكفاف وقوت الأطفال ترخّصًا بأن مال العراق مرصد للمصالح لكونه وقفًا على المسلمين، فلم أرَ في العالم مالًا يأخذه العالِم أصلح منه».

قال: «ثم دخلت الشام وأقمت به قريبًا من سنتين لا شغل لي إلا العزلة والخلوة والرياضة والمجاهدة اشتغالًا بتزكية النفس وتهذيب الأخلاق وتصفية القلب لذكر الله تعالى كما كنت حصلته من علم الصوفية، فكنت أعتكف مدة في مسجد دمشق أصعد منارة المسجد طول النهار وأغلق بابها على نفسي». قال: ثم تحركتْ فيه داعيةُ فريضة الحج ولم يذكر هنا أنه زار مصر ودخل الإسكندرية إلى أن قال: ودمت على ذلك مقدار عشر سنين وانكشف لي في

أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن إحصاؤها واستقصاؤها، والقدر الذي أذكره لينتفع به أني علمت يقينًا أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة، وإن سيرتهم أحسن السير، وطريقتهم أصوب الطرق إلى آخر قوله.

قال: وبعد طول الغربة وإلحاح الأهل بالعودة، أمر سلطان الوقت، من نفسه لا بتحريك من خارج، أمر إلزام بالنهوض إلى نيسابور لتدارك هذه الفترة، وبلغ الإلزام حدًّا كاد ينتهي لو اصررت على الخلاف إلى حدّ الوحشة، وبعد أن استشار جماعة من أرباب القلوب والمشاهدات عرف أن هذه الحركة مبدأ خير ورشد قدرها الله سبحانه على رأس هذه المئة، وقدر عليه سبحانه بإحياء دينه» يشير إلى ما ورد في الأثر: من أن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يجدِّد لها أمر دينها. وبعد عزلة إحدى عشرة سنة عاد إلى نيسابور.

كتب الغزالي زهاء سبعين مصنفًا بين كتاب في مجلدة أو مجلدات وبين رسالة. طبع منها لحسن الحظ نحو خمسين بنيت أكثرها على فكر خاص ذات موضوع تشتد حاجة المسلمين إليه. وألَّف بالفارسية كتاب: «التبر المسبوك في نصيحة الملوك» وعرَّبه غيره و«عمدة المحققين وبرهان اليقين» ألَّفه للسلطان محمد بن ملكشاه السلجوقي. وكتب بالفارسية كيمياء السعادة وخلاصة التصانيف. ومن تآليفه: «فضائح الباطنية» أهداه إلى الخليفة المستظهر العباسي وكتبه بإشارته على ما يظهر، وله: «القسطاس المستقيم» و«المضنون به على غير أهله» ومن أجلِّ كتبه: «المستصفى» في الأصول، وعلم الفقه وأُصوله، يأخذ كما قال من صفو الشرع والعقل سواء السبيل فلا هو تصرف بمحض العقول بحيث لا يتلقاه الشرع بالقبول، ولا هو مبني على محض التقليد الذي لا يشهد له العقل بالتأييد والتسويد». يقول شيخنا العلامة طاهر الجزائري: إن أَهم الكتب التي أُلِّفت في هذا العهد على طريقة المتكلمين أربعة كتب: كتاب البرهان لإمام الحرمين، والمستصفى للغزالي، وهما من أهل السنة، وكتاب

العمد للقاضي عبد الجبار، وشرحه المعتمد لأبي الحسين البصري وهما من المعتزلة.

ومن تآليفه: «معارج القدس في مدارج معرفة النفس» يريد به العروج من مدارج معرفة النفس إلى معرفة الحق جل جلاله يعتمد في فهمه على المنطق «أما الجامد البليد الذي يأخذ العلم بالتقليد، فهو عن معرفة مثل هذه العلوم بعيد، إذ كلٌّ ميسَّر لما خلق له».

ولم تصادف كتب الغزالي إجماعًا على قبولها ولعلها أحرزت أكثرية، فأصحاب الحديث ومنهم ابن تيمية يزيفونها، والمتصوفة، على ما غمست فيه من التصوف، لم يرضوا كثيرًا عنها، مع أن كتبه من أحسن ما كتب في عصره وفي العصور الأخيرة في معنى التصوف. يقول ابن تيمية في النبوات: إن أبا حامد الغزالي بين علماء المسلمين وبين علماء الفلاسفة، علماء المسلمين يذمونه على ما شارك فيه الفلاسفة مما يخالف دين الإسلام، والفلاسفة يعيبونه على ما بقي معه من الإسلام، وعلى كونه لم ينسلخ منه بالكلية إلى قول الفلاسفة، ولهذا كان الحفيد ابن رشد ينشد فيه:

يومًا يمان إذا ما جئت ذا يمن وإن لقيت مَعْديًّا فعدنان

ولما دخلت كتب الغزالي المغرب أمر أمير المسلمين بإحراقها، وتوعَّد بالوعيد الشديد من سفك الدم واستئصال المال إلى من وجد عنده شيء منها، واشتد الأمر في ذلك، ثم رفع عنها هذا الحرج وضعف التضييق عن كتبه والنظر فيها.

وذمه أبو نصر القشيري على الفلسفة، وكانوا يقولون: أبو حامد قد أمرضه الشفاء ـ كتاب شفاء ابن سينا ـ ولبعض العلماء كلام كثير في ذمه على ما دخل فيه من الفلسفة، ولعلماء الأندلس في ذلك مجموع كثير. وذكروا أن الغزالي قال في ميزان العمل: إن الفاضل له ثلاث عقائد: عقيدة مع العوام يعيش بها في الدنيا كالفقه مثلًا، وعقيدة مع الطلبة يدرِّسها لهم كالكلام،

الثالثة لا يطلع عليه أحد إلا الخواص، ولهذا صنف الكتب المضنون بها على غير أهلها؛ وهي فلسفة محضة سلك فيها مسلك ابن سينا.

قال ابن الجوزي في «تلبيس إبليس»: إن أبا حامد صنف للصوفية كتاب الإحياء على طريقة القوم، وملأه بالأحاديث الباطلة وهو لا يعلم بطلانها، وتكلم في علم المكاشفة وخرج عن قانون الفقه، وقال كلامًا من جنس كلام الباطنية. وأن الصوفية في حال يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء ويسمعون أصواتًا ويقتبسون منهم فوائد، ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور إلى درجات يضيق عنها نطاق العقل!

وقال سبط ابن الجوزي في المرآة: إن الغزالي أخذ في تصنيف الإحياء في القدس ثم تمَّمه في دمشق إلا أنه وضعه على مذهب الصوفية وترك فيه قانون الفقه.

وكيف كان حكم بعض العلماء على الغزالي، فإن الهنات التي عزوها إليه لا تقدح كثيرًا في كتبه، ومن سعادته: أن آراءه تُنوقلت وهو حي حتى قال: إنه سمع مرة أحد المدرسين في دمشق يقول: وقال الغزالي، فترك البلد من الغد، والناس لا يعرفون أن الغزالي حاضر في الدرس، قال: إنه فعل ذلك مخافة أن يقع في الغرور.



(٣٥)

# الحريري

## أبو محمد القاسم بن علي البصري

(٥١٦)

الحريري نسبة لصنع الحرير أو بيعه، نشأ الحريري عليها ثم تركها وانقطع للعلم والأدب، فبرز في النحو واللغة وفي النثر والشعر، ولُقِّب بالشيخ الرئيس، وتولى في بلده «المشان» على مقربة من البصرة منصب صاحب الخبر (الاستخبارات)، واشتهر بالغنى. ويُحكى أنه كان يملك ثمانية عشر ألف نخلة، وكان يغشى منزله في البصرة عظماء القوم وفضلاؤهم.

وقال سبط الجوزي: ولم يزل الحريري صاحب الخبر بالبصرة في ديوان الخليفة، ووجدت هذا المنصب لأولاده إلى آخر العهد المقتفوي، وله رسائل معجبة وكلام غريب كالضَّرَب ماله ضريب... كان مسكنه البصرة في محلة بني حرام وبيت عمله المشان.

هذا ما عرف من حياته المادية، وحياته الأدبية عظيمة، وعظمتها بتأليف المقامات التي كانت كما قال فيها تحتوي على جِدِّ القول وهزله، ورقيق اللفظ وجزله، وغرر البيان ودرره، وملح الأدب ونوادره، إلى ما وشحها به من الآيات ومحاسن الكنايات، ورصعه فيها من الأمثال العربية، واللطائف الأدبية، والأحاجي النحوية، والفتاوى اللغوية، والرسائل المبتكرة، والخطب المحبرة، والمواعظ المبكية، والأضاحيك الملهية.

وَصَفه ابن خلكان بأنه أحد أئمة عصره، ورُزق بالمقامات الحظوة التامة، لما اشتملت عليه من كلام العرب من لغاتها وأمثالها، ورموز أسرار كلامها،

قال: ومن عرفها حق معرفتها، استدل بها على فضل هذا الرجل وكثرة اطلاعه وغزارة مادته. وكان سبب وضعه لها ما حكاه ولده أبو القاسم عبد الله قال: كان أبي جالسًا في مسجد بني حرام فدخل شيخ ذو طمرين عليه أُهبة السفر، رث الحال، فصيح الكلام، حسن العبارة، فسأل الجماعة من أين الشيخ؟ فقال: من سروج. فاستخبروه عن كنيته فقال أبو زيد، فعمل أبي المقامة المعروفة بالحرامية وهي الثامنة والأربعون وعزاها إلى أبي زيد المذكور واشتهرت فبلغ خبرها وزير المسترشد بالله، قيل: إنه القاشاني، وقيل: ابن صدقة، فأعجبته وأشار على والدي أن يضم إليها غيرها فأتمها خمسين مقامة، وإلى الوزير المذكور أشار الحريري في خطبة المقامات بقوله: فأشار مَن إشارته حُكم، وطاعته غُنم، إلى أن أنشئ مقامات أتلو فيها تلو البديع، وإن لم يدرك الظالع شأو الضليع.

وأما تسمية الراوي بالحارث بن همَّام، فإنما عنى به نفسه، وهو مأخوذ من قوله ﷺ: «كلكم حارث وكلكم همَّام». فالحارث الكاسب والهمَّام الكثير الاهتمام. وما من شخص إلا وهو حارث وهمام، لأن كل واحد كاسب يهتم بأموره.

قال الحريري: فاجتمع عندي عشية ذلك اليوم ـ يوم رؤية أبي زيد السروجي ـ فضلاء البصرة فحيكت لهم ما شاهدت من ذلك السائل فحكى كل واحد منهم أنه سمع من هذا السائل في مسجده معنى آخر فضلًا مما سمعت، وكان يغير في كل مسجد زيه وشكله فتعجبوا منه، فأنشأت المقامة الحرامية، ثم بنيت عليها سائر المقامات. عملها أربعين مقامة أولًا ثم حملها من البصرة إلى بغداد وادّعاها، فلم يصدقه في ذلك جماعة من الأدباء، وقالوا: إنها ليست من تصنيفه، بل هي لرجل مغربي من أهل البلاغة مات بالبصرة ووقعت أوراقه إليه فادّعاها، فاستدعاه الوزير إلى الديوان وسأله عن صناعته فقال: أَنا رجل مُنْشِئ. فاقترح عليه إنشاء رسالة في واقعة عيّنها، فانفرد في ناحية من

الديوان وأخذ الدواة والورقة ومكث زمنًا كثيرًا فلم يفتح الله سبحانه عليه بشيء من ذلك. فقام وهو خجلان، فلما رجع إلى بلده عمل عشر مقامات أخر وسيّرَهن واعتذر من عيّه وحَصَره في الديوان مما لحقه من المهابة.

والغالب: أن وظيفته الرسمية شهرت اسمه في البصرة وبغداد وهو لا يعدم حيلة لبلوغ الشهرة. وكان في حياته يباهي بأنه أمر بنسخ سبعمئة نسخة من مقاماته، وتعاورها الشراح بالشرح شأنهم في كل كتاب نفيس. وترجمت في عهدنا إلى عدة لغات ومنها الألمانية والإنكليزية وعني بدراستها كثير من المستعربين من علماء المشرقيات معجبين بها وبصاحبها.

فتح بديع الزمان الطريق أمام الحريري بما أنشأ من مقاماته، والبديع أقرب إلى عدم التكلف، وتصنيع الحريري ظاهر، إلا أنه مقبول. ومقاماته كلها متشابهة وموضوعاتها ليست مما يأخذ بالألباب. لا تشبه القصة التي وضع الإفرنج طريقتها ولا تشبه طريقة الأخبار على ما ترى مثالًا منها في كتب طيفور والصولي والقاضي التنوخي وأبي حيان، هي من نمط يكاد يكون جديدًا أو غير تلك الأنماط المتعارفة، والمحور الذي تدور عليه التفنن في إيراد الألفاظ وصياغتها على الأسلوب الذي عرف في عصر الحريري وهو أرقى أسلوب في نظر الأدباء يومئذٍ.

طريقة المقامات بعيده عن التوسع في الخيال والتفنن بما ترتاح إليه نفس القارئ، لأن طالب المقامات لا يبغي منها إلا اللغة أولًا وفي سبيل التقاط دررها يغتفر هذا التكلف، ولو خلت المقامات من هذا التحبير ما رزق بها صاحبها هذه الحظوة، وما تناقل طلاب الأدب كلامه خلفًا عن سلف وما تنافس في تفهم فصاحته من يُقِرُّه على طريقته ومن لا يقره.

فالمقامات ينظر فيها الأدباء أولًا على النكات الأدبية واللغوية وفيها من الشعر المستملح قدر غير يسير، وربما كان النقد إلى نثره أكثر من نقد شعره لأن الشعر تستر عيوبه بقوافيه وأوزانه. وليس كذلك النثر.

فمن سجعه المتكلف وقد يقع له في أول المقامة قوله: «ظعنت إلى دمياط عام هياط ومياط» «أزمعت الشخوص إلى برقعيد وقد شمت برق عيد» «آنست من قلبي القساوة حين حللت ساوة» «يممت ميافارقين مع رفقة موافقين» «عاشرت بقطيعة الربيع في إبان الربيع» «حللت سوق الأهواز لابسًا حلة الأعواز» «ألجأني حكم دهر قاسط إلى أن أنتجع واسط» «أصعدت إلى صعدة وأنا ذو شطاط يحكي الصعدة واشتداد يبدو بنات صعدة» «فطوحت على مرو ولا غرو» «أزمعت التبريز من تبريز حين نبت بالذليل والعزيز وخلت من المجير والمجيز» «نزع بي إلى حلب شوق غلب وطلب يا له من طلب» الخ.

ويقال على الجملة: إن أسلوب المقامات أسلوب خاص بدأه البديع وكمل بالحريري والزمخشري نضج معهما واحترق بعدهما. هو أسلوب لا يصلح للرسائل ولا للخطب ولا للتأليف، جعل لهذا النوع من الفكاهة والحكاية استعذبه أَهل عصور السجع ولذَّ لهم كثيرًا فما حاسبوا صاحبه إن كان كلامه منطويًا على المعاني والخيالات، وبقيت للمقامات روعتها ما دام السجع رائجًا فلما كسدت سوقه، وكانت قائمة منذ القرن الثالث إلى القرن الثالث عشر أي مدة ألف سنة، زهد رجال الأدب في هذا الضرب من الكلام الذي حرم الانسجام، وراحوا ينظرون في الكتب المسجوعة نظرهم على أثر تاريخي غريب يقدرون نسجه ولا يتكلفون احتذاء مثاله.

وملاك الأمر في السجع كما قال ابن الأثير في المثل السائر: أن تكون كل واحدة من السجعتين المزدوجتين مشتملة على معنى غير المعنى الذي اشتملت عليه أختها، فإن كان المعنى فيهما سواء فذاك هو التطويل بعينه، لأن التطويل إنما هو الدلالة على المعنى بألفاظ يمكن الدلالة عليه بدونها، وإذا وردت سجعتان تدلان على معنى واحد كانت إحداهما كافية في الدلالة عليه، وجل كلام الناس المسجوع جار عليه، وإذا تأملت كتابة المفلقين ممن تقدم كالصابي وابن العميد وابن عباد وفلان وفلان فإنك ترى أكثر المسجوع

منه كذلك والأقل منه على ما أشرت إليه. ولقد تصفحت المقامات الحريرية والخطب النباتية على غرام الناس بهما وإكبابهم عليهما فوجدت الأكثر من السجع فيهما على الأسلوب الذي أنكرته. هذا ما قاله ابن الأثير صاحب البأو العجيب بكلامه، وسجعه ما خلا من هذه المآخذ، وسجع الحريري إنما كان نمطًا خاصًا بالمقامات. وهاكم نموذجًا من نثره وبديع شعره في المقامة الدينارية:

روى الحارث بن همام قال: نظمني وأخدانًا لي ناد، لم يخب فيه مناد، ولا كبا قدح زناد، ولا ذكت نار عناد، فبينا نحن نتجاذب فيه أطراف الأناشيد، ونتوارد طرف الأسانيد، إذ وقف بنا شخص عليه سمل، وفي مشيته قزل، فقال: يا أخاير الذخائر، وبشائر العشائر عموا صباحًا، وانعموا اصطباحًا، وانظروا إلى من كان ذا نديّ وَندى وجدة وجدى، وعقار وقرى، ومقار وقِرى، فما زال به قطوب الخطوب، وحروب الكروب، وشرر شر الحسود، وانتياب النوب السود حتى صفرت الراحة، وقرعت الساحة، وغار المنبع، ونبا المربع، وأقوى المجمع، وأقض المضجع، واستحالت الحال، وأعول العيال، وخلت المرابط، ورحم الغابط، وأودى الناطق والصامت، ورثى لنا الحاسد والشامت، وآل بنا الدهر الموقع، والفقر المدقع، إلى أن احتذينا الوجى، واغتذينا الشجى، واستبطنا الجوى، وطوينا الأحشاء على الطوى، واكتحلنا السهاد، واستوطنا الوهاد، واستوطأنا القتاد، وتناسينا الافتداد، واستطبنا الحين المجتاح، واستبطأنا اليوم المتاح، فهل من حُرٍّ آسٍ، أو سمح مواسٍ، فوالذي استخرجني من قيلة، لقد أمسيت أخا عيلة، لا أملك بيت ليلة.

قال الحارث بن همام: فأويت لمفاقره، ولويت إلى استنباط فقره، فأبرزت دينارًا، وقلت له اختبارًا، إن مدحته نظمًا، فهو لك حتمًا، فانبرى ينشد في الحال، من غير انتحال:

أكرم به أصفر راقت صفرته ... جوَّاب آفاق ترامت سفرته
مأثورة سمعته وشهرته ... قد أودعت سر الغنى أسرَّته
وقارنت نجح المساعي خطرته ... وحُببت على الأنام غرَّته
كأنما من القلوب نقرته ... به يصول من حوته صرته
وإن تفانت أو توانت عترته ... يا حبذا نضاره ونضرته
وحبذا مغناته ونصرته ... كم آمر به استتبت إمرته
ومترَف لولاه دامت حسرته ... وجيش هم هزمته كرته
وبدر تمّ أنزلته بدرته ... ومستشيط تتلظى جمرته
أسرَّ نجواه فلانت شرته ... وكم أسير أسلمته أسرته
أنقذه حتى صفت مسرته ... وحق مولى أبدعته فطرته

لولا التقى لقلت جلت قدرته

ثم بسط يده، بعد ما أنشده، وقال: أنجَزَ حرٌّ ما وعد، وسَحَّ خالٌ إذ رعد، فنبذت الدينار إليه، وقلت له: خذه غير مأسوف عليه، فوضعه في فيه، وقال: بارك الله فيه، ثم شمر للانثناء، بعد توفيه الثناء، فنشأت لي من فكاهته نشوة غرام، سهلت عليّ ائتناف اغترام، فجردت دينارًا آخر وقلت: هل لك في أن تذمه، ثم تضمه، فأنشد مرتجلًا وشدا عجلًا:

تبًّا له من خادع مماذق ... أصفر ذي وجهين كالمنافق
يبدو بوصفين لعين الرامق ... زينة معشوق ولون عاشق
وحبه عند ذوي الحقائق ... يدعو إلى ارتكاب سخط الخالق
لولاه لم تقطع يمين سارق ... ولا بدت مظلمة من فاسق
ولا اشمأز باخل من طارق ... ولا شكا الممطول مطل العائق
ولا استُعيذ من حسود راشق ... وشر ما فيه من الخلائق

أنْ ليس يغني عنك في المضائق    إلا إذا فرَّ فرار الآبق
واهًا لمن يقذفه من حالق    ومن إذا ناجاه نجوى الوامق
قال له قول المحق الصادق    لا رأي في وصلك لي ففارق

فقلت له: ما أغزر وَبْلَك، فقال والشرط أَمْلَك، فنفحته بالدينار الثاني، وقلت له عوذهما بالمثاني، فألقاه في فمه، وقرنه بتوأمه، وانكفأ يحمد مغداه، ويمد النادي ونداه.

قال الحارث بن همام: فناجاني قلبي بأنه أبو زيد، وأنَّ تعارجه لكيد. فاستعدته وقلت له قد عُرِفْت بِوَشْيِك، فاستقم في مَشْيِك. فقال: إن كنت ابن همام فَحُيِّيت بإكرام، وحييت بين كرام، فقلت: أنا الحارث، فكيف حالك والحوادث، فقال: أتقلب في الحالين بؤس ورخاء، وانقلب مع الريحين زعزع ورخاء، فقلت كيف ادعيت القزل، وما مثلك من هزل، فاستسرَّ بشره الذي كان تجلى، ثم أنشد حين ولَّى:

تعارجت لا رغبة في العرج    ولكن لأقرع باب الفرج
وأُلقي حبلي على غاربي    وأسلك مسلك من قد مرج
فإن لامني القوم قلت اعذروا    وليس على أعرج من حرج

ومن شعره الذي خلا من التكلف قوله:

إني امرؤ أبدع بي    بعد الوجى والتعب
وشقتي شاسعة    يقصر عنها خببي
وما معي خردلة    مطبوعة من ذهب
فحيلتي منسدة    وحيرتي تلعب بي
إن ارتحلت راجلًا    حقت دواعي العطب
وإن تخلفت عن الر    فقة ضاق مذهبي
فزفرتي في صعد    وعبرتي في صبب

وأنت منتجع الـ ـراجي ومرمى الطلب
لُهاكم منهلة ولا انهلال السحب
وجاركم في حرم ووفركم في حرب
ما لاذ مرتاع بكم فخاف ناب النوب
ولا استدر آمل حِباكم فما حبي
فانعطفوا في مقتي وأحسنوا منقلبي
فلو بلوتم عيشتي في مطعمي ومشربي
لساءكم ضري الذي أسلمني للكرب
ولو خبرتم حسبي ونسبي ومذهبي
وما حوت معرفتي من العلوم النخب
لما اعترتكم شبهة في أن دائي أدبي
فليت أني لم أكن أُرضعت ثدي الأدب
فقد دهاني شؤمه وعقني فيه أبي

وليس أجمل من هذا في الوصول إلى الغرض الذي يتطلبه أبو زيد السروجي ممن قصد إليهم ليقمش من مالهم. ومثال آخر:

إذا ما حويت جنى نخلة فلا تقربنها إلى قابل
وإما سقطت على بيدر فحوصل من السنبل الحاصل
ولا تلبثن إذا ما لقطـ ـت فتنشب في كفة الحابل
ولا توغلن إذا ما سبحـ ـت فإن السلامة في الساحل
وخاطب بهات وجاوب بسوف وبع آجلًا منك بالعاجل
ولا تكثرنّ على صاحب فما ملّ قط سوى الواصل

نموذجات لا تخلو من نكتة وخفة روح. ومن شعره في الحكمة:

لا تقعدن على ضر ومسغبة لكي يقال عزيز النفس مصطبر
وانظر بعينيك هل أرض معطلة من النبات كأرض حفها الشجر
فعدِّ عما تشير الأغبياء به فأيُّ فضل لعود ما له ثمر
وارحل ركابك عن ربع ظمئت به إلى الجناب الذي يهمي به المطر
واستنزل الريَّ من درّ السحاب به بُلّت يداك به فليهنك الظفر

ومن الحكم قوله:

لا تزر من تحب في كل شهر غير يوم ولا تزده عليه
فاجتلاء الهلال في الشهر يوم ثم لا تنظر العيون إليه

ومن شعره:

أخمد بحلمك ما يذكيه ذو سعة من نار غيظك واصفح إن جنى جاني
فالحلم أفضل ما ازدان اللبيب به والأخذ بالعفو أحلى ما جنى جاني

وبقدر ما تحمل المقامات من ألفاظ وألغاز وأحاجٍ يحمل كتابه «درة الغواص في أوهام الخواص» من تحقيقات لغوية ونقد تراكيب سرت على الألسن والأقلام في عهده. وهذا أيضًا نموذج من أسلوبه فيه: «... ومثله في اختلاف الرواية قول عروة بن أُذينة:

لقد علمت وما الإسراف من خلقي أن الذي هو رزقي سوف يأتيني

فروى أكثرهم لفظة الإسراف بالسين المغفلة وبعضهم بالشين المعجمة ليكون معناها التطلع إلى الشيء والاستشراف له وهو اختيار المرتضى أبي القاسم الموسوي رحمه الله. ولهذا البيت حكاية تحث على استشعار اليقين وإعلاق الأمل بالخالق دون المخلوقين فجنحته بها تحلية لعاطله ونبهة على صدق قائله، وهي ما رويته من عدة طرق: أن عروة هذا وفد على هشام بن عبد الملك في جماعة من الشعراء فلما دخلوا عليه عرف عروة فقال له: ألست القائل:

لقد علمت وما الإسراف من خلقي أن الذي هو رزقي سوف يأتيني
أسعى له فيعنّيني تطلبه ولو قعدت أتاني لا يعنّيني

واراك قد جئت تضرب من الحجاز إلى الشام في طلب الرزق فقال له: لقد وعظت يا أمير المؤمنين فبالغت في الوعظ وأذكرت ما أنسانيه الدهر. وخرج من فوره إلى راحلته فركبها وسار راجعًا نحو الحجاز. فمكث هشام يومه غافلًا عنه، فلما كان في الليل تعار على فراشه فذكره وقال في نفسه: رجل من قريش قال حكمة ووفد إليّ فجبهته ورددته عن حاجته، وهو مع هذا شاعر لا آمن ما يقول. فلما أصبح سأل عنه فأُخبر بانصرافه فقال: لا جرم ليعلمن أن الرزق سيأتيه. ثم دعا بمولى له وأعطاه ألفي دينار وقال له: الحق بهذه ابن أُذينة فأعطه إياها فسار إليه فلم يدركه إلا وقد دخل بيته، فقرع الباب عليه فخرج فأعطاه المال. فقال: أبلغ أمير المؤمنين السلام وقل له: كيف رأيت قولي، سعيت فأكديت، ورجعت إلى بيتي فأتاني فيه الرزق.



(٣٦)

# الزمخشري

## أبو القاسم محمود بن عمر

(٥٣٨)

ولد أبو القاسم الزمخشري سنة ٤٦٧ في قرية كبيرة من قرى زمخشر من بلاد خوارزم (وتوفي في جرجانية خوارزم) وأخذ العلم في بخارى وورد بغداد غير مرة، وأخذ الأدب عن أبي الحسن علي ابن المظفر النيسابوري وتخرج بأبي مُضَر محمود بن جرير الضبي الأصفهاني. وكان هذا وحيد دهره في علم اللغة والنحو والطب. أقام بخوارزم مدة وتخرج به جماعة من الأكابر منهم الزمخشري، وهو الذي أدخل إلى خوارزم مذهب المعتزلة ونشره بها، فاجتمع عليه الخلق لجلالته وتمذهبوا بمذهبه، ومنهم الزمخشري، وكان حنفيًا فأخذ بمذهب أهل العدل والتوحيد وجاهر به.

أخذ أبو القاسم عن كثير من الشيوخ في خوارزم والعراق، وجاور في مكة فتلقب بجار الله وفخر خوارزم. وما منعه من التنقل في الأقطار ما كان من عاهة في رجله، وكان أصابه في شبابه خراج فيها فقطعها ووضع عوضها رجلًا من خشب. وكان مقبولًا من القلوب كثير الأصحاب والتلامذة، وعلل هو إشادة العلماء والشعراء بذكره بما رأوا من حسن النصح للمسلمين، وبلوغ الشفقة على المستفيدين، وقطع المطامع، وعزة النفس، والإقبال على خويصته. فهذه الصفات أورثته مكانة زادت في الإقبال عليه، وحببت الأخذ عنه والانتفاع بكتبه.

كان جار الله إمامًا في التفسير، وتفسيره الكشاف من خير التفاسير وهو

المعتمد عند أكثر طلاب هذا العلم في عصرنا هذا وقبله، وكتابه «أساس البلاغة» وفيه فرَّق بين الحقيقة والمجاز آية في التحقيق. واشتهر له بالطبع كتب أخرى وهذان الكتابان أجلهما. ومن كتبه: «الفائق في غريب الحديث» لم يقتصر فيه على أحاديث الرسول بل تعرض لشرح أحاديث الصحابة والتابعين وتابعيهم فهو كتاب جيد في بليغ القول جعله كأساس البلاغة على حروف المعجم وشرحه. ومن كتبه مقدمة الأدب ومقاماته، وأطباق الذهب في المواعظ والخطب، وأعجب العجب شرح لامية العرب، وكتاب الجبال والأمكنة والمياه، والكلم النوابغ أو نوابغ الكلم، والمفصل في صناعة الإعراب. وكلها مفيدة لا تخرج عن اللغة والإعراب، والمفصل أمتنها وأفيدها لما حمل من شواهد تدعم القواعد. أما طريقته في الإنشاء فطريقة أهل القرن الخامس والسادس إلا أنها تنم عن تمكنه في اللغة تمكنًا عظيمًا. ونعني بهذه الطريقة اعتماده على التسجيع في كلامه حتى كاد يأتي على محاسن كلامه ويذهب برونق بلاغته، ولا نحيل القارئ إلا على مقدمتي الكشاف والأساس وهما كتاباه الخالدان، ولو عرتا من السجع لاستجمعتا أسباب الكمال كله، وكذلك مقاماته وأطواقه ونوابغ كلمه. ومن رأيه: «إن ما سماه الناس البديع من تحسين الألفاظ وتزيينها بطلب الطباق فيها والتجنيس والترصيع لا يملح ولا يبرع حتى يوازي مصنوعه مطبوعه، وإلا فما قلق في أماكنه، ونبا عن مواقعه، فمنبوذ بالعراء، مرفوض عند الخطباء والشعراء».

واضطلاع الزمخشري باللغة اضطلاع اللغوي الذي تمثل ما نقل وبوَّبه ونسقه وأبرزه في قالب أخرجه من جفاف اللغة بعض الشيء. ومن يطالع كتبه يستفد لغةً وألفاظًا وتراكيب فصيحة، أما البلاغة وهي في السبك فأمر ثان، ذلك لأن عصره متأخر وهو يقصد في الكشاف والمفصل ومقدمة الأدب إمداد من يريد إتقان العربية بالمادة اللازمة بادئ بدءٍ، ثم هو وإن درس دراسة عظيمة قلّ أن يتيسر مثلها لغير أبناء العربية لا يخرج عن كونه أعجميًا وبيئته

غالبة عليه، على كثرة مقامه في أرض العرب، قالوا: وكان لا ينطق بلغته الأصلية إلا إذا أراد أن يشرح شيئًا لمن يأخذون عنه، وإلا فهو يتكلم العربية، وقد فاخر في مقدمة المفصل بنفسه فقال: الله أحمد على أن جعلني من علماء العربية. وجبلني على الغضب للعرب والعصبية. وحَمِده على أن لم ينضو إلى لفيف الشعوبية قال: ولعل الذين يغضون من العربية ويضعون من مقدارها، ويريدون أن يخفضوا ما رفع الله من منارها حيث لم يجعل خيرة رسله وخير كتبه في عُجْم خلقه ولكن في عربه، لا يبعدون عن الشعوبية منابذة للحق الأبلج، وزيغًا عن سواء المنهج، والذي يقضي منه العجب حال هؤلاء في قلة إنصافهم، وفرط جورهم واعتسافهم، وذلك أنهم لا يجدون علمًا من العلوم الإسلامية فقهها وكلامها وعِلْمَي تفسيرها وأخبارها إلا وافتقاره إلى العربية بيّن لا يزيغ.

إن الرجل الذي ضُرب به المثل في علم الأدب وكان الغاية في أدب النفس والعزوف عن الدنيا لم يخل من حساد أيضًا، ومن كلامه يخاطبهم:

إذا سألوا عن مذهبي لم أبح به ... وأكتمه كتمانه لي أسلمُ
فإن حنفيًّا قلت قالوا بأنيي ... أُبيح الطِّلا وهو الشراب المحرم
وإن مالكيًّا قلت قالوا بأنني ... أُبيح لهم أكل الكلاب وهم هم
وإن شافعيًّا قلت قالوا بأنني ... أُبيح نكاح البنت والبنت تحرم
وإن حنبليًّا قلت قالوا بأنني ... ثقيل حَلولي بغيض مجسم
وإن قلت من أهل الحديث وحزبه ... يقولون تيس ليس يدري ويفهم
تعجبت من هذا الزمان وأهله ... فما أحد من ألسن الناس يسلم
وأخرني دهري وقدّم معشرًا ... على أنهم لا يعلمون وأعلم
ومذ أفلح الجهال أيقنت أنني ... أنا الميم والأيام أفلح أعلم

وقال:

زمان كل حب فيه خِبٌّ | وطعم الخِلّ خَلٌّ لو يذاق
لهم سوق بضاعته نفاق | فنافق فالنفاق له نفاق

ولما مات أستاذه أبو مُضَر قال في رثائه:

وقائلة ما هذه الدرر التي | تساقطها عيناك سمطين سمطين
فقلت لها الدر الذي كان قد ملا | أبو مضر أذني تساقط من عيني

أصيب جار الله في سنة ثنتي عشرة بعد الخمسمئة بالمرضة المنهكة التي سماها المنذرة فكانت سبب إنابته وفيئته، فأخذ على نفسه الميثاق أن منَّ الله عليه بالصحة ألّا يطأ بأَخمصه عتبة السلطان، ولا واصل بخدمة السلطان أذياله، وأن يربأ بنفسه ولسانه عن قرض الشعر فيهم، ورفع العقيرة في المدح بين أيديهم، وأن يَعفَّ عن ارتزاق عطياتهم، وافتراض صلاتهم، مرسومًا وإدرارًا وتسويفًا ونحوه، ويجد في إسقاط اسمه من الديوان».

إن ما خلفه الزمخشري من مصنفاته لا غنية لطالب لغة العرب عن تدارسه كلما عرض له مشكل من مشاكلها، وكلها منسوجة أجمل نسج، مرتبة خير ترتيب واضحة كل الإيضاح، ليست بالمطولة حتى يملها الطالب ولا بالمختصرة حتى ينقطع دون بغيته، ومن حفظ الكشاف والأساس والفائق والمفصل جاء منه عالم لا يحتاج إلى أشياء كثيرة أخرى.



(٣٧)

# ابن القلانسي

## حمزة بن أسد بن علي أبو يعلى التميمي

**(٥٥٥)**

ترجم له ابن عساكر فوصفه بالعميد وأنه كانت له عناية بالحديث، وكان أديبًا له خط حسن ونثر ونظم، وكان فيه تخصص. وصنع تاريخًا للحوادث بعد سنة أربعين وأربعمئة إلى حين وفاته، وتولى رئاسة دمشق مرتين، وكان يكتب له في سماعه أبو العلاء المسلم بن القلانسي فذكر أنه هو وأنه كذلك كان يُسمَّى.

وفي تاريخ الإسلام: أنه كان كاتبًا أديبًا، وجمع بين كتابة الإنشاء وكتابة الحساب، وحمدت ولايته. توفي في عشر التسعين. وفي طبقات الأدباء: أنه الأديب الكاتب الشاعر المؤرخ، كان من أعيان دمشق ومن أفاضلها المبرزين، ولي رئاسة ديوانها مرتين. وقالوا فيه أيضًا: أنه كان كاتبًا مترسلًا أي متثبتًا ومعنى أنه كان فيه تخصص أنه يعرف علومًا اختص بها لا يعرفها غيره أو فاق فيها غيره.

وكل ذلك لا يفي بالغرض في الترجمة له وكأن السياسة غالت أدبه، والرياسات تقتضي صرف أوقات. ولم يصرح من ترجم لابن القلانسي هل كانت ملكة السياسة فيه أمتن أم ملكة العلم والأدب؟ وعندي: أن كل واحد منهما أعان الشق الآخر على النمو، ولولا أدبه ما وصل إلى هذه المرتبة، ولولا سياسته ما انتفعت به بلده وعد من حسناته، ولولا جميل أخلاقه ما حمدت ولايته. والأرجح: أن ابن القلانسي حصر جهوده في مدينته وما ينفعها

ولم يتعد اجتهاده إلى بحث غيرها فأنقص ذلك من شهرته، ولو رحل إلى عواصم أخرى وأطال الرحلة لذكرته تواريخ هذا الشرق القريب ولعرفنا أمورًا نجهلها عنه مما شغل به في خدمة وطنه.

أَلَّف ابن القلانسي تاريخه وسماه الذيل، وكان فيه قسم لأواخر عهد الفاطميين وقد ذكر من ظلمهم وتقلقل سياستهم ما كان فيه حجة لأنه دمشقي يكتب في دولة ظالمة تحكم أمة يخالف سوادها الأعظم في مذهبهم. وهو من سياسة البلدة في صميمها ومن بعد النظر وسعة العقل بالمكان الأسمى.

وَصَفَ بعضَ رجال الفواطم وبعضَ ملوكهم أجمل وصف كما أحسن الإحسان كله في الترجمة لمن ترجم لهم من الطارئين على الفيحاء من العلماء، ومنهم من رثاهم على قرب عهده بصداقتهم. وما أجمل قوله في وصف الحاكم بأمر الله: وقال المغالون في المذهب إنه غائب في سره (؟) ولا بد أن يؤوب، ومستتر في غيبه ولا بد أن يرجع إلى منصبه ويثوب. ووَصَفَ ولاية معلى بن حيدرة بن منزو على دمشق وقد وليها قهرًا وغلبة وقسرًا من غير تقليد: ولم يَلْقَ أهل البلد من التعجرف والظلم والعسف بعد جيش بن الصمصامة ما لقوه في ولايته. وفي أيام الفاطميين تغلب على دمشق قسام الحارثي من أهل تلفيتا في جبل سنير وكان ترّابًا ينقل التراب على ظهور الدواب.

ومن ذكاء ابن القلانسي: أنه كان يلتزم الكتمان في بعض الأحوال، وبخاصة هو يعرف أن الدول في عصره متقلقلة متحولة، فمن فاطمية إلى سلجوقية إلى نورية، وهو لا يعرف لمن تتم الغلبة الأخيرة، ولهذا كان يجمجم أحيانًا، وهو على صواب في جمجمته، ويتقي وهو غير آثم في تَقِيَّته قال: ولمَّا اضطربت المسالك والأعمال، وانطلقت أيدي التركمان والحرامية في الإفساد في الأطراف، واستولى نور الدين محمود على دمشق قال قصيدة

مطولة وقال: إنها نظمت (للمجهول) في صفة هذه الحال أبيات شعر تنطق بذكرها بأنها له لأنه سبق له أن نظم في الحكم كثيرًا. جاء في آخرها:

| | |
|---|---|
| ومن ذا الذي ينجو من الدهر سالمًا | إذا ما أتاه الأمر والله حاتمه (؟) |
| ومن رام صفوًا في الحياة فما يرى | له صفو عيش والحمام يحاومه |
| فإياك لا تغبط مليكًا بملكه | ودعه فإن الدهر لا شك قاصمه |
| فإن كان ذا عدل وأمن لخائف | فلا شك أن الله بالعدل راحمه |
| وقل للذي يبني الحصون لحفظه | رويدك ما تبني فدهرك هادمه |
| فكم ملك قد شاد قصرًا مزخرفًا | وفارق ما قد شاده وهو عادمه |
| وأصبح ذاك القصر من بعد بهجة | وقد درست آثاره ومعالمه |
| وفي مثل هذا عبرة ومواعظ | بها يتناسى المرء ما هو عازمه |

ومن شعره:

| | |
|---|---|
| يا من تملك قلبي طرفه فغدا | معذبًا بين أشواق وأشجان |
| أُمنن بوصلٍ لعلي أستجير به | من سطوة البين في صد وهجران |
| ما لي مُنيت بممنوع يعذبني | ولا يزيد فؤادي غير أحزان |
| لا برأ الله قلبي من تخوفه | إن شبت حبي له يومًا بسلوان |
| إذا ترنم قمريّ على فَنَنٍ | في ليلة زاد في حزني وأشجاني |
| وكم أُسِرّ غرامي ثم أعلنه | وليس يخفى لكم سري وإعلاني |
| لا برَّد الله شوقي إن نويت لكم | تغيُّرًا لي بمال أو بسلوان |

وله أيضًا:

| | |
|---|---|
| يا نفس لا تجزع من شدة عَظُمت | وأيقني من إله الخلق بالفرج |
| كم شدة عرضت ثم انجلت ومضت | من بعد تأثيرها في المال والمهج |

وله أيضًا:

إياك تقنط عند كل شديدة ... فشدائد الأيام سوف تهون
وانظر أوائل كل أمر حادث ... أبدًا كما هو كائن سيكون

وبعد فليس تاريخه المختصر الذي جعله على السنين ومزجت فيه السياسة بوفيات الرجال هو كل ما يجب أن يخلفه ابن القلانسي المفنن البارع، والغالب: أن مشاغل البلد وسياستها شغلته عن وضع تآليف، وقد طال عمره، إذا لم يؤلفها أمثاله، فمن يؤلفها بيد أنه لم يفعل. والرئاسات مهما كانت أعباؤها خفيفة تستغرق الوقت، وهو ما قصد من تاريخه إلا الوفاء بغرض إن لم يقم هو به ضاعت حوادث كثيرة من تاريخ الإسلام ولا سيما تاريخ بلده، وهو يحبه ويتفانى في محبته خصوصًا ما كان منها متعلقًا بأخبار الفاطميين الذين شهد ظلمهم الفظيع وتعصبهم الذميم لا يدوّن بعضها أشياعهم وأتباعهم.



(٣٨)

# البيهقي

## ظهير الدين أبو الحسن علي بن زيد

(٥٦٥)

البيهقي هذا من سلالة خُزيمة بن ثابت الملقَّب بذي الشهادتين صاحب رسول الله ﷺ. وكان خزيمة قاتل مع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في صِفين سنة تسع وثلاثين وقُتل في جملة مَن قُتل من عظماء الملة، ونزل أبناء خزيمة فارس وما أنستهم بيئتهم الجديدة نسبهم العربي الصحيح ولا أدخلت الضيم على لغتهم وأضافوا إليها لغة أخرى وأدبًا حديثًا، شأن ألوف من العرب حلوا أرض العجم.

وفي قصبة سابزوار من نواحي بيهق من أعمال نيسابور عاصمة خراسان ولد ظهير الدين سنة ٤٩٩هـ من أب عالم وأم حافظة للقرآن عالمة بوجوه تفاسيره. ثم رحل به أبوه إلى ناحية ششتمذ من قرى تلك العمالة، ولوالده بها ضياع. فأسلمه إلى الكتّاب وحفظ كتاب الهادي للشادي، والسامي في الأسامي من تصنيف الميداني صاحب الأمثال، واستظهر المصادر للزوزني، والتلخيص في النحو، والمجمل في اللغة. وحضر بنيسابور دروس أبي جعفر المقرئ مصنف كتاب ينابيع اللغة، وحفظ كتابه تاج المصادر، وقرأ عليه نحو ابن فضال وفصلًا من كتابه المقتصد والأمثال لأبي عبيد والأمثال للميكالي. ثم حضر درس الميداني وصحح عليه السامي في الأسامي ومجمع الأمثال وكتاب المصادر للقاضي والمنتحل وغريب الحديث لأبي عبيد وصحاح اللغة للجوهري. وأخذ الكلام عن إبراهيم الحراز، وسمع من محمد الفزاري غريب

الحديث للخطابي. واختلف مدة إلى الإمام أبي الهيصم الهروي وقرأ عليه ما شاء من دقائق العلوم.

وانتقل بعد وفاة والده إلى مرو فقرأ على يحيى بن عبد الملك بن عبيد بن صاعد ووصفه بأنه كان مَلَكًا في صورة إنسان، وخاض في المناظرة والمجادلة سنة جرداء حتى رضي عن نفسه ورضي عنه أستاذه. وأخذ يعقد مجالس الوعظ في الجوامع. وكان في تلك الحقبة ينظر في الحساب والجبر والمقابلة وأَحكام النجوم، فأتم هذه الصناعة في خراسان على أستاذها عثمان بن جاذوكار فصار فيها مشارًا إليه، ومضى إلى سرخس وقد شهد من نفسه أنه مقصر في علم الحكمة فاتصل بالطبسي النصري ولم يفارقه إلا في سنة ٥٣٦ أي بعد أن بلغ من العمر سبعة وثلاثين عامًا.

هذا ما كُتب للبيهقي أن يدرسه من العلوم، وهؤلاء من أخذ عنهم من الأئمة. روى ذلك صاحب طبقات الأدباء ولم يقل لنا كيف أتقن الفارسية حتى ألَّف فيها أيضًا فكأنه عدَّها شيئًا طارئًا عليه لا شأن له بالنسبة إلى الفروع التي أتقنها بالعربية، فجاء كاتبًا شاعرًا واعظًا مؤلفًا مفكرًا. أو أن من ترجم له ذكر النواحي التي أهمته من حياته وما احتفل بما أتقن من أمور أخرى لا تخلو من أثر في تكوين شخصيته العظيمة.

وقد عدد ياقوت كتبه فكانت أربعة وسبعين كتابًا، منها ما دخل في مجلدين فأكثر، ومعظمها في العلوم الدينية، ومنها ما كان في الأدب والتاريخ مثل تتمة دمية القصر، ودرة الوشاح، ومشارب التجارب، وعرائس النفائس، وذخائر الحكم، ومنها بضعة كتب في الحكمة ككتاب أسرار الحكم وأطعمة المرضى والمعالجات الاعتبارية، وكتاب السموم وكتاب في الحساب وخلاصة الزيجة وأساس الأدوية وخواصها ومنافعها وهو المعنون بتفاسير العقاقير، وكتاب أمثلة الأعمال النجومية وكتاب مؤامراتها، وكتاب معرفة ذات الحلقة والكرة والأسطرلاب، وكتاب أحكام القراءات إلى غير ذلك.

ووضع بضعة كتب بالفارسية ومنها تاريخ بيهق. ويقول الصفدي في الوافي بالوفيات: للبيهقي تاريخ بيهق، لعله كتبه بالعربية أو كتبه بالفارسية أولًا ثم نقله إلى العربية (طبع في أوروبا).

وقد ذكر صاحب المعجم طرفًا من شعره وقال إنه كان يبتده الشعر. ونقل ما قاله العماد الكاتب الأصفهاني في الخريدة من وصفه له بالرياسة والشرف، وروى ما قاله والد العماد في معرض الثناء على البيهقي أنه ما نظر إلى نظيره ولا مثلت لعينيه عين مثله. وذكره ابن خلكان في ترجمة الباخرزي صاحب دمية القصر. ومن شعره:

يا خالق الخلق حَمَلت الورى     لما طغى الماء على جاريه

وعبدك الآن طغى ماؤه     في الصلب فاحمله على جاريه

ومن شعره:

تراجعت الأمور على قفاها     كما يتراجع البغل الجموح

وتستبق الحوادث مقدمات     كما يتقدم الكبش النطوح

وقال من قصيدة:

إلى كم أرجّي من زماني مسرة     وقد شاب من رأس الزمان قَذال

وبال على الطاووس ألوان ريشه     وعلم الفتى حقًّا عليه وبال

وللدهر تفريق الأحبة عادة     وللجهل داء في الطباع عُضال

لقد ساد بالمال المصون معاشر     وأخلاقهم للمخزيات عَيال

وبينهم ذلُّ المطامع عزَّة     وعندهم كسب الحرام حلال

وترجم له الصفدي في الوافي واستشهد له من شعره بقصيدة جاء في مطلعها:

سرى طيفه وهنا ولي فيه مطمع     وبرق الأماني في دجى الهجر يلمع

وعلق عليها بقوله: شعر متوسط واستعارات بعيدة، وأراد بقوله فسكن ماء العين البيت أن يذكر الأربعة العناصر كما قال الآخر:

جفوني تذكي نارها نار حاسدي إذا الريح جاءتنا بريًا ترابها

فلم يلطف مثل هذا».

كان البيهقي سنيًا جماعيًا، وكثرة أهل بلده متشيعة غالية، يُفهم ذلك من ثَبتِ مشايخه الذين أخذ عنهم وكانوا من أهل السنة والجماعة. شهد في أيامه مشهدًا مؤلمًا، شهد الغزّ الترك يخربون في سنتي ٥٤٨ و٥٥٦ بلاد خراسان ولا سيما نيسابور دار العلم فيها ويدكون جوامعها ويحرقون خزائن كتبها ويقتلون علماءها ويخربون مدارس الشافعية والحنفية.

قضى ظهير الدين حياته متعلمًا يرتاد البلاد ويلقى الرجال ويأخذ عنهم وتثقف ثقافة جمعت بين علم الآخرة والدنيا فكان عالمًا واعظًا متكلمًا أديبًا مؤرخًا حكيمًا طبيبًا، وانصرف إلى التأليف والوعظ والتدريس وتمحض للعلوم والآداب، وكان فوض إليه، وهو في السابعة والعشرين من سنه، قضاء بيهق فقال عن نفسه: إنه بخل بزمانه وعمره على إنفاقه في مثل هذه الأمور التي قصاراها ما قال شُرَيح القاضي: أصبحت ونصف الناس علي غضبان» والغالب أنه كان من الموسع عليهم يعيش من ريع ما تركه له أبوه من ملك، فما أحب التصرف ولا تولى القضاء.

للمؤلف كتاب تتمة صوان الحكمة تأليف أبي سليمان المنطقي السجستاني من حكماء القرن الرابع، وهو الذي نشرناه باسم تاريخ حكماء الإسلام ولم يذكر المؤلف في التتمة ما سبق لصاحب الصوان ذكره لإيقانه أنه جَوّد في الترجمة لهم، واقتصر على بعض حكماء خوارزم وخراسان وفارس والعراق. والتتمة كتاب في الفلسفة فيه تراجم حكماء اليونان خاصة. ولم يتعرض لذكر أحد من الشام وإفريقية والأندلس. وكان على ما يظهر من بُعد المؤلف عن الشام وما وراءها، وشدة الحروب الصليبية في أيامه، وانقطاع المواصلات

بين الشرق والغرب معذرة على ما يظهر عن قصوره في الترجمة لأهل الحكمة من أبناء الشرق القريب. على أن سوق الفلسفة كانت كاسدة في الشام ومصر وغيرهما من أقطار الإسلام، حاشا الأندلس، فإن عظماء فلاسفتها نبغوا في تلك الحقبة. وفي الحق أن مصر والشام لم تخرج فلاسفة كما أخرجت أرض العجم والأندلس، وكان غرامهما بالحديث والفقه والشعر ثم التاريخ ونقل علوم القدماء.

فمعظم من ترجم لهم البيهقي كانوا من أهل القرن الخامس والسادس وبعضهم من الصابئة والمجوس واليهود واليعاقبة والنساطرة ممن نشؤوا في ديار الإسلام وكتبوا تآليف بلغته. وأكثر غير المسلمين فيهم من أهل القرن الثالث والرابع ممن اقتبسوا الحكمة من يونان. ويمكن أن يقال: إن تتمة صوان الحكمة كُتب في زمن نضجت فيه الفلسفة عند المسلمين. ولم ينشأ في القرن السابع وما بعده فلاسفة عظماء على ما كان في القرن الثالث إلى السادس، ولا قام عالم من عيار الرازي والبيروني وابن هيثم وابن زهر وابن باجة إلا على الندرة، وفي القرون الكثيرة مثل ابن خلدون في إفريقية وكمال الدين بن يونس في الموصل.

وعرفنا ممن ترجم لهم المؤلف كثيرًا من الحكماء والمهندسين والأطباء والفلكيين والمنجمين وما كان لهم من تصانيف في الطب والحكمة والنجوم والهندسة وما وضعوه من الأزياج والتقاويم، وعرفنا بعض الأماكن التي حفظت فيها كتب الحكمة وضنانة الحكماء بها، ورأيه فيما قرأه واستفاده، وغرام الملوك والسوقة بالأزياج وأخذ الطوالع من الأفلاك، ومبلغ اعتقادهم في صحتها على ما كان العرب في الجاهلية يعتقدون بالجن.

وأدركنا حرص أصحاب السلطان على ارتباط الحكماء والأطباء بهم والانقطاع إلى قصورهم، وأن بعض العظماء كانوا يشاركون مشاركة حسنة في العلم، وإن من الحكماء من تجردت نفوسهم عن المطامع فكانت نسبة

الزاهدين فيهم أعلى من نسبتها في الفقهاء والمتصوفة، وأن الألفاظ الطنانة استفاضت في عصر المؤلف وقبله بعد أن كان يكتفي بتكنية مثل ابن سينا بأبي علي والفارابي بأبي نصر على جلالة قدرهما في العلوم والحكمة، وعرفنا من كتابه أن التعصب كان بعيدًا جدًّا عن الحكماء، وعهدنا بأكثر المؤلفين في تلك القرون يترجمون لأهل الإسلام كما يترجمون لمن لم يمتل مِلَّته بدون غرض ولا هوًى. وقد ترجم المؤلف لنحو عشرين منهم من أصل مئة وخمسة عشر حكيمًا، وأعطاهم حقهم غير منقوص عادًّا لهم جزءًا من أجزاء العلم الإسلامي، ومفخرة من مفاخر تلك الأقطار كأهل صناعتهم من المسلمين حذو القذة بالقذة.

وأتانا كتابه ببرهان آخر على أن المدنية الإسلامية وحدة لا تتجزأ، وأن كل قطر متمم للأقطار الأخرى، فإذا كانت خراسان خصت برجال الحكمة، فالأقطار السائرة أخرجت رجالًا في فروع العلم غير قليلة، وإذا امتازت دمشق مثلًا بمؤرخيها وشعرائها ومحدثيها، فإن بغداد امتازت بفقهائها ومؤدبيها وندمائها.

ترجم البيهقي مَن ترجم لهم بالإيجاز على الأكثر، وقد توسع في ترجمة ابن سينا خاصة، وأوجز في الترجمة للفارابي والبيروني والرازي وابن الهيثم وابن سهلان والراغب ومسكويه والبتاني وأبي زيد البلخي والبوزجاني ويحيى بن عدي وحنين ابن إسحاق وابن الضبي.

ومن أهم ما حرص على ذكره ما أثر لهم من حِكَم لطيفة اهتم بالتقاطها أكثر من اهتمامه بتدوين سني ولاداتهم ووَفَياتهم. وقد يُغْفِل ترجمةَ الرجل ويكتفي بنقل ما عُزي إليه من كلام جميل، وكثيرًا ما يَذكر الرجل بكنيته فقط، ولا يُعْنَى بتحقيق اسمه واسم أبيه، وقد يذكر أم الرجل كما يذكر أباه.

وقد صور لنا كيف كانت تعج نيسابور وأصفهان وجرجان وزنجان وشيراز ومرو والري وبلخ وغزنة بالحكماء، هذا وهو لم يترجم لغير النابهين، وهناك

المغمورون، وهناك الشادون ممن لم يُكْتَب لهم حظ الانضمام إلى المترجَم لهم. علمنا مبلغ عناية أهل عصره بالأخذ من كتب أرسطو والفارابي وابن سينا. وأتانا المؤلف ببرهان آخر على أن العربية كانت في بلاد فارس كما هي في كل بلد دخله الإسلام لغة الدين والعلم والدولة، وإنه قلَّ في هؤلاء الحكماء مَن كتب كتبه بغير العربية وندر فيهم من ألّفوا باللغتين العربية والفارسية.

وإذا جئنا نعارض بين تراجم حكماء الإسلام للبيهقي وطبقات الحكماء للقفطي نجد لكل من الكتابين مزية اختص بها لا يكاد يشاركه فيها صنوه فالقفطي ألف كتابه بعد البيهقي بنحو مئة سنة وفيه تراجم حكماء اليونان وبعضهم لم نعرف عنه شيئًا إلا من كتابه. أما البيهقي فترجم لعظماء من فلاسفة الإسلام لم يتعرض لهم القفطي لأنه لم يطلع على ما كتب سلفه ولو وقع القفطي على ما دون البيهقي قبله لضم تراجمهم إلى كتابه، وهم أحرياء أن يُحشروا إلى جانب أمثالهم من حكماء الأندلس ومصر والشام والعراق وغيرها، وكذلك رأينا البيهقي أغفل جماعة أبي حيان التوحيدي لعدم اطلاعه على أمرهم.



(٣٩)

# الحافظ ابن عساكر

## أبو القاسم علي بن الحسين بن هبة الله بن عبد الله بن الحسن الملقب ثقة الدين والمعروف بابن عساكر

(٥٧١)

معظم من ترجموا للحافظ ابن عساكر ومنهم ابنه في سماعاته لم يذكروه بهذه الكنية، وقيل: إنه ما كان يرتاح إلى التكني بها، ومع ذلك ما اشتهر بغيرها. وبيت ابن عساكر من بيوت دمشق المشهورة بالعلم، تسلسل فيها بطنًا بعد بطن. وكان خاله أبا المعالي محمد بن يحيى بن علي القرشي قاضي دمشق، وكان الحديث والفقه أهم ما تدور عليه معارفهم. واشتهر بنو عساكر بالتقوى والتصدي لنفع الناس في دينهم.

ولد الحافظ في دمشق سنة تسع وتسعين وأربعمئة وأخذ شيئًا من العلم عن أهله وانتفع بصحبة جده أبي الفضل في النحو، وتفقه في حداثته على الفقيه أبي الحسن السلمي، ورحل في صباه إلى الشرق رحلة دامت خمس سنين، وقام برحلات غيرها طالت أشهرًا، وسمع بمكة ومنى والمدينة والكوفة وأصبهان القديمة واليهودية ومرو الشاهجان ونيسابور وهراة وسرخس وأبيورد وطوس وبسطام والري وزنجان وببلاد كثيرة في العراق وخراسان والجزيرة والشام والحجاز.

والظاهر أنه اكتفى بمن أخذ عنهم من الشيوخ في هذا الجزء من آسيا ولم يتعدها إلى إفريقية، لما اشتهر من تخلف المصريين في علم الحديث، وحضر الدرس بالمدرسة النظامية في بغداد، وعلق مسائل الخلاف على أبي سعيد

الكرماني. وبلغ عدة شيوخه ألفًا وثلاثمئة شيخ وثمانين امرأة ونيفًا، وممن أخذ عنهم فأكثر أبو سعيد السمعاني، وروى هو عنه وكان رفيقه في بعض رحلاته.

حفل وطاب الحافظ بما تلقَّاه من محدثي عصره وعلمائه، فغدا محدِّث الشام ومن أعيان فقهاء الشافعية، بل «فخر الشافعية وإمام أهل الحديث في زمانه وحامل لوائهم» و«غلب عليه الحديث واشتهر به وبالغ في طلبه إلى أن جمع منه ما لم يتفق لغيره». قال ابن خلكان: «وصنف التصانيف المفيدة وخرَّج التخاريج، وكان حَسَنَ الكلام على الأحاديث محظوظًا في الجمع والتأليف». وقالوا فيه: إنه كان «مواظبًا على صلاة الجماعة ملازمًا لقراءة القرآن، وكان يختم في رمضان والعشر كل يوم ختمة، ولم يُر إلا في الاشتغال بعلم وعبادة يحاسب نفسه على كل لحظة» و«لم يجتمع في شيوخه ما اجتمع فيه من لزوم طريقة واحدة منذ أربعين سنة، يلازم الجماعة في الصف المقدم، إلا من عذر مانع» و«الاعتكاف والمواظبة في الجامع، وإخراج حق الله، وعدم التطلع على أسباب الدنيا، وإعراضه عن المناصب الدينية كالإمامة والخطابة بعد أن عُرِضتا عليه» و«كان الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي قد بنى له دار الحديث النورية فدرس بها إلى حين وفاته غير ملتفت إلى غيرها ولا متطلع إلى زخرف الدنيا».

اتصل الحافظ بالمَلِكَين العادلين نور الدين محمود بن زنكي وصلاح الدين يوسف بن أيوب اتصالًا وثيقًا يأخذان عنه الحديث والفقه، وكان لهما المستشار الأمين ينصح ولا يقول إلا الحق، وكان من تشاكل الأستاذ مع الآخذين عنه في الفكر والسياسة ما عاد بالنفع على الأمة، ولو لم يكن الملكان من المعجبين بالحافظ ما اقتطعا من وقتهما الثمين ساعات للتلقي عنه والتبرك بروايته ودرايته، في عصر كثرت فيه المشاكل السياسية من حرب الصليبيين العظيمة وفيها ما يشغل عن كل شيء. ولما مات الحافظ شيع صلاح

الدين جنازته وحضر الصلاة عليه، والعظيم يعرف العظيم. ولا نعدو الصواب ذا ادعينا أن منزلة الحافظ من الملكين العظيمين كانت منزلة الأستاذ من تلميذه أو الأخ من أخيه. ويروى: أنه بينا كان يلقي الحديث على صلاح الدين في المدرسة العادلية سقطت سرموجة على طرف ثوب السلطان رماها بعض مماليكه عن غير قصد وهو يلعب مع رفاقه، فتشاغل الملك عنهم فالتفت إليه ابن عساكر وكلمه كلامًا فيه بعض اللوم على الإفراط في الحلم، وقال له إنه كان أيام الماضي نور الدين يروي الحديث فيستمع إليه كل من في الدار كأن على رؤوسهم الطير. ونور الدين هو الذي كان السبب في تعجيل الحافظ بتأليف كتابه تاريخ دمشق.

بلغت تآليف ابن عساكر أربعين مصنفًا وأجلها «تاريخ مدينة دمشق وأخبارها وتسمية من حلها أو وردها أو اجتاز بنواحيها»، وهو على نسق تاريخ بغداد، أتى فيه بالعجائب كما قال العارفون. قال ابن خلكان: وقد جرى ذكر هذا التاريخ مع العلامة المنذري حافظ مصر وأخرج منه مجلدًا، وكان الحديث في أمره واستعظامه، ما أظن هذا الرجل إلا عزم على وضع هذا التاريخ من يوم عقل على نفسه وشرع في الجمع من ذلك الوقت، وإلا فالعمر يقصر عن أن يجمع فيه الإنسان مثل هذا الكتاب، بعد الاشتغال والتنبه. وأردف ابن خلكان ذلك بقوله: ولقد قال الحق، ومن وقف عليه عرف حقيقة هذا القول، ومتى يتسع للإنسان الوقت حتى يضع مثله، وهذا الذي ظهر هو الذي اختاره، وما صح له هذا إلا بعد مسودات ما يكاد ينضبط حصرها وله غيره تواليف حسنة». وعبارته في مقدمة تاريخه: «ورَقِيَ خَبَرُ جمعي له إلى حضرة الملك الكامل العادل الزاهد المجاهد المرابط الهمام أبي القاسم محمود بن زنكي بن آق سنقر ناصر الإمام أدام الله ظل دولته... وبلغني تشوقه على الاستنجاز له والاستتمام، ليلمَّ بمطالعة ما تيسر منه بعض الإلمام، فراجعت العمل فيه راجيًا الظفر بالتمام...».

ومن تآليفه «تبيين كذب المفتري على أبي الحسن الأشعري» وهو كتاب تتجلى فيه شخصيته الدينية كما نم عليه تاريخه العظيم الذي ظهر به تفننه في الترجمة للناس والعرض لإخبارهم وشعرهم ونثرهم، وقد جمعه على شرط المحدثين بالسند والرواية، ولا شك أنه طالع مئات من الكتب ليقتبس ما يلزمه منها، وهو كنز عظيم من كنوز الأجداد عجز الجماعة عن وضع مثله، فكيف بفرد لم يُعمَّر طويلًا بالقياس إلى المعمَّرين، ولكن الحافظ بورك له بساعات عمره لما حرص هو على عدم إضاعته.

ما خرج ابن عساكر عن الحديث والفقه والتاريخ والأخبار والأدب، وهي الموضوعات التي خاض عبابها، وما كان اعتماده على النقل فقط بل كان يستعمل العقل، وفي القليل مما وصل إلينا من مصنفاته برهان على ذلك. فقد رأيناه معنيًّا بحل المشاكل يناقش ويجادل بعيدًا في الجملة عن تعصب أهل مذهبه، وكأنه أقرب إلى الاجتهاد منه إلى الجمود والتقليد، والوقوف عند أقوال من كان قبله، والتاريخ يوسع العقل ويورث صاحبه نورًا لا يستضيء بمثله عقل من لم يرزق حظًّا عظيمًا من النظر فيه.

نفعت الحافظ صفاته الشخصية الممتازة ومن أهمها أمانة المؤرخ وصدق المحدث، وهما من أعظم ما يطلب منهما، فكانت له الحظوة التامة عند الأمة وعند الملوك، ومن اشتهر بهذه الصفات الغرّ كان حريًّا بأن يُقْبِل الناس على ما يقول ويكتب، ومن أهم ما نفعه في دراسته رحلاته المتعددة في ديار الإسلام أيام صباه، وتلقيه العلم على أئمة العلماء، والأخذ عمن اشتهر في الأمصار من الرجال فَعَلا سنده وغَزُر علمه، واتسع أفق نظره وزادت معارفه فيما أخذ نفسه به وذلك بالاطلاع على مجاميع ومصنفات ما كانت تتيسر له في بلده. ولما كان الجدُّ مرماه في عامة أموره، أدى ذلك إلى جودة إنتاجه ووفرته.

يُعَدُّ ابن عساكر من المكثرين من التأليف والمجوِّدين فيه، ألَّف ما ألَّف

لدواع دعته، ومناسبات تقاضته جهدًا عظيمًا، ولا قصد له إلا خدمة الإسلام والمسلمين، ولو قد سلمت مصنفاته كلها من التلف لكان منها خزانة لطيفة تنطق ببعد غور صاحبها، وبها أثبت أن شهرته كفاء علمه الواسع، وأنه من أنبغ رجال الدين، عُني بتعبيد الطرق إلى اقتباس العلم وتقريب مناله على المستفيدين.

ترجم للحافظ رفيقه وصديقه الحافظ السمعاني فقال: إنه كان كثير العلم غزير الفضل حافظًا متقنًا ديِّنًا خيِّرًا، حسن السمت، جمع بين معرفة المتون والأسانيد، متثبتًا محتاطًا. وقال العماد في الخريدة: إنه كان يتردد إليه في دمشق ورآه قد صنف تاريخ دمشق وذكر أنه في سبعمئة كراسة كل كراسة عشرون ورقة. وقال إنه في خمسمئة وسبعين جزءًا، والنسخة الجديدة ثمانمئة جزء. قال العماد: وسمعت بعضه منه، ودخلت عليه ذات يوم فعرضت عليه ما أورده السمعاني في حقه وسمعت المقطعات الثلاث اللامية والتائية والغينية من لفظه. وقال: صدق السمعاني. قال العماد: هو الحافظ الذي تفرد بعلم الحديث والاعتقاد الصحيح، المنزَّه عن التشبيه، المحلَّى بالتنزيه، المتوحِّد بالتوحيد، المظهر شعار الأشعري بالحد الحديد والجد الجديد والأَيْد السديد.

قال: ومما أنشدنيه لنفسه وقد أعفى الملك نور الدين أهل دمشق من المطالبة بالخشب فورد الخبر باستيلاء عسكره على مصر فكتب إليه يهنئه قصيدة من أبياتها:

لما سمحت لأهل الشام بالخشب ... عُوّضت مصر بما فيها من النشب
وإن بذلت لفتح القدس محتسبًا ... للأجر جوزيت خيرًا غير محتسب
ولست تعذر في ترك الجهاد وقد ... أصبحت تملك من مصر إلى حلب
عساك تظفر في الدنيا بحسن ثنا ... وفي القيامة تلقى حسن منقلب

وشعر ابن عساكر شعر الفقهاء. وكان يختم معظم دروسه بإيراد شيء من

شعره. ونثره أرقى نثر في عصره، وإذا ترك السجع واستعمل المرسل كان رصفه من الجيد البديع.

قد يسأل سائل وهل تَعَدَّتْ يا تُرى شهرة ابن عساكر أرضَ الشام وما إليها أو تجاوزتها إلى بيئات أخرى؟ فالظاهر أنه كان عَلَمًا في شهرته بين أرباب الحديث وحملة التاريخ في الأقطار، وانتقلت أخبار علمه إلى بلدان ما كان له بحسب الظاهر اتصال بها. وفي حياته كان صيته بحديثه على ما يظهر أكثر من شهرته بتاريخه، وبعد مماته شهر بتاريخه واستفاضت شهرته حتى سرت إلى من لم يكن يظهر أنها تسير إليهم. والناس في معظم العصور مولعون بهذين الفنين السهلين الصعبين الحديث والتاريخ؛ فلذلك كثر الآخذون من تآليف مؤلِّفنا، لأنها أخذت بنصيب من التنقيح والإمتاع.

ويكفي أن يقال عن تاريخ دمشق إنه حوى عدة كتب مستقلة، كما قالوا في تاريخ الرسل والملوك لابن جرير الطبري، فكل طالب يجد فيه ضالته، وقد يستغني الناس عن كتاب لأن في غيره ما يشبهه أو يقرب منه، ولكن تاريخ دمشق لا غنية لكل مهذب عن النظر فيه، واتخاذه جليسه وسميره، والاعتماد عليه في الوقوف على تراجم من كان لهم شأن في هذا المجتمع. أخذ عمن سبقه وجوَّد الأخذ، وتعلقت الأقدار إن ضاع بعض مصادره، ولولا أن جمعها في هذا التصنيف الممتع لضاع جانب عظيم من تراجم الرجال، وتاريخ هذه الأمة.

ومن أجل هذه المزايا التي جمعها هذا التاريخ كان يُنظر إليه على أنه تاريخ العالم الإسلامي، وينظر إليه أهل كل قطر نظرهم إلى كتاب حوى بغيتهم ولا يستغنون عن الأخذ منه.

وكأن مؤلِّفنا شعر بأن الناظرين في تاريخه العظيم قد يعروهم الملل من كثرة أسانيده فحلَّاه بالشعر يرويه لمن كان لهم شعر من الرجال، ويستطرد استطرادات في محلها للترويح عن النفوس، فأثبت أنه فنان يحسن التأثير في

قلب سامعه. ومع هذا بدا لبعض العلماء من القديم أن يختصروا تاريخه لِيَخفَّ محمله، فاقتصروا منه على ما يروقهم من صفحاته؛ فقد اختصر المؤرخ أبو شامة (٦٦٥) صاحب كتاب الروضتين الأكبر من مختصره في خمسة عشر مجلدًا، والأصغر في خمس مجلدات، وكان القوم يتلقون من أبي شامة في جامع دمشق تاريخ ابن عساكر وتاريخ الروضتين. واختصر تاريخ دمشق ابن عبد الدائم المقدسي (٦٨٠) وسماه «فاكهة المجالس وفكاهة الجالس» أخذ ما راقه من الشعر والنثر والجد والهزل وأخبار الماضين والملوك السالفين. وممن اختصره ابن المكرم (٧١١) صاحب لسان العرب في نحو ربعه، وبدر الدين العيني (٨٧٥)، وانتقى منه جلال الدين السيوطي (٩١١) سماه «تحفة المذاكر المنتقى من تاريخ ابن عساكر»، واختصره من المتأخرين الشيخ عبد القادر بدران. ولتاريخ دمشق أذيال منها ذيل ولد المصنف القاسم ولم يكمله، وذيل صدر الدين البكري، وذيل عمر بن الحاجب، وذيل عليه الحافظ علم الدين البرزالي، وذيل أبي يعلي بن القلانسي وغيرهم.

قلنا: إن تاريخ دمشق كتاب عظيم يحمل في تضاعيفه عدة كتب ويسهل استخراج دراسات مختلفة الموضوعات منه. وكان للمؤلف الفضل في جمع هذه الأخبار والأساطير لأنه حرص على ألا يخلِّي كتابه مما يفيد جميع الطبقات، وقد يسرد أشياء لا يعتقدها فيما نحسب، والعقل يمحص وينفي الزغل. وأي كتاب للمحدثين والأقدمين سلم من نقد ومؤاخذة. وكانت أماني الباحثين أن يحمل إليهم الكتاب القديم كما كتبه مؤلفه. وكان يقوم من العلماء القرن بعد القرن من يجمع وينسق وينشره للعبرة أو للتفكهة أو لغير ذلك من المقاصد. وليس من العقل اختيار كل شيء وفي هذا التاريخ ـ على سقم بعض الروايات ـ أشياء مهمة من الصحاح تدل على عناية العلماء قديمًا برواية الحديث والفصل بين صحيحه وسقيمه.

وبَعْدُ فإن عقلًا كعقل الحافظ ابن عساكر من المستحيل أن يقول بهذه

الخرافات والأساطير التي وردت في مقدمة تاريخه وهو من أعرف العلماء بالأحاديث الضعيفة والموضوعة، وقد قال العلماء مثلًا كل ما يروى من الأحاديث في فضل البلدان لا أَصل له. والمؤرخ قد ينقل أخبار أهل النِّحَل والمذاهب من دون أن ينفيها أو يقرَّها على ما جرى أبو الريحان البيروني في وصف مذاهب الهند ولم يطعن فيها ولا هزأ بما يعتقد المعتقدون فيها، واكتفى بتصحيح الرواية وابتعد عن التزيد. ثم إن العلم في القرن السادس كان غير ما هو عليه في هذا القرن، والمؤلِّف إنما كان يكتب في قرنٍ ما ارتقت فيه العلوم ارتقاءها لعهدنا، وما ألف المؤلفون أن يدرسوا التاريخ كما أخذ المعاصرون يدرسونه، وكان الفضل في ذلك لابن خلدون واضع فلسفة التاريخ.



(٤٠)

# عماد الدين الكاتب

## محمد بن محمد

(٥٩٧)

قالوا خرج من أصبهان من العلماء والأئمة في كل فن ما لم يخرج من مدينة من المدن، وعلى الخصوص علم الإسناد؛ فإن أعمار أهلها تطول، ولهم مع ذلك عناية وافرة بسماع الحديث، وبها من الحفاظ خَلْقٌ لا يُحْصَون ولها عدة تواريخ. والعماد الكاتب هو من هذه المدينة الجميلة، نشأ بها وجاء بغداد شابًّا، فانتظم في سلك طلبة المدرسة النظامية وتفقه بأجلَّة فقهائها ومحدثيها وأجازوا له، ثم رجع إلى أصفهان فتفقَّه بها أيضًا على الخجندي والوركاني، وعاد إلى بغداد واشتغل بصناعة الكتابة فبرع فيها ونبغ. واتصل بالوزير يحيى بن هبيرة فولّاه النظر في البصرة ثم بواسط، ولما توفي ابن هبيرة أقام العماد ببغداد مدة مُنَكَّد العيش، ثم انتقل إلى دمشق فأنزله قاضي القضاة كمال الدين الشهرزوري بالمدرسة النورية، وكان للعماد معرفة بنجم الدين أيوب والد السلطان صلاح الدين، عَرَفَه بتكريت حين كان نجم الدين واليًا عليها، فلما سمع نجم الدين بوصوله بادر للسلام عليه في منزله ومدحه العماد بقصيدة جاء في مطلعها:

يوم النوى ليس من عمري بمحسوب ... ولا الفراق إلى عيشي بمنسوب

ما اخترت بعدك لكن الزمان أتى ... كرهًا بما ليس يا محبوب محبوبي

وكان القاضي الشهرزوري يذكر العماد عند السلطان نور الدين وذكر له تَقدُّمه في العلم والكتابة وأهّله لكتابة الإنشاء، فتردد العماد في الدخول فيما

لم يتقدم له اشتغال طويل به، مع توفر مواد هذه الصناعة عنده، خوفًا من التقصير فيما لم يمارسه، ثم أقدم بعد الإحجام فباشرها وأجاد فيها حتى زاحم القاضي الفاضل بمَنْكِبٍ ضخم. وكان ينشئ الرسائل بالفارسية أيضًا فيجيد فيها إجادته بالعربية.

وعَلَتْ منزلتُه عند نور الدين وصار صاحب سرِّه وفوَّض إليه تدريس المدرسة العمادية، وولَّاه الإشراف على ديوان الإنشاء. ولما توفي نور الدين وولي ابنه الملك الصالح إسماعيل أغراه بالعماد جماعةٌ كانوا يحسدونه ويكرهونه، فخاف على نفسه وخرج من دمشق قاصدًا بغداد، فوصل إلى الموصل ومرض بها، ولما أَبَلَّ من مرضه بلغه خروج السلطان صلاح الدين من مصر قاصدًا دمشق ليستولي عليها، فعزم على الرجوع إلى الشام وخرج من الموصل فوصل إلى دمشق وسار منها إلى حلب فلزم بابه ينزل بنزول السلطان ويرحل برحيله.

هذا ما نقله ياقوت، قال: ولم يزل يغشى مجالسه ملازمًا لخدمته، حتى قرَّبه واستكتبه واعتمد عليه، فتصدَّر وزاحم الوزراء وأعيان الدولة، وعلا قدره وطار صيته. قالوا ولما دخل القاضي الفاضل على صلاح الدين لمَّا أدخل عليه العماد الكاتب قال له غدًا يأتيك تراجم الأعاجم وما يحلها مثل العماد. فقال له السلطان ما لي عنك مندوحة أنت كاتبي ووزيري ورأيت على وجهك البركة، فإذا استكتبتُ غيرك تحدَّث الناس. فقال: العماد يحل التراجم ولربما أغيب أنا، فإذا غبتُ قام مقامي. وكان إذا انقطع القاضي الفاضل عن الديوان ناب عنه في النظر عليه، وألقى إليه السلطان مقاليده وركن إليه بأسراره فتقدَّم الأعيانَ وأُشير إليه بالبنان.

وكان عماد الدين محلَّ ثقة القاضي الفاضل آمنًا من توثبه عليه، ولهذا كان يطمئن إليه إذا غاب عن السلطان. وكان شديد الحرص على تحصيل الدنيا، وكان الفاضل يلومه ويعتبه ويعزله ويؤنبه على ذلك فلا يرعوي وله في

هذا حكايات منها: أن رجلًا من أهل حمص جاءه بطبق كيزان وتفصيلة كتان قيمة ذلك كله نحو خمسين درهمًا، وسأل حاجة فأخذ قصته وقرأها على السلطان وكان قد بلغه الخبر فلم يجبه، فأعاد العماد عرض القصة وقراءتها مرات في مجالس عدة والسلطان لا يأمر فيها ولا ينهى، ففطن العماد وعلم أن الخبر قد اتصل بالسلطان، فأعاد عرض القصة فلم يجبه عنها. قال: يا مولانا الطبق الذي أحضره صاحب هذه القصة باقٍ إلى الآن لم أتصرَّف فيه، فإن كان ما ينقضي شغله أعدت عليه طبقه، فضحك السلطان وعجب من دناءة نفسه وأمر بقضاء شغل الرجل.

وكان شديد التهافت على أخذ الختوم الذهب التي تجيء على كتب الفرنج، فوصل منهم كتاب بغير حضوره ففتحه السلطان بيده وأخذ بعضُ الحاشية الختم، فلما جاء العماد قيل له اكتب جواب هذا الكتاب، فقال: يكتب جوابه من أخذ الختم، فعزَّ قوله على السلطان وقال له: قم اخرج، الوقت ما هو محتاج إليك. فأتى إلى الفاضل وعَرَّفه ما كان فقال له: رُح إلى الخانكاه واقعد بها مع الفقراء والبس زيهم، فإذا طلبك السلطان قل أنا دخلت في أَمر لا أخرج منه، ثم لا تخرج حتى يأتيك السلطان بنفسه مترضِّيًا. وكان من هذا التدبير أن جاءه السلطان وترضَّاه. ومن شعره:

هي كتبي فليس تصلح من بعـ ـدي لغير العطار والإسكاف
هي إما مَزاود للعقاقيـ ـر وإما بطائن للخفاف

ولما توفي صلاح الدين اختلَّت أحوال العماد ولزم بيته وأقبل على التصنيف والإفادة حتى توفي. وله من المصنفات: خريدة القصر وجريدة العصر تراجم شعراء الشام والعراق ومصر والجزيرة والمغرب وفارس ممن كان بعد المئة الخامسة إلى ما بعد سنة سبعين وخمسمئة، وله البرق الشامي والفتح القسي في الفتح القدسي وهذا مطبوع، وله غير ذلك من الكتب والدواوين.

أما إنشاؤه فسجع؛ وفي الفتح القسي منه مثال يأتي على حلم الحليم، لما أكثرَ فيه من الجناس وأتى من أنواع البديع. وقد شهد القاضي الفاضل بأنه كالزناد ظاهره بارد وباطنه فيه نار. ونحن نقول إن شهرته أعظم من حقيقته. لا جرم أنه متمكن من اللغة يصرِّفها كما يشاء بقلمه، وتكلُّفه لا يخفى على صاحب هذا الفن. وفي الفصل الذي عقده في الفتح القسي لوصف نساء الإفرنج اللاتي فَدَيْنَ أنفسهن في الحروب الصليبية للترفيه عن بني قومهن في فلسطين مثالٌ بيِّن من ذلك. وما قيل في نثره يقال في شعره، فإنه يكثر فيه الجناس أيضًا حتى يفقد سلاسته، ولنا أن نقول إنه شاعر أرقى من الوسط وناثر كذلك، هيأت له الأيام شهرةً طالما تخطَّت مَن بَذُّوه وما ساواهم في أدبهم وأخلاقهم. ومن قصائده الطوال في مدح السلطان صلاح الدين قصيدة ضمَّنها فتح القدس وفلسطين، قال في مطلعها:

أطيب بأنفاس تطيب لكم نفسا ... وتعتاض من ذكراكم وحشتي أُنسا

وأسأل عنكم عافيات دوارس ... غدت بلسان الحال ناطقةً خُرْسا

معاهدكم ما بالها كعهودكم ... وقد كررت من درس آثارها درسا

وقد كان في حدس لكم كل طارف ... وما جئتم من هجركم خالف الحدسا

أرى حدثان الدهر ينسى حديثه ... وأما حديث العذر منكم فلا ينسى

تزول الجبال الراسيات وثابت ... رسيس غرام في فؤادي لكم أرسى

حسبت حبيبي قاسي القلب وحده ... وقلب الذي يهوى بحمل الهوى أقسى

ومنها:

رأيت صلاح الدين أفضل من غدا ... وأشرف من أضحى وأكرم من أمسى

وقيل لنا في الأرض سبعة أبحر ... ولسنا نرى إلا أنامله الخمسا

سجيته الحسنى وشيمته الرضا ... وبطشته الكبرى وعزته القعسا

فلا عدمت أيامنا منه مشرقًا ... ينير بما يولي ليالينا الدمسا

جنودك أملاك السماء وظنهم أعاديك جِنًّا في المعارك أو إنسا

ومن غزلياته قوله:

أفدي الذي خلبت قلبي لواحظه وخلَّفت لذعات الوجد في كبدي

صفات ناظره سُقْمٌ بلا ألم سُكْرٌ بلا قدح جُرْحٌ بلا قود

على محياه من نار الصبا شعل وورد خديه من ماء الجمال ندي

ومن حكمياته:

اقنع ولا تطمع فإن الغنى كماله في عزة النفس

فإنما ينقص بدر الدجى لأخذه الضوء من الشمس

وقال:

وما هذه الأيام إلا صحائف يؤرخ فيها ثم يمحى ويمحق

ولم أر في دهري كدائرة المنى توسعها الآمال والعمر ضيق



(٤١)

# ياقوت

## عبد الله شهاب الدين

(٦٢٦)

كان مولد ياقوت في الروم، وأخذه المسلمون أسيرًا وهو طفل، واشتراه في بغداد تاجرٌ يعرف بعسكر الحموي، فنُسب إليه فقيل له: ياقوت الحموي، كما قيل له: الرومي، وجعله سيِّدُه في الكتَّاب يتعلم ما يستفيد هو منه في ضبط متاجره، وقرأ شيئًا من النحو واللغة وشغله مولاه بالأسفار، وفي سنة ٥٩٦ أعتقه، فاشتغل بالنسخ بالأجرة وحصَّل بالمطالعة فوائد.

ودعاه مولاه القديم فأعطاه شيئًا وسفره إلى كيش وعُمان، ولما عاد من سفرته كان سيده قد مات، فأعطى أولاده وزوجته ما أرضاهم به، وبقيت بيده بقية جعلها رأس ماله وسافر بها وجعل بعض تجارته كتبًا، وسهل عليه أن يطوف الشام والعراق والجزيرة وخراسان، واستوطن مرو ودخل خوارزم وجاب البلاد ما بين جيحون والنيل «وكانت له همة عالية في تحصيل المعارف». وشهد غارات التتر في خراسان أيام كونه فيها، ووصف أعمالهم في الأقطار الإسلامية، وفقد ثروته غير مرة فَعُدَّ من المَفْلوكين[١].

قيل: إنه كان طالع شيئًا من كتب الخوارج فاشتبك في ذهنه منها طرف قوي، وتوجه إلى دمشق في سنة ٦١٣، وقعد في بعض أسواقها وناظر بعض من يتعصب لعليٍّ كرّم الله وجهه وجرى بينهما كلام أدى إلى ذكره عليًّا بما

---

(١) المفلوك: الفقير [المعجم الوسيط]. (المُراجع)

لا يسوغ، فثار الناس عليه ثورة كادوا يقتلونه فَسَلِمَ منهم، وخرج من دمشق منهزمًا.

ويدرك المرء بعد هذه الإلمامة اليسيرة بسيرة ياقوت كيف ساعدته الأقدار فدرس الكتب واستفاد من نَسْخها وزاده تنقُّله في الأقطار توسُّعًا في المعارف، فاطَّلع على ما لم يطلع عليه غير قلائل من المؤلفين، فكان ذلك مما ضاعف الإمتاع بكتبه فكُتب لها البقاء لحاجة الناس إليها، ولأن صاحبها كتبها عن درسٍ ومشاهدة وخبرة، ويمتاز على غيره بأنه عرف جزءًا عظيمًا من ديار الإسلام معرفة أكيدة وأدرك الرجال ولقي شيوخ عصره.

كان ياقوت رقيق العاطفة مرهف الحس دؤوبًا على العمل يَحْمل نفسًا زكية دراكة. كان صريحًا في قوله لا يدالس ولا يصانع، يقول ما يعلم وإن أغضبَ وأرضى، فيه صَدْعُ العلماء بالحق وصِدْقُ الصادقين من الرواة. قال عن نفسه: إني كنت قدمت نيسابور في سنة ٦١٣ وهي الشاذياخ فاستطبتها وصادفت بها من الدهر غفلةً خرج بها عن عادته واشتريت بها جارية تركية لا أرى الله تعالى خَلَقَ أحسن منها خَلْقًا وخُلُقًا، وصادفتْ من نفسي محلًّا كريمًا، ثم أبطرتني النعمة فاحتججت بضيق اليد فبعتها فامتنع عليَّ القرار، وجانبت المأكول والمشروب حتى أشرفت على البوار، فأشار عليَّ بعض النصحاء باسترجاعها فعمدت لذلك واجتهدت بكل ما أمكن فلم يكن إلى ذلك سبيل لأن الذي اشتراها كان مموَّلًا، وصادفتْ من قلبه أضعاف ما صادفت مني، وكان لها ميل إليَّ يضاعف ميلي إليها، فخاطبت مولاها في ردها عليَّ بما أوجبت به على نفسها عقوبة، فقال في ذلك قصيدة يصف الحال:

ألا هل ليالي الشاذياخ تؤوب ... فإني إليها ما حييتُ طَرُوبُ
بلاد بها تصبي الصبا ويشوقنا الـ ... ـشمال ويقتاد القلوبَ جنوب
لذاك فؤادي لا يزال مروّعًا ... ودمعي لفقدان الحبيب سَكوب

ويـوم فـراق لـم يـرده مـلالـة ... محبٌّ ولم يجمع عليه حبيب
ولم يحد حادٍ بالرحيل ولم يزع ... عن الإلف حزن أو يحول كثيب
أَإِنُّ ومَن أهواه يَسمع أَنَّتِي ... ويدعو غرامي وجده فيجيب
وأبكي فيبكي مسعدًا لي فيلتقي ... شهيقٌ وأنفاس له ونحيب
على أن دهري لم يزل مذ عرفته ... يُشتِّت خلّانَ الصفا ويُريب
ألا يا حبيبًا حال دون بهائه ... على القرب بابٌ مُحكمٌ ورقيب
فمَنْ يَصْحُ من داءِ الخُمار فليس ... من خمارٍ للمحبِّ طبيب
بنفسي أُفدّي من أُحبُّ وِصاله ... وَيْهَوى وصالي مَيْله ويُثيب
ونبذل جُهْدَينا لشَمْلٍ يضمُّنا ... ويأبى زماني إن ذا لعجيب
وقد زعموا أن كل من جدَّ واجد ... وما كلُّ أقوال الرجال تُصيب

هذا مثال من شعر ياقوت وكان مُقِلًّا منه، وقد أورد له ابن خلكان رسالة مطوَّلة كتبها من الموصل إلى القاضي الأكرم القفطي وزير صاحب حلب حين وصوله إلى خوارزم هاربًا من التتر يصف فيها بالسجع ما لقيه من البلاء وما ارتكبه التتر من الشرور. ووصف تلك الديار وأهلها وعلمهم وأخلاقهم وصفًا جيدًا. وفي هذه الرسالة استشهد بأبيات كثيرة من الشعر دلَّ بها على وفرة محفوظه وحضور ذاكرته.

ثلاثة كتب طبعت لياقوت اشتُهر بها وخلد ذكره: (معجم البلدان) و(المشترك وضعًا والمختلف صقعًا) و(إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب)، أو طبقات الأدباء، وكلها مما أحياه المستعربون من الغربيين لهذا الرومي المستعرب العظيم، وقد خدم بها تاريخ الرجال وتاريخ البلدان خدمة عظيمة، فهو في الجغرافيا العربية والآداب العربية نسيج وحده حقق في كل ما وضع تحقيقًا لا يصل غيره إلى مثله في عصره وبعد عصره.

رتَّب معجم البلدان على حروف المعجم، وذكر فيه أسماء البلدان

والجبال والأودية والقيعان والقرى والمحال والأوطان والبحار والأنهار والغدران والأصنام والأوثان معتمدًا في تأليفه على مَن كَتَبَ قبله في تقويم البلدان من العرب وعلى اللغويين ودواوين العرب والمحدثين وتواريخ أهل الأدب، والتقط من أفواه الرواة وتفاريق الكتب وما شاهد في أسفاره وحققه بنفسه من أسماء البلدان ما عظمت به فائدته.

كان ياقوت محتاطًا فيما ينقله عن غيره؛ قال مثلًا في إحدى المدن: ولها قصة بعيدة من الصحة لمفارقتها العادة وأنا بريءٌ من عهدتها إنما أكتب ما وجدته في الكتب المشهورة التي دوَّنها العقلاء. وقال فيما نقل عن الصين: «وهذا شيء من أخبار الصين الأقصى ذكرته كما وجدته لا أضمن صحته، فإن كان صحيحًا فقد ظفرت بالغرض، وإن كان كذبًا فتعرف ما تقوله الناس، فإن هذه البلاد شاسعة ما رأينا من مضى إليها فأَوغل فيها، وإنما يقصد التجار أطرافها». وكأنه بما ينقل من الأوهام والخرافات يحاول ألَّا يخلي كتابه من كل أطروفة ولو كانت سخيفة، ليستفيد منه الجاهل ويتفكَّه به العالم، ويزيد به المتعلم الأديب درسًا، وقد توسَّع خاصة في الكلام على المدن التي أنشأتها العرب.

حرص في معجم البلدان على الإلمام بأخبار فتوح البلاد وعمرانها وأموالها ومرافقها وعادياتها وأخلاق أهلها، ومن خرج منها من المشاهير، وما وقع فيها من الوقائع التاريخية، وما قيل فيها من الأشعار البديعة، فأمتع قارئه بكل مفيد حسب ما وصل إليه علمه، ووقع عليه في كتاب أو استقرأه بنفسه ونقله عن الثقات. وهذا جماع ما في معجمه مما أدركه في عصره أو اقتبسه من الأصول المتقنة في خزائن مرو قال: «كانت سهلة التناول، لا يفارق منزلي منها مئتا مجلد وأكثر، وبغير رهن، تكون قيمتها مئتي دينار، فكنت أرتع فيها وأقتبس من فوائدها، وأنساني حبها كل بلد، وألهاني عن الأهل

والولد، وأكثر فوائد هذا الكتاب (معجم البلدان) وغيره مما جمعته فهو من تلك الخزائن». وما كان له أن يفارق مرو لولا ورود التتر إلى تلك الأرجاء.

ومن معجم البلدان فقط يتألف ديوان لطيف من المقاطيع والقصائد التي استشهد بها، وكتاب في عجائب البلدان والخليقة وأخلاق الناس وعاداتهم ودرجة الرفاهية والثروة في عصره أو قبل عصره. ويفيض في كلامه على الحواضر يذكر من خرج منها من الأعيان ولا سيما رجال الحديث، وقد تظفر فيه بتراجم مطولة لرجالٍ أغفل بعضُ مصنفي الطبقات ذكرَهم. وهو كتاب خاصٌّ بديار الإسلام والشرق كتب بكثير من التحفظ إذا وقع التنظير بين ما نقله وما نقله المؤلفون في عصره وبعده عصره. فقد قال في الروم مثلًا «وفي أخبار بلاد الروم أسماء عجزت عن تحقيقها وضبطها، فليعذر الناظر في كتابي هذا، ومن كان عنده أهلية ومعرفة وقتل شيئًا منها علمًا، فقد أَذِنتُ له في إصلاحه مأجورًا». وهذا ديدن العلماء في القديم والحديث، يدعون العارفين إلى تصحيح هفواتهم أو إلى نقدهم للوصول إلى الحقائق.

أما كتاب «المشترك وضعًا والمفترق صقعًا» فقد انتزعه بنفسه من معجم البلدان، واقتصر فيه على ما اتفق من أسماء البقاع لفظًا وخطًّا ووافق شكلًا ونَقْطًا وافترق مكانًا وعملًا، توفيرًا لوقت المطالع الذي يحب السرعة في تلقُّف الفوائد، وبعدًا به عما ذكره في معجمه الكبير من الاشتقاق والشواهد والنكت والفوائد والأخبار والأشعار. ودعا ياقوت على من يختصر بعده كتابه معجم البلدان، وما نجا مع هذا من أناس حاولوا اختصاره، ومنهم صفي الدين عبد المؤمن اختصره وسماه «مراصد الاطلاع».

بقي أن نطلق القول في كتاب ياقوت الثالث وهو «إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب» وفيه جمع ما وقع من أخبار النحويين واللغويين والنسابين والقراء المشهورين والأخباريين والمؤرخين والوراقين المعروفين والكتاب المشهورين وأصحاب الرسائل المدونة وأرباب الخطوط المنسوبة وكل من

صنف في الأدب تصنيفًا، مثبتًا وفياتهم ومواليدهم وتصانيفهم وأخبارهم وأنسابهم وأشعارهم. قال: فأما من لقيته أو لقيت من لقيه فأُورد لك من أخباره وحقائق أموره ما لا أترك لك بعده تشوقًا إلى شيء من خبره، وأنه جمع للبصريين والكوفيين والبغداديين والخراسانيين والحجازيين واليمنيين والمصريين والشاميين والمغربيين وغيرهم على اختلاف البلدان، وذلك على حروف المعجم أيضًا. وقال في الاعتذار عن نفسه ولمن يقول له إن الاشتغال بأمر الدين أهم: إن هذه أخبار قوم عنهم أخذ القرآن والحديث، وبصناعتهم تنال الإمارة ويستقيم أمر السلطان والوزارة، وبعلمهم يتم الإسلام، وباستنباطهم يعرف الحلال من الحرام، وإن كتابه هذا هو علم الملوك والوزراء والكبراء يجعلونه ربيعًا لقلوبهم ونزهة لنفوسهم.

قال: وربما قال بعضهم إن (معجم الأدباء) تصنيفُ روميٍّ مملوك وما عسى أن يأتي به؟ إن القوم لا ينظرون ما قيل إنما يسألون عمن قال. ولو عاش ياقوت ورأى القوم بعد أن أتى على كتابه سبعة قرون كيف اشتهر كتاباه معجم البلدان ومعجم الأدباء لا يستغني عنهما باحث ولا أديب، وأثبتت الأيام أنهما من الكتب التي حَوَتْ كل طريف مفيد تزيد على القرون حسنًا، لاغتبط وأدرك أن ما كان يقدر أن الناس يقولونه في كتبه قالوه في أمثاله، ثم ذهب لغط القوالين والطاعنين، وثبت علم العالمين والمتأدبين الباحثين.

ولياقوت كتب كثيرة لم تطبع، وما طبع له كافٍ في الحكم على سعة علمه وسعة عمله. يقول أحد علماء المشرقيات: ما كان ياقوت إلا بعض أولئك الجمَّاعين من المؤلفين عند العرب. أي إنه يُعنى بنقل كلام غيره فليس له يدٌ فيما دَوَّن، ولا صَدْرٌ فيما صَدَرَ عن بحث وأعمال قريحة، ولكن البحث الشخصي يتمثل في كتب ياقوت ولا سيما في معجم البلدان ثم في معجم الأدباء على ما قلته. ومعجم الأدباء لم يصل إلينا إلا ناقصًا، وما نشر على أنه من ياقوت ينادي على نفسه بأنه ليس له بل هو مدسوس عليه، ويتجلى ذلك

لمن يعارض بين التراجم التي هي من محصول قلمه والفصول الأخيرة من الكتاب وقد أُلصقت به إلصاقًا، فالفرق بيّنٌ بين إفاضة ياقوت في الترجمة للرجال والاقتضاب المخزي في التراجم التي نحلوها له.



(٤٢)

# عبد اللطيف البغدادي

(٦٢٩)

هذا عالم ندر أن يتسع صدر رجل ما اتسع له صدره من ضروب العلم والآداب. قال العلَّامة هوتسما: إنه كان يعرف جميع العلوم المعروفة في عصره. والسبب في تفنُّنه في العلم نصيحةٌ صدرت له من رجل مغربي نزل بغداد كان ـ كما قال هو عنه ـ يجلب القلوب بصورته ومنطقه وإيهامه فملأ قلبه شوقًا إلى العلوم كلها. عدَّ له ابن أبي أُصيبعة زهاء مئة وخمسين كتابًا ومقالة ورسالة، ومنها ما وقع في مجلدات مثل أخبار مصر الكبير، وكتاب الجامع الكبير في المنطق والطبيعي والإلهي زهاء عشر مجلدات، وكتاب القياس يدخل في أربع مجلدات، والسماع الطبيعي مجلدان. ومنها ردود على بعض الفلاسفة مثل ابن سينا والرازي وابن الهيثم، ولم يُطبع من جميع كتبه فيما علمنا سوى كتاب المشاهدة والاعتبار في أخبار مصر، وفيه ترجمته بقلمه. وفي هذا الكتاب الصغير حوادثُ مهمةٌ وقعت في أيامه في مصر والشام وصفها وصف عيان. فنحن إذن لا نعلم شيئًا من تصانيفه يسوغ لنا به إصدار حكم عادل عليه.

قال ابن أبي أصيبعة: كان كثير الاشتغال لا يخلِّي وقتًا من أوقاته من النظر في الكتب والتصنيف والكتابة: والذي وجدته في خطِّه أشياء كثيرة جدًّا بحيث أنه كتب كتبًا كثيرة من تصانيف القدماء. قال: وكان حسن الكلام لكثرة ما يرى في نفسه ويستنقص فضلاء زمانه وكثيرًا من المتقدمين، وكان يكثر

الوقوع في علماء العجم ومصنفاتهم وخصوصًا الشيخ الرئيس ابن سينا ونظرائه.

ولما استوفى حظَّه من الأخذ عن علماء بغداد جاء الموصل فلم تعجبه واجتمع بكمال الدين بن يونس وكان ممن يقول بالكيمياء وعبد اللطيف يخالفه في ذلك فرحل عنها ونزل دمشق وفيها أَلَّف كتبًا كثيرة.

ثم توجَّه إلى زيارة القدس، ثم قصد إلى صلاح الدين بظاهر عكا فاجتمع ببهاء الدين بن شداد قاضي العسكر يومئذٍ قال: وكان قد اتصل به شهرتي بالموصل فانبسط إليَّ وأقبل عليَّ وقال: نجتمع بعماد الدين الكاتب، فقمنا إليه وخيمته إلى خيمة بهاء الدين، فوجدته يكتب كتابًا إلى الديوان العزيز بقلم الثلث من غير مسودة وقال: هذا كتاب إلى بلدكم، وذكرني في مسائل في علم الكلام وقالوا قوموا بنا إلى القاضي الفاضل، فدخلنا عليه، فرأيت شيخًا ضئيلًا كلُّه رأسٌ وقلب وهو يكتب ويملي على اثنين، ووجهه وشفتاه تلعب ألوان الحركات لقوة حرصه في إخراج الكلام، وكأنه يكتب بجملة أعضائه. وسألني القاضي الفاضل عن قوله سبحانه وتعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا﴾ أين جواب (إذا)، وأين جواب (لو) في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ﴾ وعن مسائل كثيرة، ومع هذا فلا يقطع الكتابة والإملاء. وقال لي: ترجع إلى دمشق وتجري عليك الجرايات فقلت: أريد مصر فقال: السلطان مشغول القلب بأخذ الفرنج عكا وقتل المسلمين بها، فقلت: لا بد لي من مصر، فكتب لي ورقة صغيرة إلى وكيله بها، فلما دخلت القاهرة جاءني وكيله، وهو ابن سناء الملك، وكان شيخًا جليل القدر نافذ الأمر، فأنزلني دارًا قد أُزيحت عللها وجاءني بدنانير وغلة، ثم مضى إلى أرباب الدولة وقال هذا ضيف القاضي الفاضل. فدرت الهدايا والصلات من كل جانب، وكان كل عشرة أيام أو نحوها تصل تذكرة القاضي الفاضل إلى ديوان مصر بمهمات الدولة وفيها فصل يؤكد الوصية في حقي. وكان قصدي

في مصر ثلاثة: ياسين السيميائي، والرئيس موسى بن ميمون اليهودي، وأبو القاسم الشارعي، وكلهم جاؤوني. أما ياسين فوجدته محاليًا كذابًا مشعبذًا يشهد للشاقاني بالكيمياء ويشهد له الشاقاني بالسيمياء ويقول عنه: إنه يعلم أعمالًا يعجز موسى بن عمران عنها، وأنه يحضر الذهب المضروب متى شاء، وبأي مقدار شاء، وبأي سكة شاء، وإنه يجعل ماء النيل خيمة ويجلس فيه وأصحابه تحتها. وكان ضعيف الحال. وجاءني موسى فوجدته فاضلًا لا في الغاية، قد غلب عليه حب الرئاسة وخدمة أرباب الدنيا. قال وكنت ذات يوم بالمسجد وعندي جمع كثير فدخل شيخ رث الثياب نيِّر الطلعة مقبول الصورة فهابه الجمع ورفعوه فوقهم وأخذت في إتمام كلامي، فلما تصرَّم المجلس جاءني إمام المسجد وقال: أتعرف هذا الشيخ؟ هذا أبو القاسم الشارعي، فاعتنقته وقلت إياك أطلب، فأخذته إلى منزلي وأكلنا الطعام وتفاوضنا الحديث فوجدته كما تشتهي الألسن وتلذ الأعين. قال: وكنا إذا تفاوضنا الحديث أغلبه بقوة الجدل وفضل اللسن، ويغلبني بقوة الحجة وظهور المحجة. وأنا لا تلين قناتي لغمزه، ولا أحيد عن جادة الهوى والتعصب برمزه، فصار يحضرني شيئًا بعد شيء من كتب أبي نصر والإسكندر وثامسطيوس، يؤنس بذلك نفاري، ويلين عريكة شماسي، حتى عطفت عليه.

وشاع أن صلاح الدين هادن الفرنج وعاد إلى القدس، فقادت الضرورة إلى التوجه إليه، فأخذ من كتب القدماء ما أمكنه، وتوجه إلى القدس قال: فرأيت مَلِكًا عظيمًا يملأ العين روعة، والقلوب محبة، قريبًا بعيدًا سهلًا مجيبًا، وأصحابه يتشبهون به، يتسابقون إلى المعروف كما قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ وأول ليل حضرته وجدت مجلسًا حفلًا بأهل العلم يتذاكرون في أصناف العلوم وهو يحسن الاجتماع والمشاركة، ويأخذ في كيفية بناء الأسوار وحفر الخنادق، ويتفقَّه في ذلك ويأتي بكل معنى بديع. وكان مهتمًّا في بناء سور القدس وحفر خندقه، يتولى ذلك بنفسه وينقل

الحجارة على عاتقه، ويتأسى به جميع الناس الفقراء والأغنياء والأقوياء والضعفاء حتى العماد الكاتب والقاضي الفاضل.

قال: وكتب لي صلاح الدين بثلاثين دينارًا في كل شهر على ديوان الجامع بدمشق، وأطلق أولادُه، رواتب حتى تقرَّر لي في كل شهر مئة دينار، ورجعت إلى دمشق وأكببت على الاشتغال وإقراء الناس بالجامع. وبعد وفاة صلاح الدين عاد المترجَم له إلى مصر مع ابنه الملك العزيز. وكان في تلك المدة يقرئ الناس بالجامع الأزهر من أول النهار إلى نحو الساعة الرابعة، ووسط النهار يأتي من يقرأ الطب وغيره، وآخر النهار يرجع إلى الجامع الأزهر فيقرأ قوم آخرون. وأقام في القاهرة إلى أن ملك الملك العادل أبو بكر بن أيوب الديار المصرية وأكثر الشام والشرق وتفرقت أولاد أخيه الملك الناصر صلاح الدين، فتوجه إلى القدس وأقام بها مدة ثم عاد إلى دمشق ومكث بها زمنًا ينتفع الناس بعلمه، ثم سافر إلى حلب وقصد بلاد الروم وأقام بها سنين كثيرة، وكان في خدمة الملك علاء الدين داود بن بهرام صاحب أرزنجان، وكان مكينًا عنده عظيم المنزلة وله منه الجامكية الوافرة والافتقادات الكثيرة. ثم توجَّه إلى أرزن الروم ورجع إلى أرزنجان فكماخ فدبركي فملطية فحلب. وأقام بحلب يشتغل عليه الناس وكان له من شهاب الدين طغريل الخادم أتابك حلب جار حسن ثم خطر له أن يحج ويجعل طريقه على بغداد وأن يقدم بها للخليفة المستنصر بالله أشياء من تصانيفه ولما وصل بغداد مرض وتوفي بها بعد أن غاب عنها خمسًا وأربعين سنة.

ومن كلامه: ينبغي أن تحاسب نفسك كل ليلة إذا أويت إلى منامك وتنظر ما اكتسبت في يومك من حسنة فتشكر الله عليها وما اكتسبت من سيئة فتستغفر الله منها وتقلع عنها، وترتب في نفسك ما تعمله في غدك من الحسنات، وتسأل الله الإعانة على ذلك. وقال: أوصيك ألَّا تأخذ العلوم من الكتب وإن وثقت من نفسك بقوة الفهم، وعليك بالأستاذين في كل علم تطلب اكتسابه،

ولو كان الأستاذ ناقصًا فخذ عنه ما عنده حتى تجد أكمل منه، وعليك بتعظيمه وترحيبه، وإن قدرت أن تفيده من دنياك فافعل وإلا فبلسانك وثنائك. وإذا قرأت كتابًا فاحرص كل الحرص على أن تستظهره وتملك معناه وتوهَّم أن الكتاب قد عُدِم وأنك مستغنٍ عنه لا تحزن لفقده. وإذا كنت مكبًّا على دراسة كتاب وتفهُّمه فإياك أن تشتغل بآخر معه، واصرف الزمان الذي تريد صرفه في غيره إليه. وإياك أن تشتغل بعلمين دفعة واحدة، وواظب على العلم الواحد سنة أو سنتين أو ما شاء الله، فإذا قضيت منه وطرك فانتقل إلى علم آخر، ولا تظن أنك إذا حصَّلت علمًا فقد اكتفيت، بل تحتاج إلى مراعاته لينمو ولا ينقص، ومراعاته تكون بالمذاكرة والتفكر واشتغال المبتدئ بالتحفظ والتعلم ومباحثة الأقران واشتغال العالم بالتعليم والتصنيف. وإذا تصديت لتعليم علم أو للمناظرة فيه فلا تمزج به غيره من العلوم، فإن كل علم مكتف بنفسه مستغنٍ عن غيره، فإن استعانتك في علم بعلم عجزٌ عن استيفاء أقسامه، كمن يستعين بلغة في لغة أخرى إذا ضاقت عليه أو جهل بعضها.

قال: وينبغي للإنسان أن يقرأ التواريخ وأن يطلع على السير وتجارب الأمم فيصير بذلك كأنه في عمره القصير قد أدرك الأمم الخالية وعاصرهم وعاشرهم وعرف خيرهم وشرهم. قال: وينبغي أن تكون سيرته سيرة الصدر الأول؛ فاقرأ سيرة النبي عليه الصلاة والسلام وتتبع أفعاله وأحواله واقتف آثاره وتشبَّه به ما أمكنك وبقدر طاقتك، وإذا وقفت على سيرته في مطعمه ومشربه وملبسه ومنامه ويقظته وتمرُّضه وتطبُّبه وتمتُّعه وتطيُّبه ومعاملته مع ربه ومع أزواجه وأصحابه وأعدائه وفعلت اليسير من ذلك فأنت السعيد كل السعيد.

قال: وينبغي أن تكثر إيهامك لنفسك ولا تحسن الظن بها، وتَعْرض خواطرك على العلماء وعلى تصانيفهم، وتَثَبَّتْ ولا تعجلْ ولا تعجبْ؛ فمع العجب العثار ومع الاستبداد الزلل، ومن لم يعرق جبينه إلى أبواب العلماء

لم يعرق في الفضيلة، ومن لم يخجلوه لم يبجله الناس، ومن لم يبكتوه لم يُسوَّد، ومن لم يحتمل ألم التعلُّم لم يَذُقْ لذة العلم، ومن لم يكدح لم يفلح. وإذا خلوت من التعلم والتفكُّر فحرك لسانك بذكر الله وبتسابيحه وخاصة عند النوم فيتشرَّبه لبُّك ويتعجَّن في خيالك وتتكلم به في منامك، وإذا حدث لك فرح وسرور ببعض أمور الدنيا فاذكر الموت وسرعة الزوال وأصناف المنغِّصات، وإذا حزبك أمر فاسترجع، وإذا اعترتك غفلة فاستغفر، واجعل الموت نصب عينيك والعلم والتقى زادك في الآخرة. وإذا أردت أن تعصي الله فاطلب مكانًا لا يراك فيه، واعلم أن الناس عيون الله على العبد، يريهم خيره وإن أَخفاه، وشرَّه وإنْ سَتَرَه، فباطنه مكشوف لله، والله يكشفه لعباده، فعليك أن تجعل باطنك خيرًا من ظاهرك وسِرَّك أصحَّ من علانيتك، ولا تتألم إذا أعرضت عنك الدنيا، فلو عرضت لك لشغلتك عن كسب الفضائل، وقلما يتعمق في العلم ذو الثروة إلا أن يكون شريف الهمة جدًّا أو أن يثري بعد تحصيل العلم. وإني لا أقول إن الدنيا تُعْرض عن طالب العلم بل هو الذي يعرض عنها لأن همته مصروفة إلى العلم فلا يبقى له التفات إلى الدنيا، والدنيا إنما تحصل بحرص وفكر في وجوهها، فإذا غفل عن أَسبابها لم تأته. وأيضًا فإن طالب العلم تشرف نفسه عن الصنائع الرذلة والمكاسب الدنية وعن أصناف التجارات، وعن التذلل لأرباب الدنيا والوقوف على أبوابهم ولبعض إخوانِنا بيت شعر:

من جد في طلب العلوم أفاته  شرف العلوم دناءة التحصيل

وجميع طرق مكاسب الدنيا تحتاج إلى فراغ لها وحذق فيها وصرف الزمان إليها، والمشتغل بالعلم لا يسعه شيء من ذلك، وإنما ينتظر أن تأتيه الدنيا بلا سبب وتطلبه من غير أن يطلبها طلب مثلها، وهذا ظلم منه وعدوان، ولكن إذا تمكن الرجل في العلم وشهر به خطب من كل جهة وعرضت عليه المناصب وجاءته الدنيا صاغرة، وأخذها وماء وجهه موفور وعرضه ودينه

مصون. واعلم أن للعلم عبقة وعَرْفًا ينادي على صاحبه، ونورًا وضياء يشرق عليه ويدل عليه، كتاجر المسك لا يخفى مكانه ولا تجهل بضاعته، وكمن يمشي بمشعل في ليل مدلهم، والعالم مع هذا محبوب أَينما كان وكيفما كان، لا يجد إلا من يميل إليه ويؤثر قربه ويأنس به ويرتاح بمداناته. واعلم أن العلوم تغور ثم تفور، تفور في زمان وتفور في زمان بمنزلة النبات أو عيون المياه، وتنتقل من قوم إلى قوم ومن صقع إلى صقع.

عالم عظيم استجمع شروط العلم في ذاته، وانقطع إلا عما شغل قلبه به من صغره من الدرس والتدريس والتأليف والتصنيف، فَطَم نفسه عن المظاهر التي لا تأتي المغرم بها إلا من طريق الدولة والسلطان، ولا يتصدر في المجالس إلا بقوة الملوك وما يفضلون به عليه من المراتب. عظم موقعه من نفوس ملوك عصره وكانوا يغتبطون إذا رأى نزول ساحتهم وقبول أعطياتهم يستميلون قلبه بما يرضيه، ليتركوا له وقته يصرفه كما يحب في بث العلم في الناس.

في العادة أن تعظم شهرة العالم بعد وفاته، وهذا على ما رأينا ضَؤُلت شهرته عما كانت عليه في حياته. وكما الباعث على ذلك فقدان كتبه إلا جزءًا صغيرًا من كتاب، وما صنفه من الأسفار غير قليل، وما كتب له البقاء منها أقل من القليل. دثرت كتبه لأنها في موضوعات فلسفية لا يحبّها الفقهاء والمحدثون، والحكماء في ملتنا أفراد يُعَدُّون على الأصابع في عصور بعينها يعانونها في سرّ ويكتمون عن الدهماء أمرهم، فسبحان من له هذا السر في خلقه.

(٤٣)

# ابن أبي أصيبعة

## موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدي الخزرجي

(٦٦٨)

هو من الخزرج من ولد سعد بن عبادة. ولد بدمشق وقرأ مبادئ الطب على والده، ثم اتصل بعلماء أجلاء أخذ عنهم التاريخ والأدب والطب. وممن تلقى عنهم الطب مهذب الدين الدخوار الذي انتهت إليه رئاسة صناعة الطب في عصره. ولما أقام الدخوار بدمشق شرع في تدريس صناعته، فاجتمع إليه خلق كثير من أعيان الأطباء وغيرهم يقرؤون عليه، وأقام موفق الدين بدمشق لأجل القراءة عليه، وكان يشتغل عليه في المعسكر لمَّا كان أبوه والحكيم الدخوار في خدمة السلطان. قرأ على الدخوار كتب جالينوس ولازمه في وقت معالجته للمرضى فتدرب معه وباشر عندئذٍ أعمال صناعة الطب، وكان مع شيخه لمداواة المرضى في البيمارستان النوري الحكيم عمران من أعيان الأطباء وأكابرهم في المداواة والتصرف في أنواع العلاج، فتضاعفت الفوائد المقتبسة من اجتماعهما ومما كان يجري بينهما من الكلام في الأمراض ومداواتها ومما كانا يصفانه للمرضى.

فالدخوار هو الذي تخرج به المؤلِّف في الطب واقتبس في المعالجة فوائده وفوائد الحكيم عمران. أما شيوخه في الأدب والتاريخ وغيرهما فلم نعرفهم. وكان مبرزًا في الأدب ينثر وينظم، اشتهر بنظمه من مدحه صدور صناعته، وكان يقول الشعر على البديهة ويجتمع إلى الشعراء، ومن أصدقائه

فتيان الشاغوري من أكبر شعراء دمشق في عصره، ومن شعره قصيدة يتشوَّق فيها إلى دمشق ويمدح موفق الدين عبد السلام.

قال فيها:

لعل زمانًا قد تقضى بجلق ... يعود وتدنو الدار بعد التفرق
وإن تسمح الأيام من بعد جورها ... بعدل وأني بالأحبة نلتقي
فكم لي إلى أطلالها من تشوف ... وكم لي إلى سكانها من تشوق
ترنحني الذكرى إليها تشوقًا ... كما رنحت صرف المدام المعتق
ومن عجب نار اشتياقي بأضلعي ... لها لهب من دمعي المترقرق
لقد طال عهدي بالديار وأهلها ... وكم من صروف البين قلبي قد لقي
ولو كان للمرء اختيار وقدرة ... لقد كان من كل الحوادث يتقي
ولكنها الأقدار تحكم في الورى ... وتقضي بأمر كنهه لم يحقق

ومن قصيدة له في الوزير الصاحب أمين الدولة أبي الحسن بن غزال وهو الذي أهدى إليه كتاب الطبقات:

فؤادي في محبتهم أسير ... وأنَّى سار ركبهم يسير
يحنُّ إلى العُذيْب وساكنيه ... حنينًا قد تضمنه سعير
ويهوى نسمة هبت سُحيرا ... بها من طيب نشرهم عبير
وإني قانع بعد التداني ... بطيف من خيالهم يزور
ومعسول اللّمى مر التجني ... يجور على المحب ولا يجير
تصدى للصدود ففي فؤادي ... بوافر هجره أبدًا هجير
وقد وصلت جفوني فيه سهدي ... فما هذي القطيعة والنفور...

وهبط موفق الدين مصر وأكمل صناعته في المستشفى الناصري، ثم انتقل إلى صرخد في جبل حوران وكان مالكها عز الدين أيبك، وفي صرخد هلك

ودفن، وإلى صرخد كتب إليه شرف الدين الرحبي يحثُّه على العودة إلى دمشق ويُكَرِّه إليه البلد الذي نزل به قال:

موفق الدين ما ذا السهو منك على ... ما نلت من رتبة في العلم والأدب
أتعبت نفسك بالنزر الحقير لقد ... أرخصتها بعد طول الجد والدأب
أقمت في بلد يزري بساكنه ... لا يرتضيه لبيب من ذوي الفطن
ناءٍ عن الخير ذي جدب فليس به ... سوى صخور وحَرٍّ منه ملتهب
مضيعًا فيه عمرًا ما له عوض ... إذا تصرَّم وقت منه لم يؤب
أتحسب العمر مردودًا تصرمه ... هيهات أن يرجع الماضي من الحقب
أم تحسب العمر ما ولت لذاذته ... ينال بعد ذهاب العمر بالذهب
إذا تولى شباب المرء في نغص ... فما له في بقايا العمر من أرب
لو كان ما أنت فيه مكسبًا لغنى ... لما وفى بذهاب العمر في نصب
فكيف مع قلة الجاري وخسته ... والبعد عن كل ذي فضل وذي أدب
فَعُدْ إلى جنة الدنيا فقد برزت ... لمجتلي الحسن في أثوابها القشب
ولا تقمْ في سواها مع حصول غنى ... فالعمر فيما سواها غير محتسب
واقطع زمانك طيبًا في محاسنها ... وعد إلى اللهو واللذات والطرب

إلى آخر القصيدة فجاوبه ابن أبي أصيبعة بقصيدة مدحه بها ومن أبياتها:

وإنني بعدما جد الفراق بنا ... والعبد لم يصف لي عيش ولم يطب
وكيف يلتذ عيشًا من أتاح به ... هذا لزمان إلى قوم من الحطب
لم يعرفوا قدر ذي علم لجهلهم ... وليس ذلك في الجهال بالعجب
أتيت من ضاع فضلي في فِناه وهل ... غباوة العجم تدري فطنة العرب

إلى آخر ما استدللنا به على أنه لم يكن في صرخد على فراش من الورد،

وأن الحاجة أو الشيخوخة دفعته إلى الرضا بالاستخدام عند صاحبها الأعجمي في بلد غلب الجهل على أهله.

هذا ما كان من نشأته وتمحضه لصناعة الطب، وكان من أمره بالبراعة في التأليف أنه ألف كتابه النفيس «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» واسطة عقد تآليفه، والدرة اليتيمة التي خلد فيها على الأيام ذكره، وذلك في سنة **٦٤٣** وهو في سن الكهولة، وبقي خمسًا وعشرين سنة يمحو ويثبت كما فعل ابن خلكان في «وفيات الأعيان» ترجم فيه للموافق والمخالف، وأنصف جميع من ترجم لهم كأنهم أبناء مذهبه، أو كأنهم كلهم أبناء مذهب واحد وهو مذهب العلم. وأودعه نكتًا وعيونًا في مراتب المتميزين من الأطباء القدماء والمحدثين ومعرفة طبقاتهم على توالي أزمنتهم وأوقاتهم وأودعه نبذة من أقوالهم وحكاياتهم ونوادرهم ومحاوراتهم وشيئًا من أسماء كتبهم ليستدل بذلك على ما خصهم الله تعالى به من العلم، قال: فإن كثيرًا منهم وإن قدمت أزمانهم وتفاوتت أوقاتهم فإن لهم علينا من النعم فيما صنعوه، والمنن فيما قد جمعوه في كتبهم من علم هذه الصناعة، ما هو تفضُل المعلم على تلميذه، والمحسن إلى من أحسن إليه.

قسم كتابه إلى خمسة عشر بابًا: الباب الأول في كيفية وجود صناعة الطب وأول حدوثها. الثاني في طبقات الأطباء الذين ظهرت لهم أجزاء من صناعة الطب وكانوا المبتدئين بها وهم ثلاثة. الثالث في الأطباء اليونانيين الذين هم من نسل اسقيلبيوس وهم ستة. الرابع في الأطباء اليونانيين الذين أذاع أبقراط فيهم صناعة الطب وهم تسعة. الخامس في الأطباء الذين كانوا منذ زمان جالينوس وقريبًا منه. السادس في الأطباء الإسكندرانين ومن كان في أزمنتهم من الأطباء النصارى وغيرهم. السابع الأطباء الذين كانوا في أول ظهور الإسلام من أطباء العرب وغيرهم وهم عشرة. الثامن في الأطباء السريانيين الذين كانوا في ابتداء ظهور دولة بني العباس وهم أربعة وثلاثون.

التاسع الأطباء النقلة الذين نقلوا كتب الطب وغيره من اللسان اليوناني إلى اللسان العربي وذكر الذين نقلوا لهم وهم سبعة وثلاثون. العاشر الأطباء العراقيون وأطباء الجزيرة وديار بكر وهم اثنان وثمانون طبيبًا. الحادي عشر الأطباء الذين ظهروا في العجم وهم ثلاثة وعشرون. الثاني عشر الأطباء الذين كانوا في الهند وهم ستة. الثالث عشر الأطباء الذين ظهروا في بلاد المغرب وأقاموا بها وهم تسعة وثمانون. الرابع عشر الأطباء المشهورون من أطباء مصر وهم سبعة وخمسون. الخامس عشر الأطباء المشهورون من أطباء الشام وهم تسعة وخمسون.

ورتَّب من ترجم لهم على سِنِيِّ وَفَياتهم، ولا تُعَدُّ هذه الطبقات كتابًا للطب والأطباء بل كتاب الحكمة والحكماء والمفننين من العلماء، يقع القارئ فيه على أشياء في مدنية الإسلام وعيون المسائل الصحية والعلمية وأسماء التراجمة عن اليونانية والسريانية وغيرهما تتراوح فيه بين التعريف بالأطباء والفلاسفة والحكم المستعذبة والأشعار اللطيفة والنثر البديع، فهي كتاب أدب ومحاضرة كما هي كتاب حكمة وطب، تنتقل بين الاستفادة من هذه وترويح النفس بتلك، إلى غير ذلك من الفوائد التاريخية والاجتماعية والطبية عدا ما فيه من النكات والفكاهات.

ومن فكاهاته ما رواه عن يوحنا بن ماسويه الطبيب العالم المشهور، وكان فَكِهًا ذا دعابة وظرف قال: شكى إليه رجل جَرَبًا قد أضر به فأمره بفصد الأكحل من يده اليمنى، فأعلمه أنه قد فعل. فأمره بفصد الأكحل أيضًا من يده اليسرى، فذكر أنه فعل. فأمره بشرب المطبوخ فقال: قد فعلت. وأمره بشرب الأصطمخيقون، فأعلمه أنه قد فعل. فأمره بشرب ماء الجبن أسبوعًا وشرب مخيض البقر أسبوعين، فأعلمه أنه قد فعل. فقال له: لم يبق شيء مما أمر به المتطببون إلا وقد ذكرت أنك فعلته وبقي شيء مما لم يذكره بقراط ولا جالينوس وقد رأيناه يعمل على التجربة كثيرًا فاستعمله، فإني أرجو أن

ينجع علاجك إن شاء الله. فسأله ما هو؟ فقال: ابْتَغِ زوجَيْ قراطيس وقطعها رقاعًا صغيرة واكتب في كل رقعة: رحم الله من دعا لمبتلًى بالعافية، وألق نصفها في المسجد الشرقي بمدينة السلام، والنصف الآخر في المسجد الغربي وفرِّقها في المجالس يوم الجمعة، فإني أرجو أن ينفعك الله بالدعاء إذ لم ينفعك بالعلاج.

توسَّع المؤلف في حرية القول إلى التي لم يصل زمانه إلى أوسع منها وحرص على نقل الشعر ولا سيما شعر الأطباء، وفيه المستملح وفيه العالي، ولكثرة غرامه بالحرية نشر طائفةً من الشعر الذي نصفه بالأدب المكشوف، أراد أن يجعل كتابه مرجعًا كبيرًا وموردًا فائضًا في كل أطروفة وأطروبة. ولما أهدى نسخًا لبعض من يغلب عليهم الوقار حذف هذه الزائدات، ومن رآهم يحبون الأشياء على أصلها استنسخ لهم من كتابه نسخة تامة، وهذا هو السبب في اختلاف النسخ التي ظفر بها طابع الكتاب ـ قاله أستاذي الجزائري.

والغالب أن الأطباء ومهنتهم تقتضيهم النظر في أعضاء البدن كافة لا يتحرجون، كسائر الشعراء، من النظم في الأدب المكشوف تسلية لأنفسهم ولغيرهم في صناعة صعبة تحتاج إلى مرح ودعابة، وقد وقع لهم في عهد المدنية العربية من ذلك أشياء كثيرة قصد بها إدخال السرور على النفوس، ولولا أن بعضهم يشمئزون من ذكر هذه المسائل ما توقفت عن أن أتقدم أول المؤلفين في إثبات ما قالوا ما دام أجدادنا لم يحجموا عن إنشادها وتدوينها أيام عزة الإسلام.

ومن حرية المؤلف أنه نشر النسخة التي كتبها ابن حمويه المتصوف لعمه رشيد الدين علي بن خليفة بإلباسه خرقة التصوف. ولعله قصد بإثباتها في مصنفه لينعي على بعض أهل هذه الطريقة تخريفهم، خصوصًا وقد ادعى ابن حمويه أنه أخذها عن والده عن جده وأنه أخذها عن الخضر عليه السلام،

والخضر عن رسول الله ﷺ، والخضر كالعنقاء والمهدي ما جاءا قط. وبنقله هذه النسخة فضح معتقدًا واهيًا بقي يجوز على عقول العامة قرونًا.

لموفق الدين عدة كتب لم تصل إلينا ووصل إلينا طبقات الأطباء، وهو بحقٍّ من الأمهات المعتبرة، حُفظت فيه مطالب مهمة جدًّا لولاه لضاعت على العلم العربي.



(٤٤)

# ابن خِلِّكَان

## شمس الدين أحمد الإربلي

(٦٨١)

قاضي القضاة الكَمَلَة، شيخ المؤرخين، عَلَمُ المحقِّقين، المتفنِّن في العلوم، البارع في تصنيفه، العظيم في تفكيره، المُجيد في شعره ونثره، ينمُّ ما كتب على ذوق عالٍ في الأدب وعلى اطلاعه الواسع في جميع فروعه، ماهر بالمناسبات والمقارنات، صاحب اليد الباسطة في النقد، وليس ممن يقنعه النقل المجرد، يجمع بين معرفة نفسية الناس ومعرفة التاريخ ومعرفة الشريعة ومعرفة السياسة ومعرفة الأدب، والنفوذ أبدًا إلى الحقائق ومعرفة العلوم المنوعة التي أعانته على التجويد في تأليفه.

ولد سنة ثمان وستمئة في مدينة إربل بمدرسة سلطانها مظفر الدين بن زين الدين، وكان والده يتولى التدريس فيها. وقيل في نسبه أنه ينسب إلى البرامكة فهو أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن خلكان بن باول بن عبد الله بن شاكل بن الحسين بن مالك بن جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك. قال ابن العديم: إنه من بيت معروف بالفقه والمناصب الدينية. وقال غيره: كان إمامًا عالمًا فقيهًا أديبًا شاعرًا مُفْتَنًّا، مجموع فضائل، معدوم النظير في علوم شتى، حجة فيما ينقله، محقِّقًا لما يورده، متفرِّدًا في علم الأدب والتاريخ، وكان ولي قضاء دمشق مرتين ثم عزل وقدم القاهرة وأفتى ودرَّس ودام بها نحو سبع سنين ثم أعيد إلى قضاء دمشق وسر الناس بعوده ومدحته الشعراء بعدة قصائد. من ذلك ما قال رشيد الدين الفارقي:

أنت في الشام مثل يوسف في مصـ ـر وعندي أن الكرامَ جناس
ولكل سبع شداد وبعد السـ ـبع عامٌ فيه يغاث الناس

وقال سعد الدين الفارقي:

أذقت الشام سبع سنين جدبًا غداة هجرته هجرًا جميلًا
فلما زرته من أرض مصر مددت عليه من كفَّيْك نيلا

وكانت مدة مقامه بدمشق عشر سنين كوامل لا تزيد يومًا ولا تنقص يومًا، وعاد إلى القاهرة فصادف فيها كتبًا كان يؤثر الوقوف عليها فطالعها وأَخذ منها حاجته. «وهو أول من جدد في أيامه قضاء القضاة من بقية المذاهب، فاستقلوا بالأحكام بعد ما كانوا يكونون من نوابه»، فأُثرت هذه المأثرة للظاهر بيبرس وكان بينه وبينه صلات وُدٍّ وشغل. والظاهر هو الذي جعل لكل مذهب من المذاهب الأربعة المعتمدة عند أهل السنة والجماعة قاضيًا يقضي بينهم.

ذكر في مقدمة كتابه أن ما دعاه إلى جمع تاريخه أنه كان مولعًا بالاطلاع على أخبار المتقدمين من أولي النباهة وتواريخ وَفَياتهم وموالدهم ومن جمع منهم كل عصر فوقع له منه شيء حمله على الاستزادة وكثرة التتبع، فعمد إلى مطالعة الكتب الموسومة بهذا الفن وأخذ من أقوال الأئمة المتقنين له ما لم يجده في كتاب فرتَّبه على حروف المعجم، ولم يذكر أحدًا من الصحابة ولا من التابعين إلا جماعة يسيرة تدعو حاجة كثير من الناس إلى معرفة أحوالهم، وكذلك الخلفاء فإنه لم يذكر أحدًا منهم، وذكر جماعة من الأفاضل الذين شاهدهم ونقل عنهم أو كانوا في زمنه ولم يرهم، ولم يَقْصر مختصره على طائفة مخصوصة من العلماء أو الملوك أو الأمراء أو الوزراء أو الشعراء، بل كلّ مَن له شهرة بين الناس، وقَيَّد من الألفاظ ما لا يؤمن تصحيفه، وذكر من محاسن كل شخص ما يليق به من مكرمة أو نادرة أو شعر أو رسالة ليتفكَّه به متأمِّله ولا يراه مقصورًا على أسلوب واحد فيملّه.

والدواعي إنما تنبعث لتصفح الكتاب إذا كان مفننًا، وأسماه «وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان» مما ثبت بالنقل أو السماع وأثبته البيان.

وطلب في مقدمة الكتاب وخاتمته ممن وقف عليه من أهل الدراسة بهذا الشأن ورأى فيه خللًا فهو المُثاب في إصلاحه بعد التثبت فيه. وطلب في آخر كتابه ممن وقف عليه من أهل العلم ورأى فيه شيئًا من الخلل ألَا يعجل بالمؤاخذة فيه، قال: فإني توخيت فيه الصحة حسبما ظهر لي مع أنه كما يقال: أبى الله أن يصح إلا كتابه. أي إنه بذل الجهد في التدقيق، فإن ظهر ما فيه خلل بعد ذلك فإنه أجاز العالم المطلع عليه أن يُصلحه، وأي أمانة للعلم أعظم من هذه الأمانة.

أُعجب علماء المشرقيات بكتاب الوفيات وقالوا: إنه ليس في لغاتهم من كتب التراجم ما يماثله في التحقيق، وما أُعجبوا به إلا لأنه نَشَره لما حقق كل ما فيه وتمثله وهضمه، فهو كتاب في التحقيق معجب لا يحتاج مطالِعُهُ عند تلاوة ترجمةٍ من الترجمات إلى مزيد، إذا انتهى من الترجمة شرح ما يخشى أن يعسر فهمه على القارئ من ألفاظ لغوية غامضة وكلمات قد تكون مبهمة على القارئ في الجغرافيا والتاريخ والنسب.

وعندي أن هذا هو الكتاب المحرر، وهكذا يجب أن تكون الكتب؛ يتعب المؤلف أعوامًا طويلة في تأليفه ليخرجه كسبيكة الذهب فيستريح من يتناوله بعده للاستفادة، ولو كانت كل كتبنا على هذا المثال في التحقيق لسقط قسم كبير من المؤلفات وبقي السليم المفيد والزبدة الخالصة.

قالوا: كان فيه سكون الطائر المعهود في القضاة وعدم التسرع بما يعرض له بادئ الرأي، لا يبت في فصل القضايا إذا رأى في حسمها ضررًا، وكذلك فعل بتأليفه فما أخرجه للملأ إلا بعد مضغه وهضمه وتذوقه، وهي مزية امتاز بها بعض المؤلفين الذين كتب الخلود لمؤلفاتهم. وحسنة أخرى كانت تبدو في كتابه وهي أنه استخدم كل ما حواه صدره من المعارف وما بلغه من عظم

التجارب في القضاء في تأليف كتابه الممتع فقد يكون المؤرخ عند نفسه أنه تام الأدوات بما أحكمه من فنه فيكبو في فنون كانت تلزمه للتحقيق، يدرك هذا النقص كبار المحقِّقين.

وعلى استغراق أوقات ابن خلكان في «فصل القضايا الشرعية والأحكام الدينية» وجد وقتًا لمطالعة القدر الممكن من الأمهات يزين بنصوصها كتابه، ووجد وقتًا للتدريس في عدة مدارس بدمشق لم تجتمع لغيره، ولم يبق معه في آخر الوقت سوى الأمينية، وبيد ابنه كمال الدين موسى سوى النجيبية. ولعل لاستئثاره بعدة مدارس على ما لم يجتمع لغيره دخلًا في إمالة بعض الوجوه عنه، ففتح المجال لحساده أن يزنّ بأمور هو منها بريء، ذلك أن مشايخ المدارس أنكروا ولا شك هذا الطمع من قاضي القضاة، وربما كان باكتفائه بمدرسة واحدة أكبر داع إلى تجويد التدريس والإتقان في العمل، وإرضاء بعض المدرسين بتوزيع هذه التداريس عليهم خير من ضمها في يد واحدة.

وترجم له ابن الكتبي في فوات الوفيات الذي جعله ذيلًا على كتاب ابن خلكان ترجمة من يفرح بالمساوئ ويُغضي عن المحاسن واتهمه بحب المُرْد، وأورد له بيتين يقال إنه قالهما في ابن صاحب حماة وربما كان يقصد النكتة، وسكت عن محاسنه، ولم يذكر كتاب وفيات الأعيان، وأين الأصل من الفرع، الوفيات كله تحقيق والفوات جلُّه تلفيق.

وروى الكتبي: أن ابن خلكان كان في المدرسة العادلية وبات ليلة يدور حول بركتها ويكرر هذين البيتين إلى أن أَصبح وتوضأنا وصلينا والبيتان هما:

أنــــا والله هــــالــــك ... آيــس مــن ســلامــتــي
أو أرى الــقــامــة الــتــي ... قــد أقــامــت قــيــامــتــي

ونقل له أبياتًا كلها من الغراميات منها:

وسرب ظباء في غدير تخالهم ... بُدورًا بأفق الماء تبدو وتغرب
يقول عذولي والغرام مصاحبي ... أما لك عن هذين الصبابة مذهب

وفي دمك المطلول خاضوا كما ترى فقلت له دعهم يخوضوا ويلعبوا

ومن شعره:

يا رب إن العبد يخفي عيبه فاستر بحلمك ما بدا من غيبه

ولقد أتاك وماله من شافع لذنوبه فاقبل شفاعة شيبه

ومن شعره:

تمثلتمو لي والديار بعيدة فخُيِّل لي أن الفؤاد لكم مغنى

وناجاكمو قلبي على البعد والنوى فأوحشتمو لفظًا وآنستمو معنى



(٤٥)

# لسان الدين ابن الخطيب

## أبو عبد الله محمد بن عبد الله السلماني

(٧٧٦)

أصله من لوشة على مرحلة من غرناطة، كان له بها سلف معروفون في وزارتها، ونشأ لسان الدين بغرناطة وقرأ وتأدب على مشيختها، واختص بصحبة الحكيم يحيى بن هذيل وأخذ عنه العلوم الفلسفية، وبرز في الطب وانتحل الأدب، وامتدح السلطان أبا الحجاج من ملوك بني الأحمر فرقّاه إلى خدمته وأثبته في ديوان الكتَّاب ببابه، مرؤوسًا بابن الحباب شيخ العُدوتين في النظم والنثر وسائر العلوم الأدبية. ولما هلك ابن الحباب ولي السلطان محمد بن الخطيب رياسة الكتَّاب ببابه وثنَّاه بالوزارة ولقَّبه بها، فاستقل بذلك وصدرت عنه غرائب من الترسيل في مكاتبات جيرانهم من ملوك العدوة، وسفر عن سلطانه إلى ملك بني مرين بالعدوة معزِّيًا بأبيه فجلَّى في أغراض سفارته.

ثم هلك السلطان أبو الحجاج وبويع ابنه محمد بالأمر لوقته، فأقر ابنَ الخطيب بوزارته كما كان لأبيه، واتخذ لكتابته غيره، وجعل ابن الخطيب رديفًا له في أمره وتشاركا في الاستبداد معًا، ثم بعثوا الوزير ابن الخطيب سفيرًا إلى ملك بني مرين مستمدين له على عدوهم الطاغية على عادتهم مع سلفه، فلما قدم على السلطان ومثل بين يديه تقدم الوفد الذي معه من وزراء الأندلس وفقهائها استأذنه في إنشاد شيء من الشعر يقدّمه بين يدي نجواه فأذن له وأنشد وهو قائم، أبياتًا اهتز السلطان لها، فأذن له في الجلوس وقال له

قبل أن يجلس: ما ترجع إليهم إلا بجميع عطائهم. ثم أثقل كاهلهم بالإحسان وردهم بجميع مطالبهم. قال القاضي أبو القاسم الشريف: لم يُسمع بسفير قضى سفارته قبل أن يسلم على السلطان إلا هذا.

وبعد ذلك اعتقل الرئيس القائم بالدولة هذا الوزير ابن الخطيب وضيق عليه في محبسه، إلى أن شفع فيه. ثم سار في ركاب السلطان إلى وادي آش قادمين على السلطان أبي سالم، فأرغد هذا عيش ابن الخطيب في الجراية والإقطاع، ثم استأذن السلطان في التحوُّل إلى جهات مراكش والوفود على آثار الملك بها، فأذن وكتب إلى العمال بإتحافه، فبادروا في ذلك وحصل منه على حظ. وعندما مر بسلا في قفوله من سفره دخل مقبرة الملوك بسالة ووقف على قبر السلطان أبي الحسن وأنشد قصيدته على روي الراء الموصولة يرثيه ويستثير به استرجاع ضياعه بغرناطة مطلعها:

إن بـان منـزلـه وشـطـت داره ... قـامـت مـقـام عـيـانـه أخـبـاره

قسّـم زمـانـك عـبـرة أو غـبـرة ... هـذا ثـراه وهـذه آثـاره

فكتب السلطان أبو سالم في ذلك إلى أَهل الأندلس بالشفاعة فشفعوه واستقر هو بسلا منتبذًا عن سلطانه طول مقامه بالعدوة. ثم عاد السلطان المخلوع إلى ملكه بالأندلس فاستقدم ابن الخطيب من سلا ورده إلى منزلته كما كان، وبعد ذلك فصل من الوزارة، ثم أعيد إلى مكانه من الدولة من علو يده وقبول إشارته. وأدركته الغيرة من عثمان بن يحيى مقدم القوم في الدولة فأنكر على السلطان الاستكفاء به والتخوف من هؤلاء الأعياص على ملكه، فحذره السلطان وأخذ في التدبير عليه حتى نكبه وأباه وإخوته وأودعهم المطبق ثم غربهم بعد ذلك، وخلا لابن الخطيب الجو وغلب على هوى السلطان ودفع إليه تدبير المملكة، وخلط بينه وبين ندمائه وأهل خلوته، وانفرد ابن الخطيب بالحلّ والعقد، وانصرفت إليه الوجوه وعلقت عليه الآمال،

وغشي بابه الخاصة والكافة وغصت به بطانة السلطان وحاشيته، فتوافقوا على السعاية فيه وقد صمّ السلطان عن قبولها.

وفي خلال ذلك استحكمت نفرة ابن الخطيب لما بلغه عن البطانة من القدح فيه والسعاية، وربما خُيل إليه أن السلطان مال إلى قبولها وأنهم قد أحفظوه عليه، فأجمع التحول عن الأندلس إلى المغرب، فسار إليها في ثلة من فرسانه، ومعه ابنه عليّ الذي كان من خالصة السلطان، فأجاز إلى سبتة وتلقَّاه السلطان بأنواع التكرمة، فاهتزت له الدولة، وأركب السلطان خاصته لتلقيه وأحله بمجلسه بمحل الأمن والغبطة، ومن دولته بمكان الشرف والعزة، وطلب إلى صاحب الأندلس أهله وولده فجاء بهم على أكمل الحالات من الأمن والتكرمة. ثم لغط المنافسون له في شأنه، وأغروا سلطانه بتتبع عثراته، وشاع على ألسنة أعدائه كلمات منسوبة إلى الزندقة أحصوها عليه ونسبوها إليه، ورفعت إلى قاضي الحضرة فاسترعاها وسجل عليه بالزندقة، وراجع صاحب الأندلس رأيه فيه وبعث القاضي إلى ملك العدوة في الانتقام منه وإمضاء حكم الله فيه فصمَّ لذلك، وأنف لذمته أن تخفر ولجواره أن يردى، وقال لهم: هلا انتقمتم وهو عندكم وأنتم عالمون بما كان عليه، وأما أنا فلا يخلص إليه بذلك أحد ما كان في جواري. ثم وفر الجراية والإقطاع له ولبنيه ولمن جاء من فرسان الأندلس في جملته.

فلما هلك سلطان العدوة سار هو في ركاب الوزير أبي بكر بن غازي القائم، بالدولة فنزل فاس واستكثر من شراء الضياع وتأنق في بناء المساكن واغتراس الجنات، وحفظ له القائم بالدولة الرسوم التي رسمها له السلطان المتوفَّى. ولما استولى السلطان أبو العباس على البلد الجديد دار ملكه قُبض على ابن الخطيب وأودعوه السجن وطيَّروا بالخبر إلى السلطان ابن الأحمر فبعث كاتبه ووزيره بعد ابن الخطيب ابن زمرك فقدم على السلطان أبي العباس وأحضر ابن الخطيب بالمشورة في مجلس الخاصة وأهل الشورى، وعرض

عليه بعض كلمات وقعت له في كتابه، فعظم عليه النكير فيها، فوبِّخ ونكِّل وامتُحِن بالعذاب بمشهدٍ ذلك الملأ ثم تُلَّ[(١)] إلى محبسه واشتوروا في قتله بموجب تلك المقالات المسجلة عليه، وأفتى بعض الفقهاء فيه. ودس سليمان بن داود رديف وزير السلطان لبعض الأوغاد من حاشيته بقتله، فطوَّقوا السجن ليلًا ومعهم زعانفة[(٢)] جاؤوا في لفيف الخدم مع سفراء السلطان ابن الأحمر وقتلوه خنقًا في محبسه، وأخرجوا شِلْوَهُ من الغد، فدفن ثم أصبح من الغد على شأفة قبره طريحًا، وقد جمعت له أعواد وأضرمت عليه نار فاحترق شعره واسود بشره وأعيد إلى حفرته، وكان في ذلك انتهاء محنته. هذا ما قاله ابن خلدون وأتبعه بأن الناس عجبوا من هذه السفاهة التي جاء بها سليمان واعتدوها من هناته وعظم النكير فيها عليه وعلى قومه وأهل دولته. وكان أيام امتحانه بالسجن يتوقع مصيبة الموت فتجيش هواتفه بالشعر يُبكي نفسه. ومما قال في ذلك:

بعدنا وإن جاورتنا البيوت ... وجئنا بوعظ ونحن صموت
وأنفاسنا سكنت دفعة ... كجهر الصلاة تلاه القنوت
وكنا عظامًا فصرنا عظامًا ... وكنا نقوت فها نحن قوت
وكنا شموس سماء العلا ... غربن فناحت عليها البيوت
فكم جدَّلَت ذا الحسام الظبا ... وذو البخت كم جدلته البخوت
وكم سيق للقبر في حرقة ... فتًى ملئت من كساه التخوت
فقل للعدا ذهب ابن الخطيـ ... ـب وفات ومن ذا الذي لا يفوت
فمن كان يفرح منكم له ... فقل يفرح اليوم من لا يموت

وترجم لسان الدين نفسه ووصف كيف قلده السلطان الوزارة والقيادة أي

---

(١) تَلَّ فلانًا: ألقاهُ على عُنُقِهِ وخَدِّه [المعجم المدرسي]. (المُراجع)

(٢) الزِّعْنِفَة والزَّعْنَفَة: الرديءُ من كلِّ شيء. (ج) زعانف [المعجم المدرسي]. (المُراجع)

أصبح ذا الوزارتين وزير السيف والقلم، واستعمله في السفارة إلى الملوك واستنابه بدار ملكه ورمى إلى يده بخاتمه وسيفه، وائتمنه على صوان حضرته وأعلى مجلسه، وقصر المشورة على نصحه، إلى أن كانت الكائنة وحمله أهل الشحناء من أعوان ثورته على القبض عليه بعد أن كبست المنازل والدور، واستكثر من الحرس، واستؤصلت نعمته، ولم تكن بالأندلس من ذوات النظائر ولاربات الأمثال، ولما رد على السلطان أبي عبد الله ملكه عمل في القدوم عليه، وجنح لسان الدين إلى الانفصال لبيت الله الحرام فأراه السلطان أن مؤازرته أكبر القرب، فعدل عن الحج فرمى إليه بمقاليد رأيه. قال: ولم أعدم الاستهداف للشرور والاستعراض للمحذور والنظر الشزر المنبعث من خزر العيون، شيمة من ابتلاه الله بسياسة الدهماء ورعاية سخطة أرزاق السماء، وقتلة الأنبياء، وعبدة الأهواء، ممن لا يجعل لله تعالى إرداة نافذة ولا مشيئة سابقة ولا يقبل معذرة، ولا يجمل في الطلب ولا يتلبس مع الله بأدب.

هذا مجمل حال حسنة الأندلس مع الملوك وكانوا معجبين به لما فُطر عليه من صفات لا نظير لها في رجالهم ورجال عصرهم، وهذا حاله مع الوزراء ومن والاهم وما حاكوه من دسائس ليطرحوه أرضًا ويستأثروا دونه بهذا المقام، فلم يروا أقرب من إثبات الزندقة عليه، وقتلوه على هذه الصورة الفاجعة، فبكت العيون عظيمًا تضن القرون بظهور مثله.

وإذا جئنا نعرض لأدبه وعلمه فغصن الطيب للمَقّري الذي كسره على وصفه وخصه بأحواله ونقل أخباره ومنظومه ومنثوره يكفينا المؤونة، وهناك تآليفه وهي تبلغ الستين مصنفًا منها ذو المجلدات ومنها المجلد الصغير، لم يبق منها إلا ثلثها كما قال العلامة زيبولد، وأهمها في نظره الإحاطة في أخبار غرناطة، وقد طبع ثلثاه فقط ولم يجدوا منه نسخة تامة صحيحة، وفي هذا الكتاب تجلَّى لنا أسلوب لسان الدين في الترجمة للرجال، وعرفنا جمال نثره

وجمال شعره، فما استطعنا أن نقول إنه شاعر ولا إنه كاتب، بل حكمنا له بالمَلَكَتين الكتابة والشعر، وفي كتابته نسقط على تعابير وألفاظ قَلَّ أنْ وَقَعَ لأحدٍ من كتَّاب الأندلس استعمال مثلها ولا سيما المعاني المبتكرة والتراكيب البارعة.

أما دعوى الإلحاد على لسان الدين فهي من الدعاوي التي طالما وُجِّهت إلى العظماء من العلماء، وتاريخ المسلمين غاصٌّ بمن قتلتهم السياسة، والزندقة حجة في قتلهم. لا جرم أن لسان الدين اعتاد الانطلاق في الفكر، وهو صريح على أبعد غايات الصراحة، ولعلهم جمعوا له جُمَلًا وقعت في بعض كلامه وأوَّلوها على هواهم حتى صحت لهم دعوى الإلحاد. وفي كتابه الإحاطة نموذجات ظاهرة من هذا القبيل.

وصف الحاكم باديس وهو من الملوك الجبابرة قائل الرأي خليع الرسن فقال: وقد أَدال اعتقاد الخليفة في باديس بعد وفاته وقدم العهد بتعرف أَخبار جبروته وعتوّه على الله سبحانه لما جبلهم عليه من الانقياد للأوهام والانصياع للأضاليل فعلى حفرته اليوم من الازدحام لطلاب الحوائج والشفاء من الأسقام حتى أولو الدواب الوجيعة ما ليس على قبر معروف الكرخي وأبي يزيد البسطامي. ووصف جعفر بن أحمد الخزاعي الغرناطي من مشايخ الطرق، ورقص جماعته في الذكر، فقال: «وربما استدعاهم السلطان إلى مصره محمضًا لطائف نعيمه بأخشيشانهم مبديًا التبرك بهم». قال: والطرق إلى الله تعالى على عدد أنفاس الخلائق. وهذه معانٍ لا يرضاها العامة وبخاصة من استهواهم مثل هؤلاء المشايخ.

وإليكم الآن جُمَلًا قليلة جاءت في مقدمة كتابه الإحاطة في وصف غرناطة: وبَرْدها لذلك من المنقب الشتوي شديد، وتجمد بسببه الأدهان والمائعات، ويتراكم بساحاتها الثلج في بعض السنين، فجسوم أهلها بصحة الهواء صلبة، وسحناتهم خشنة، وهضومهم قوية، ونفوسهم لمكان الحر

الغريزي جريئة. وهي دار منعة، وكرسي ملك، ومقام حصانة. وكان ابن غانية يقول للمرابطين في مرموتة وقد عوَّل عليها للامتساك بدعوتهم «الأندلس درقة وغرناطة قبضتها، فإذا تجشمتم يا معشر المرابطين القبضة لم تخرج الدرقة من أيديكم». ومن أبدع ما قيل في الاعتذار عن شدة بردها مما هو غريب في معناه قول القاضي أبو بكر بن شبرين:

رعى الله من غرناطة متبوَّءى ... يسرُّ كئيبًا أو يجير طريدا

تبرّم منها صاحبي عندما رأى ... مسارحها بالبرد عدن جليدا

هي الثغر صان الله من أُهلت به ... وما خير ثغر لا يكون برودا

وذكر أن جند دمشق نزلوا كورة البيرة أشرف الكور، وفحصها لا يشبه بشيء من بقاع الأرض طيبًا ولا شرفًا إلا بالغوطة غوطة دمشق. وحقيقة كما قال، وأنا رأيتها، إلا أن غوطة دمشق شجراء وغوطة غرناطة جرداء، وكانت أيام حكم العرب كغوطتنا بأشجارها الملتفة.

ووصف أيام الأندلسيين وعاداتهم فقال: فتبصرهم في المساجد أيام الجمع كأنهم الأزهار المفتحة في البطاح الكريمة تحت الأهوية المعتدلة. قال: وعادة أهل هذه المدينة الانتقال إلى حلل العصير أوان إدراكه بما تشتمل عليه دورهم، والبروز إلى الفحوص بأولادهم وعيالهم، معوِّلين في ذلك على شهامتهم وأسلحتهم على أكتاد دوابهم واتصال أمصارهم بحدود أرضه، وحليُّهم في القلائد والدمالج والشنوف والخلاخل من الذهب الخالص إلى هذا العهد في أولي الجدة، واللجين في كثير من آلة الرجلين فيمن عداهم. والأحجار النفيسة من الياقوت والزبرجد والزمرد النفيس الجوهر كثير ممن ترتفع طبقاتهم المستندة إلى ظل الدولة أو أصالة معروفة موقرة، وحريمهم حريم جميل موصوف بالحسن وتنعم الجسوم، واسترسال الشعور ونقاء الثغور، وطيب النشر، وخفة الحركات، ونبل الكلام، وحسن المحاورة، إلا أن الطول يندر فيهن، وقد يبلغن من التفنن في الزينة لهذا العهد والمظاهرة

بين المصبغات، والتنافس بالذهبيات والديباجات، والتماجن في أشكال الحلي إلى غاية نسأل الله أن يغض عنهن فيها عين الدهر، ويكف كف الغدر، ولا يجعلها من قبيل الابتلاء والفتنة، وأن يعامل جميع من بها بستره، ولا يسلبهم خفي لطفه بعزته وقدرته.

هذه لمعة من سيرة ذي الوازرتين، لقَّبه بذلك السلاطين في زمنه، أحط أزمان الأندلس، وقد استولى العدو على معظم قواعدها مثل إشبيلية وقرطبة ومرسية وجيان والمرية. ولقَّبه الناس بذي العمرين لأنه كان مبتلًى بالأرق يسهر الليل إلا أقله، ويصرف هذه الليالي في التأليف والتأمل، فكأنه كان يعمل ليله ونهاره.



(٤٦)

# شبح الربوة

## شمس الدين أبو عبد الله بن أبي طالب الأنصاري

(٧٢٧)

قال فيه صاحب الدرر الكامنة: إنه كان يصنف في كل علم - سواء عرفه أم لا - لفرط ذكائه. وحكمه هذا جائر منبعث، والله أعلم، من كون شيخ الربوة لم يؤلِّف كثيرًا في علوم الدين كما كان شأن معاصريه، وألف في علوم لم يعرفوها. قال الصفدي: ولد سنة ٦٤٥ وعانى الأشغال فمهر في علم الرمل والأوفاق ونحو ذلك، وكان ذكيًّا وعبارته حلوة ما تمل محاضرته. وكان يدعي أنه يعرف الكيمياء، ودخل على الأفرم فأوهمه شيئًا من ذلك، فولَّاه مشيخة الربوة، وله السياسة في الفراسة وله غيره، ومن شعره:

للنفس وجهان لا تنفك قابلة ... بما تقابل من عال ومستفل

كنحلة طرفاها في مقابلة ... فيها من اللسع ما فيها من العسل

ومن شعره في الغوطة:

شموس وأقمار من النَّوْر طُلَّع ... لذي اللهو في أكنافها متمتع

كأن عليها من مجاجة طلها ... لآلئ إلا أنها منه ألمع

نشاوى تثنيها الرياح فتنثني ... يعانق بعض بعضها ثم يرجع

ولد في دمشق وتوفي في صفد بعد أن لحقه صَمَمٌ قبل موته، وذهبت عينة الواحدة، وكان صبورًا على الفقر والوحدة، كثير الآلام والأوجاع. وترجمه الصفدي أيضًا في الوافي فنعته بالصوفي، وقال: إنه المعروف بشيخ حطين أولًا ثم بشيخ الربوة آخرًا، رأيته بصفد مرات واجتمعت به مدة مديدة، كان

من أذكياء العالم له قدرة على الدخول في كل علم وجرأة على التصنيف في كل فن، رأيت له عدة تصانيف حتى الأطعمة وفي أصول الدين على غير طريق اعتزال ولا أشاعرة ولا حشوية لأنه لم يكن له علم وإنما كان ذكيًا، فيومًا أجده وهو يرى رأي الحكماء ويومًا أراه يرى رأي الحشوية ويومًا أراه يرى رأي ابن سبعين وينحو طريقته... وكان له نظم ليس بطائل، وكان ربما عرض عليَّ القصيدة وطلب مني تنقيحها فأُغيِّر منها كثيرًا، وكان يتكلم في علم الكيمياء ويدَّعي فيها أشياء، والظاهر أنه كان يعرف ما يخدع به العقول ويلعب بألباب الأغمار... وهو شيخ النجم الحطيني وصاحبه لمَّا كان شيخ خانقاه حطين ببلاد صفد، فورد عليهم إنسان أضافوه وأراد السفر في الليل وعلم النجم أن معه ذهبًا فاتبعه وقتله فبلغت القضية الأمير سيف الدين كرآي نائب صفد إذ ذاك، فأحضر الشيخ شمس الدين المذكور وضربه على ما قيل لي ألف مقرعة وعوقب ثم أفرج عنه قال. وكان فَكِهَ المحاضرة حُلْو المنادرة يتوقد ذكاء، وتوفي ببيمارستان الأمير سيف الدين تنكز بصفد في سنة خمس وعشرين فيما أظن.

وكتابه نخبة الدهر في عجائب البر والبحر «في العلم بهيئة الأرض وأقاليمها وتقاسيمها، واختلاف القدماء في ذلك وعلاماتها ومعمورها من البحار المتصلة والمنفصلة، والجزائر والجبال والأنهار والحرَّات والآجام العظيمة والعيون والممالك ومسالكها، والأمصار الكبار ورساتيقها والآثار القديمة والعمائر العظيمة والعيون والآبار والينابيع العجيبة، والحيوان النادر الشكل، والنبات الغريب، والمعادن الذائبة والمتطرقة وتوابعها في المعدنية، والأحجار الشريفة الثمينة والتي تليها وتشبهها في الشرف والقيمة والتي تلي ذلك مما هو ممتاز من التراب لوصف خاص أو خاصة ذاتها، ووصف ألوان الأحجار الثمينة وطبائعها وخواصها، ونعت بقاعها ومعادنها وذكر أسباب توليدها على ما ذكره الأقدمون، وذكر مساحة الأرض ومسافات أقسامها

بالساعات والأميال والبُرُد والفراسخ، والدرج الفلكية، وأطوال الجبال وعرضها، ونعت الأمم المبثوثين فيها، وذكر معالم أنسابهم وآبائهم الأولين، وذكر عامة اختلاف الأمم المشهورين منهم ونعت خلقهم، وذكر خصائص البلاد المختصة ببقعة دون بقعة، وبلد دون بلد، وذكر ظواهر خصائص البشر المشركة فيها النوع الإنساني دون باقي الحيوانات، ونعت معالم رسوم المليين وأسماء شهورهم وأعيادهم وقرابينهم على ما وجد من آثار علومهم وما يتعلق بلوازم ذلك ولواحقه».

قال: «وختمته بصورة جغرافية دهانًا بالأصباغ وتخطيطًا محررًا على مثل مواقع الأطوال والعروض والأصقاع في المعمور لتكون مثالًا حسيًّا مشاهدًا بالحس، يشهد منه ما وضعت وصفه من الهيئة وليكون الوصف برهانًا لما مثلت أمثلته بالجغرافية المذكورة، وكل ما هو من الدهان بها أزرق فهو مثال بحر مالح صَغُر أو كَبُر، دقَّ أو عرض، وفي الزرقة من لون مخالف فهو مثال جبل أو جزيرة، وكل ما هو في ذلك وفي باقيها من لون أخضر فهو مثال بحيرة حلوة ونهر جار، وكذلك طال أو قصر دق أو عرض، وكل ما هو فيها من لون جلناري أو خمري أو أصفر أو حجري أو أبيض أو غير مستطيل مخطط خطوطًا بالسواد فهو مثال جبال وَرَبوات مشهورة، وكل ما هو صورة خط أسود مستطيل من مشرق الجغرافية إلى مغربها فهو مثال فصل ما بين إقليم وإقليم من الأقاليم السبعة وما وراءها، أو ما خلف خط الاستواء منها، وكل ما صورة عمارة وتفصيل حجارة بالتخطيط فهو مثال سور أو برج أو مدينة أو هيكل مشهور في الأرض».

وكتابه عدا فن الجغرافيا يحوي فنونًا كثيرة مثل علم الطبقات الأرض وعلم المعادن وعلم خصائص الشعوب وعلم الإنسان وعلم الحيوان وعلم الأنساب والتاريخ والآثار وغير ذلك. وقد أجاد في وصف جغرافية الشام فصوَّر حالتها في القرن السابع والثامن، والأرجح أنه طافها كلها، ولم يقصر

في جغرافية مصر عن هذه الغاية. أما في بحثه عن الآثار فإنه في الغالب يتلقى كلامه عن الأفواه أو عمن ألّفوا في القصص والحكايات والغرائب. وإذ وسم كنابه بعجائب البر والبحر، فهو يحشوه من هذا القبيل، ومنها المفيد مع ذلك، ومنها ما لا يقبله العقل.

أما في الجغرافية فقد وصف بلاد السودان والزنج والبربر وغيرهم في أواسط إفريقية مما لم يطلع عليه علماء الجغرافية إلا في العهد الأخير، وكذلك وصف من أمم جزائر البحر المحيط الهندي وما والاه من الأمم وأورد من أسمائهم ما لا يعرف الآن، أما في أوروبا فقد ألَمَّ إلمامًا خفيفًا ببعض مدن جنوبها، أما شمالها فاكتفى على عادة أكثر جغرافيي العرب بأن قال إنه يسكنها أقوام من الإفرنج. أما أميركا فلم تكن قد كشفت في عهده، ولكن أجاد في الكلام على بحر الظلمات والأقيانوس الأطلانطي وما فيه من الجزر وعلى سواحله من المدن، وما فيه من الصور يدل على تفنن فيه، وأن العرب أيام كانوا أشبه بالغربيين اليوم يميلون إلى تصوير المواد العلمية.

وقال في ذكر توليد الجبال والهضاب والرمال والكلام على كيفية تكوين ذلك وعلته وسببه: قال العلماء بذلك أن الجبال الصغار والتلال قد تكون من الزلازل الكائنة من الرياح المحقونة في الأرض المتموجة تحتها حيث ترفع بعضًا وتخفض بعضًا، ومن صحة ذلك أنه في سنة ثلاث وعشرين وسبعمئة كان المطر في الشام قليلًا، وقصرت ينابيع العيون، أرسل الله ﷻ زلزلة في أيام الصيف فخرجت العيون وزادت الأنهار زيادة بقدر ما كانت ثلاث مرار وأربع مرار. وهذا صحيح وقد يكون باستيلاء الرياح العاصفة على بعض أجزاء الأرض بالكشف والحفر إلى أن يصير ما غلبت عليه غورًا. ومن صحة ذلك أنه في سنة تسع عشرة وسبعمئة كان على الجبل الأقرع شجر زيتون كثير نيف على ثلاثمئة، فحمله الريح إلى أرض بعيدة بترابه، وكأنه لم يكن مخلوقًا إلا من تلك الأرض، وكأنه لم يكن على الجبل شجر مزروع قط. وفي تلك

السنة أيضًا حملت الريح ديرًا يقال له دير سمعان قريب من تلك الأرض بحجارته ورهبانه، وما كان في الدير من قمحهم وخزينهم وبقرهم ودوابهم وعُدَدِهم، حتى كأنهم لم يكونوا، ولم يُعْلَم لهم خبر، ولم يطلع لهم على أثر، وسُطر بذلك محضر شرعي، وطلعوا به إلى السلطان محمد بن قلاوون خلد الله سلطانه ورحم ملوك المسلمين أجمعين. وفي سنة سبعمئة نزل جبل عال شامخ في بيت المقدس بقرب من عين فروج التي على الطريق فبقدر ما كان مرتفعًا توطأ في الأرض وهو إلى الآن أرق مياه تتفق لها حركة على جزءٍ من الأرض دون الآخر فيحفر ما يسيل فيه ويبقى ما لا يسيل فيه رابيًا، ثم لا تزال السيول تغوض في الجزء الأول إلى أن يعود غورًا ويبقى ما انحرف عنه ساميًا. ومن العجب العجيب مغارة بالشام يخرج منها جدول ماء ما يجاوز كعبي قدم الخائض فيه، فإذا دخلها الإنسان وجدها واسعة طويلة المدى نحوًا من أربعة آلاف خطوة تحت الأرض، والماء يقطر من جوانبها، وهي كصورة الأَزَج[1] الطويل والقبو المبني، ولكنها مغارة منحوتة وتجد تحت كل ماء قطر من سقفها حجارة جامدة من الماء المتقاطر مختلفة الألوان والشكل، فمنها كهيئة العسل في لونه وكهيئة الثمار، وهيئة النجوم، وهيئة الأعضاء، وهيئة الحبوب، وهيئة النقل، وهيئات منوعة، وكلها حجارة جامدة من تقاطر الماء. أصباغها صادقة في الحمرة والسواد وغيره، وسميت مغارة العجب كذلك قالوا، وقد تتكون أنواع الحجارة في النار.

وقال في ذكر نوادر الأحجار الثمينة المهدي بها بعض الملوك إلى بعض وذكر قيمتها: «ومن ذلك ما وجد في خزائن الخلفاء والوزراء من الجوهر النفيس والذخائر الفاخرة: الدرة اليتيمية، وسميت بذلك لأنها لم يوجد لها في الدنيا نظير، حملها مسلم بن عبد الله العراقي إلى الرشيد فابتاعها منه

(١) الأَزَج: بيتٌ يُبْنَى طُولًا [محيط المحيط]. (المُراجع)

بتسعين ألف دينار، ومنه الفص الياقوت الأحمر المسمى بالجبل كان وزنه أربعة عشر مثقالًا ونصفًا اشتراه الرشيد بثمانين ألف دينار. وكان للمتوكل فص ياقوت أحمر وزنه ستة قراريط اشتراه بستة آلاف دينار، وكان له سبحة فيها مئة حبة جوهر وزن كل حبة مثقال اشتريت كل حبة بألف مثقال. وأهدى بعض ملوك الهند إلى الرشيد قضيب زمرد أطول من ذراع على رأسه تمثال طائر ياقوت أحمر لا قيمة له، فقوم هذا الطائر بمئة ألف دينار، ودفع مصعب بن الزبير حين أحسّ بالقتل إلى مولاه زياد فصًا من الياقوت الأحمر وقال: أُنج بهذا؛ كانت قيمته ألف ألف درهم. وسقط من يد الرشيد فص في أرض كان يتصيد بها فاغتمَّ لفقده، فذكر له فص ابتاعه صالح صاحب المصلى بعشرين ألف دينار فأحضره ليكون عوضًا عما سقط منه فلم يره عوضًا، ووهب المأمون للحسن بن سهل عقدًا قيمته ألف ألف درهم ومئة ألف درهم وستة عشر ألف درهم. وكان فيما أهدى ملك الهند إلى كسرى جام ياقوت أحمر فتحة شبر في شبر مملوء درًا، قيمة كل درة ألف وخمس مئة مثقال. وكان لمحمود صاحب غزنة حجر ياقوت كنصاب المرآة إذا رَكِبَ قبض عليه بيمينه فتبين طرفاه من جانبي يده حيث ينظر إليه الناس».

«ولما انهزم أبو الفوارس بن بهاء الدولة من أخيه سلطان الدولة بن بويه أباع جوهرتَيْن كانتا على جبهة فرسه لزين الدولة بعشرين ألف دينار فقال له: من غلطك تجعل هذا على جبهة فرسك وهذه قيمتها. ووجد في خزائن مروان ابن محمد مائدة جَزْع أرضها بيضاء فيها خطوط سود وحمر وسعتها ثلاثة أشبار وأرجلها ذهب، يقال إنها صنعت على شكل المشتري، من أكل عليها لا يشبع ولا يتخم، ووجد في خزانته أيضًا جام زجاج فرعوني محكم غلظ إصبع وفتحة شبر، وفي وسطه أسد ثابت وقدَّامه رجل جاثٍ على ركبتيه، وقد وضع سهمًا في قوس بيده يريد أن يرمي الأسد، ولم تعرف له خاصية. وكان لأنوشروان بساط يسميه بساط الشتاء مرصع بأزرق الجوهر وأحمره وأصفره

وأبيضه وأخضره فعمل أخضره مكان أغصان الأشجار، وألوانه بموضع الزهر والنوار، فلما أخذ في زمن عمر بن الخطاب ﷺ في وقعة القادسية حمل إليه في الفيء، فلما رآه عمر قال: إن أمة أدت هذا إلى أميرها لأمناء، ثم فرَّقه فوقع منه لعلي بن أبي طالب كرَّم الله وجهه قطعة في قسمه مقدارها شبر في شبر باعها بخمسة عشر ألف دينار.

ولما فتح الملك الظاهر ركن الدين بيبرس رحمه الله سيس دخل بعض الغلمان إلى دار صاحب سيس فوجد نردًا بيادقه ياقوت أحمر وأصفر وسُكُرَّجَته من حجر الماس ورقعته زركش، فخطف الغلام النرد فوقع منه قطعتان تركهما داهشًا فوقعت القطعتان المنسيتان في يد الملك الظاهر فقال: ما كان إلا كاملًا فاستدعى بعريف سوق الصرف وأراه القطعتين وقال له إن مسكت من هذا قطعة مع أحد الناس فعلت معك كل خير، فما كان إلا قليلًا وقد أتى الغلام ليبيعها فمسك وأتي به إلى الملك فوجدوا الباقي معه فأخذه الملك الظاهر، ودفع إلى الغلام عشرة آلاف درهم.

ولما كان الملك المنصور قلاوون رحمه الله بدمشق سنة اثنتين وثمانين وستمئة أحضر إليه من المدرسة الجوهرية مائدة ذهب وزنها ثمانية أرطال وربع بالدمشقي وعليها تمثال دجاجة من ذهب وصيصان من ذهب، في منقار كل واحد لؤلؤة بقدر الحمصة، وفي منقار الدجاجة درة بقدر البندقة، وفي وسط المائدة سكرجة من زمرد سعتها مثل كفة الميزان التي للدرهم السوقي الكبير مملوءة حبات من الدر، قيل: إن الملك الناصر صاحب حلب أودعها لنجم الدين الجوهري فأكنزها بدهليز مدرسته فوشى بها إلى الملك المنصور جارية من جواري الجوهري وكان على جميع المائدة شبكة من ذهب منسوج صغيرة الأعين حاوية لكل ما في المائدة، ولها ثمان قوائم.

وأهدى مقدم زاوية عكا إلى الملك المنصور طشتًا من ذهب في وسطه بيت مربع له أربعة خروق في أسفله يدخل منها دم الفصاد إلى داخل البيت،

وفي البيت بسقفه تمثال إنسان متوارٍ في البيت ورأسه وعنقه بارز من سقفه وكلما سقط في الطشت من دم الفصاد وزن عشر دراهم ارتفع ذلك التمثال بصدره وظهرت على صدره كتابة عشرة دراهم، ولا يزال كذلك إلى مقدار ثلاث أواقٍ دمشقية، فيقف التمثال قائمًا ويسمع من جوفه كلمة يونانية معناها حسبك حسبك اهـ.

وكتابه الثاني: «السياسة في علم الفراسة» قال فيه: إن أصول هذا العلم مستندة إلى العلم الطبيعي وتفاريعه متقررة بالتجارب فكان مثل الطب سواء، وقال: إنه على قسمين أحدهما أن يحصل خاطر في القلب بأن هذا الإنسان من صفته كيت وكيت من غير حصول إمارة جسمانية ولا علامة محسومة، والثاني الاستدلال بالأحوال الظاهرة على الأخلاق الباطنة، وهو علم يقيني الأصول ظني الفروع. تكلم في القيافة (النظر إلى بشرات الناس وجلودهم) والريافة (معرفة الماء المستجن في الأرض) والعيافة (تتبُّع آثار الأقدام والأخفاف والحوافر في الطرق) وعرض للبحث في أخلاق الحيوان الأول سباع البهائم، أو ذوات الأظلاف والأخفاف والطيور وغيرها، ونظر في الكفوف والأصابع والأظفار والصدور والبطون والأفخاذ والأعجاز والأوراك وأعضاء النسل والساق والركب، والضحك والتبسم والقهقهة، وعلامات الرجل الجاهل الشرير المؤذي، والرجل الخيِّر الديِّن الحميد الطبع، والكافر والفاجر والسفاك والشجاع والوقح والكذاب والجبان والكسلان والسخي. وتكلم عن الأفلاك والبروج.

ومما قاله في بيان أخلاق أهل الآفاق: فأهل مصر يغلب عليهم العقل ونقص الغيرة، وقلة الفطنة وظهور الشح، وتزكية النفس، كثرة الشبق في النساء، وفيهم المحاكاة والتخيل، وقلة الاعتناء بالأمور، ولا يكادون يحقِّقون علمًا، ولا يعمقون في بحث. وأهل بربر فطناء وغلاظ حريصون حفظاء أشحاء كذابون جفاة ونساؤهم لطاف، والمكر فيهن قليل. وأهل الشام غفول

متكبرون مبذرون ممارون شرهون، سليمة قلوبهم منقادون، والغالب عليهم اللهو والعبث بالناس، مللون متكرهون دعابون، باطنهم الخير وظاهرهم الكبر، مأمونو الغائلة، كثيرو التصديق، فصحاء يحبون المحمدة. وأهل الروم غلاظ متكلفون صلفون فيهم وفاء أشحاء، وفيهم الغفلة فاشية، ويغلب عليهم الجبن والجهل والهلع وحب جمع المال. وأهل الحجاز أذكياء كرماء مواسون أهل وفاء فهماء حفاظ، رقاق الأنفس بشجاعة وإقدام وفهم، وفيهم الدعابة والشبق والتعشق والتحيل والخداع بالنطق، وتأنيث الشمائل وحب اللهو والمعازف، وفي نسائهم الغلمة والكرم. وأهل العراق غدارون ماكرون منافقون مستهزئون أشحاء ممارون متكبرون، أولو فطنة وذكاء وفهم، ودهاء وخديعة وطمع، وتخيل باستعلاء، وفيهم الشبق وعدم المبالاة وقلة الوفاء، وفي النساء اغتلام شديد وتحبب إلى الرجال. وأهل العجم أذكياء عقلاء أقوياء الأبدان والنفوس أشحاء أولو فهم، متكبرون محتقرون من سواهم، يحبون الطرب ويشتهون الأحداث دون النساء، ونساؤهم جيدات الطبع متحببات إلى الرجال. وأهل بذخشان أذكياء فطناء أريحيون عصبيون يحبون المحمدة وسفك الدماء. وأهل بذخشان الأسفل أهل طرب ومعازف وتغزل، والجمال فيهم ظاهر، وسيما كورة إسكندرية فارس والشح فيهم. وأهل الهند الأعلى شجعان جهلة غفل غدارون كثيرو الشبق خوانون كذابون سيئة أخلاقهم، صبرهم قليل والنميمة فيهم. وأهل الجرزات الهندية صالحون عقلاء حكماء أوفياء، سهل عليهم هلاك أنفسهم بأيديهم. وأهل الصين طياشون مكرة حسدة فطناء أذكياء محاكون، متقنو الصنائع بأيديهم، وفيهم الغدر والنفاق والجبن ظاهر. وأهل التُّبت والخطا أشبه بأهل الصين، وفيهم الوفاء وحسن المعاملة، وقَلَّ أن يكونوا غير مسرورين. وأهل اليمن مصدقون منقادون، ضفاف النفوس، فيهم الشبق، مأمونو الغائلة، وفيهم تحيل وعجز وغفلة. وأهل الحبشة أهل غفلة وديانة وأمانة ووفاء وحسن محبة، ونقص فهم وغلظ

طبع. وأهل النوبة أهل لعب وعبث وطيش وشح وخيانة وسوء خلق وجهالة وخبث وشبق ودناءة. وأهل السواحل غالبًا أهل أمانة ووفاء وذكاء وشبق ونقص غيرة وسرعة فهم وبطء حفظ. وأهل الجبال غالبًا أهل غفلة وغلظة طبع وشح واضطراب حال وعقول وفكر. وأهل المغرب أذكياء ذوو فطن أشحاء سيئون في أخلاقهم متحيلون مهتمون (كذا) غلاظ الطبع أشرار. وأهل الشرق أذكياء فطناء ذوو همم علية، وأنفس أبية وبصائر ثاقبة وكبر ومماراة وشح وسياسة واعتناء بالأمور وعقول رزينة بها مكرة. واليونان علماء عقلاء حكماء أذكياء فطناء فهماء، وفيهم الصلف ورقة الطبع وعلو الهمم. ويقال: ظهرت الحكمة بأدمغة اليونان وألسنة العرب وأيدي الصين.

هذا فصل من فصول كتاب الفراسة وفيه الصحيح وفيه غيره، أوردته نموذجًا من علم المؤلف وبحثه. يقول ناشر كتاب نخبة الدهر: إن شيخ الربوه من المؤلِّفين الجمَّاعين سار على خطة المسعودي وأبي عبيد البكري، ومع ذلك خص كتابته بالكلام عن المعادن والأحجار الثمينة مما لم يتأت القيام بمثله لمؤلف حتى اليوم.



(٤٧)

# ابن تيمية

## تقي الدين أحمد بن عبد الحليم الحراني

(٧٢٨)

ولد بحران سنة إحدى وستين وستمئة، وقَدِم مع والده وأهله إلى دمشق، وكانوا قد خرجوا من بلاد حران مهاجرين بسبب جور التتار وقدموا دمشق سنة سبع وستين. فسمع الحديث من أئمته في دمشق، وسمع مسند أحمد مرات ومعجم الطبراني الكبير والكتب الكبار والأجزاء. وعُني بالحديث وقرأ بنفسه الكثير ولازم السماع مدة سنين، ونسخ وانتقى وكتب الطباق والأثبات، وتعلم الخط والحساب في الكتب، واشتغل بالعلوم وحفظ القرآن وأقبل على الفقه، وقرأ أيامًا في العربية على ابن عبد القوي ثم فهمها وأخذ يتأمل كتاب سيبويه حتى فهمه، وبرع في النحو، وأقبل على التفسير إقبالًا كليًّا حتى حاز فيه قصب السبق، وأحكم أصول الفقه، كل هذا وهو ابن بضع عشرة سنة، فعجب الفضلاء من فرط ذكائه وسيلان ذهنه وقوة حافظته وسرعة إدراكه.

ذاك ما قاله من ترجموا له في نشأته. أما أخلاقه فقالوا: إنه نشأ في تصوف تام، وعفاف وتأله، واقتصاد في الملبس والمأكل، ولم يزل على ذلك خلقًا صالحًا برًّا بوالديه تقيًا ورعًا عابدًا ناسكًا صوامًا قوامًا، ذاكرًا الله تعالى في كل أمر، رجاعًا إلى الله تعالى في سائر الأحوال والقضايا، وقافًا عند حدود الله تعالى وأوامره ونواهيه، آمرًا بالمعروف ناهيًا عن المنكر «فارغًا من شهوات المأكل والملبس والجماع، لا لذة له في غير نشر العلم وتدريسه، عُرض عليه منصب قضاء القضاة ومشيختَي الشيوخ فلم يقبل» وقبل وظائف

والده في التدريس وله إحدى وعشرون سنة. وكان والده من كبار الحنابلة وأئمتهم، ودرَّس هو بعده فاشتُهر أمره وبَعُدَ صيته في العالم، وما أتى له ثلاثون سنة حتى كان من أعظم علماء عصره، بل أعظم عالم في عصره، لا تكاد نفسه تشبع من العلم، ولا تَرْوَى من المطالعة، ولا تملُّ من الاشتغال، ولا تكلُّ من البحث، وقَلَّ أن يدخل في باب من أبواب العلوم إلا وفُتِحَ له من ذلك الباب أبواب، واستدرك أشياء في ذلك العلم على حذاق أهله.

وكان يحضر المجالس والمحافل في صغره فيتكلم ويناظر ويفحم الكبار ويأتي بما يحار منه أعيان البلد. وشرع في الجمع والتأليف وله نحو سبع عشرة سنة. قال الحافظ الزملكاني: كان إذا سئل عن فن من الفنون ظن الرائي والسامع أنه لا يعرف غير ذلك الفن، وحكم أن أحدًا لا يعرف مثله. كان الفقهاء من سائر الطوائف إذا جلسوا معه استفادوا في مذاهبهم منه ما لم يكونوا عرفوه قبل ذلك، ولا يُعرف أنه ناظر أحدًا فانقطع معه، ولا تكلم في علم من العلوم سواء كان من علوم الشرع أو غيرها إلَّا فاق فيه أهله والمنسوب إليه. وكانت له اليد الطولى في حسن التصنيف وجودة العبارة والترتيب والتقسيم والتبيين.

وقالوا فيه: «وأخذ في تفسير الكتاب العزيز أيام الجمع على كرسي من حفظه فكان ما يقوله من غير توقف ولا تلعثم، وكذا كان يورد الدروس بتؤدة وصوت جهوري فصيح. وانتهت إليه الإمامة في العلم والعمل والزهد والورع والشجاعة والكرم والتواضع والحلم والأناة والجلالة والمهابة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع الصدق والأمانة والعفة والصيانة وحسن القصد والإخلاص والابتهال إلى الله تعالى وشدة الخوف منه ودوام المراقبة له، والتمسك بالأمر والدعاء إلى الله تعالى وحسن الأخلاق ونفع الخلق والإحسان إليهم. وكان رحمه الله سيفًا مسلولًا على المخالفين، وشجًا في

حلوق أهل الأهواء والمبتدعين، وإمامًا قائمًا ببيان الحق ونصرة الدين، طنت بذكره الأمصار، وضنت بمثله الأعصار».

وقال الذهبي: إنه صار من أكابر العلماء في حياة شيوخه ولعل تصانيفه في هذا الوقت تكون أربعة آلاف كراس وأكثر، وفسَّر كتاب الله تعالى مدة سنين من صدره أيام الجمع، وكان يتوقد ذكاء، وسماعاته من الحديث كثيرة، وشيوخه أكثر من مئتي شيخ، ومعرفته بالتفسير إليها المنتهى، وحفظه للحديث ورجاله وصحته وسقمه مما لا يلحق فيه، وأما نقله للفقه ولمذاهب الصحابة والتابعين فضلًا عن مذاهب الأربعة فليس له فيه نظير. وأما معرفته بالملل والنِّحل والأصول والكلام فلا أعلم له فيه مثيلًا، ويدري جملة صالحة من اللغة، وعربيته قوية جدًّا، وأما معرفته بالتاريخ والسير فعجب عجيب.

قال: فإن ذكر التفسير فهو حامل لوائه، وإن عُدَّ الفقهاء فهو مجتهدهم المطلق، وإن حضر الحفَّاظ نطق وخرسوا، واستزيد وأُبلسوا واستغنى وأفلسوا، وإن سُمِّي المتكلمون فهو فردهم وإليه مرجعهم، وإن لاح ابن سينا يقدم الفلاسفة فلسفهم وبخسهم وهتك أستارهم، وكشف عوارهم. وله يد طولى في معرفة العربية والصرف واللغة، وهو أعظم من أن تصفه كلمي أو تبينه إشارة قلمي.

وقال في مكانٍ آخر: وله خبرة تامة بالرجال وجرحهم وتعديلهم وطبقاتهم ومعرفة بفنون الحديث، وبالعالي والنازل، وبالصحيح والسقيم مع حفظه لمتونه الذي انفرد به، فلا يبلغ أحد في العصر رتبته ولا يقاربه، وهو عجيب في استحضاره واستخراج الحجج منه، وإليه المنتهى في عزوه إلى الكتب الستة والمسند بحيث يصدق عليه أن يقال كل حديث لا يعرفه ابن تيمية فليس بحديث، ولكن الإحاطة لله، غير أنه يغترف فيه من بحر وغيره يغترف من السواقي.

وقال أيضًا: كان يقضي منه العجب إذا ذكر مسألة من مسائل الخلاف

واستدل ورجَّح، وكان يحق له الاجتهاد لاجتماع شروطه فيه. قال: وما رأيت أسرع انتزاعًا للآيات الدالة على المسألة التي يوردها منه، ولا أشد استحضارًا للمتون وعزوها منه، كأن السنة نُصب عينيه وعلى طرف لسانه، بعبارة رشيقة وعين مفتوحة... ومن خالطه وعرفه قد ينسبني إلى التقصير فيه، ومن نابذه وخالفه قد ينسبني إلى التغالي فيه، وقد أُوذيت من الفريقين: من أصحابه وأضداده. وكان أبيض أسود الرأس واللحية قليل الشيب، شعره إلى شحمة أذنيه كأن عينيه لسانان ناطقان، رَبْعة من الرجال بعيد ما بين المنكبين جَهْوري الصوت فصيحًا سريع القراءة تعتريه حدَّة لكن يقهرها بالحلم.. وقال تعتريه حدة في البحث وغضب تزرع له عداوة في النفوس.

كتب الذهبي إلى السبكي يعاتبه بسبب كلام وقع منه في حق ابن تيمية فأجابه: وأما قول سيدي في الشيخ تقي الدين فالمملوك يتحقق كبير قدره وزخارة بحره وتوسعه في العلوم النقلية والعقلية وفرط ذكائه واجتهاده وبلوغه في كل من ذلك المبلغ الذي يتجاوز الوصف، والمملوك يقول ذلك دائمًا، وقدره في نفسي أكثر من ذلك وأجل مع ما جمعه الله له من الزهادة والورع والديانة ونصرة الحق والقيام فيه لا لغرض سواه وجريه على سنن السلف وأخذه من ذلك بالمأخذ الأوفى، وغرابة مثله في هذا الزمان بل من الزمان. وقال ابن سيد الناس إنه برَّز في كل فنٍّ على أبناء جنسه، ولم تر عين من رآه مثله، ولا رأت عينه مثل نفسه.

بدأت محنة شيخ الإسلام لما تمت أدواته وشاعت فتاويه في مسائل وجد منها حساده مدخلًا لهم فناقشوه وكفَّروه وبَدَّعوه واعتقله الولاة وغَرَّبوه، وكان منذ سنة تسع وتسعين ظهرت شخصيته السياسية في البلاد وبدأ تعويل الأمة عليه في دفع أعدائها عنها في نوبة غازان، فقام بأعباء الأمر بنفسه واجتمع بنائبه وجرأ على المغول وتوجه بعد ذلك بعام إلى الديار المصرية لما اشتد الأمر بالشام من المغول واستصرخ بأركان الدولة وحضهم على الجهاد، ثم

عاد بعد أيام إلى دمشق وظهر اهتمامه بجهاد التتار وتحريضه الأمراء على ذلك إلى ورود الخبر بانصرافهم، وقيامه القيام المحمود في وقعة شقحب سنة اثنتين وسبعمئة واجتماعه بالخليفة والسلطان وأرباب الحل والعقد وتحريضهم على الجهاد، ثم توجهه في آخر سنة أربع وسبعمئة لقتال الكسروانيين واستئصال شأفتهم، ثم مناظراته للمخالفين في سنة خمس في المجالس التي عقدت له بحضرة نائب السلطنة الأفرم وظهوره عليهم بالحجة والبيان، ورجوعهم إلى قوله طائعين مكرهين. ثم توجهه بعد ذلك في السنة المذكورة إلى الديار المصرية في صحبة قاضي القضاة الشافعية وعقدهم له مجلسًا حين وصوله بحضور القضاة وأكابر الدولة، ثم حبسه في الجب بقلعة الجبل ومعه أخواه سنة ونصفًا، ثم إخراجه بعد ذلك وعقدهم له مجلسًا ظهر فيه على خصومه، ثم عقدهم له مجلسًا سنة سبع لكلامه في طريقة الاتحادية، ثم الأمر بتسفيره إلى الشام على البريد، ثم الأمر برده من مرحلة وسجنه بحبس القضاة سنة ونصفًا، ثم إخراجه منه وتوجهه إلى الإسكندرية وجعله في برج حبس فيه ثمانية أشهر، ثم توجهه إلى مصر واجتماعه بالسلطان في مجلس ضم القضاة وأعيان الأمراء، وإكرامه له إكرامًا عظيمًا ومشاورته له في قتل بعض أعدائه وامتناع الشيخ عن ذلك، ثم سكناه القاهرة، ثم توجهه إلى الشام، ثم ملازمته بدمشق لنشر العلوم وتصنيف الكتب وإفتاء الخلق إلى أن تكلم بمسألة الحلف بالطلاق، فأشار عليه بعض القضاة بترك الإفتاء بها في سنة ثماني عشرة فقبل إشارته دفعًا للفتنة، ثم ورد كتاب السلطان بعد أيام بالمنع من الفتوى بها، ثم عاد الشيخ إلى الإفتاء بها وقال: لا يسعني كتمان العلم، وبقي كذلك مدة إلى أن حبسوه بالقلعة خمسة أشهر وثمانية عشر يومًا ولم يزل على عادته من الاشتغال والتعليم إلى أن ظفروا له بجواب يتعلق بمسألة شد الرحال إلى قبور الأنبياء والصالحين، كان أجاب به من نحو عشرين سنة، فشنعوا عليه بسبب ذلك وورد مرسوم السلطان في شعبان من سنة ست وعشرين بجعله في

القلعة، فأخليت له قاعة حسنة وأقام فيها ومعه أخوه يخدمه، فكتب في المسألة التي حبس بسببها مجلدات عديدة وظهر بعض ما كتبه واشتُهر وآل الأمر إلى أن منع من الكتابة والمطالعة، وأخرجوا ما عنده من الكتب ولم يتركوا دواة ولا قلمًا ولا ورقة، وكتب عقيب ذلك بفحم. وكان إخراج الكتب من عنده من أعظم النقم، وبقي أشهرًا على ذلك وأقبل على التلاوة والعبادة والتهجد حتى أتاه اليقين.

هذا مجمل ما قيل في حالة شيخ الإسلام ومع ما حاول أعداؤه أن ينغصوا عيشه دأب في كل زمن على التأليف فألف ثلثمئة مجلد وكلها في الشرع وفي حل مسائل عويصة من الدين تقرأ فيما وصلنا منها مثالًا من علمه النفيس وعلمه الذي عقمت القرون أن يأتي رجل بما يماثله. كثرت تآليفه لأنه كان يؤلف من صدره، حفظ الكتاب والسنة وما دون في شروحهما وما قاله العلماء في تفسيرهما، وقد ساعدته كثرة محفوظه وفيض خاطره وسعة بيانه على تدوين حقائق لم يكتب لعالم مثله في موضوعه، ولو لم يكن له إلا منهاج السنة لكفاه على الأيام فخرًا لا يبلى، ففيه مثال من علمه وقوة حجته ومعرفته بالملل والنحل، وإذا قلنا أنه لم يؤلف نظيره في الرد على المخالفين لأهل السنة لصدقنا كل منصف من أهل القبلة.

وكتاب منهاج السنة من أصح الشهادات على علو كعبه في معرفة الشرع وما تقلب عليه، وما حاول بعض أهل الأهواء من العبث به، وفيما أورده الموافقون والمخالفون من صحيح الآراء وبهرجها، وكان عنوان مداركه الواسعة بتاريخ الإسلام وتاريخ الملل والنحل، ولو ادعينا أنه لم يأت عالم يعرف ما طرأ على الدين ومذاهب أهله فيه ساعة ساعة ويومًا يومًا ما قدر أحد على ردِّ دعوانا.

رد على المعتزلة وعلى الجهمية وعلى الشيعة وعلى الفلاسفة وعلى غيرهم فجاء بالعجيب من الآراء التي استخرجها من روح الشريعة واستنبطها ببعد

نظره وشدة بحثه، فما كُتب لإمام من الأئمة في عصره وبعد عصره أن يناقضه ويرد أقواله.

وعلى كثرة ما حرص الشافعية للتفوق على هذا الحنبلي، وإقناع العلماء بفتاويهم وتزييف فتاويه، ما كانوا معه إلا كالأطفال أمام الرجال، وفي مقدمتهم المشايخ بنو السبكي، وما كان لهم في دولة مصر والشام من السلطان. اعتقلوه في القاهرة والإسكندرية أشهرًا لم تمنعه عن التأليف والتدريس والوعظ، وما حالوا دون إعجاب المنصفين من العلماء به وقول الحق فيه ولا دون تقديس الأمة له يوم موته، وهي التي عرفته سباقًا إلى كل خير يقصد منه صلاح دنياها ودينها، وكان له في انتصار دولة المماليك على التتار اليد الطولى التي لا تنكر، ودل أنه في السياسة كما هو في الدين إمام عظيم وأن الدين لا ينفصل عن السياسة في نظره. وما سمع لأحد علماء الدين في عصره صوت مثل صوته في إحقاق الحق ونصرة سلطان الإسلام. ونسبه قوم إلى أنه يسعى في الإمامة الكبرى فإنه كان يلهج بذكر ابن تومرت ويطريه فكان ذلك مؤكدًا لطول سجنه. ولم يرض يوم عقد الصلح مع التتار أن يتخلى عن الأسرى من النصارى واليهود فقال أنهم ذمتنا ولا بد من إرجاعهم إلى ديارهم. وكم له من مثل هذه الحسنات التي أصبحت كأنها قواعد من قواعد الشرع والسياسة لا يستغني عنها خليفة ولا سلطان.

إن استعانة خصوم ابن تيمية بقوة رجال الدولة في مسألة شد الرحال إلى قبور الأنبياء والأولياء والصالحين وفي غير ذلك من البدع التي أقروها والشريعة تنكرها إنكارًا ظاهرًا كما يُفهم من آي الكتاب العزيز وهدي الصحابة والتابعين والعلماء العاملين واغتباطهم بما ظنوه ظفرًا لهم في تلك المعركة الشديدة قد كان من نتائجه مسخ الشريعة عند المتأخرين وبقيت الأمة على إقرار الخرافات والبدع إلى يوم الناس هذا في بلاد المسلمين كافة وكأنهم اخترعوا شريعة أخرى استمالوا بها العوام ومزجوها بالشريعة الأصلية رغم

أنوف الخواص فركبوا عار الأبد ولُعِنوا بما بدَّلوا وحرَّفوا، هو لم يأت ببدع وهم سلَّموا بكل البدع. فكان العالم العامل حقًّا، وكانوا عَبَدة أوهام وضلالات. أراد شرعًا نقيًّا من الأدران، وهم تساوت عندهم النقاوة والنفاية لأنهم يقصدون بمناقشاتهم الظهور وكسب قلوب الغوغاء على أي حال.

لو عمت دعوة ابن تيمية، ولدعوته ما يماثلها في المذاهب الإسلامية، ولكنها عنده كانت حارة وعند غيره فاترة، لسلم هذا الدين من تخريف المخرفين على الدهر، ولما سمعنا أحدًا في الديار الإسلامية يدعو لغير الله، ولا ضريحًا تشد إليه الرحال بما يخالف الشرع، ولا يعتقد بالكرامات على ما ينكره دين أتى للتوحيد لا للشرك ولسلامة العقول لا للخبال والخيال.

كان ابن تيمية في النصف الثاني من عمره سراجًا وهاجًا أطفأ بعلمه وعمله شهرة أرباب المظاهر من القضاة والعلماء، وكان الصدر المقدم كلما دخل في موضوع ديني أو سياسي، وعبثًا حاول بعض الشافعية والمالكية أن يسلموه للعامة علهم يقتلونه فما استطاعوا أكثر من حجز حريته أشهرًا في سجن، وكان الملوك يحمونه من تعصب خصومه ويعرفون قدره. وكان الملك الناصر صاحب مصر يرفع من مقام ابن تيمية كثيرًا، وأراد أن يقتل من أفتوا بخلعه من العلماء، وحثه على أن يفتيه في قتل بعضهم فأنكر أن ينال أحدًا منهم بسوء وقال له: إذا قتلت هؤلاء لا تجد بعدهم مثلهم فقال له: إنهم آذوك وأرادوا قتلك مرارًا. فقال الشيخ من آذاني فهو في حِلّ، ومن آذى الله ورسوله فالله ينتقم منه، أنا لا أنتصر لنفسي، وما زال به حتى حلم عنهم السلطان وصفح. وكان قاضي المالكية ابن مخلوف يقول: ما رأينا مثل ابن تيمية حَرَّضْنا عليه فلم نقدر عليه، وقدر علينا فصفح عنا وحاجج عنا. فعل هذا ابن تيمية وخصومه يقولون: يجب التضييق عليه إن لم يقتل وإلا فقد ثبت كفره، ونحن نقول إن هذا هو الفرق العظيم بين أخلاقه وأخلاق مشاكسيه، هم كانوا ممن يهتمون لدنياهم ومظاهرهم وهو كان يهتم للأخرى فقط، وشتان بين

المطلبَيْن. كان يهتم لنشر الدين والقضاء على البدع بقلبه ولسانه وقلمه وهَمُّهم أن يرضى عنهم السلطان فيبقيهم في مناصبهم ويستميلوا العامة فيقبِّلوا أيديهم.

هو يقول لنائب قلعة دمشق في فتنة غازان: لو لم يبق فيها إلا حجر واحد فلا تسلمهم ذلك إن استطعت، فَسلِمت القلعة من أذى التتار، وكان يدور كل ليلة على الأسوار يحرض الناس على الصبر والقتال ويتلو عليهم آيات الجهاد والرباط، وكذلك كان شأنه في وقعة شقحب وكان يعد المسلمين بالنصر هذه المرة ويؤكد كلامه في ذلك حتى نصروا على عدوهم. وفي قتال الجرديين والكسروانيين أبان أيضًا عن سياسة رشيدة وأرجع بعض الناشزين من أهلهما إلى الإسلام.

من أهم المسائل التي حاول حساد ابن تيمية أن ينالوا بها منه مسألة شد الرحال إلى قبور الصالحين وغيرهم. قال ابن كثير: إن جواب ابن تيمية في هذه المسألة ليس فيه منع زيارة قبور الأنبياء الصالحين، وإنما فيه ذكر قولين في شد الرحل والسفر إلى مجرد زيارة القبور. وزيارة القبور من غير شد رحل إليها مسألة، وشد الرحل لمجرد الزيارة مسألة أخرى. والشيخ لم يمنع الزيارة الخالية عن شد رحل بل يستحبها ويندب إليها، وكتبه ومناسكه تشهد بذلك، ولم يتعرض إلى هذه الزيارة في هذا الوجه في الفتيا ولا قال إنها معصية ولا حكى الإجماع على المنع منها ولا هو جاهل قول الرسول: «زوروا القبور فإنها تذكركم الآخرة».

ثار عليه مرة جماعة من الحسدة وشكوا منه أن يقيم الحدود ويعزر ويحلق الرؤوس أيضًا وتكلم هو فيمن يشكو منه ذلك وبيَّن خطأهم. وراح مرة في ثلة من أصحابه ومعهم حجَّارون وأمرهم بقطع صخرة كانت بنهر قلوط بدمشق تزار وينذر لها فقطعها وأراح المسلمين منها ومن الشرك بها، فأزاح عن المسلمين شبهة كان شرُّها عظيمًا. قال ابن كثير: وبهذا وأمثاله حسدوه وأبرزوا له العداوة، وكذلك بكلامه بابن عربي وأتباعه، فحسد على ذلك

وعودي ولم يصلوا إليه بمكروه، وإنما أخذوه وحبسوه بالجاه. قال: ولم يزل الشيخ ملازمًا لاشتغال الناس في العلوم ونشر العلم وتصنيف الكتب وإفتاء الناس بالكلام والكتابة المطولة والاجتهاد في الأحكام الشرعية. ففي بعض الأحكام يفتي بما أدى إليه اجتهاده من موافقة أئمة المذاهب الأربعة، وفي بعضها يفتي بخلافهم وبخلاف المشهور في مذاهبهم. وله اختيارات كثيرة في مجلدات عديدة أفتى فيها بما أدى إليه اجتهاده، واستدل على ذلك من الكتاب والسنة وأقوال الصحابة والسلف.

رجل هذا شأنه يكفره القاضي المالكي ويحاول قتله، والتعزير عند المالكية القتل، ولا تشتفي نفوس بعض العلماء والسياسيين حتى ينادَى بدمشق: من اعتقد عقيدة ابن تيمية حَلَّ دمه وماله خصوصًا الحنابلة. وجمعوا الحنابلة من صالحية دمشق وغيرها وأشهدوا على أنفسهم أنهم على معتقد الإمام الشافعي.

قال الصلاح الصفدي كان كثيرًا ما ينشدني:

تموت النفوس بأوصابها ... ولم يدر عوّادها ما بها

وما أنصفت مهجة تشتكي ... أذاها إلى غير أحبابها

وأنشد على لسان الفقراء (جماعة الطرق):

والله ما فقرنا اختيار ... وإنما فقرنا اضطرار

جماعة كلنا كسالى ... وأكلنا ماله عيار

تسمع منا إذا اجتمعنا ... حقيقة كلها فشار

(٤٨)

# الذهبي

## محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز

(٧٤٨)

شمس الدين أبو عبد الله التركماني الفارقي، جاءته النسبة إلى الذهبي لأن والده برع في صنعة الذهب المدقوق وتميَّز فيها.

مؤرِّخ ولا كالمؤرخين ومحدِّث ولا كالمحدثين. هو رجلساير العقل فتفرد في تآليفه، ونظر في ما حواه صدره من أصناف العلم نظرة بليغة، فأتى بجديد ضمه إلى القديم فسد ثلمة كانت لولاه فارغة، وقام بغرض كان بعضهم يعده نافلة. هو إمام تعب بعلمه حتى يستريح مَن بعده.

كُتِب التخليد والتأبيد لتآليفه وجاءت على توخيه فيها الاختصار زبدًا من علم الإسلام وتكملة لتاريخ رجاله، تلمح في صفحاتها بُعْدَ النظر وسداد الرأي، وإنصاف الحكم، وتقف أمامها تُكْبِر صنع واضعها ومدوِّنها، وتقول إن دمشق يحق لها إذا عدت في مفاخرها الحافظ ابن عساكر في القرن السادس أن تفخر بأنها كانت مجال علم الحافظ الذهبي في القرن الثامن، وكلاهما لم تقف شهرته والانتفاع بما كتب عند حد دمشق أو الديار الشامية بل تعدتها إلى الشرق والغرب فغدا من أعظم المؤرخين في المسلمين.

ترجم الصفدي للذهبي في نكت الهميان، وعده في العميان لأنه أضر قبل موته بأربع سنين أو أكثر، فقال: حافظٌ لايجارَى ولافظٌ لا يبارَى، أتقن الحديث ورجاله، ونظر علله وأحواله، وعرف تراجم الناس وأزال الإبهام في تواريخهم والالتباس، مع ذهن يتوقد ذكاؤه، ويصح إلى الذهب نسبته

وانتماؤه، جمع الكثير، ونفع الجم الغفير، وأكثر من التصنيف، ووفر بالاختصار مؤونة التطويل في التأليف. وقف الشيخ كمال الدين ابن الزملكاني على تاريخه الكبير المسمى تاريخ الإسلام جزءًا بعد جزء إلى أن أنهاه مطالعة وقال: هذا كتاب علم.

قال الصفدي: اجتمعتُ به وأخذت عنه وقرأت عليه كثيرًا من تصانيفه، ولم أجد عنده جمود المحدثين، ولا كودنة النقلة، بل هو فقيه النظر، له دربة بأقوال الناس، ومذاهب الأئمة من السلف وأرباب المقالات. وأعجبني ما يعانيه في تصانيفه من أنه لا يتعدى حديثًا يورده حتى يبيِّن ما فيه من ضعف متن، أو ظلام إسناد، أو طعن في رواة. والكودنة من الكودن هو البرذون يوكف ويشبَّه به البليد يقال: ما أبين الكدانة فيه أي الهجنة. وقالوا فيه: هو «رجل الرجال في كل سبيل كأنما جمعت آلاته في صعيد واحد فنظرها ثم أخذ يخبر عنها إخبار من حضرها» «ما زال يخدم هذا الفن ـ فن الحديث ـ حتى رسخت فيه قدمه، وتعب الليل والنهار وما تعب لسانه وقلمه، وضُربت باسمه الأمثال» «ورغب الناس في تواليفه ورحلوا إليه بسببها وتداولوها قراءة ونسخًا وسماعًا».

وهذه الجمل القليلة تنبئ بما حملت نفس الذهبي العظيمة، وما صرف فيه أيام عمره التي بورك له فيها فصنف التصانيف الكثيرة الجليلة منها تاريخ الإسلام الكبير في أحد وعشرين مجلدًا، ومختصره سير النبلاء في عدة مجلدات، ومختصره العبر، وطبقات الحفاظ، وطبقات مشاهير القراء، والتاريخ الممتع في ستة أسفار، وكل ذلك لم يطبع والمطبوع من تآليفه «دول الإسلام» ومشتبه النسبة، وتذهيب التهذيب، وميزان الاعتدال في نقد الرجال وغيره. ومن ألقى نظرة على المشتبه عرف تفرُّد الذهبي بمعارف جليلة وأدرك إحاطته. وقد اختصر عدة تواريخ وكتب في الطبقات، وله تصانيف أخرى لم تُشْتَهر.

جمع الذهبي القراءات السبع، وسمع الحديث ببلاد كثيرة من خلائق يزيدون على ألف ومئتين بالسماع والإجازة، وسمع وأملى «ما لا يحصى كثرة من الكتب الكبار والأجزاء على خلق كثير». والغالب أنه لم تتعدَّ رحلاته الشام ومصر والحجاز، ذكر في تاريخ الإسلام في ترجمة كمال الدين أبي الفرج البغدادي أنه انتهى إليه علو الإسناد في عصره، وعُمِّر دهرًا طويلًا قال: وكنت في سنة أربع وتسعين وسنة خمس أتلهف على لقيه وأتحسر وما يمكنني الرحلة إليه لمكان الوالد ثم الوالدة.

قال في الدرر الكامنة: إنه تخرج على علماء عصره في دمشق والقاهرة ومَهَرَ في فن الحديث وجمع فيه المجاميع المفيدة الكثيرة حتى كان أكثر أهل عصره تصنيفًا، وجمع تاريخ الإسلام فأربى فيه على من تقدمه بتحرير أخبار المحدثين خصوصًا، وقطعه من سنة سبعمئة، واختصر منه مختصرات كثيرة منها: العبر، وسير النبلاء، وملخص التاريخ قدر نصفه، وطبقات الحفاظ، وطبقات القراء، والإشارة وغير ذلك، واختصر السنن الكبيرة للبيهقي فهذبه وأجاد فيه. وله الميزان في نقد الرجال أجاد فيه أيضًا، واختصر تهذيب الكمال لشيخه المزي، وخرج لنفسه المعجم الكبير والصغير والمختص بالمحدثين، فذكر فيه غالب الطبقة من أهل ذلك العصر، وعاش الكثير منهم بعده إلى نحو الأربعين سنة، أخرج لغيره من شيوخه ومن أقرانه ومن تلامذته. وقالوا فيه إنه خرج لجماعة من شيوخه وأقرانه وعدل وخرَّج وصحح واستدرك وأفاد وانتقى واختصر كثيرًا من تواريخ المتقدمين والمتأخرين.

وطعن عليه ابن الوردي في ذيل تاريخ أبي الفداء وقال: إنه منقطع القرين في معرفة أسماء الرجال محدث كبير مؤرخ، وقال إنه استعجل قبل موته فترجم في تواريخه الأحياء المشهورين بدمشق وغيرها، واعتمد في ذكر سير الناس على أحداث يجتمعون به وكان في أنفسهم من الناس، فآذى بهذا السبب في مصنفاته أعراض خلق من المشهورين.

وكلام ابن الوردي موضع نظر؛ فإن الذهبي يتعذر عليه أن يقف على تراجم المئات ممن ترجم لهم بدون أن يستعين بتلاميذه وأصحابه، وهو ليس له تارات على أحدٍ حتى يعلي منهم ويخفض على هواه، ولكن الناس لا يرضيهم إذا أعطوا حقهم من الترجمة ولو بزيادة قليلة ويغتبطون إذا زادهم المؤلف ما يربو على استحقاقهم. فإن غلطة واحدة غلطها ابن الوردي في المبالغة بأبي الفداء أكبر من كل غلطة للذهبي إذا صح أنه غلط في ترجمة بعضهم، وما راق ابن الوردي إلا الطعن بالذهبي، وأي غلطة أعظم من أن يقول ابن الوردي إنه ليس في الملوك بعد المأمون أفضل من أبي الفداء، وما كان هذا في حقيقته أكثر من والٍ عند المماليك يقبِّل الأرض بين أيديهم لتصفو له عمالة حماة وهذه كل مملكته، وإذا رجعنا إلى تآليفه نجد تاريخه خلاصة ما كتبه ابن الأثير وغيره، وكتابه تقويم البلدان منقول من كتاب آخر وليس هو بأكثر من فهرس معجم جغرافي، فكيف يكون مَن هذه سياسته وهذا علمه ثاني المأمون العباسي!

وبالطبع كان المخالفون للذهبي في مذهبه يطعنون عليه بأنه يتحيَّز لجماعته ويحط من أقدار مخالفيه. شنشنة قديمة للنَّيْل من المؤلفين بل لنيل المغمورين من المشهورين. قارن حافظ الشام ابن ناصر الدين بين الذهبي والبرزالي والمزي فحكم للمزي بالتفوق في معرفة رجال طبقات الصدر الأول، وللبرزالي في العصرين ومن قبلهم من الطبقات القريبة منهم، وللذهبي في الطبقات المتوسطة بينهما تأييدًا لقول بعض مشايخه، على أن الأهواء قلما تتغلب على المزي والبرزالي في تراجم الناس بخلاف الذهبي اهـ.

وقالوا: إن الذهبي شديد الميل إلى آراء الحنابلة لا ينصف الأشاعرة في التراجم. وقال فيه السبكي في طبقاته ـ وبنو السبكي من غلاة الشافعية ـ صنَّف التاريخ الكبير وما أحسنه لولا تعصب فيه. وعداوة الشافعية للحنابلة مشهورة. ومثل الذهبي بعلمه يود كل شافعي وكل حنبلي أن ينطق باسم أهل مذهبه

ويرعاهم وينحي على خصومهم، وهذا يستحيل على من تشبع بروح التاريخ كالحافظ الذهبي، وميله إلى الحنابلة أمر طبيعي فهو إمام الحديث، والحنابلة لا يقيمون وزنًا قبل كل شيءٍ لغير الحديث.

تولى الذهبي مشيخة الظاهرية قديمًا ومشيخة النفيسية والفاضلية والسكرية وأم الملك الصالح، وتولى في شبابه سنة (٧٠٣) خطابة قرية كفربطنا من الغوطة، وأقام بها ولما تولى درا الحديث الظاهرية نزل عن خطابة كفربطنا. وقيل: إنه ولد في كفربطنا والأرجح أنه ولد في دمشق، وهو من أصل تركماني وفي أجداده من اسمه قايماز، أما الفارقي فنسبته لميارفارقين من بلاد الجزيرة قريبة من آمِد «ديار بكر» ومن شعره:

تولى شبابي كأن لم يكن ... وأقبل شيب علينا تولى
ومن عاين المنحنى والنقى ... فما بعد هذين إلا المصلى

ومنه:

إذا قرأ الحديث عليّ شخص ... وأخلى موضعًا لوفاة مثلي
فما جازى بإحسان لأني ... أريد حياته ويريد قتلي

عاش الحافظ خمسًا وسبعين سنة وأنتج هذا الإنتاج العجيب، فهو من أفراد الدهر.



(٤٩)

# ابن فضل الله العمري

## شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله

(٧٤٩)

ولد في دمشق سنة ٧٠٠ ومات فيها، ويتصل نسبه بعمر بن الخطاب فهو قرشي عدوي عمري، وبيته بيت رئاسة وعلم جاء نقي الدم سامي البيئة. قرأ العربية على ابن قاضي شهبة ثم على قاضي القضاة شمس الدين مسلم، وتفقه على قاضي القضاة شهاب الدين بن المجد عبد الله وعلى الشيخ برهان الدين الفزاري، وقرأ الأحكام الصغرى على الشيخ تقي الدين بن تيمية، والعَروض على الشهاب محمود وعلاء الدين الوداعي وقرأ عليه جملة من دواوين العرب، والأصول على الشيخ شمس الدين الأصفهاني، وأَخذ اللغة عن الشيخ أثير الدين، وأجازه العارفون أَن يفتي على مذهب الشافعي، وروى الحديث عن كثير من الرجال والنساء ومنهن ست الوزراء وست القضاة، وفي بيته وعن أبيه أخذ فن السياسة، وزاده تمرسه بها في ديوان القاهرة لما غدا أمين سر السلطان، والسلطان يومئذٍ الناصر قلاوون أرقى سلاطين المماليك، والدولة المصرية في عهده متصلة بالغرب اتصالًا وثيقًا وترهبها أوربا لقوتها.

هذا علمه وهؤلاء من تخرج بهم وهم من الأفذاذ في فنونهم، فكأنه خريج مدرسة جامعة في هذا العصر، تعاورت تثقيفه أيدي مختصين معروفين، ونمّى معلوماته بالعمل أكثر من النظر، ومَن تأمَّل أساتذته وما تلقاه عنهم من المعارف لا يحكم إلا بأنه عالم ديني تبحَّر في علوم الأدب فقط، ولكنه اعتمد على مطالعاته الخاصة فجاء منه مؤرخ وجغرافي وفلكي وسياسي

ومهندس ومصور «وكان يكتب من رأس القلم ما يعجز عنه غيره في مدة». وأجمل ما فيه أخلاقه النبيلة وإخلاصه في عامة حالاته.

وصفه ابن كثير بأنه «يشبه القاضي الفاضل في زمانه، وأنه كان حسن الذاكرة، سريع الاستحضار، جيد الحفظ، فصيح اللسان، حسن الأخلاق، يحب العلماء والفقراء»، وله مواطن تجلى فيها شدة إخلاصه لدينه وعقيدته وأمانته لسلطانه ودولته. حدث أن أرسل ملك فرنسا «ريد فرنس» إلى السلطان قلاوون رسولًا يطلب بيت المقدس على أن يبذل مئتي ألف دينار تعجل، ويحمل في كل سنة دخل نصف البلاد ويطرف بغرائب التحف والهدايا. وحسّن هذا كتاب من كتبة القبط كانوا صاروا رؤساء في الدولة، فقام مؤلفنا هو وأبوه لِيَلْوِيا السلطان عن رأيه إن أصغى إلى أُولئك الأفكة، وأزمعا أن يكلما السلطان وإن خُضِّبت ثيابهما بالدم. ولما ولي أبوه كتابة السر في القاهرة كان هو يقرأ كتب البريد على السلطان، ثم غضب هذا عليه وصادره واعتقله، ثم رضي عنه واستدعاه واستحلفه على المناصحة، فباشر الإنشاء، وبعد سنتين عزل ورتب له مرتبات عظيمة، وبقي بطالًا إلى أن هلك بحمى الربع يوم عرفة عن تسع وأربعين سنة.

وصفه المقريزي بحدة المزاج وشراسة الخلق وقوة النفس. وإن صحت هذه الشراسة فلا تكون في غير مصلحة الدولة: مثال ذلك أن السلطان قرر في كتابة السر علم الدين ابن القطب، فغض ابن فضل الله من القطب، وقال: إنه قبطي فلم يلتفت السلطان لذلك، فكتب له توقيعه على كره، وأمره أن يكتب فيه زيادة في معلومه فامتنع، فعاوده فنفر، وقام بين يدي السلطان مغضبًا وقال: خِدْمتك عليَّ حرام. فلفظة شراسة شديدة، والأَوْلى أَن يوصف بصلابة العود أَو يُكْتفَى بقوة النفس.

لابن فضل الله كتابان جليلان لا نظير لهما في بابهما، قل أن ظهرت بعد عصره تآليف في معناهما بلغت هذا المبالغ من التنقيح وعدم الحشو. الأول

أوحى إليه تأليفه صلته بديوان الإنشاء وهو «كتاب التعريف بالمصطلح الشريف»، وهو سِفْر بديع لم يُبْقِ شاردة في تراتيب الدولة إلا أتى عليها؛ ففيه نموذجات مما يكتب به إلى ملوك الأطراف، وكل ما يتعلق بدواوين الملك من رتب المكاتبات وعادات العهود والتقاليد والتفاويض والتواقيع والمراسيم والمناشير، ونسخ الإيمان والأمانات والدفن والهدن والمواضعات والمفاسخات، وما هو داخل في نطاق كل مملكة وما هو مضاف إليها من المدن والقلاع والرساتيق.

أما كتابه الثاني الذي ينادي على وجه الدهر باتساع علمه ومعرفته في تقويم البلدان والتاريخ والرجال والأدب والاجتماع والهندسة والسياسة والفلك والنقش والتصوير والبناء فهو كتاب «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار». جاء الأصل في سبعة وعشرين مجلدًا تحمل الشيء الكثير من تحقيقات صاحبه وحسن تأتيه في بحثه، فلم يَذكر عجيبةً حتى فحص عنها ولا غريبةً حتى ذكر الناقل لها لتكون عهدتها عليه ويتبرأ هو منها.

وطريقته في نقل الأخبار التحقيق لأكثر ما يعرف بتكرار السؤال واحدًا بعد واحد، عما علمه من أحوال بلاده وما فيها، وما اشتملت عليه في الغالب. قال: وكنت أسأل الرجل عن بلاده ثم أسأل الآخر لأقف على الحق، فما اتفقت عليه أقوالهم أو تقاربت أثبتُّه وما اختلفت فيه أقوالهم أو اضطربت تركته. ثم إني أترك الرجل المسؤول مدة، أناسيه فيها عما قال، ثم أُعيد عليه السؤال عن بعض ما كنت سألت، فإن ثَبَتَ على قوله الأول أثبتُّ مقاله، وإن تزلزل أذهبت في الريح أقواله. كل هذا لأتروَّى في الرواية وأتوثق في التصحيح.

شرع في وضع مسالك الأبصار أيام الناصر محمد بن قلاوون، ووشَّحه باسمه مشفوعًا بألقاب ضخمة، وَسَمَهُ باسم عظيم عاش في نعمته، وكان آل بيت فضل الله في أسبابه ومن صنائعه.

ومن أجمل ما كُتب في التعريف بابن فضل الله قول الصلاح الصفدي في حقه: «هو الإمام الفاضل البليغ المفوَّه الحافظ، حجة الكتَّاب إمام أهل الأدب، أحد رجالات الزمان كتابة وترسلًا، وتوسلًا إلى غايات المعالي وتوصلًا، وإقدامًا على الأسود في غاباتها، وإرغامًا لأعدائه بمنع رغائها... صرف الزمان أمرًا ونهيًا، ودبر الممالك تنفيذًا ورأيًا، ووصل الأرزاق بقلمه، ورويت تواقيعه وهي سجلات لحُكمه وحِكَمه. ولا أرى أن اسم الكاتب يصدق على غيره ولا يطلق على سواه... ولا أعتقد أن بينه وبين القاضي الفاضل من جاء مثله... هذا مع ما فيه من لطف أخلاق، وسعة صدر، وبشر محيًا. رزقه الله أربعة أشياء لم أرها اجتمعت في غيره وهي **الحافظة**، فما طالع شيئًا إلا كان مستحضرًا لأكثره، **والذاكرة** التي إذا أراد ذكر شيء من زمن متقدم كان ذلك كأنه مرّ بالأمس، **والذكاء** الذي يتسلط به على ما أراد، **وحسن القريحة** في النظم والنثر. أما فكره فلعله في ذروة كان أوج الفاضل لها حضيضًا ولا أرى أحدًا يلحقه فيه جودة وسرعة. وأما نظمه فلعله لا يلحقه فيه إلا الأفراد، وأضاف الله تعالى له إلى ذلك كله حسن الذوق الذي هو العمدة في كل فن، وهو أحد الأدباء الكَمَلَة الذين رأيتهم. وأعني بالكملة الذين يقومون بالأدب علمًا وعملًا في النظم والنثر ومعرفة تراجم أهل عصره، وقد تقدمهم على اختلاف طبقاتهم، وبخطوط الأفاضل وأشياخ الكتابة. ثم إنه شارك من رأيته من الكملة في أشياء وانفرد عنهم بأشياء بلغ فيها الغاية لأنه جوَّد في الإنشاء، والنثر وهو فيه آية والنظم وسائر فنونه، والترسل البارع عن الملوك. ولم أر من يعرف تواريخ الملوك المغل من لدن جنكيز خان وهلم جرًّا معرفته، وكذلك ملوك الهند والأتراك. وأما معرفة الممالك والمسالك وخطوط الأقاليم والبلدان وخواصها، فإنه فيها إمام وقته، وكذلك معرفة الإسطرلاب وحلّ التقويم وصور الكواكب. وقد أَذِنَ له العلَّامة شمس الدين الأصفهاني في الإفتاء على المذهب الشافعي؛ فهو حينئذ أكمل الكملة الذين

رأيتهم. ولقد استطرد الكلام يومًا في ذكر القضاة فسرد ذاكرًا القضاة الأربعة الذين عاصرهم شامًا ومصرًا، وألقابهم وأسماءهم وعلامة كلِّ قاضٍ منهم حتى أتى على ما كدت أقضي العجب مما رأيت.

هذا هو العظيم الذي جمع إلى معرفة السياسة علمًا عظيمًا، وما عاقه التصرف للسلطان عن الإكثار من التأليف والإجادة فيه. لم يُعمَّر كثيرًا وكان إنتاجه بالقياس إلى أيام عمره عظيمًا جدًّا، وأعجب الناس بما كتب في شبابه وكهولته، وماذا كان يتم على يده لو بلغ الشيخوخة. أثر في الدولة بعقله وإخلاصه، وأثر في أندية الأدباء والعلماء بأدبه وفنه، فهو واسع أُفق النظر، بليغ تام الثقافة، لا يصلح إلا أمثاله لدواوين الملك، لم يجمد على ما قرأ وأخذ من بيئته كل نافع حتى إنه ربما كان الفرد الذي يعرف ديار الغرب وأمم الإفرنج، وفيهم صنف كتابًا لم يصلنا، ولا عجب أن عرف المغل والترك وغيرهم من أُمم الشرق معرفة لم يدانه فيها مدانٍ، وأن يتمثل علمه تمثلًا قلما بلغه مؤلف في عصره وبعد عصره.

ذكر له الصلاح الكتبي أبياتًا تنم عن حسن ذوقه وجمال أدبه منها:

سَلْ شجيًّا عن فؤاد نزحا ... وخليًّا فيهم كيف صحا
ومحبًّا لم يذق بعدهم ... غير تبريح بهم ما برحا
مزج الدمع بذكراه لهم ... مثل خدِّي من سقاه القدحا
زاره الطيف وهذا عجب ... شبح كيف يلاقي شبحا

وقال:

أأحبابنا والعذر منا إليكم ... إذا ما شغلنا بالنوى أن نودعا
أبثكمو شوقًا أُباري ببعضه ... حَمام العشايا رنة وتوجُّعا
أبيت سمير البرق قلبي مثله ... أقضي به الليل التمام مروّعا
وما هو شوق مدة ثم ينقضي ... ولا أنه يلقى محبًّا مفجَّعا

ولكنه شوق على القرب والنوى أغصَّ الأماقي مدمعًا ثم مدمعا
ومن فارق الأحباب في العمر ساعة كمن فارق الأحباب في العمر أجمعا



(٥٠)

# الصفدي

## صلاح الدين خليل بن أبيك

(٧٦٤)

نبغ في القرن الثامن زمرة من المؤرخين في الشام ومصر اشتهروا بما نشروا وأمتعوا بما دونوا. فكان في مصر ابن المتوَّج والأدفوي والنُّوَيري وابن الفرات وابن دقماق وبيبرس المنصوري. وفي الشام البرزالي وابن كثير والذهبي وابن فضل الله العمري وأبو الفداء وابن مفلح وابن شاكر وابن الوردي. وكان بعض المؤرخين في هذا العصر من الشاميين أرجح وزنًا من المصريين. ومن نوابغ المؤرخين في الشام أبو الصفاء صلاح الدين الصفدي. كان والده من المماليك من عنصر تركي. وولد ابنه في صفد ونشأ على ما ينشأ عليه أبناء المماليك نشأة عربية خالصة «وتعانى صناعة الرسم فمهر فيها، ثم حُبب إليه الأدب فولع به، وكتب الخط الجيد، وذكر عن نفسه أن أباه لم يمكنه من الاشتغال حتى استوفى عشرين سنة، فطلب بنفسه وقال الشعر الحسن، ثم أكثر من النظم والنثر والترسل والتواقيع». وكان من ولوعه بالرسم لأول نشأته ما أخرج منه خطاطًا مبدعًا، وقوَّى فيه موهبة التصوير في الشعر والنثر، وجَمَّل أدبه في كتبه.

لم يَجِد الصفدي بغيته من العلم عند علماء بلده، وكان فيه جماعة مشهورون في الحديث والرواية والأدب، فرحل إلى دمشق يقرأ على علمائها وكانوا من أجلِّ الرجال أمثال ابن نباتة وأبي حيان النحوي والحافظ المزي وابن جماعة والحافظ الذهبي وابن سيد الناس، وعن الأول أخذ الشعر،

وعن الثاني اللغة، وعن الثالث والرابع الفقه على مذهب الشافعي، وعن الخامس التاريخ، وعن السادس المغازي والسير، وولي المناصب في دواوين الإنشاء والأموال في صفد والقاهرة ودمشق وحلب والرّحبة، ولا ندري إن كان برَّز في خدمة الدولة كما برَّز بتآليفه. وقد أتقن علوم الأدب والحديث والفقه والتاريخ وغلب عليه التاريخ ولا سيما تاريخ الرجال. قال من ترجموا له إنه من بقايا الرؤساء الأخيار وإنه كان إليه المنتهى في مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، وكان محبَّبًا إلى الناس، حسن العشرة، جميل المودة.

أدب الصفدي من أقعد أساليب الأدب في دهره لا يلتزم السجع كثيرًا، خصوصًا إذا ترجم للرجال، وشعره كثير وبعضه جيد وأجود، ويعد في باب التأليف من المكثرين المجوّدين. كتب بيده كما قال ما يقارب خمسمئة مجلد دخلت في خمسين مصنفًا. قال ولعل الذي كتبته في ديوان الإنشاء ضعفا ذلك.

وفي كتابة التاريخ راعى ما يراعيه كبار المؤرخين من القيود قال مقتبسًا عن غيره: «يشترط في المؤرخ الصدق، وإذا نقل يعتمد اللفظ والمعنى، وألا يكون الذي نقله أخذه من الذاكرة وكتبه بعد ذلك، وأن يسمِّي المنقول عنه، فهذه شروط أربعة فيما ينقله، ويشترط أيضًا لما يترجمه من عند نفسه ولما عساه يطول في التراجم من القول أو يقصر أن يكون عارفًا بحال صاحب الترجمة علمًا ودينًا وغيرهما من الصفات وهذا عزيز جدًّا، وأن يكون حسن العبارة عارفًا بمدلولات الألفاظ، وأن يكون حسن التصور، حتى يتصور حال ترجمته جميع حال ذلك الشخص، ويعبر عنه بعبارة لا تزيد عليه ولا تنقص عنه، وإلا يغلبه الهوى، فيخيِّل إليه هواه الإطناب في مدح من يحبه والتقصير في غيره بل أن يكون مجردًا عن الهوى وهو عزيز، وأن يكون عنده من العدل ما يقهر به هواه، ويسلك طريق الإنصاف. فهذه شروط أربعة أُخرى، ولك أن تجعلها خمسة، لأن حسن تصوره وعمله قد لا يحصل معهما الاستحضار

حين التصنيف، فيجعل حضور التصور زائدًا على حسن التصور والعلم، فهي تسعة شروط في المؤرخ، وأصعبها الاطلاع على حال الشخص في العلم؛ فإنه يحتاج إلى المشاركة في علمه، والقرب منه حتى يعرف مرتبته».

عمل الصفدي بهذه الشروط شروط المؤرخ في عصره فما استهدف لغضب المترجم لهم، ولا أثار حفائظ الملوك والأُمراء، وهو لم يعتن كثيرًا بتاريخ السياسة وتدوين وقائع الملوك. وساعده على الظفر بالمواد اللازمة له تنقله في ربوع مصر والشام، وخزائن الكتب يومئذ موفورة، والملوك وأَهل الخير من العلماء والأعيان يمدون المدارس والجوامع وغيرها بالكتب، ويتنافس المسلمون في اقتناء كل جيد، ويحرصون كل الحرص على الظهور بمظهر الخير، وعمل كل ما يجلبه لهم وللناس.

كتب الصفدي في الأدب والتاريخ كثيرًا، وكتبه في الأدب شروح وتعاليق وتقاييد وكناشات وبعضها مطبوع. وقد طبع له كتاب «نَكت الهميان في نُكت العميان»؛ وهو في تراجم من أُصيبوا بالعمى منذ خلقوا أو أصيبوا به على كبر. وهو منسق تنسيقًا جميلًا كسائر ما طالعناه من كتبه، ومقدمة نكت الهميان من أبدع المقدمات في موضوعه، وإبداعه في كتبه يظهر من مقدماتها. وله كتاب «الشعور بالعور» (تحت الطبع)، وشرح لامية العجم للطغرائي (٥١٤) أثبت فيه تمكنه من علوم العربية، وقد أورد فيه شيئًا من المجون ومنها الفاحش، وحلى كتابه بنكات وفوائد وأشعار وأَخبار تلذُّ وتشوق.

أما كتابه العظيم الذي خلد به ذكره، وما وصلت همم الجمعيات العلمية إلى تصنيف أعظم منه، وهو يغني عن عشرات من الكتب، ويعد معلمة رجال الإسلام في ثمانية قرون، فهو «الوافي بالوفيات» دخل في ثلاثين مجلدًا وفيه نحو أربعة عشر ألف ترجمة، ترجم فيه للخلفاء والصحابة والتابعين والأمراء والقضاة والعمال والوزراء والقراء والمحدثين والفقهاء والشيوخ والأتقياء والأولياء والنحاة والأدباء والكتاب والشعراء والأطباء والعلماء وأهل العقل

والذكاء وأرباب المقالات ورؤساء المذاهب والمتفلسفين وكلٍّ من اشتُهروا بعلم وشأن. وقد يطيل ويوجز في ترجمة من ترجم لهم بحسب ما لديه من المواد أو بقدر ما يليق أن يكسوهم من حلة تليق بهم.

ومقدمة هذا الكتاب العظيم من أمتع ما كتب مؤرخ تدل على سعة اطلاعه وسمو أدبه وعلى تدقيقه واستقصائه. وفي كتابه ما في وفيات الأعيان لابن خلكان وطبقات الأدباء لياقوت مع زيادات كثيرة فاتت هذين المؤلفين أو حدثت بعدهما. يقول العلامة كرينكو: إنّا نجد في كتاب الوافي تراجم كثيرة نحاول عبثًا الظفر بمثلها في الكتب التي تماثل الوافي بموضوعها، والفهرس التام لأسماء الأشخاص الذين وردت تراجمهم في الأجزاء المعروفة من هذا الكتاب يتألف منها مجلد ضخم.

افتتح الوافي فيمن اسمه محمد فبدأه باسم صاحب الشريعة عليه الصلاة والسلام وثنى بمن اسمه محمد من الأعيان، ثم عاد فساق التراجم على حروف المعجم بعبارة تقرأ فيها التحقيق بهذا الإنشاء الرقيق. وقد خص المقدمة بمصطلحات الأمم ولا سيما العرب والفرس واليهود في حساب السنين والتاريخ وكيفية كتابة التاريخ وفي الأنساب والكنى والألقاب والعلم وفي الهجاء والإملاء والاختصار وفيمن كتب في التاريخ وفيما يراد بالوفاة والوفيات وفي فائدة التاريخ وصفات المؤرخ وتواريخ الشرق وقد ساق اسم ٢٨٢ تاريخًا من تواريخ المشرق وتاريخ المغرب والتواريخ الجامعة وتواريخ الملوك والوزراء والعمال والقضاة والقراء والعلماء والشعراء. قال وأما كتب الجرح والتعديل والأنساب ومعاجم المحدثين ومشيخات الحفاظ والرواة فإنها شيء لا يحصره حد، ولا يقصره عدّ، ولا يستقصيه ضبط، ولا يستدنيه ربط.

وهذا نموذج من تراجمه:

ناصر الدين ابن المقدسي: ولي سنة ٦٧٨ وكالة بيت المال ونظر جميع

الأوقاف بدمشق وفتح أبواب الظلم وخلع عليه بطرحة غير مرة، وخافه الناس، وظلم وعسف وعدا طوره وتحامق حتى تبرم به النائب ومن دونهُ، وكاتبوا فيه فجاء الجواب بالكشف عما أكل من الأوقاف، ومن أموال السلطان والبرطيل، فرسموا عليه بالعذراوية، وضربوه بالمقارع فباع ما يقدر عليه، وحمل جملة وذاق الهوان، واشتفى منه الأعادي، وكان قد أخذ من الناصري الزنبقية، وكان يباشر شهادة جامع العقيبة فحصل بينه وبين قاضي القضاة بهاء الدين بن الزكي نفرة فتوجه إلى مصر ودخل على الشجاعي فأدخله على السلطان وأخبره بأشياء منها: أمر بنت الملك الأشرف موسى بن العادل وأنها باعت أملاكها، وهي سفيهة، تساوي أضعاف ما باعته، فوكله السلطان وكالة خاصة وعامة فرجع إلى دمشق وطلب مشتري أملاكها بعد أن أثبت سفهها فأبطل بيعها، واسترجع الأملاك من السيف السامري وغيره، وأخذ منهم تفاوت المغلّ وأخذ الخان الذي بناه الملك الناصر قريب الزنجيلية وبساتين بالنيرب ونصف حزرما ودار السعادة وغير ذلك الخ، ثم طُلب إلى مصر فوجد مشنوقًا بعمامته.

وقال في ترجمة رجار صاحب صقلية: رجار ملك الفرنج صاحب صقلية هلك في الخوانيق سنة ثمان وأربعين وخمسمئة، ويقال فيه أجار بهمزة بدل الراء وجيم مشددة وبعد الألف راء، كان فيه محبة لأهل العلوم الفلسفية، وهو الذي استقدم إليه الشريف الإدريسي صاحب كتاب «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» من العُدْوَة ليصنع له شيئًا في شكل صورة العالم، فلما وصل إليه أكرم نُزُله، وبالغ في تعظيمه، فطلب منه شيئًا من المعادن ليصنع منه ما يريد، فحمل إليه من الفضة الحجر وزن أربعمئة ألف درهم، فصنع منها دوائر كهيئة الأفلاك وركب بعضًا على بعض، ثم شكّلها له على الوضع المخصوص، فأُعجب بها رجار ودخل في ذلك ثلث الفضة وأرجح بقليل، وفضل له ما يقارب الثلثين، فتركه له إجازة، وأضاف لذلك مئة ألف درهم

ومركبًا موسقًا كان قد جاء إليه من برشلونة بأنواع الأجلاب الرومية التي تجلب للملوك، وسأله المقام عنده قائلًا: ومتى كنت في بلاد المسلمين لا تأمن ملوكهم على نفسك، ومتى كنت عندي أمنت على نفسك، فأجابه إلى ذلك ورتب له كفاية لا تكون إلا للملوك، وكان يجيء إليه راكب بغلة فإذا صار عنده يتنحى له عن مجلسه فيأتي فيجلسان معًا وقال له: أريد تحقيق أخبار البلاد بالمعاينة، لا بما ينقل من الكتب، فوقع اختياره على أناس ألبَّاء فطناء أذكياء وجهزهم رجار إلى أقاليم الشرق والغرب جنوبًا وشمالًا، وسفر معهم مصورين ليصوروا ما يشاهدونه عيانًا، وأمرهم بالتقصي والاستيعاب لما لا بد من معرفته. وكان إذا حضر أحد منهم بشكل أثبته الشريف الإدريسي حتى تكامل ما أراد وجعله مصنفًا، وهو كتاب «نزهة المشتاق» الذي للشريف الإدريسي. وكان رجار المذكور قد أخذ طرابلس الغرب عَنوة بالسيف في يوم الثلاثاء سادس المحرم سنة إحدى وأربعين وخمسمئة وقتل أهلها وسبى الحريم والأطفال وأخذ الأموال، ثم إنه شرع في تحصينها بالرجال والعدد، ثم إنه أخذ المهدية سنة ثلاث وأربعين وخمسمئة لأن صاحبها الحسين بن علي بن يحيى بن تميم بن المعز الصنهاجي عجز عن مقاومته، فخرج من المهدية هاربًا بما خف من النفائس، وخرج مَن قَدَرَ على الخروج. ولما هلك رجار ملك بعده ولد غليلم، وعليه قدم ابن قلاقس الإسكندري سنة ثلاث وستين وخمسمئة وامتدحه بقصيدة، إلى آخر ما قال.

وانظر إلى هذا النموذج من تحقيقه العلمي أتى عليه بالمناسبة في شرح لامية العجم، وذلك رأيه في سلامة الترجمة من اللغات الأعجمية إلى العربية قال: وللتراجمة في النقل طريقان أحدهما طريق يوحنا بن البطريق وابن الناعمة الحمصي وغيرهما، وهو ألا ينظر إلى كل كلمة مفردة من الكلمات اليونانية وما تدل عليه من المعنى فيأتي بلفظة مفردة من الكلمات العربية ترادفها في الدلالة على ذلك المعنى فيثبتها وينتقل إلى الأخرى، وكذلك حتى

يأتي على جملة ما يريد تعريبه. وهذه الطريقة رديئة لوجهين أحدهما أنه لا يوجد في الكلمات العربية كلمات تقابل جميع الكلمات اليونانية، ولهذا وقع في خلال هذا التعريب كثير من الألفاظ اليونانية على حالها. الثاني أن خواص التركيب والنسب الإسنادية لا تطابق نظيرها من لغة أخرى دائمًا. وأيضًا يقع الخلل من جهة استعمال المجازات وهي كثيرة في جميع اللغات. الطريق الثاني في التعريب طريقة حنين بن إسحاق والجوهري وغيرهما وهو أن يأتي إلى الجملة فيحصل معناها في ذهنه ويعبر عنها من اللغة الأخرى بجملة تطابقها سواء ساوت الألفاظ أم خالفتها. وهذه الطريق أجود، ولهذا لم تحتج كتب حنين بن إسحاق إلى تهذيب إلا في العلوم الرياضية لأنه لم يكن قيمًا بها بخلاف كتب الطب والمنطق والطبيعي والإلهي، فإن الذي عرَّبه منها لم يحتج إلى إصلاح، فأما أوقليدس فقد هذبه ثابت بن قرة الحراني وكذلك المجسطي والمتوسطات منها اهـ.



(٥١)

# ابن خلدون

## ولي الدين أبو زيد عبد الرحمن بن محمد

**(٨٠٨)**

جرى أكثر المؤلفين على اتباع سَنَن مَن قَبْلهم في نظام تآليفهم ونظام تفكيرهم لا يخرجون عما كتبوه ولا يبدلون فيما دونوه. وقد بلغ ببعضهم أن يأخذوا من الماضين ألفاظهم ومعانيهم لا يخرمون منها حرفًا، ولذلك هان التأليف على الضعاف وندر الإيجاد والإجادة. وفي أهل هذه الطبقة من أرباب التواليف تقرأ مئات من الصفحات ولا تخرج منها إلا بزبدة قليلة حتى ليسوء ظنك بالمؤلفين وتعتقد أن منهم من لم يجرؤ على التأليف إلا ليحشر نفسه في زمرتهم فقط.

كان ابن خلدون من النوابع الذين استعملوا عقولهم فيما قرؤوا، ورددوا رأيهم فيما رَوَوْا، وفتح لنفسه باب الاستنباط والاستنتاج فتجلّى بُعد نظره فيما كتب، وأَتى بالجديد الذي لم يؤثر عمن قبله مذ كان الإسلام. وما قَلَّد القدماء في الموضوع الذي أهمه في فلسفة التاريخ والاجتماع بل ابتدعه ابتداعًا على غير مثال.

وكان التاريخ إلى عصر ابن خلدون لا يتعدى نقل الحوادث؛ تنقل بالرواية كما ينتقل الحديث، وغاية إجادة المجيد فيه أن ينقل ما قرأ وشهد وسمع بأمانة ويترك للقارئ حريته يفكر بنفسه فيما انطوت عليه الحوادث من العبر. وقد تقرأ في التاريخ مجلدًا ضخمًا للأوائل ولا تقع فيه على فكر لمؤلفه ولا ترجيحًا لرواية على أخرى، كأن المؤلف يخشى أن يكفر أو يفجر إذا شذَّ

عن طريق من تقدموه. وقد يكتفي بعضُ من يترجمون للرجال إذا حاولوا تصوير أحدهم على ما يعتقدونه الصواب أن يلعنوا كل من لا ترضيهم سيرته وعقيدته ليثبتوا للملأ صحة اعتقادهم وسلامة أَحكامهم. والمذاهب عندهم العامل الأعظم في المدح والقدح يجمجمون لا يصرحون، فيظلمون الحق بما يتعمَّدون من إلقاء الظلام على سيرة من لا يسعهم إلا طرده من حظيرة الناجين، كأن التاريخ بعض كلام الصُّوفية والباطنية له ظاهر وباطن.

ولما سَعِدَ العِلْم العربي بنبوغ ابن خلدون، وطبق في التاريخ، الغابر على الحاضر، واستخرج من مادته المبعثرة عصارةً مفيدة تألف منها علم برأسه، فيه دَخْل كبير للعقل ومجال للتفكير، وجعل منه جسمًا حيًّا وأخرجه بحذاقته من عقمه وجذبه إلى خصب وإمراع، ولم يعد روايات مروية، وعبارات مسرودة مرصوصة، مطولاتها كمختصراتها وغثها كسمينها، وآضَ[1] فنًّا يتفنن المفننون في الأخذ منه والقياس على قواعده وتبدت شخصية المؤلف فيما كتب، وظهرت شجاعته في التصريح بالحقائق الرائعة.

أعظم شرف للعِلْم العربي أَن يكون واضعُ فلسفة التاريخ والاجتماع عربيًّا صرفًا بأصله وتربيته ومَنْشَئه. كان أجداد ابن خلدون في حضرموت من عرب اليمن ينسبون إلى وائل بن حجر من أقيال العرب. وكان وائل بقية أبناء الملوك، دخل على رسول الله ﷺ فأدناه وقرَّب مجلسه وبسط له رداءه وأجلسه عليه مع نفسه وقال: «اللهم بارك في وائل وولده» واستعمله النبي على الأقيال من حضرموت. وقد دخل جد ابن خلدون خالد بن عثمان أو خلدون بن عثمان الأندلس في القرن الثالث، ونزل بقرمونة في رهطٍ من قومه الحضارمة، ثم انتقل إلى إشبيلية في جند اليمن. وتولى أفرادُ أسرته المناصبَ الجليلة في دول الأندلس، ونزلوا في القرن السابع تونس، وفيها ولد

---

(١) آضَ يَئِيضُ أَيْضًا: عاد، وصار [المعجم المدرسي]. (المُراجع)

عبد الرحمن ونشأ وقرأ على علمائها علوم اللسان والشرع، وقرأ الفلسفة والمنطق، ودخل في خدمة الدولة وهو في الحادية والعشرين من عمره، ثم اعتزل الخدمة، ثم دخل في خدمة صاحب تلمسان، ثم استُدعي إلى فاس بطلب علمائها (٧٥٥) فتقلد أمانة سر السلطان، واغتنم هذه الفرصة لإتمام علمه على علماء المغرب الأقصى وفي سنة ٧٥٧ غضب عليه الملك وسجنه مرتين فقضى في الحبس سنتين ثم أعيد إلى منصبه وجُعل قاضيًا للقضاة وعاد فنُكب أيضًا لما هلك الملك، ثم سُمح له بالذهاب إلى ابن ألأحمر صاحب غرناطة وسَفَرَ عنه إلى ملك قشتالة الإسباني فأنجحت سفارته.

وبعد زمن عاد إلى إفريقية (تونس) وتولى منصب الحاجب، وجمع بين الحجابة والخطابة والتدريس في بلده. وكانت له سفارات بين صاحب تلمسان وصاحب تونس لعقد تحالف بينهما. وبعد حين تخلّى عن منصبه في تلمسان بانهزام صاحبها، تولى لمن جاء بعده ما كان يتولاه من المناصب. وفي سنة ٧٧٤ رحل إلى فاس ومنها إلى غرناطة فنفاه صاحبها إلى تلمسان فلقي من أميرها كل تَجِلَّة، وعندئذٍ رأى اعتزال خدمة الملوك وانقطع إلى قلعة ابن سلامة حيث بدأ بتأليف تاريخه الكبير.

وحج في سنة ٧٨٤ وجاء الإسكندرية والقاهرة ودرَّس في الجامع الأزهر وعين قاضي المالكية في مصر، وفي غضون هذه الأيام نُكِبَ ابن خلدون نكبة دونها النكبات وهو أن حرمه وأولاده وأمواله حملت في البحر من الغرب إلى الإسكندرية فغرقت كلها في ميناء هذا الثغر ولم ينج منهم إنسان، وفي سنة ٨٠١ رافق سلطان مصر إلى الشام في الحملة على تيمورلنك واجتمع إلى هذا الفاتح وقدَّم له هدية كانت عبارة عن مصحف وسجادة وعلب حلوى مصرية، وسأله الفاتح أن يكتب له رسالة في جغرافية بلدان المغرب فكتبها. قال ابن خلدون لم اجتمع بتيمورلنك سألني أين بلدك؟ قلت بالمغرب الجواني كانت للملك الأعظم هنالك فقال: وما معنى الجواني في وصف المغرب؟ فقلت

هو في عرف خطابهم معناه الداخلي؛ أي الأبعد لأن المغرب كله على ساحل البحر الشامي من جنوبه، فالأقرب إلى هنا برقة وإفريقية والمغرب الأوسط وتلمسان وبلاد زنانة، والأقصى فاس ومُرّاكش، وهو معنى الجواني. فقال لي: وأين مكان طنجة من ملك المغرب فقلت في الزاوية التي بين البحر المحيط والخليج المسمى بالزقاق ومنها التعدية إلى الأندلس القرب مسافته لأن هناك نحو العشرين ميلًا. فقال: وسلجماسة؟ قلت في الحد ما بين الأرياف والرمال من جهة الجنوب. فقال: لا يقنعني هذا وأحب أن تكتب لي بلاد المغرب كلها أقاصيها وأدانيها وجباله وأنهاره وقراه وأمصاره، فقلت: يحصل ذلك بسعادتك. وكتبت له بعد انصرافي من المجلس ما طلب من ذلك قال: وأوعيت الغرض فيه في مختصر وجيز يكون في قدر اثني عشر من الكراريس المنصفة القطع، قال: ودفعته إليه فأخذه من يدي وأمر موقّعه بترجمته إلى اللسان المغلي... وكان يحاذر أن يأمره تيمور بالشخوص معه إلى سمرقند فنجا منه بلباقة ورجع أدراجه إلى وادي النيل.

وفي «معلمة الإسلام» أن ابن خلدون ربما ظهرت فيه خصائص سياسية لامعة في المناصب الخطيرة التي تولاها، بيد أنه لم يتردد قط في الابتعاد عن رئيس له بالأمس ليدخل من الغد في خدمة آخر، وأن يكون على الملك السالف إلبًا، وكان من مهارته بل من صدقه أن يسير إلى جانب القوي. وقد تدخّل مباشرة في عامة سياسة ممالك شمالي إفريقية والأندلس لعهده، وكان له من جلالة مناصبه ما تمكَّن معه من الحكم على هذه الدول حكم العارف الدَّرَّاكة اهـ.

هذه حياة ابن خلدون السياسية التي أوحت إليه وضع تأليفه، أعانه على ذلك كما قال عن نفسه انقطاعه أربعة أعوام في قلعة أولاد سلامة متخلّيًا عن الشواغل وأكمل المقدمة «على ذلك النحو الغريب» الذي اهتدى إليه في تلك الخلوة «فسالت فيها شآبيب الكلام والمعاني على الفكر حتى امتخضت زبدتها

وتألفت نتائجها» وأملى الكثير من حفظه ثم صَحَّح ونقح وراجع. والمقدمة في طبيعة العمران وما يعرض له قال: إنا استوفينا من مسائله ما حسبناه كفاية، ولعل من يأتي بعدنا ممن يؤيده الله بفكر صحيح وعلم مبين يغوص من مسائله على أكثر مما كتبنا، فليس على مستبنط الفن إحصاء مسائله، وإنما عليه تعيين موضع العلم وتنويع فصوله وما يتكلم فيه، والمتأخرون يلحقون المسائل من بعده شيئًا فشيئًا إلى أن يكمل. وقال: وهذا الفن الذي لاح لنا النظر فيه نجد منه مسائل تجري بالعرض لأهل العلوم في براهين علومهم إلا أنها غير مستوفاة، فإن فاتني شيء في إحصائه واشتبهت بغير مسائله فللناظر المحقق إصلاحه، ولي الفضل لأني نهجت له السبيل، وأوضحت له الطريق اهـ.

فلسف ابن خلدون التاريخ في مقدمته ولم يسبقه إلى ذلك غير أفراد جاءت على أسلات أقلامهم سوانح قليلة لا تكاد تذكر في جنب هذه الإفاضة. وهذه القواعد التي سنها والدساتير التي اخترعها هي مما لم يختل منه مع الأيام إلا ما لا بال له. فقد زَيَّف أقوالَ الوضَّاعين في أحاديث المهدي وردَّها كلَّها من طريق النقل والعقل، وما جَسَر أحدٌ قبله على نقض هذه الخرافة التي قال بها أهل الأهواء، ومن سعوا لاستخدام هذا الاسم لإنشاء دولة جديدة. وأبطل علم الكيمياء وأنكر ثمرتها، وقال باستحالة وجودها وما ينشأ عنها من المفاسد. وقال بفساد صناعة النجوم وتكلم عن الجفر والملاحم فزيف هذين الفنين تزييفًا جيدًا، وتكلم في الدفائن والكنوز وقال إنها لا أصل لها في علم ولا خبر.

جمع ابن خلدون كل ما تفرق في فقه الشريعة وفقه العلوم وما إلى ذلك ونسقها ووحدها، والقدر الذي جرأ على التصريح به من الأفكار في هذا الباب لا يرتضيه كثير من المنظور إليهم في عصره. وحاول أن يبطل الفلسفة ويبين فساد منتحليها، ومع هذا قال إن هذا العلم يشحذ الذهن في ترتيب الأدلة والحجاج لتحصل ملكة الجودة والصواب في البراهين، فيستولي الناظر

فيها على ملكة الإتقان والصواب في الحِجاج، ورأى ألا يكبَّ أحد على الفلسفة إذا كان خلوًا من علوم الملة، وقال: إن الفلسفة ببلاد الإفرنجة من أهل رومية وما إليها من العدوة الشمالية نافقة الأسواق لعهده، وأن رسومها هناك متجددة ومجالس تعليمها متعددة.

ودعا إلى تعلم الهندسة والعلوم العددية (الحساب والجبر والمقابلة) وعلم الهيئة وعلم المنطق والطب والفلاحة. وجمجم في كلامه على علوم الطِّلسمات وقال: إن الشريعة جعلت السحر والطِّلمسات والشعوذة بابًا واحدًا لما فيها من الضرر وخصَّتْه بالحظر والتحريم، وذكر الإصابة بالعين وما نفاها، ونقل كلام غيره القائل إن القاتل بالسحر يُقْتَل والقاتل بالعين لا يُقْتَل، لأن هذا ليس مما يريده ويقصده. وأطال في بيان أسرار الحرف ونقل عمن لقيهم حقيقة الزايرجة.

ومن أحكامه ما لم تنقضه الأيام مثل قوله «إن المغلوب مولع أبدًا بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته»، و«أن خُلُق التجار نازل عن خُلُق الأشراف وبعيد عن المروءة» و«أن العلماء بين البشر أبعد عن السياسة ومذاهبها». ومن أحكامه ما انتقض مثل العصبية في الدولة لا تدوم إلا أربعة بطون أي مئة وعشرون سنة كما لا تدوم الثروة إلا هذا القدر من السنين. ومنها غلوه في الإنحاء على العرب من أنهم إذا نزلوا بلدًا أسرع إليه الخراب وأنهم أبعد الناس عن سياسة الملك وعن الصنائع، والغالب أنه كان يقصد الأعراب سكان البوادي فهؤلاء لم يكن لهم استعداد أهل المدن والقرى، لذلك نزلت الشريعة في أهل المدن وهم الذين قبلوا الدعوة أولًا ونشروها، ودعواه أن العرب أبعد الناس عن الصنائع ينقضها ما كان للأندلسيين من الصناعات العظيمة التي أدهشت الغربيين لعهدهم، وما هي إلا من صنع أيدي العرب وقرائح علمائهم ومهندسيهم. ودعواه أن حملة العلم في الإسلام أكثرهم من العجم غير صحيحة، ذلك لأن من كان بعضهم يعدونهم من

المؤلفين أعاجم على الأغلب كانت أصول أكثرهم عربية وهم نشؤوا في ديار الفرس، ثم إن الشعوب غير العربية التي تشرفت بالإسلام أكثر عددًا وأوسع ممالك من سكان جزيرة العرب الذين قاموا بكبر هذه الدعوة في السياسة والجندية والإدارة، فشُغِل العرب بالأمر المهمّ وتركوا الصنائع وما شابهها لأهل البلاد، ومع هنا كان من مدنية العرب في جزيرتي صقلية والأندلس ما هو مفخرة الأزمان.

وأخطأ في قوله أنه يُشترط في الحاكم قلة الإفراط في الذكاء ومأخذه من قصة زياد بن أبي سفيان لما عزله عمر بن الخطاب عن العراق وقوله: لم عزلتني يا أمير المؤمنين ألعجز أم لخيانة؟ فقال عمر: لم أعزلك لواحدة منهما ولكني كرهت أن أحمل فضل عقلك على الناس. فأخذ من هذا أن الحاكم لا يكون مفرط الذكاء والكيس مثل زياد بن أبي سفيان وعمرو بن العاص لما يتبع ذلك من التعسف وسوء الملكة وحمل الوجود على ما ليس من طبعه، قال وتقرر من هذا أن الكيس والذكاء عيب في صاحب السياسة لأنه إفراط في الفكر، كما أن البلادة إفراط في الجمود، والطرفان مذمومان الخ. وهذا استنتاج في غير محله، ذلك لأن الدول في أشد الحاجة إلى الأذكياء في جميع فروع أعمالها، ولولا ذكاء مشهود في رجال بني أمية ما قاموا بما قاموا به من الفتوح التي زيَّنوها بمدنيةٍ كانت أرقى ما عُرف من نوعها إلى أيامهم. وقوله إن للدول أعمارًا طبيعية وإن الهرم إذا نزل في الدولة لا يرتفع، قد جاءت الأيام بخلافه؛ فإن من دول أوربا ما هو قائم منذ قرون وكلامه هذا أخذه من مشاهداته في دول إفريقية وما إليها.

خرج ابن خلدون على المألوف وما أحب مع هذا أن يجاري عوام المؤلفين في بعض أحكامهم على ساسة الأمة قديمًا، ولذلك قال فيه أحد المعاصرين إنه المدافع عن الدول والمحامي عن الأفراد، فهو رجل دولة يمعن النظر كثيرًا في التقارير التي تعرض عليه فيستخرج منها ما لا يُحْسِن

استخراجه كل أحد، وقد يعلو في اجتهاده إلى درجة السمو ويكبو أحيانًا. من ذلك أنه هفا هفوة فظيعة لما جارى فيها عامة عصره على خرافاته فأثبت الكشف ومعرفة الغيب بما يُستعظَم صدوره من مثل عقله فقال: وهذا الكشف كثيرًا ما يعرض لأهل المجاهدة فيدركون من حقائق الوجود ما لا يدركه سواهم، وكذلك يدركون كثيرًا من ا لواقعات قبل وقوعها ويتصرفون بهممهم وقوى نفوسهم في الموجودات السفلية وتصير طوع إرادتهم! قال: وإن الكلام في كرامات القوم وإخبارهم بالمغيبات وتصرفهم في الكائنات أمر صحيح غير منكر، وإن مال بعض العلماء إلى إنكارها فليس ذلك من الحق! وغريب قوله: وقد يوجد لبعض المتصوفة وأصحاب الكرامات تأثير في أحوال العالم ليس معدودًا من جنس السحر، وإنما هو بالإمداد الإلهي لأن طريقتهم ونحلتهم من آثار النبوة وتوابعها ولهم في المدد الإلهي حظٌّ على قدر حالهم وإيمانهم.

وبهذا التخريف أثبت أنه من المحافظين مغالٍ في صوفيته مأخوذٌ لمغربيته صانَعَ من اعتقدوا هذا، وكان يسعه لو لم يعتقد في هذه الخرافات أن يطرح بهذا المبحث عُرْض الحائط ولا يضير المقدمة في شيءٍ بل ينقيها من العوسج والبلان. وهذه الهنات في المقدمة كانت بمثابة عوذة لها من العين، وبذلك يثبت عجز البشر وتغير أفكارهم بتغيير القرون والأجيال.

ومما يشير إلى أَنه من المحافظين أيضًا دفاعه عن عثمان وخصومه وعن علي وأولاده وعن يزيد وأبيه وعن الحسين وجماعته وكلهم في نظره مجتهدون وكلهم يريد خدمة الإسلام فقال: وإياك أن تعوِّد نفسك أو لسانك التعرض لأحد منهم، ولا تشوش قلبك بالريب في شيءٍ مما وقع منهم، والتمسْ لهم مذاهب الحق وطرقه ما استطعت، فهم أولى الناس بذلك، وبهذا الكلام نزع ابن خلدون ثوب المؤرخ النقَّاد ولبس ثوب الواعظ القصاص، أو هو يريد أن يتأدب أدب السياسي المهذب مع الجماعة لا يقول لصاحب الأمر ما يزعجه،

فيرضى بالحالة الحاضرة على علاتها، ويحاول أن يكمَّ أفواه الرعية لأنها إذا قالت فعلت، وما حسب حسابًا للأهواء البشرية والمطامع الدنيوية فكلهم ما أخطؤوا في نظره، وكأنه يزعم أنهم لا دخل لإرادتهم التي خلقها الله لهم فيما قضوا وأمضوا، وأغرب من كل هذا قوله: وأعتقد مع ذلك أن اختلافهم رحمة لمن بعدهم من الأئمة ليقتدي كل واحد بمن يختار! وقد قيل: أي عالم لا يهفو، وأي صارم لا ينبو، وأي جواد لا يكبو.

مقدمة ابن خلدون هي درة تاج أعمال صاحبها، كتب رسائل وكتبًا قبلها كانت من نمط تآليف معاصريه: شَرْحُ مبهمٍ، وبَسْطُ موجزٍ، ونَقْلُ ما يحسن، وتاريخه الكبير ليس فيه من جديد إلا القسم المتعلق بالعرب والبربر، وأكثرُه منقول عن الطبري وابن الأثير. أما المقدمة فهي الكتاب الذي أحدث ثورة في أفكار العرب وعُدَّ من أمهات كتب العالم، ولا نعلم كتابًا علميًا ولا دينيًا حاز شهرة المقدمة حاشا الكتب الستة.

إن اختلاط ابن خلدون بملوك عصره واطلاعه على أسرارهم وسياساتهم وما عاناه من أمرهم ومن ظلمهم عرف بهما يستتر في العادة عمن لا يلابسهم ولم يعلم لهم، وتقلده الوظائف السياسية والإدارية والقضائية، ومعرفته رجال أكثر الأقطار ورجال كل أفق حتى مصر والشام، واطلاعه على نفسية الملوك والعظماء ـ ومنهم تيمورلنك المخرب العظيم ـ كل ذلك مما تفرد به ولم يتيسر لغيره، أضف إلى هذا ذاك الذكاء البراق والأحكام الصحيحة التي خُصَّ بها دون سائر معاصريه، حتى لقد ترجم له صِنْوُه وصديقه لسان الدين بن الخطيب بأنه متقدم في فنون عقلية ونقلية وفخر من مفاخر الغرب. قال هذا وابن خلدون في حد الكهولة فماذا كان يقول فيه بعد أن نضج في كل شيءٍ، لا جرم أنه يقول: إنه مفخرة الغرب والشرق والإسلام والعرب.

ولنا أن ندَّعيَ بعد كل هذا أن ابن خلدون كان في تاريخه الكبير محافظًا

كسائر من تقدمه وفي المقدمة حرًّا؛ لأنه صاغها من علم واسع تخمَّر في قلبه وتقلَّب في صدره ثم أبرزها في خمسة أشهر في هذه الحلة العجيبة.

ويقضي الإنصاف بأن نُسْلِك ابن خلدون في سلك المجدِّدين والمصلحين، ولما فوِّض إليه منصب الكتابة في الدولة وهو في أول العقد الثالث من عمره صدرت الكتب عن ديوانه خالية من السجع، فاستغرب أهل الدولة هذا واتبعوه في طريقته، وكانت الدول الإسلامية لا يَصْدُر عنها في تلك العصور إلا المسجع والمزدوج. وعلى هذه الطريقة سار في مقدمته فأبدع وأفاد، ولو خلت من الأسجاع المتكلفة في فاتحتها لجاءت كلها كالعقد الثمين خرج من يد صائغ ماهر. وكان ابن خلدون ينظم الشعر، وشعره منحط عن نثره بكثير. قال إنه تخدَّشت ملكته فيه بما حفظ من المتون المنظومة بالشعر في الفقه والقراءات وغيرها. وكان يحفظ القرآن وشيئًا من كلام العرب وشعرائهم لكنه لم يكثر من الحفظ لأنه يقول إن الحفظ عائق عن التفكير فاختار هو طريقًا وسطًا. اسم ابن خلدون يخلد بمقدمته ففيها كل إبداعه.



# الفهارس

## ١ ـ فهرس الكتب

(أ)

(ر)



(ز)

(س)



(ش)

(م)

## ٢ ـ الأعلام

### أ

د



ذ

## ش



## ص

## ض



## ط



## ع

## غ



## ف



## ق

م

## هـ



## و



## ي



## ٣ ـ البلدان والأماكن والمواقع والمحال والجبال والأودية والأنهار

(أ)

(ب)

(ج)



(ح)

(س)



(ش)

(ص)

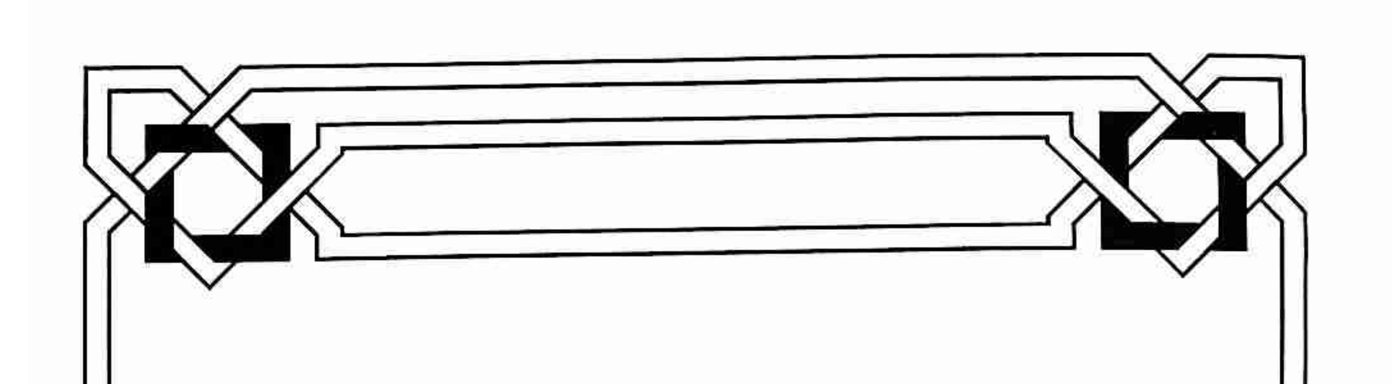


(ض)



(ط)

تمت بحمد الله



# شكر

أشكر لصديقي الأستاذ صلاح الدين المنجد عنايته بتصحيح التجارب الأولى من كتاب «كنوز الأجداد» ووضع فهارسه الثلاثة: الكتب، والأعلام، والبلدان.

